كين ليو

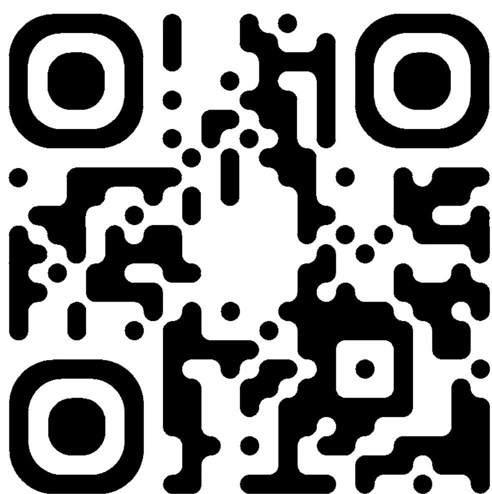
THE PAPER MENAGERIE
AND OTHER STORIES



حديقة الحيوانات الورقية
وقصص أخرى



ترجمة: سلمى المحمدي



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

حديقة الحيوانات الورقية
وقصص أخرى



للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان الأصلي:
The Paper Menagerie and Other Stories

● العنوان العربي: حديقة الحيوانات الورقية وقصص أخرى

● حقوق النشر:
Copyright © 2016 by Ken Liu

● الطبعة الأولى: يناير/ 2025م

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

● تأليف: كين ليو

● ترجمة: سلمى المحمدي

● تحرير: مصطفى رزق

● تدقيق لغوي: د. سعيد عثمان غانم

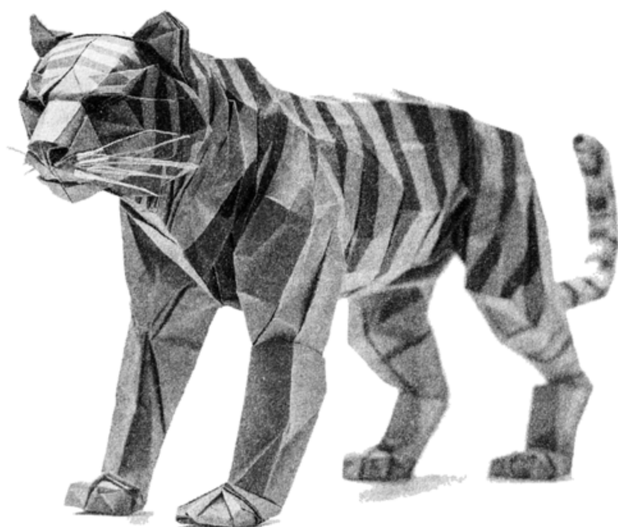
● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● رقم الإيداع: 34365/2024م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-514-1

كين ليو

THE PAPER MENAGERIE AND OTHER STORIES



حديقة الحيوانات الورقية وقصص أخرى

ترجمة: سلمى المحمدي



المحتويات

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدمة

بدأت مسيرتي المهنية بكتابة القصص القصيرة. ورغم أنني لم أعد أكتب عشرات القصص القصيرة كل عام بعد أن ركزت معظم جهودي الإبداعية على الروايات الطويلة، فما زالت القصص القصيرة تحتل مكانة مميزة في قلبي.

لذا أرى هذه المجموعة كرحلة إلى الماضي عبر أعمالي السابقة. فهي تضم بعضًا من أكثر أعمالي شهرة (كما قيَّمتها الترشيحات والجوائز) إضافة إلى أعمال أخرى أفخر بها، لكنها لم تحظَ بكثير من الصيت. أعتقد أنها تمثل عينة جيدة وواقعية من اهتماماتي وشغفي وأهدافي الإبداعية.

لا أولِّي اهتمامًا كبيرًا للفرق بين الفانتازيا والخيال العلمي، أو بين تصنيفات «النوع الأدبي» و«السائد»؛ بالنسبة لي، الأدب كله يدور حول تفضيل منطق المجاز -وهو منطق القصص والروايات بشكل عام- عن الواقع، الذي هو في جوهره عشوائي وعبثي.

نقضي حياتنا بأكملها ونحن نحاول سرد القصص عن أنفسنا، فهي من صميم ذكرياتنا. إنها الطريقة التي تمكننا من تحمل العيش في هذا الكون البارد والعشوائي. وحقيقة أننا نطلق على هذه الميول «مغالطة سردية» لا يعني أنها لا تمس بعض جوانب الحقيقة.

بعض القصص ببساطة تحيل المجاز إلى وضوح وحرفية.

أنا أيضًا مترجم، وأرى أن الترجمة تقدم مجازًا طبيعيًّا لطريقة تفكيري في الكتابة بشكل عام.

كل فعل من أفعال التواصل هو معجزة من معجزات الترجمة.

في هذه اللحظة، وفي هذا المكان، تتوالى النبضات الكهربائية في خلاياي العصبية فتتحول إلى مجموعة من الترتيبات المعينة والأنماط والأفكار، التي

تتدفق عبر عمودي الفقري وتتفرع إلى ذراعي وأصابعي، حتى تبدأ عضلاتي في الارتعاش وتُترجم أفكاري إلى حركات، فتنبه الروافع في جسدي، ثم يعاد ترتيب الإلكترونات، وفي النهاية تُكتب الحروف على الورق.

في وقت آخر، وفي مكان آخر، يصطدم الضوء بالحروف المكتوبة، فينعكس في زوج من الأدوات البصرية عالية الدقة التي نحتتها الطبيعة بعد مليارات السنين من الطفرات العشوائية. فتتشكل صور مقلوبة أمام شاشتين مكونتين من ملايين الخلايا الحساسة للضوء، والتي تترجم الضوء إلى نبضات كهربائية تنتقل عبر الأعصاب البصرية، وتعبر التصالب البصري، وتنزل إلى السبل البصرية، ثم إلى القشرة البصرية، وهناك يُعاد تجميع النبضات في حروف، وعلامات ترقيم، وكلمات، وجمل، وصور، ومعانٍ، وأفكار.

يبدو هذا النظام بأكمله هشًّا وسخيفًا، وكأنه من وحي الخيال العلمي.

من يمكنه أن يجزم أن الأفكار التي تدور في ذهنك وأنت تقرأ هذه الكلمات هي الأفكار نفسها التي كانت في ذهني وأنا أكتبها؟

نحن مختلفون، أنت وأنا مختلفان، والتجارب التي يمر بها وعينا متباعدة بقدر تباعد نجمين يقع كل منهما في طرف من أطراف الكون.

ومع ذلك، مهما كان ما ضاع في الترجمة خلال الرحلة الطويلة لأفكاري عبر متاهة الحضارة وصولًا إلى ذهنك، أعتقد أنك تفهمني، وأنت تعتقد أنك تفهمني.

لقد تمكنت عقولنا من التواصل، ولو لوهلة قصيرة وغير كاملة.

ألا تجعل هذه الفكرة الكون يبدو أكثر لطفًا، وأكثر إشراقًا، وأكثر دفئًا وإنسانية؟

نحن نعيش من أجل مثل هذه المعجزات.

سأمتن دائمًا للعديد ممن قرؤوا المسودات، وزملائي الكتاب والمحررين الذين ساعدوني على طول الطريق. كل قصة هنا تمثل -إلى حد ما- مجموع كل تجاربي، وكل الكتب التي قرأتها، وكل المحادثات التي أجريتها، وكل النجاحات والإخفاقات، والأفراح والأحزان، والدهشة واليأس التي تشاركتها مع كل من حولي. ففي النهاية، نحن مجرد عقد في شبكة إله السماوات إندرا.

أود أيضًا أن أشكر جميع العاملين في دار نشر ساجا بريس، على مساعدتهم في تجميع القصص داخل هذا الكتاب الجميل. من بينهم جياني

إن. جي، التي اكتشفت جميع الأخطاء في النسخة الأصلية. ومايكل مكارتني، الذي صمم غلاف الكتاب الرائع. ومينجمي ييب، التي لبت طلباتي غير التقليدية لنوع الخط المستخدم. وإيلينا ستوكس وكاتي هيرشبرجر، على الحملة الدعائية التي عكست مدى اهتمامهما وعنايتهما. أنا ممتن بشكل خاص لجوي مونتي، محرري في ساجا بريس، لدعمه وتهيئته لهذا الكتاب بحكمته البارعة (ولإنقاذه لي من نفسي)، ولروس جالن وكيلي الأدبي، لرؤيته الإمكانات في هذه القصص. وأخيرًا، لليزا، وإستير، وميراندا، على الطرق العديدة التي يجعلن بها قصة حياتي كاملة وذات معنى.

وأخيرًا، شكرًا لك أيها القارئ العزيز. إن إمكانية تواصل عقولنا هي ما يجعل الكتابة جهدًا يستحق العناء.

عادات الكتابة لدى أجناس مختارة

لا يوجد تعداد نهائي لجميع الأجناس الذكية في الكون؛ ليس فقط لوجود جدال دائم عما يُرى ذكاءً، ولكن أيضًا لأن في كل لحظة وفي كل مكان تظهر الحضارات وتزول، تمامًا كما تولد وتفنى النجوم.

الوقت يلتهم كل شيء.

ومع ذلك، لكل جنس طريقته الفريدة في نقل حكمته عبر العصور، طريقته في جعل الأفكار مرئية وملموسة، وجامدة للحظة كحصن ضد تيار الزمن الذي لا يُقاوم.

الجميع يؤلفون الكتب.

يقول البعض إن الكتابة ليست سوى حديث مرئي. لكننا نعلم أن هذه الآراء ضيقة الأفق.

لشعب الموسيقى، الآلاتيون، طريقة كتابة فريدة، فهم يكتبون الكتب عن طريق خدش سطح لين، كلوح معدني مغطى بطبقة رقيقة من الشمع أو الطين الصلب، باستخدام أنوفهم الخرطومية الرفيعة والصلبة. (أما الآلاتيون الأثرياء فيرتدون أحيانًا قلم ريشة مصنوعًا من المعادن الثمينة على أطراف أنوفهم). فيقول الكاتب أفكاره بصوت عالٍ أثناء الكتابة، مما يتسبب في اهتزاز أنفه الخرطومي الطويل لأعلى وأسفل وهو ينقش ما يقوله على السطح.

ولقراءة كتاب مكتوب بهذه الطريقة، يضع الآلاتي أنفه الخرطومي في النقوش المحفورة ويمرره عليها. فيتناغم الاهتزاز الرقيق لأنفه مع موجات النقوش، وثمة غرفة مجوفة في جمجمة الآلاتي تكبر الصوت. وبهذه الطريقة، يعاد خلق صوت الكاتب.

يعتقد الآلاتيون أن أسلوب كتابتهم يتفوق على جميع الأساليب الأخرى. فعلى العكس من الكتب المكتوبة بالحروف الأبجدية أو المقطعية أو الرمزية، فإن الكُتَّاب الآلاتيون لا يلتقطون الكلمات فحسب، بل أيضًا نبرة الكاتب، وصوته نفسه، وانعطافاته الصوتية، وتوكيداته، وتنوع طبقات صوته، وإيقاعه في الكلام. إنه نص وتسجيل في الوقت ذاته. فالخطابة تبدو كخطابة، والحزن يظهر كحزن، والقصة تعيد بدقة حماسة راويها وأنفاسه اللاهثة. بالنسبة للآلاتيين، القراءة تعني سماع صوت الماضي فعليًّا.

لكن هناك ثمن لجمالية الكتاب الآلاتي. فنظرًا لأن عملية القراءة تتطلب تلامسًا جسديًّا مع السطح اللين والقابل للتشكيل، فإن كل مرة يُقرأ فيها نص، يتعرض للتلف وتُفقد بعض جوانبه الأصلية بشكل لا يمكن استعادته. بيد أن النسخ المصنوعة من مواد أكثر متانة تفشل حتمًا في التقاط كل تفاصيل صوت الكاتب، وبالتالي يتم تجنبها.

ولكي يحفظ الآلاتيون تراثهم الأدبي، يضطرون إلى حفظ النسخ الأصلية للكتب الأكثر قيمة في مكتبات مغلقة بصرامة ولا يُسمح بدخولها إلا لقلة من الأشخاص. ومن المفارقات العجيبة أن الأعمال الأكثر أهمية وجمالًا لكتاب الآلاتيين نادرًا ما تُقرأ مباشرة، بل تُعرف فقط من خلال التفسيرات التي يقدمها النُسّاخ، الذين يحاولون إعادة إنشاء النصوص الأصلية في كتب جديدة، بعد أن يستمعوا إلى النصوص الأصلية وهي تُقرأ في مراسم مميزة.

وبالنسبة لأكثر الأعمال تأثيرًا، توجد المئات أو الآلاف من التفسيرات المتداولة، والتي بدورها تُفسَّر وتنتشر من خلال نسخ جديدة. يقضي الباحثون الآلاتيون جزءًا كبيرًا من وقتهم في مناقشة مصداقية الإصدارات المتنافسة وبناءً على كثرة النسخ غير الكاملة، يستنتجون الصوت المتخيل لأسلافهم، أي الكتاب المثالي الذي لم يفسده القرَّاء.

بالنسبة لشعب الكواتزولي، هم لا يعتقدون أن التفكير والكتابة أمران مختلفان على الإطلاق. إنهم عرق من أعراق الكائنات الميكانيكية. ولا يُعرف بالضبط إذا كانت نشأتهم بدأت كإبداعات ميكانيكية من أجناس أخرى (أقدم) منهم، أم أنهم مجرد أصداف تستضيف أرواحًا من عرق انتمى للكائنات الحية في الماضي، أم إذا كانوا تطوروا بأنفسهم من مادة غير حية.

جسم الكواتزولي مصنوع من النحاس وهو على شكل ساعة رملية. ويتعرض كوكبهم، الذي يتبع مدارًا معقدًا بين ثلاثة نجوم، لقوى مد وجزر

هائلة تؤدي إلى اضطراب نواته المعدنية وذوبانها، مما يشع الحرارة إلى السطح على شكل ينابيع مياه ساخنة وبحيرات من الحمم البركانية. يبتلع الكواتزولي الماء ليستقر في الجزء السفلي من جسمه عدة مرات في اليوم؛ يغلي الماء ببطء ويتحول إلى بخار، بينما يغمس الكواتزولي نفسه بشكل دوري في بحيرات الحمم البركانية الفوارة. ويمر البخار عبر صمام منظم - وهو الجزء الضيق من الساعة الرملية - إلى الجزء العلوي، ويشغل التروس والمفاتيح المختلفة التي تحرك هذا المخلوق الميكانيكي.

في نهاية دورة العمل، يبرد البخار ويتكثف على السطح الداخلي للجزء العلوي، ثم تتدفق قطرات الماء على طول الحفر المجوفة في النحاس حتى تتجمع في تيار ثابت، وبعد ذلك يمر هذا التيار عبر حجر مساميّ مليء بالثقوب وغني بالمعادن الكربونية قبل أن يتم التخلص منه خارج الجسم.

هذا الحجر هو مقر عقل الكواتزولي، ويحتوي هذا العضو الحجري على آلاف، بل ملايين القنوات المتشابكة، والتي تشكل متاهة تقسِّم الماء إلى تدفقات صغيرة لا حصر لها تسير بشكل متوازٍ، وتتقاطر وتلتف حول بعضها لتمثل قيمًا ومبادئ بسيطة، والتي تتجمع معًا لتشكل تيارات من الوعي، وتظهر على هيئة أنهار من الأفكار.

مع مرور الوقت، يتغير نمط تدفق المياه عبر الحجر. وتُبلى القنوات القديمة وتختفي أو تُسدّ وتُغلق، وهكذا تُنسى بعض الذكريات. ثم تنشأ قنوات جديدة تربط بين التدفقات التي كانت منفصلة سابقًا - وهي بمثابة لحظة استبصار- وتترسب المياه المغادرة لتترك نموًا معدنيًّا جديدًا في الطرف الأبعد والأحدث من الحجر، وتكون هذه الرواسب الكلسية المنمنمة الهشة الجديدة، هي الأفكار الأحدث والأكثر تقدمًا.

عندما يخلق أحد والدي الكواتزولي طفلًا في المرجل، فإن آخر خطوة يفعلها هي منح الطفل قطعة من عقله الحجري الخاص، وهي مجموعة من الحكمة المتلقاة والأفكار الجاهزة التي تتيح للطفل بدء حياته. ومع تراكم التجارب، ينمو دماغ الطفل الحجري حول تلك البذرة الحجرية، ليستحيل أكثر تعقيدًا وتفصيلًا، حتى يتمكن، بدوره، من تقسيم عقله من أجل أطفاله.

وهكذا، فإن شعب الكواتزولي هم أنفسهم كتب. فيحمل كل منهم داخل دماغه الحجري سجلًا يتضمن حكمة أجداده المجمعة: أفكارهم الأكثر بقاءً

التي صمدت لآلاف السنين ضد التآكل. وكل عقل ينمو من بذور موروثة عبر الأجيال، وكل فكرة تترك علامة يمكن قراءتها ورؤيتها.

وكان بعض الأجناس الأكثر عنفًا في الكون، مثل شعب الهيسبيرو، يستمتعون سابقًا باستخراج العقول الحجرية لشعب الكواتزولي وجمعها. وصارت هذه الأحجار - التي تُعرض غالبًا في متاحفهم ومكتباتهم وتُدعى ببساطة «كتب قديمة» - لا تعني الكثير لمعظم الزوار في الوقت الحالي.

ولأنهم كانوا قادرين على فصل الفكر عن الكتابة، تمكنت الأجناس الغازية من ترك سجل خالٍ من العيوب والأفكار التي كانت ستسري القشعريرة في ظهور أحفادهم.

لكن العقول الحجرية ما زالت في خزائنها الزجاجية، تنتظر مرور الماء عبر قنواتها الجافة لتُقرأ مرة أخرى وتبعث إلى الحياة.

كان الهيسبيرويون يكتبون في السابق باستخدام سلسلة من الرموز التي تمثل الأصوات في لغتهم، ولكنهم الآن توقفوا عن الكتابة تمامًا.

لطالما كانت علاقتهم بالكتابة معقدة. فقد كان فلاسفتهم الكبار يشكون في الكتابة نفسها. واعتقدوا أن الكتاب ليس عقلًا حيًّا ولكنه يتظاهر بأنه كذلك. فكان يقدم مواعظ وآراءً قاطعة، ويُصدر أحكامًا أخلاقية، ويصف الحقائق التاريخية المفترضة، أو يروي قصصًا مثيرة ... ومع ذلك، لم يكن يمكن استجوابه مثل الشخص الحقيقي، ولم يكن يستطيع الرد على منتقديه أو تبرير رواياته.

كان الهيسبيرويون يكتبون أفكارهم على مضض، فقط عندما لم يستطيعوا الاعتماد على تقلبات الذاكرة. فقد كانوا يفضلون بشدة العيش مع الكلمات العابرة والخطب الزائلة والمناظرات الفانية.

لفترة كبيرة من الوقت، كان الهيسبيرويون شعبًا شديد البأس والقسوة. فبقدر ما كانوا يستمتعون بالمناظرات، كانوا يحبون أكثر أمجاد الحرب. وقد برر فلاسفتهم غزواتهم ومذابحهم باسم التقدم: الحرب كانت الطريقة الوحيدة لإحياء مبادئهم المدرجة في كتابهم المقدس الذي يتوارث عبر الأجيال، ليضمنوا بقاء أحفادهم حقيقيين، وليصقلوهم من أجل المستقبل. لذا، كانت الأفكار لا تستحق الحفظ إلا إذا أدت إلى النصر.

عندما اكتشف الهيسبيرويون أخيرًا سر تخزين العقل ورسم خرائطه، توقفوا عن الكتابة تمامًا.

وفي اللحظات التي سبقت وفاة الملوك العظماء، والجنرالات، والفلاسفة، كانوا يحصدون عقولهم من أجسادهم التي على وشك الموت. فتُلتقط مسارات كل أيون مشحون، وكل إلكترون عابر، وكل كوارك غريب وساحر، وتُصب في قوالب بلورية. وتُجمّد هذه العقول إلى الأبد في تلك اللحظة التي تنفصل فيها عن أصحابها.

في هذه المرحلة، تبدأ عملية رسم الخرائط العقلية. فبعناية واهتمام، يتتبع فريق من أمهر رسامي الخرائط الماهرين - بمساعدة العديد من متدربيهم - كلًّا من تيارات الأفكار الدقيقة، والانطباعات، والحدوس التي تمتزج في تدفقات وانحسارات الأفكار، حتى تجتمع في قوى الفكر العقلية، وتشكل الأفكار التي جعلت مبتكريها عظماء.

وبمجرد الانتهاء من رسم الخرائط، يبدؤون في حساب توقعات المسارات المستقبلية لطرق التفكير التي تم تتبعها، وذلك للتنبؤ بالفكرة التالية. إن رسم مسارات العقول العظيمة المجمدة، لإرشادهم إلى المستقبل الواسع والمظلم والمجهول يستهلك جهود أعظم العلماء الهيسبيريين. فهم يكرسون أفضل سنوات عمرهم من أجل هذا العمل، وعندما يموتون، تُرسم خرائط عقولهم أيضًا لتوجه أحفادهم نحو المستقبل إلى الأبد.

بهذه الطريقة، لا تموت عقول العظماء في شعب الهيسبيرو. ولكي يتحدثوا معهم، كل ما يحتاج إليه الهيسبيريون هو البحث عن الإجابات في خرائط العقول. وبالتالي، لم يعد لديهم حاجة إلى الكتب بالطريقة التي كانوا يفعلونها في الماضي - والتي كانت مجرد رموز ميتة - لأن حكمة الماضي ما زالت برفقتهم، تفكر لهم، وتوجههم، وتستكشف من أجلهم كل شيء باستمرار.

ومع تخصيص المزيد من وقتهم ومواردهم لمحاكاة العقول القديمة، قلّ ميل شعب الهيسبيرو للحروب، مما كان مصدر راحة لجيرانهم من الشعوب. لربما صحيح أن بعض الكتب لها تأثير متمدن على المخلوقات.

التولتوكيون يقرؤون كتبًا لم يكتبوها.

إنهم مخلوقات من الطاقة. هم أنماط أثيرية متغيرة خلقت من الحقول الكهربائية المتقلبة، يتوزع التولتوكيون بين النجوم مثل أوشحة من الأشباح. وعندما تمر سفن الفضاء التابعة للأجناس الأخرى، فبالكاد تشعر تلك السفن بقوى جذبهم الخفيفة.

يدعي التولتوكيون أن كل شيء في الكون تمكن قراءته.

كل نجم يمثل نصًا حيًّا؛ تروي الأحمال الحرارية الهائلة والناتجة عن الغازات المحترقة دراما ملحمية، وتعمل البقع النجمية كعلامات ترقيم، بينما تشكل الحلقات الإكليلية مجازات مطوّلة، أما الاندلاعات النجمية فهي مقاطع من كلمات توكيدية تردد صداها في صمت الفضاء البارد العميق. وكل كوكب يحمل قصيدة، مكتوبة بالإيقاع البائس الخشن والمتقطع لقلوب الصخور العارية، أو بالأبيات الشعرية - ذات القوافي الذكورية والأنثوية معًا - الوافرة والتي تحمل آثار عمالقة الغاز. أما الكواكب التي تحتوي على حياة، فهي أشبه بآلية معقدة لساعة مرصعة بالجواهر، وتحتوي على أجهزة عديدة تولد الأساليب الأدبية التي يتردد صداها بلا نهاية.

في منطقة أفق الحدث حول الثقب الأسود يزعم التولتوكيون أن بها أعظم الكتب التي يمكن العثور عليها. عندما تشعر مخلوقة التولتوك بالإرهاق من تصفح مكتبة الكون اللامتناهية، تنجرف نحو الثقب الأسود. وبينما تسرع نحو نقطة اللاعودة، تكشف الأشعة السينية وأشعة جاما المتدفقة المزيد والمزيد من لغز الأكوان الأعظم والذي يجعل الكتب الأخرى جميعها مجرد توضيحات له. وحين يزداد الكتاب الأعظم، تعقيدًا وتفصيلًا، وعندما تكون على وشك أن تُثقل بعظمة الكتاب الذي تقرؤه، يدرك رفاقها المندهشون، الذين يراقبونها من على بُعد، أن الوقت قد تباطأ ليتوقف من أجلها، وأن الأبدية بأكملها أمامها لتستمتع بقراءته وهي تسقط إلى الأبد نحو مركز لن تصل إليه أبدًا.

وأخيرًا، انتصر الكتاب على الزمن.

بطبيعة الحال، لم يعد أي تولتوكي من مثل هذه الرحلات، ويرى العديد من الكائنات أن مناقشاتهم عن قراءة الثقوب السوداء محض خرافة. وفي الواقع، يعتقد الكثيرون أن التولتوكيين مجرد محتالين أميين يعتمدون على الروحانيات لإخفاء جهلهم. ومع ذلك، يسعى البعض للبحث عن التولتوكيين ليفسروا لهم كتب الطبيعة التي يدّعون رؤيتها من حولنا. وقد أدى ذلك إلى

ظهور تفسيرات متضاربة ونقاشات مستمرة بشأن محتوى الكتب -وخصوصًا - عن مؤلفها.

على العكس من التولتوكيين، الذين يقرؤون الكتب على نطاق أوسع، فإن الكاروئيين هم قراء وكتّاب التفاصيل الدقيقة.

هم مخلوقات صغيرة الحجم، فلا يتجاوز حجم كل كاروئي النقطة التي في نهاية هذه الجملة. وفي رحلاتهم، يسعون فقط للحصول على الكتب التي فقدت كل معنى ولم يعد بإمكان أحفاد المؤلفين قراءتها.

بالنظر إلى حجمهم غير الملحوظ، هناك القليل من الأجناس يرون أن الكاروئيين يشكلون تهديدًا لهم، وبالتالي يمكنهم الحصول على ما يريدون بسهولة دون مواجهة الكثير من المشكلات.

على سبيل المثال، تلبيةً لطلب الكاروئيين، قدم لهم شعب الأرض حواسيب لوحية وجِرارًا منقوشة بالكتابة الخطية أ، إلى جانب مجموعات من الخيوط المعقودة المعروفة بالكويبو، فضلًا عن مجموعة متنوعة من الأقراص والمكعبات المغناطيسية القديمة التي فقدوا القدرة على فك رموزها.

بعد أن توقف الهيسبيريون عن حروبهم التوسعية، قدموا للكاروئيين بعض الحجارة القديمة التي كانوا يظنون أنها كتب مسروقة من شعب الكواتزولي. وحتى شعب الأنطو المنعزلين، الذين يستخدمون العطور والنكهات للكتابة، سمحوا لهم بالحصول على بعض الكتب القديمة الباهتة التي كانت رائحتها خفيفة للغاية ولا تمكن قراءتها.

لم يبذل الكاروئيون أدنى جهد في فهم مقتنياتهم.

هم يسعون فقط لاستخدام الكتب القديمة، التي صارت خالية من المعنى، كمساحة فارغة لبناء مدنهم المعقدة والمزخرفة.

فتحولت الخطوط المحفورة على الجرار والحواسيب اللوحية إلى شوارع رئيسية جدرانها ملآنة بالغرف التي رتبت على نمط خلايا النحل، والتي أضافت للتفاصيل الموجودة مسبقًا جمالًا معقدًا ومتقنًا. أما الألياف التي في الحبال المعقودة فقد تم فكها، وإعادة نسجها، وإعادة ربطها بمنتهى الدقة، حتى حُولت كل عقدة كانت هناك إلى مجمع متشابك يشبه العمارة البيزنطية' ويتألف من آلاف العقد الصغيرة، وكل واحدة من تلك العقد صارت دكانًا مناسبًا للتجار الكاروئيين المبتدئين أو مجموعة من الغرف لعائلة

كاروئية صغيرة. من ناحية أخرى، كانت الأسطوانات المغناطيسية تُستخدم كحلبات ترفيهية، حيث كان المغامرون يتسابقون عبر سطحها خلال النهار، مستمتعين بتغير الدفع والجذب الناتج عن القوى المغناطيسية المحلية. وفي الليل، كان المكان يضاء بأنوار خافتة قد تتبعت تدفق القوى المغناطيسية، بينما أنارت البيانات القديمة الميتة رقصات آلاف الشباب الباحثين عن الحب والساعين للتواصل.

ومع ذلك، ليس دقيقًا أن نقول إن الكاروئيين لا يسعون لتفسير أو فهم أي شيء على الإطلاق. فعندما تزورهم الأجناس الأخرى التي قدمت لهم هذه القطع الأثرية، يشعرون على الفور بالألفة مع البناء الجديد الذي أنشأه الكاروئيون.

على سبيل المثال، عندما ذهب ممثلو الأرض في جولة إلى السوق الأعظم الذي بُني في أحد عُقد *الكويبو*، شاهدوا - باستخدام المجهر- أنشطة نابضة بالحياة، وتجارة مزدهرة، وهمسات مستمرة للأرقام والحسابات والقيم والعملات. واندهش أحد ممثلي الأرض، الذي كان من نسل الناس الذين عقدوا كتب الخيوط ذات مرة. فرغم أنه لم يكن قادرًا على قراءتها، فإنه كان يعلم أن الكويبو قد صُنعت لرصد الحسابات والأرقام، ولتسجيل الضرائب والمعاملات المالية.

أو خذ الكواتزولي كمثال، الذين اكتشفوا أن الكاروئيين أعادوا استخدام أحد عقول الكواتزولي الحجرية المفقودة كمجمع بحثي. فتحولت الغرف والقنوات الصغيرة، التي كانت تتدفق فيها الأفكار المائية القديمة، إلى مختبرات ومكتبات وقاعات دراسية، وقاعات محاضرات يتردد فيها صدى الأفكار الجديدة. وقد جاءت وفود الكواتزولي لاستعادة عقول أسلافهم، لكنهم غادروا وهم مقتنعون أن كل شيء على ما يرام.

يبدو أن الكاروئيين تمكنوا من استشعار آثار الماضي، وبشكل غير واعٍ، أثناء بناء مدنهم فوق طبقات من الكتب القديمة المنسية، صادفوا جوهر المعاني التي لا يمكن أن تضيع مع مرور الزمن.

إنهم يقرؤون دون أن يدركوا أنهم يفعلون ذلك.

ثمة نقاط من الوعي تتلألأ في امتداد الفضاء البارد والعميق كفقاعات في بحر شاسع ومظلم. تسقط وتتنقل، وتلتقي وتنفصل، تاركة وراءها مسارات حلزونية متلألئة، كل منها فريد كبصمة، وهي تندفع وتعلو متجهة نحو سطح مجهول.

الجميع يكتبون الكتب.

حياة مثالية للموت

في كل ليلة قبل الذهاب إلى النوم، كانت رينا تتفقد الثلاجات.

كانت في المطبخ ثلاجتان، كل واحدة منهما موصلة بدائرة كهربائية منفصلة، وكانت إحداهما مزودة بآلة فاخرة لصنع مكعبات الثلج في بابها. كما كانت هناك ثلاجة في غرفة المعيشة تستخدمها قاعدة للتلفاز، وواحدة في غرفة النوم تحل محل طاولة جانبية. بالإضافة إلى وحدة تبريد مكعبة في الردهة، كانت مخصصة لغرف السكن الجامعي. وصندوق تبريد في الحمام تحت المغسلة، كانت رينا تملؤه بالثلج الطازج كل ليلة.

فتحت رينا باب كل ثلاجة ونظرت بداخلها. كانت معظم الثلاجات فارغة في أغلب الأوقات. ولم يزعج ذلك رينا، فهي لم تكن مهتمة بملئها، كانت عمليات التفقد مسألة حياة أو موت بالنسبة لها. فقد تعلق الأمر بالحفاظ على روحها.

ما كان يهم رينا هو غرف المجمد. فكانت تحب أن تفتح باب كل مجمد لبضع ثوانٍ، لتدع الضباب البارد الناتج عن التكثف يتلاشى، فتشعر بالبرودة على أصابعها وصدرها ووجهها. ثم تغلق الباب عندما يبدأ المحرك في إصدار أصوات اعتراضية.

بحلول الوقت الذي تنتهي فيه من تفقد الثلاجات، كانت الشقة تمتلئ بمقطوعة موسيقية تعزفها محركاتها، كهمهمة خافتة وواثقة، وبالنسبة لرينا كان هذا هو صوت الأمان.

استلقت رينا على سريرها في غرفة النوم وسحبت الأغطية فوقها. كانت قد علقت بعض صور الأنهار والجبال الجليدية على الجدران، واعتادت النظر إليها وكأنها صور لأصدقاء قدامى. كما كان هناك صورة موضوعة في

إطار على الثلاجة التي بجانب سريرها، كانت تلك الصورة لإيمي، رفيقتها في السكن بالجامعة. وقد فقدت التواصل معها على مر السنين، لكن رينا احتفظت بالصورة هناك على أي حال.

فتحت رينا الثلاجة التي بجانب سريرها. وحدقت في الوعاء الزجاجي الذي يحتوي على مكعب الثلج. وفي كل مرة تنظر إليه، كان يبدو أن المكعب يزداد تقلصًا.

أغلقت رينا الثلاجة وأخذت الكتاب الذي كان مستلقيًا فوقها.

إدنا سانت فينسنت ميلاي: سيرة ذاتية عبر رسائل الأصدقاء والأعداء والعشاق

نيويورك، 23 يناير، 1921

عزيزتي فيف،

أخيرًا استجمعت شجاعتي وذهبت لأقابل فنسنت في فندقها اليوم. أخبرتني أنها لم تعد تحبني. لم أتمالك نفسي وبكيت. فغضبتْ وقالت لي إنه إذا لم أتمكن من السيطرة على نفسي، فعلي أن أغادر. طلبت منها أن تعد لي بعض الشاي.

إنه ذلك الشاب الذي رأوها معه عدة مرات. كنت أعرف ذلك في أعماقي. لكن سماع ذلك من شفتيها كان مروعًا. يا لها من متوحشة حقيرة. دخنت سيجارتين ثم ناولتني العلبة. كانت مرارتها أثقل من تحملي فتوقفت عن التدخين بعد سيجارة واحدة. وبعد ذلك أعطتني أحمر شفاهها حتى أتمكن من تجميل شفتي، كأن شيئًا لم يحدث، كأننا ما زلنا في غرفتنا في فاسار.

قلت لها: «اكتبي لي قصيدة». كانت تدين لي بذلك على الأقل.

بدت وكأنها على وشك الاعتراض، لكنها تراجعت. أخرجت شمعتها، ووضعتها في حامل الشموع الذي صنعته لها، وأشعلتها من الطرفين. عندما كانت تشعل روحها بهذه الطريقة، كانت في أوج جمالها. فكان وجهها يشع نورًا. وتبدو بشرتها الشاحبة كأنها مضاءة من الداخل مثل فانوس ورقي صيني على وشك أن يشتعل. تجولت في الغرفة كما لو أنها ستدمر الجدران. سحبت قدمي على السرير، ولففت نفسي بشالها القرمزي، لأبتعد عن طريقها.

جلستْ إلى مكتبها وشرعت في كتابة قصيدتها. وحالما انتهت، أطفأت شمعتها، محتفظة بما تبقى منها. جعلتني رائحة الشمع الساخن أشعر بالدموع في مقلتي مجددًا. أعدَّت نسخة جديدة لنفسها وأعطتني النسخة الأصلية.

قالت: «لقد أحببتك حقًّا يا إيلين. والآن كوني فتاة لطيفة واتركيني أرحل في سلام».

هكذا بدأت قصيدتها:

أي شفتين قبلتهما شفتاي، وأين، ولماذا،

لقد نسيت. وأي أذرع استراحت تحت رأسي حتى الصباح،

لكن المطر الليلة معبأ بالأشباح،

تطرق وتنهد، في جوف كل سراح.

فيف، للحظة أردت أن آخذ شمعتها وأمزقها إلى نصفين، ثم أرمي بقاياها في المدفأة وأذيب روحها حتى تستحيل إلى عدم. رغبت في أن أراها تتلوى عند قدمي، وتتوسل إلي لأعيد لروحها الحياة.

لكن كل ما فعلته هو أنني ألقيت القصيدة في وجهها، ورحلت.

بعد ذلك، تجولت في شوارع نيويورك طوال اليوم. لا أستطيع أن أخرج جمالها الوحشي من ذهني. أتمنى لو كانت روحي أثقل وأشد صلابة، شيئًا يمكنه أن يحمل نفسه بنفسه. أتمنى لو لم تكن روحي مجرد ريشة خفيفة، زغب قبيح من ريشة إوز تترنح في جيبي، تهتز وتضطرب بالريح التي تدور حول لهيبها. أشعر كأنني حشرة عث لا تستطيع الابتعاد عنها.

مخلصتك إلين.

وضعت رينا الكتاب جانبًا.

فكرت: *كيف تستطيع إشعال روحها هكذا، أن تجذب الرجال والنساء إليها كيفما تشاء، أن تكون متوهجة، ولا تخشى العواقب، ماذا عليها أن تفعل لتعيش حياة مثل هذه؟*

اختارت ميلاي أن تشعل شمعتها من الطرفين، وعاشت حياة متوهجة. وعندما نفدت شمعتها، توفيت مريضة ومدمنة، وصغيرة جدًّا. لكن في كل يوم من حياتها كان بإمكانها أن تقرر «هل سأكون متوهجة اليوم؟».

تخيلت رينا مكعب الثلج في قوقعته المظلمة والباردة في المجمد. وفكرت: *ابقي هادئة. توقفي عن التفكير في الأمر. هذه هي حياتك. هذه الشذرة من نصف الموت.*

أطفأت رينا الضوء.

عندما تكونت روح رينا وتحولت إلى مادة أخيرًا، كادت المربية المسؤولة عن مراقبة الولادة أن تفوتها. وفجأة، تجسد مكعب الثلج في الوعاء الفولاذي المقاوم للصدأ، المكعب الذي تجدونه يقرقع في الأكواب في حفلات الكوكتيل. كانت بِركة من الماء تتكون حوله بالفعل. وبدأت زوايا مكعب الثلج تبدو دائرية وغير واضحة.

أحضروا صندوق تبريد طارئ بسرعة، وحُفظ مكعب الثلج بعناية.

قال الطبيب لوالدة رينا التي كانت تنظر إلى وجه ابنتها الرضيعة الهادئ: «أنا آسف». فمهما احتاطوا، كم من الوقت يمكنهم الحفاظ على مكعب ثلج من الذوبان؟ لم يكن الأمر كما لو كان بإمكانهم فقط الاحتفاظ به في مجمد

في مكان ما ونسيانه. كان يجب أن تكون الروح قريبة جدًّا من الجسد، وإلا سيموت الجسد.

لم يتحدث أحد في الغرفة. كان الهواء المحيط بالطفلة غريبًا وساكنًا وصامتًا. وتجمدت الكلمات في حناجرهم.

عملت رينا في مبنى كبير في وسط المدينة، بجوار الأرصفة واليخوت الراسية التي لم تصعد على متنها قط. في كل طابق، كانت هناك مكاتب تحتوي نوافذ عند جوانبها، وكانت النوافذ التي تطل على الميناء أكبر وأفضل تأثيثًا من غيرها.

في وسط الطابق كانت توجد المكاتب المربعة التي هي مساحات عمل صغيرة مقسمة بجدران قصيرة توفر خصوصية نسبية في بيئات العمل المكتبية، وكان أحدها هو مكتب رينا. وبجانب مكتبها وُجدت طابعتان. تشابه صوتهما مع صوت الثلاجات إلى حد ما. وكان الكثير من الناس يمرون بجانب مكتبها وهم في طريقهم لاستلام مطبوعاتهم. كانوا يتوقفون أحيانًا لتحية الفتاة الهادئة الجالسة هناك، ذات البشرة الشاحبة والشعر الأشقر الثلجي، والسترة التي ترتديها دائمًا. لم يكن أحد يعرف لون عينيها لأنها لم ترفع عينيها عن مكتبها قط.

لكن سرت برودة في الهواء المحيط بها، صمت هش لا يريد أن ينكسر. رغم أنهم كانوا يرونها كل يوم، فإن معظم الناس لم يعرفوا اسم رينا. وبعد فترة، صار من المحرج جدًّا أن يسألوها عنه. ومع مرور الوقت، استمرت الحياة الصاخبة في المكتب من حولها في التسارع والتباطؤ، وترك الناس رينا وشأنها.

تحت مكتب رينا، كان هناك مجمد صغير قد ركبته الشركة خصيصًا لها. وفي كل صباح، كانت رينا تسرع إلى مكتبها، وتفتح حقيبة غدائها المعزولة عن الحرارة، ومن وعاء حافظ الحرارة الممتلئ بالثلج، تسحب بعناية الكيس البلاستيكي الذي يحمل مكعب الثلج المميز وتضعه في المجمد. ثم تتنهد، وتجلس على كرسيها، وتنتظر حتى تهدأ ضربات قلبها.

كانت وظيفة الأشخاص في المكاتب الصغيرة البعيدة عن الميناء، هي البحث على حواسيبهم عن إجابات الأسئلة التي يطرحها الأشخاص في المكاتب المواجهة للميناء. وكان دور رينا هو استلام تلك الإجابات وتنسيقها باستخدام الخطوط المناسبة في الأماكن الصحيحة على الأوراق المناسبة،

ثم إرسالها مرة أخرى إلى الأشخاص الذين في مكاتب الميناء. في بعض الأحيان، عندما يكون الأشخاص في المكاتب الصغيرة مشغولين للغاية، كانوا يسجلون إجاباتهم على أشرطة تسجيلية. وتكتبها رينا بعد ذلك.

كانت رينا تتناول غداءها في مكتبها. رغم أنه يمكن للمرء الابتعاد عن روحه لفترات قصيرة من الوقت دون أن يمرض، فإن رينا كانت تفضل أن تكون قريبة من المجمد بقدر الإمكان. وعندما يتعين عليها أحيانًا الابتعاد لتسليم مظروف ما إلى مكتب في طابق آخر، كانت تراودها رؤى مرعبة عن انقطاع مفاجئ في التيار الكهربائي. فتلهث أنفاسها وهي تسرع عبر الممرات لتعود إلى أمان مجمدها.

حاولت رينا ألا تفكر في أن الحياة ظالمة معها. فلو أنها وُلدت قبل اختراع الثلاجة، لما نجت. لم ترغب في أن تبدو غير ممتنة، ولكن في بعض الأحيان كان الأمر صعبًا.

بعد العمل، بدلًا من أن تذهب بصحبة الفتيات الأخريات للرقص أو الاستعداد للخروج في موعد غرامي، كانت تقضي لياليها في المنزل، تقرأ السير الذاتية لتعيش من خلال حياة الآخرين.

نزهات صباحية مع تي. إس. إليوت: سيرة ذاتية

بين عامي 1958 و1963، كان إليوت عضوًا في لجنة تنقيح سفر المزامير في كتاب الصلاة المشتركة. وقد صار واهنًا إلى حد ما في تلك الفترة، وابتعد تمامًا عن استخدام علبة قهوته.

كان هناك استثناء واحد عندما جاءت اللجنة لمراجعة المزمور رقم 23. فقبل أربعة قرون، قد تساهل الأسقف كوفرسديل بعض الشيء في ترجمته من العبرية. وقد اتفق أعضاء اللجنة على أن الترجمة الصحيحة للاستعارة الأساسية في المزمور إلى الإنجليزية هي «the valley of deep darkness» أي «وادي الظلام الدامس».

أثناء الاجتماع، وبعد أشهر من توقفه عن فعل ذلك، أعد إليوت فنجانًا من قهوته. لم أستطع نسيان رائحة القهوة الداكنة والغنية بالنكهة القوية.

تناول إليوت رشفة من قهوته، ثم، بنفس الصوت الساحر الذي كان يستخدمه لقراءة قصيدته «الأرض اليباب» (The Waste Land)، أنشد النسخة التقليدية التي تخللت دماء كل إنجليزي: «رغم أنني أسير في وادي ظل الموت، فإنني لا أخشى أي شر».

كان التصويت بالإجماع على الاحتفاظ بنسخة الأسقف كوفرسديل، رغم تنميقها.

أظن أن الناس كانوا دائمًا يُفاجؤون بعمق تفاني إليوت وإخلاصه للتقاليد، وللكنيسة الأنجليكية، وأيضًا بمدى تأثير الثقافة الإنجليزية على روحه.

كما أظن أن تلك كانت المرة الأخيرة التي تذوق فيها إليوت روحه، ومنذ ذلك الحين كثيرًا ما تمنيت أن أستطيع شم تلك الرائحة مرة أخرى: تلك الرائحة المرَّة والمحترقة والمكبوحة. لم تكن مجرد روح إنجليزي حقيقي، بل كانت عبقرية الشعر.

فكرت رينا: *لا بد أن قياس الحياة بملاعق القهوة يبدو مروعًا في بعض الأحيان. لعله كان السبب في غياب الحس الفكاهي لدى إليوت.*

لكن لوجود الروح في علبة قهوة، وقع جميل ومميز. فقد كانت تبث الحياة في الهواء من حوله، وتجعل كل من يستمع إلى صوته يقظًا وراضيًا ومستعدًا لاستقبال أسرار أشعاره الصعبة والثقيلة. لم يكن بإمكان إليوت أن يكتب ويُفهم العالم «الرباعيات الأربع» (Four Quartets)، دون رائحة روحه، والحدة التي أضافتها على كل كلمة، والطعم اللاذع الناتج عن احتساء شيء ذي مغزى عميق.

فكرت رينا: *كم أود أن تغني لي الحوريات، فهل كان هذا ما يحلم به إليوت بعد شرب قهوته قبل النوم؟*

لكن بدلًا من الحوريات، حلمت رينا في تلك الليلة بالثلج. أميال وأميال من الثلج الذي سيستغرق ذوبانه مئات السنين. ورغم أنه لم تلوح حياة في الأفق، فإن رينا ابتسمت في نومها. كان ذلك حلم حياتها.

في اليوم الأول الذي حضر فيه الرجل الجديد إلى العمل، استطاعت رينا أن تخمن أنه لن يبقى في مكتبه طويلًا.

كان قميصه قديم الطراز إلى حد ما، ولم يهتم بتلميع حذائه ذلك الصباح. لم يكن طويل القامة، ولم يكن ذقنه بارزًا بما يكفي. كان مكتبه في نهاية

الممر بعد مكتب رينا، مكتب صغير يحتوي على نافذة واحدة فقط تطل على المبنى المجاور. كان الاسم المكتوب على اللوحة المعلقة على بابه جيمي كيسنو. وبالنظر إلى جميع هذه التفاصيل، كان من المفترض أن يكون مجرد واحد من أولئك الشبان المجهولين والطموحين والمحبطين الذين يمرون بالمبنى كل يوم.

لكن جيمي كان من أكثر الأشخاص المريحين الذين رأتهم رينا. فأينما كان، تصرف وكأنه ينتمي إلى المكان. لم يكن صاخبًا ولا يتحدث بسرعة، لكن بدا أن لديه قدرة طبيعية على الاندماج بسهولة في المحادثات وبين الحشود. كان يقول بضع كلمات فقط، فيضحك الناس من حوله وبعدها يشعرون بأنهم أكثر فطنة. كان يبتسم للناس، فيشعرون بالسعادة، ويبدون أكثر وسامة وجمالًا. كان يدخل ويخرج من مكتبه طوال الصباح، ويبدو هادئًا وواثقًا في الوقت نفسه عندما يتوقف ويحادث الآخرين. كانت المكاتب تبقى مفتوحة بعد مغادرته، وكان شاغلوها لا يشعرون برغبة في إغلاق الأبواب.

رأت رينا أن الفتاة التي في المكتب الذي بجوارها تتزين عندما تسمع صوت جيمي يقترب من الممر.

كان من الصعب حتى تذكر شكل الحياة في العمل قبل مجيء جيمي.

عرفت رينا أن الشبان الذين على شاكلة جيمي لا يبقون لفترة طويلة في مكاتب صغيرة ذات نافذة واحدة تطل على زقاق. بل ينتقلون إلى مكاتب تطل على الميناء، أو ربما إلى الطابق العلوي. تخيلت رينا أن روحه تشبه ملعقة فضية، فيسهل عليها إبهار الجميع وإثارة رغبتهم بشدة.

محاكمة جان دارك

في الليل، كان الجنود وجان ينامون معًا على الأرض. وعندما تخلع جان درعها، كان باستطاعتنا رؤية ثدييها، اللذين كانا جميلين. ومع ذلك، لم توقظ في داخلي أي رغبات جسدية.

كانت جان تغضب عندما كان الجنود يشتمون أمامها أو يتحدثون عن ملذات الجسد. وكانت تطرد دومًا النساء اللواتي يتبعن الجنود بسيفها، إلا إذا وعدها الجنود بالزواج منهن.

نبعَ نقاء جان من روحها، التي حملتها في جسدها دومًا سواء كانت تستعد للمعركة أو للنوم في الليل. كانت تلك الروح عبارة عن غصن شجرة زان. فبالقرب من دومريمي، قريتها الأصلية، وقفت شجرة زان قديمة، تُدعى شجرة النساء، بالقرب من نبع. وجاءت روحها من تلك الشجرة، ووفقًا لمن عرفوا جان في طفولتها، كان ينبعث من الغصن عطر يشبه تلك الرائحة التي كانت تصدر من نبع شجرة النساء.

وأي شخص اقترب من جان بنية آثمة، تبددت أفكاره الآثمة فورًا بتأثير روحها. وهكذا، ظلت نقية، وأقسم أنني أقول الحقيقة، حتى وإن كانت أحيانًا عارية مثل بقية الجنود.

قال جيمي: «مرحبًا، ما اسمك؟».

ردت رينا: «جان». (تورد وجهها ووضعت كتابها جانبًا): «أقصد رينا». وبدلًا من النظر إليه، نظرت إلى السلطة التي تناولت نصفها على مكتبها. وتساءلت إذا كان هناك بقايا طعام عند زوايا فمها. فكرت في مسح فمها بالمنديل لكنها قررت أن ذلك سيجذب الكثير من الانتباه.

- أتعلمين؟ كنت أسألهم في المكتب طوال الصباح، ولم يتمكن أحد من إخباري باسمك.

رغم أن رينا كانت تعرف هذا، فقد شعرت ببعض الحزن، كما لو أنها خيبت أمله. هزت كتفيها.

قال جيمي: «لكن الآن أعرف شيئًا لا يعرفه أحد هنا»، وبدا صوته كما لو أخبرته بسر رائع.

فكرت رينا: *هل خففوا من برودة التكييف أخيرًا؟ لم يكن الجو باردًا كما هو معتاد*. فكرت في خلع سترتها.

نادته الفتاة التي في المكتب المجاور لرينا: «مرحبًا يا جيمي. تعال إلى هنا. دعني أريك تلك الصور التي أخبرتك عنها. ”

قال جيمي: «أراك لاحقًا»، وابتسم لها. عرفت ذلك لأنها كانت تنظر إلى الأعلى، إلى وجهه، الذي أدركت أنه قد يكون وسيمًا.

وُلِد شيشرون بحصاة صغيرة في فمه. لذلك، لم يتوقع أحد أن يُحقق نجاحًا كبيرًا.

ومارس شيشرون فن الخطابة وهو يحمل تلك الحصاة في فمه. وكاد أحيانًا أن يختنق بها. لكنه تعلم استخدام كلمات بسيطة وجمل مباشرة. وتعلم كيف يدفع صوته خارجًا رغمًا عن الحصاة التي في فمه، وكيف ينطق كلماته بوضوح حتى عندما خانه لسانه.

صار أعظم خطيب في عصره.

قال جيمي: «أنتِ تقرئين كثيرًا».

أومأت رينا، ثم ابتسمت له.

قال جيمي وهو ينظر مباشرة إلى عينيها: «لم أرَ عينين بهذه الدرجة من اللون الأزرق كعينيك من قبل. إنهما تشبهان البحر، لكن عبر طبقة من الجليد». قال ذلك بعفوية، وكأنه يتحدث عن عطلة قضاها أو فيلم شاهده. لهذا السبب علمت رينا أنه صادق، وشعرت كأنها قد منحته سرًّا آخر، سرًّا لم تكن تعلم حتى أنها تملكه.

لم يقل أي منهما شيئًا. وعادةً ما يكون هذا محرجًا.

لكن جيمي اتكأ ببساطة على حائط مكتبها، مستمتعًا بمشاهدة كومة الكتبَ التي على مكتب رينا. وآثر الصمت، وارتاح له. وهكذا شعرت رينا بالرضا عن ترك الصمت يستمر.

قال جيمي: «أوه، كاتولوس»، (والتقط أحد الكتب وسألها): «ما هي قصيدتك المفضلة؟».

فكرت رينا في ذلك. خشت أن تقول إن قصيدتها المفضلة «دعينا نعيش يا لِسبيا، ودعينا نحب» فتبدو جريئة أكثر من اللازم. أو تقول إنها «تسألني كم قبلة» فتبدو خجولة أكثر من اللازم.

لقد عذبت نفسها بالتفكير في الإجابة.

وانتظر جيمي، دون أن يضغط عليها لتسرع بالرد.

لم تستطع أن تقرر. ثم بدأت في قول شيء، أي شيء، لكن لم يخرج منها أي صوت. كانت تشعر وكأن هناك حصاة عالقة في حلقها، حصاة باردة كالثلج. غضبت من نفسها. لا بد أنها بدت له حمقاء.

قال جيمي: «المعذرة، ستيف يلوح لي لأذهب إلى مكتبه. سأتحدث معك لاحقًا».

كانت إيمي زميلة رينا في السكن أثناء الجامعة. وكانت الشخص الوحيد الذي شعرت رينا بالشفقة تجاهه. فروح إيمي كانت علبة سجائر.

لكن إيمي لم تتصرف كأنها تريد أن يشفق عليها أحد. فبحلول الوقت الذي قابلت فيه رينا، كان قد تبقى لإيمي أقل من نصف العلبة.

سألتها رينا بذهول: «ماذا حدث لبقية العلبة؟». لم تستطع أن تتخيل نفسها مهملة لهذه الدرجة في الحفاظ على حياتها.

أرادت إيمي من رينا أن تخرج معها في الليل، للرقص، وللشرب وللتعرف على الشباب. لكن رينا استمرت في الرفض.

قالت إيمي: «افعلي ذلك من أجلي. أنتِ تشعرين بالشفقة علي، أليس كذلك؟ حسنًا، أطلب منك أن تأتي معي، لمرة واحدة فقط».

اصطحبت إيمي رينا إلى الحانة. واحتضنت رينا قارورتها الحافظة للحرارة طوال الطريق. وانتزعت إيمي القارورة من يدها، ووضعت مكعب الثلج الخاص برينا في كأس صغير، ثم طلبت من الساقي أن يبقيه باردًا في الثلاجة.

تقدم الشباب لمحاولة التعرف عليهما. وتجاهلتهم رينا. فقد كانت خائفة بشدة. ولم ترفع عينيها عن الثلاجة.

قالت لها إيمي: «حاولي أن تتظاهري أنك تستمتعين بوقتك، حسنًا؟».

في المرة التالية التي اقترب فيها أحد الشباب منهما، أخرجت إيمي واحدة من سجائرها.

قالت إيمي للشاب وعيناها تلمعان تحت وهج أضواء النيون في الحانة: «أترى هذه؟ سأبدأ في تدخينها الآن. وإذا استطعت أن تجعل صديقتي تضحك قبل أن أنهيها، سأذهب معك إلى المنزل الليلة».

- ماذا لو جئتما معًا إلى منزلي الليلة؟

ردت إيمي: «بالتأكيد، لم لا؟ لكن من الأفضل أن تبدأ الآن».

أشعلت إيمي ولاعتها وسحبت نفسًا طويلًا من السيجارة. ثم ألقت برأسها إلى الخلف ونفثت الدخان عاليًا في الهواء.

همست إيمي لرينا بعينين مشتتين وبريتين: «هذا هو ما أعيش من أجله. الحياة كلها عبارة عن تجربة. ”

وانجرف الدخان من أنفها مما جعل رينا تسعل.

حدقت رينا في إيمي. ثم التفتت نحو الشاب. شعرت بدوار بسيط. كان أنف الشاب المعوج على وجهه يبدو مضحكًا وحزينًا في الوقت نفسه.

كانت روح إيمي معدية.

قالت إيمي لرينا في صباح اليوم التالي: «أشعر بالغيرة. فلديك ضحكة مثيرة جدًّا». ابتسمت رينا عندما سمعت ذلك.

وجدت رينا الكأس الصغيرة التي تحتفظ بمكعب الثلج الخاص بها في ثلاجة الشاب. أخذت الكأس وذهبت إلى المنزل.

ومع ذلك، كانت تلك آخر مرة توافق فيها رينا على الخروج مع إيمي.

فقدتا التواصل ببعضهما بعد الجامعة. وعندما فكرت رينا في إيمي، تمنت لو كان بإمكان علبة سجائرها أن تعيد ملء نفسها بطريقة سحرية.

راقبت رينا تدفق الأوراق من الطابعات التي بجانبها. كانت تعرف أن جيمي سينتقل إلى مكتب في الطابق العلوي قريبًا. لم يكن لديها الكثير من الوقت.

ذهبت للتسوق خلال عطلة نهاية الأسبوع. واختارت ما تريد بعناية. كان لونها هو الأزرق الثلجي. فطلت أظافرها لتناسب لون عينيها.

قررت رينا أن اليوم المناسب هو الأربعاء. فالناس يميلون إلى التحدث أكثر في بداية الأسبوع ونهايته، إما عما فعلوه خلال عطلة نهاية الأسبوع وإما عما سيفعلونه في عطلة نهاية الأسبوع المقبلة. لم يكن هناك الكثير من الأحاديث في أيام الأربعاء.

أحضرت رينا كأسها الصغيرة معها، كتميمة حظ، ولأن الكأس يسهل تبريده.

نفذت خطتها بعد الغداء. فما زال هناك الكثير من العمل في فترة بعد الظهر، ومالت النميمة إلى التلاشي في ذلك الوقت.

فتحت باب الثلاجة، وأخرجت كأسها الباردة والكيس البلاستيكي الذي يحتوي على مكعب الثلج. والتقطت مكعب الثلج من الكيس ثم وضعته في الكأس الصغير. فتشكلت تكثفات البخار على سطح الكأس على الفور.

خلعت رينا سترتها، وأمسكت بالكأس بيدها، وشرعت في التجول في المكتب.

جالت حيثما كانت هناك مجموعات من الناس، في الممرات، وبجوار الطابعات، وبجوار آلات القهوة. كلما اقتربت، شعر الناس بنسمة باردة تسري في الهواء، وساد الصمت بين المحادثات. وبدت النكات سخيفة وجوفاء. وتوقفت الجدالات. وفجأة، تذكر الجميع كمية العمل المتبقية وابتكروا أعذارًا للابتعاد. وأُغلِقت أبواب المكاتب وهي تمر بجانبها.

ظلت تتجول حتى هدأت الممرات، ولم يبق مكتب بابه مفتوح سوى مكتب جيمي.

نظرت إلى الكأس. كان هناك بركة صغيرة من الماء في قاع الكأس، وسرعان ما سيبدأ مكعب الثلج في الطفو.

ما زال لديها وقت، إذا أسرعت.

قبلني، قبل أن أختفي.

وضعت الكأس الصغيرة خارج باب مكتب جيمي. *أنا لست جان دارك.*

دخلت إلى مكتب جيمي وأغلقت الباب خلفها.

قالت: «مرحبًا»، وصارت وحدها معه، ثم لم تعرف ماذا تفعل بعد ذلك.

رد: «مرحبًا. الجميع هادئون هنا اليوم. ماذا يحدث؟».

قالت: «(**Si tecum attuleris bonam atque magnam cenam, non sine candida puella**)، ’إذا أحضرت عشاء شهيًّا وفيرًا، فلن تستمتع من غير فتاة جميلة‘. هذه هي. هذه قصيدتي المفضلة».

شعرت بالخجل، لكن بالدفء أيضًا. لم تشعر بثقل على لسانها، ولا حصاة في حلقها. تركت روحها خلف هذا الباب، لكنها لم تكن قلقة. لم تعد الثواني. كأنما الكأس الصغيرة الذي يحوي حياتها في زمن آخر، ومكان غير هذا.

أكمل جيمي كلامها: «(**Et uino et sale et omnibus cachinnis**)، 'والنبيذ والملح والضحك كله'».

رأت مرشة ملح على مكتبه. كان الملح يحيل الطعام الماسخ إلى شهي. الملح كالفطنة والضحك في المحادثات. الملح يجعل العادي استثنائيًّا. والبسيط جميلًا. كان الملح هو روحه.

والملح يجعل التجميد أصعب.

ضحكت.

شرعت في فك أزرار بلوزتها. بدأ في النهوض، ليوقفها. أشارت له برأسها ليجلس وابتسمت له.

ليس لدي شمعة لأحرقها من الطرفين. ولن أقيس حياتي بملاعق القهوة. ولا أملك مياهًا عذبة لتهدئة الرغبات، لأنني تركت خلفي روحي المجمدة من نصف الموت. ما أملكه هو حياتي.

قالت: «الحياة كلها تجربة».

خلعت بلوزتها وتركت تنورتها تسقط. صار بإمكانه الآن رؤية ما اشترته خلال عطلة نهاية الأسبوع.

الأزرق الثلجي كان لونها.

تذكرت ضحكاتها، وتذكرت ضحكه أيضًا. حاولت جاهدة لتبقي على ذكرى كل لمسة، وكل نفَس لاهث. ما لم ترغب في تذكره هو الوقت.

كان ضجيج الناس خارج الباب يرتفع تدريجيًّا ثم يهدأ تدريجيًّا. وظلا معًا في مكتبه.

فكرت: *أي شفتين قبلتهما شفتاي*. وأدركت أن الهدوء ساد تمامًا خارج المكتب مرة أخرى. بدأت أشعة الشمس تتحول إلى ظلال من اللون الأحمر في الغرفة.

نهضت، مبتعدة عن ذراعيه، وارتدت بلوزتها وتنورتها. فتحت باب مكتبه والتقطت الكأس الصغيرة.

بحثت، وبحثت بجنون، عن أي شظية من الثلج. حتى أصغر بلورة ستكون كافية. كانت ستبقيها مجمدة وتعيش ما تبقى من حياتها على ذكرى هذا اليوم الواحد، هذا اليوم الذي شعرت فيه بأنها حية.

لكن لم يبق سوى ماء في الكأس، ماء نقي وصافي.

انتظرت نبضات قلبها أن تعلن توقفها. انتظرت رئتيها أن تخلو من أنفاسها. عادت إلى مكتبه لكي تموت وهي تحدق في عينيه.

سيصعب تجميد الماء المالح.

شعرت بالدفء، والانجذاب، والانفتاح. تدفق شيء ما إلى أبرد وأهدأ وأجوف زوايا قلبها وملأ أذنيها بصوت أمواج البحر. فكرت أن لديها الكثير لتقوله له، وأنها لن تقرأ مرة أخرى.

رينا،

أتمنى أن تكوني بخير. لقد مضى وقت طويل منذ لقائنا الأخير.

أتصور أن السؤال الذي سيخطر ببالك مباشرة هو عن عدد السجائر المتبقية لدي. حسنًا، الأخبار الجيدة هي أنني توقفت عن التدخين. أما الأخبار السيئة فهي أن آخر سيجارة لي انتهت قبل ستة أشهر.

لكن كما ترين، ما زلت على قيد الحياة.

الأرواح معقدة يا رينا، وكنت أظن أنني فهمت كل شيء. طوال حياتي، كنت أعتقد أن قدري أن أكون متهورة، أن أخاطر بكل لحظة من حياتي. كنت أظن أن هذا هو ما قررته أقداري. واللحظات الوحيدة التي شعرت فيها بالحياة كانت تلك التي أشعلت فيها جزءًا من روحي، متمنية حدوث شيء استثنائي قبل أن تلمس الشعلة والرماد أصابعي. كنت أتيقظ تمامًا خلال تلك الأوقات، أستمع بحرص لكل اهتزاز في أذني، وأشعر بكل مسحة لون في عيني. كانت حياتي كساعة رملية تنفد شيئًا فشيئًا. وكان الوقت الذي قضيته في الانتظار بين كل سيجارة وأخرى مجرد بروفة لشيء أكثر أهمية ومعنى لذا انغمست في العديد من تلك البروفات.

كنت على وشك الانتهاء من سيجارتي الأخيرة، وشعرت بالرعب. قد خططت لعمل شيء كبير، لأرحل عن الحياة بطريقة مثيرة. ولكن عندما جاء وقت تدخين تلك السيجارة الأخيرة، فقدت شجاعتي. عندما تدركين أنك ستواجهين الموت بعد أن تنتهي من آخر نفس لك، فجأة تبدأ يداك في الاهتزاز، ولا تستطيعين تثبيت عود الثقاب أو ضغط الولاعة بإصبعك.

شربتُ حتى الثمالة في حفلة على الشاطئ، وفقدت وعيي خلال الحفل. ويبدو أن هناك من احتاج إلى جرعة من النيكوتين، فتفحص حقيبتي ووجد سيجارتي الأخيرة. وعندما استيقظتُ، وجدت العلبة الفارغة على الرمال بجانبي، وقد زحف سرطان البحر الصغير إلى داخلها وجعلها منزله.

كما قلت لكِ، لم أمت.

طوال حياتي، اعتقدت أن روحي تكمن في تلك السجائر، ولم أفكر حتى في العلبة. لم أعطِ أي اهتمام لذلك الغلاف الورقي الهادئ، لتلك القطعة المغلقة من الفراغ.

علبة فارغة هي موطن للعناكب التي ضلت طريقها لتحملها وترشدها إلى الخارج. علبة تحمل العملات النقدية المتناثرة، والأزرار التي سقطت، والإبر والخيوط. كما أنها مقر مناسب لأحمر الشفاه، وكحل العيون، والقليل من البودرة. إنها تتقبل أي شيء أود وضعه فيها.

وهكذا أشعر: متقبلة، وغير مبالية، وقابلة للتكيف. نعم، الحياة الآن هي مجرد تجربة بالفعل. ماذا يمكنني أن أفعل بعد ذلك؟ أي شيء.

ولكن للوصول إلى هنا، كان عليّ أولًا أن أدخن سجائري. ما حدث لي كان تغييرًا في الحالة. عندما تحولت روحي من علبة سجائر إلى علبة، نضجتُ.

فكرت في أن أكتب لكِ لأنكِ تذكرينني بنفسي. فقد ظننتِ أنك فهمت روحك، وظننتِ أنك تعرفين الطريقة التي يجب أن تعيشي بها حياتك. ظننتُ أنك مخطئة حينها، لكنني لم أكن أملك الإجابة الصحيحة أيضًا.

لكنني الآن أعرفها. وأعتقد أنكِ جاهزة لتغيير الحالة.

صديقتك المخلصة لك دائمًا، إيمي.

الآلهة الجديدة

استيقظ ساي على الافتتاحية المثيرة من كونشيرتو الكمان على السلم الموسيقي دو الصغير، لمقطوعة «إل سوسبيتو» لفيفالدي.

ظل مستلقيًا لمدة دقيقة، سامحًا للموسيقى أن تغمره كنسيم المحيط الهادئ اللطيف. أضيئت الغرفة تدريجيًا مع انفراج الستائر لاستقبال نور الشمس. أيقظته تيلي بعد انتهاء دورة نوم خفيفة، وكان توقيتها مثاليًّا. شعر بشعور رائع: كان منتعشًا، ومتفائلًا، ومستعدًا للقفز من السرير.

وهذا ما فعله بعد ذلك.

- تيلي، هذا اختيار ملهم لأغنية الاستيقاظ.

تحدثت تيلي من الكاميرا/السماعات التي على طاولة النوم الجانبية: «بالطبع! فمن يعرف ذوقك ومزاجك أفضل مني؟». رغم أن الصوت إلكترونيٌّ، فإنه كان مملوءًا بالحنان والمرح.

ذهب ساي إلى الاستحمام.

تحدثت تيلي من الكاميرا/السماعات التي صارت في السقف: «تذكر أن ترتدي حذاءك الجديد اليوم».

- لماذا؟

- لديك موعد غرامي بعد العمل.

- آه، الفتاة الجديدة. تبًّا، ما اسمها؟ أعلم أنك أخبرتني ...

- سأخبرك بالتفاصيل بعد العمل. أنا متأكدة أنك ستعجب بها. فمؤشر التوافق عالٍ جدًّا. أعتقد أنكما ستقعان في الحب لمدة لا تقل عن ستة أشهر.

كان ساي يتطلع لهذا الموعد. فتيلي هي أيضًا من عرفته على حبيبته السابقة، وكانت تلك العلاقة رائعة. لكن بالطبع، كان الانفصال مروعًا بعد

ذلك، لكن إرشادات تيلي هي ما ساعدته خلال تلك الفترة. وشعر أنه نضج عاطفيًّا، وبعد شهر من العزلة، كان مستعدًّا لبدء علاقة جديدة.

لكن أولًا، كان عليه أن يجتاز يوم العمل.

- ماذا ترشحين لي لوجبة الإفطار هذا الصباح؟

- لديك موعد لحضور الاجتماع الأول لقضية ديفيس في الساعة الحادية عشرة، مما يعني أنك ستتناول الغداء على حساب الشركة. وأقترح أن تتناول إفطارًا خفيفًا، كثمرة موز مثلًا.

كان ساي متحمسًا؛ جميع المساعدين القانونيين في شركة تشابمان سينج وستيفنز وريوس كانوا يسعون لتناول وجبات الغداء التي يعدها الطاهي التنفيذي الخاص بالشركة مع العملاء.

- هل لدي وقت لتحضير قهوتي بنفسي؟

- نعم، لديك وقت. فلا يوجد ازدحام في حركة المرور هذا الصباح. لكنني أنصحك بأن تذهب إلى هذا المكان الجديد على الطريق الذي يعد العصائر، بدلًا من القهوة. يمكنني أن أحصل لك على قسيمة تخفيض.

- لكنني أريد قهوة حقًّا.

- ثق بي، ستعشق العصير.

ابتسم ساي وهو يطفئ الدش.

- حسنًا يا تيلي. أنتِ تعرفين الخيار الأفضل دائمًا.

بيد أنه كان صباحًا آخر ممتعًا ومشمسًا في لاس ألدماس في ولاية كاليفورنيا -بدرجة حرارة تبلغ عشرين درجة مئوية- كانت جارته جيني ترتدي معطفًا شتويًّا سميكًا، ونظارات تزلج، وشالًا طويلًا داكنًا يغطي شعرها وبقية وجهها.

قالت له وهي تغادر شقتها: «أعتقد أنني أخبرتك بأنني لا أريد تركيب هذا الشيء». كان صوتها مشوشًا من خلال نوع ما من الفلتر الإلكتروني. وردًّا على نظرته الاستفهامية، أشارت إلى الكاميرا التي في أعلى باب شقة ساي.

كان التحدث مع جيني أشبه بالتحدث مع إحدى صديقات جدته التي رفضت استخدام بريد شركة سنتليون الإلكتروني أو الحصول على حساب في منصة «مشاركة الكل» لأنها خشت أن يعلم الكمبيوتر كل شيء عنها، لكن

الغريب أن جيني، بقدر ما أمكنه أن يعلم، كانت في عمره. فقد نشأت كرقمية أصيلة، لكنها بطريقة ما لم تستوعب روح المشاركة.

- جيني، لا أريد أن أجادلك. لدي الحق في تركيب أي شيء أريده فوق بابي. وأريد لتيلي أن تراقب بابي عندما أكون غائبًا. لقد تعرضت الشقة رقم 308 للسرقة في الأسبوع الماضي.

- لكن كاميرتك ستسجل الزوار الذين يأتون إلى شقتي أيضًا، لأننا نتشارك هذه الردهة.

- وماذا في ذلك؟

- لا أريد لتيلي أن يكون لديها أي معلومات عن شبكة علاقاتي الاجتماعية.

نظر ساي لأعلى متأففًا وقال: «ماذا لديك لتخفيه؟».

- ليس هذا ما يهم.

- نعم، نعم، الحريات المدنية، الحرية، الخصوصية، وكل هذا الهراء ...

كان ساي قد سئم من الجدال مع أشخاص مثل جيني. فقد أوضح النقطة نفسها مرات لا تُحصى: سينتليون *ليست* حكومة مهيبة ومخيفة. *إنها شركة خاصة، وصدف أن شعارها هو «جعل الأشياء أفضل!» ولمجرد أنكِ تريدين العيش في العصور المظلمة، لا يعني أن على بقيتنا ألا يستمتعوا بفوائد الحوسبة الشاملة.*

دار حول جسدها الضخم ليصل إلى الدرج.

صرخت جيني: «تيلي لا تخبرك بما تريده فقط! إنها تخبرك بما يجب أن تفكر فيه. هل ما زلت تعرف ما تريده حقًا؟».

توقف ساي للحظة.

ألحت: «هل تعرف؟».

يا له من سؤال سخيف. مجرد نوع من الهذيان الفلسفي الزائف المناهض للتكنولوجيا الذي يخطئ أمثالها في اعتباره عميقًا.

واصل السير.

تمتم: «غريبة الأطوار»، متوقعًا أن تيلي ستتدخل ببعض المزاح لتسعده من خلال سماعة الأذن الخاصة بجواله.

لكن تيلي لم تقل شيئًا.

وجود تيلي كان أشبه بالحصول على أفضل مساعدة في العالم:

- مرحبًا يا تيلي، هل تتذكرين أين وضعت ملف وايومينج الذي يحمل اسم الشركة الغريب وعملية إعادة التنظيم من النوع إف قبل حوالي ستة أشهر؟
- مرحبًا يا تيلي، هل يمكنكِ إحضار نموذج لمواد قانون رقم 131؟ وتأكدي أن يكون النموذج نفسه الذي يستخدمه الموظفون الذين يعملون مع سينج.
- مرحبًا يا تيلي، احفظي هذه الصفحات. ثم ضعي تلك العلامات التالية عليها: تشابمان، أو في مصلحة المشتري، أو يستخدم فقط إذا كان الموظف لطيفًا معي.

لبعض الوقت، قاوم تشابمان سينج فكرة السماح للموظفين بإدخال تيلي إلى المكتب، مفضلًا نظام الذكاء الاصطناعي الخاص بالشركة. ولكن تبين أنه من الصعب للغاية إجبار الموظفين على إبقاء جداول أعمالهم الشخصية وترشيحاتهم منفصلة تمامًا عن جداول العمل. وعندما بدأ الشركاء في انتهاك القواعد واستخدام تيلي للعمل، كان على قسم تكنولوجيا المعلومات دعمهم.

وتعهدت شركة سنتليون بعد ذلك بأنها ستعمل على تشفير المعلومات المستمدة من الشركات بشكل آمن ولن تستخدمها لأغراض تنافسية، بل فقط لتقديم ترشيحات أفضل لموظفي تشابمان سينج. ففي النهاية، كانت مهمة سنتليون هي تنظيم معلومات العالم لرفع شأن الجنس البشري، وما الذي يمكن أن يكون أكثر رفعة من جعل العمل أكثر كفاءة وإنتاجية وإمتاعًا؟

شعر ساي بكثير من الامتنان عندما كان يستمتع بغدائه. لم يكن بإمكانه حتى تخيل ما كانت ستبدو عليه الأعمال الرتيبة قبل أن تأتي تيلي.

بعد العمل، أرشدت تيلي ساي إلى متجر الزهور -بالطبع كانت تيلي تمتلك قسيمة تخفيض- ثم، في الطريق إلى المطعم، أعطته تيلي معلومات عن إلين رفيقته في الموعد الغرامي: كخلفيتها التعليمية، وملفها الشخصي على منصة مشاركة كلية، وتقييماتها من أحبائها السابقين، واهتماماتها، وما تحبه، وما تكرهه، وبالطبع، صورها، أعطته عشرات الصور التي تعرفت عليها تيلي وجمعتها من جميع أنحاء الإنترنت. ابتسم ساي. فقد كانت تيلي محقة. كانت إلين مناسبة لذوقه تمامًا.

كان من البديهي أن ما لا يود الرجل إخبار أفضل أصدقائه به، سيبحث عنه بسرور على سنتليون. كانت تيلي تعرف كل شيء عن النساء اللاتي يجدهن ساي جذابات، بعد أن تابعت الصور ومقاطع الفيديو التي كان يتصفحها في وقت متأخر من الليل أثناء استخدام وضع خاص بي فقط في متصفحه.

وبالطبع، كانت تيلي تعرف إلين كما تعرفه تمامًا، لذا كان ساي يعلم أن إلين ستراه من نوعها المفضل بالضبط.

كما توقع، اكتشفا أنهما يهتمان بالكتب والأفلام والموسيقى نفسها. كما أن أفكارهما متوافقة عن مقدار الجهد الذي ينبغي بذله في العمل. ضحكا على نكات بعضهما وغذيا طاقة بعضهما.

أعجب ساي بإنجاز تيلي. هناك أربعة مليارات امرأة على الأرض، ويبدو أن تيلي قد وجدت له الشريكة المثالية. كان الأمر يشبه ما حدث عندما ضغط على زر أثق بك في بحث سنتليون في الأيام الأولى، عندما عرف الموقع الإلكتروني الذي يجب أن يوجهه إليه بالضبط.

شعر ساي بوقوعه في الحب، وعرف أن إلين كانت تريد أن تدعوه ليذهب معها إلى المنزل.

بيد أن كل شيء قد صار على نحو رائع، إلا أنه إذا كان صادقًا تمامًا مع نفسه، فلم يكن الأمر مثيرًا وجميلًا كما توقع. صحيح أن كل شيء سار بسلاسة، لكن ربما بسلاسة مفرطة إلى حد ما. بدا أنهما يعرفان كل شيء يمكن معرفته عن بعضهما بالفعل. لم تكن هناك مفاجآت، ولا الإثارة الناتجة عن اكتشاف شيء جديد عن الشخص الآخر حقًّا.

بمعنى آخر، كان الموعد مملًّا نوعًا ما.

وحينما تجولت الأفكار في ذهن ساي، خيم الصمت عليهما. فابتسما لبعضهما وحاولا الاستمتاع بالصمت.

في تلك اللحظة، سمع صوت تيلي في سماعة أذنه: «لعلك ترغب في أن تسألها إذا كانت تحب الحلويات اليابانية. أنا أعرف مكانًا ممتازًا».

أدرك ساي، رغم أنه لم يعِ ذلك حتى تلك اللحظة، أنه صار فجأة يشتهي أن يأكل شيئًا حلوًا.

تيلي لا تخبرك بما تريده فقط. إنها تخبرك بما يجب أن تفكر فيه.

شرد ساي هنيهة.

هل ما زلت تعرف ما تريده حقًا؟

حاول ساي تنظيم مشاعره. هل اكتشفت تيلي ما لم يكن يعرف أنه يريده؟ أم أنها وضعت هذه الفكرة في رأسه؟

هل تعرف؟

كانت الطريقة التي ملأت بها تيلي هذا الصمت ... وكأنها لا تثق بأنه يستطيع إدارة الموعد بمفرده، وكأنها تعتقد أنه لن يعرف ماذا يقول أو يفعل إذا لم تتدخل.

شعر ساي فجأة بالانزعاج؛ لقد تدمرت اللحظة.

أشعر وكأنني أُعامل كطفل.

- أعلم أنك ستحب المكان، لدي قسيمة تخفيض.

قال: «تيلي، رجاء توقفي عن المراقبة وأطفئي الاقتراحات التلقائية».

- هل أنت متأكد؟ فقد تؤدي الفجوات في المعلومات إلى عدم اكتمال ملفك الشخصي ...

- نعم، أرجو أن تطفئيها.

بصوت صفير، أطفأت تيلي نفسها.

حدقت به إلين، بعينين مشدوهتين وفم مفتوح في صدمة.

- لماذا فعلت ذلك؟

ابتسم ساي وقال: «أردت أن أتحدث إليك وحدك، نحن الاثنان فقط. أحيانًا يكون من الأفضل أن نبقى على سجيتنا فقط، دون تيلي، أليس كذلك؟».

بدت إلين محتارة وقالت: «لكنك تعرف أنه كلما زادت معرفة تيلي، ازدادت قدرتها على مساعدتنا. ألا تريد التأكد من ألا نرتكب أخطاء سخيفة في موعدنا الأول؟ كلانا مشغول، وتيلي ...».

- أعلم ما يمكن أن تفعله تيلي. لكن ...

رفعت إلين يدها، مما أجبره على الصمت. أمالت رأسها وهي تستمع إلى سماعتها.

قالت إلين: «لدي فكرة رائعة، هناك نادٍ ليليٌّ جديد، وأعلم أن تيلي يمكنها أن تجلب لنا قسيمة تخفيض».

هز ساي رأسه منزعجًا وقال: «لنحاول التفكير في شيء يمكننا فعله دون مساعدة تيلي. هل يمكنك إطفاؤها من فضلك؟».

لم يكن بإمكانه أن يفهم التعبيرات التي على وجه إلين لفترة من الوقت.

قالت: «أعتقد أنه ينبغي لي العودة إلى المنزل. عليّ الاستيقاظ مبكرًا من أجل العمل في الغد».

أدارت وجهها بعيدًا.

- هل أخبرتك تيلي أن تقولي ذلك؟

لم ترد واكتفت بتجنب النظر إلى عينيه.

أضاف ساي بسرعة: «لقد قضيت وقتًا رائعًا. هل تودين الخروج معي مرة أخرى؟».

دفعت إلين نصف الفاتورة ولم تطلب منه أن يرافقها إلى المنزل.

بصوت صفير، عادت تيلي لتنبض بالحياة في أذنه.

قالت تيلي: «أنت تبدو غير اجتماعي قليلًا الليلة».

- لست غير اجتماعي؛ لم تعجبني طريقتك في التدخل في كل شيء.

- أنا واثقة أنك كنت ستستمتع ببقية الموعد لو اتبعت نصيحتي.

واصل ساي القيادة في صمت.

- أشعر بوجود الكثير من العدوانية فيك. ماذا عن ممارسة الكيك بوكسينج؟ لم تذهب منذ فترة، وهناك صالة ألعاب رياضية تعمل على مدار 24 ساعة ستفتح قريبًا. اتجه يمينًا من هنا.

واصل ساي القيادة إلى الأمام.

- ما المشكلة؟

- لا أشعر برغبة في إنفاق المزيد من المال.

- أنت تعرف أن لدي قسيمة تخفيض.

- لماذا تعارضين توفير المال؟

- إن معدل ادخارك جيد جدًا. أنا فقط أريد التأكد من أنك تلتزم بنظامك في استهلاك وقت فراغك. إذا كنت ستوفر كثيرًا من المال، ستندم لاحقًا

لأنك لم تستفد من شبابك. لقد وضعت المقدار المثالي من الاستهلاك الذي ينبغي عليك الالتزام به يوميًّا.

- تيلي، كل ما أرغب فيه هو العودة إلى المنزل والنوم. هل يمكنك أن تطفئي نفسك لبقية الليل؟

- أنت تعلم أنه من أجل تقديم أفضل الترشيحات لحياتك، يجب أن أكون على دراية كاملة بك. إذا أقصيتني عن أجزاء من حياتك، فلن تكون ترشيحاتي دقيقة ...

مد ساي يده إلى جيبه وأغلق الهاتف. ساد الصمت في سماعة الأذن.

عندما وصل ساي إلى منزله، لاحظ أن الضوء فوق السلم المؤدي إلى شقته قد انطفأ، وكانت هناك عدة أشكال مظلمة تتجول في الأسفل.

- من هناك؟

تشتت العديد من الظلال، لكن ثمة ظل اقترب منه: جيني.

- لقد عدت مبكرًا.

كاد ألا يتعرف عليها؛ فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها صوتها بدون الفلتر الإلكتروني الذي تستخدمه عادة. بدا صوتها بشكل مفاجئ ... سعيدًا.

تفاجأ ساي.

- كيف عرفتِ أنني عدت مبكرًا؟ هل تراقبينني؟

نظرت جيني لأعلى بتأفف.

- لماذا أحتاج لمراقبتك؟ هاتفك يسجل دخولك وخروجك تلقائيًّا في كل مكان تذهب إليه مع رسالة الحالة التي تعكس مزاجك. كل ذلك موجود على بث حياتك على منصة مشاركة الكل ليشاهده الجميع.

حدق بها. وتحت أضواء مصابيح الشارع الخافتة، استطاع أن يرى أنها لم تكن ترتدي معطفها الشتوي السميك أو نظارات التزلج أو الوشاح. بل كانت ترتدي شورتًا وقميصًا أبيض فضفاضًا. وكانت هناك خصلات من شعرها الأسود مصبوغة باللون الأبيض. وفي الواقع، بدت جميلة جدًا، رغم أنها كانت تبدو قليلًا كمهووسي الثقافة.

- هل أنت مندهش لأنني أعرف كيف أستخدم الكمبيوتر؟

- ليس الأمر كذلك، لكنك تبدين عادة ...

- مهووسة؟ مجنونة؟ قل ما يدور في ذهنك. لن أشعر بالإهانة.

- أين معطفك ونظاراتك؟ لم أرَك قط دونهما.

- آه، لقد غطيت كاميرا الباب لديك بالشريط اللاصق حتى يتمكن أصدقائي من زيارتي الليلة، لذلك لم أرتدِهما. أنا آسفة ...

- فعلت ماذا؟

- ... وجئت إلى هنا لألتقي بك لأنني رأيت أنك أغلقت تيلي، ليس مرة واحدة، بل مرتين. أعتقد أنك مستعد لمعرفة الحقيقة أخيرًا.

كان دخول شقة جيني أشبه بالوجود وسط شبكة صيد.

السقف والأرض والجدران مغطاة كلها بشبكة معدنية رفيعة، تتلألأ مثل الفضة في الأضواء التي تومض من العديد من شاشات الكمبيوتر الكبيرة عالية الدقة المتكدسة حول الغرفة، والتي كانت على ما يبدو مصادر الإضاءة الوحيدة.

كان الأثاث المرئي الوحيد بجانب الشاشات، عبارة عن رفوف مليئة بالكتب (الورقية، لغرابة الأمر). كما كان هناك بعض صناديق الحليب القديمة المقلوبة، المغطاة بالمخدات، والتي استخدمت ككراسي.

كان ساي يشعر بعدم الارتياح لكل ما حدث اليوم، وكان يرغب في فعل شيء غير مألوف. لكنه ندم على قراره بقبول دعوتها للدخول. لقد كانت غريبة الأطوار، وربما أكثر مما ينبغي.

أغلقت جيني الباب ورفعت يدها، ثم أخرجت سماعة الأذن من أذن ساي. بعد ذلك، مدت يدها قائلة: «أعطني هاتفك».

- لماذا؟ إنه مغلق بالفعل.

لم تتحرك يد جيني. وبتردد، أخرج ساي هاتفه وأعطاه لها.

نظرت إلى الهاتف بازدراء وقالت: «لا توجد بطارية قابلة للإزالة. تمامًا كما هو متوقع من هواتف سنتليون، ينبغي أن يطلقوا على هذه الأجهزة أجهزة تتبع بدلًا من هواتف. فلا يمكنك أبدًا التأكد من أنها مغلقة حقًا».

أدخلت الهاتف في حافظة سميكة، وأغلقتها، ثم وضعته على المكتب.

- حسنًا، الآن بعد أن صار هاتفك محميًا صوتيًا وإلكترونيًا، يمكننا البدء في الحديث. الشبكة على الجدران تُحوِّل شقتي إلى قفص فاراداي، مما يمنع الإشارات الخلوية من النفاذ. لكنني لا أشعر بالراحة حول هاتف سنتليون إلى أن أتمكن من وضع بعض طبقات الحماية حوله.

- سأقولها بصراحة. أنت مجنونة. هل تعتقدين أن سنتليون تتجسس عليك؟ إن سياسة الخصوصية لديهم هي الأفضل في الصناعة. وكل معلومة يجمعونها يجب أن يقدمها المستخدم طواعية، وكلها تستخدم لتحسين حياة المستخدم ...

مالت جيني برأسها ونظرت إليه بابتسامة ساخرة حتى توقف عن الحديث.

- إذا كان كل هذا صحيحًا، فلماذا أطفأت تيلي الليلة؟ ولماذا وافقت على المجيء معي إلى هنا؟

لم يكن ساي متأكدًا من أنه نفسه يعرف الإجابات.

- انظر إلى ما وصلت إليه. لقد وافقت على أن تراقب الكاميرات كل تحركاتك، وأن تُسجل كل فكرة وكلمة وتفاعل في مركز بيانات بعيد حتى يمكن تشغيل الخوارزميات عليها، واستغلالها للحصول على بيانات يدفع المعلِنون مقابلها.

والآن لم يعد لديك أي شيء خاص، لا شيء يخصك وحدك. تعرف سنتليون كل شيء عنك. حتى أنك لم تعد تعرف من تكون. تشتري ما تريد سنتليون أن تشتريه، وتقرأ ما تقترحه عليك سنتليون، وتواعد من تعتقد سنتليون أنه يجب أن تواعده. لكن، هل أنت حقًّا سعيد؟

- هذا منظور عتيق. كل ما تقترحه لي تيلي أُثبتَ أنه يناسب ملفي الشخصي علميًّا، وأنها أشياء أحبها.

- ما تقصده هو أن بعض المعلنين دفعوا لسنتليون لتسويقه لك.

- هذه هي وظيفة الإعلانات، أليس كذلك؟ أن تطابق الرغبة مع الإشباع. هناك آلاف المنتجات في هذا العالم التي قد تناسبني تمامًا، لكنني قد لا أتعرف عليها أبدًا. تمامًا كما أن هناك فتاة مثالية لي، لكنني قد لا ألتقي بها أبدًا. ما الخطب في الاستماع إلى تيلي حتى يعثر المنتج المثالي على المستهلك المثالي، وتعثر الفتاة المثالية على الفتى المثالي؟

ضحكت جيني.

- أحب براعتك في تبرير وضعك. سأسألك مرة أخرى: إذا كانت الحياة مع تيلي رائعة جدًّا، فلماذا أطفأتها الليلة؟

قال ساي: «لا أستطيع تفسير ذلك». (ثم هز رأسه) وقال: «يبدو أنني ارتكبت خطأ. أعتقد أنني سأعود إلى المنزل».

قالت جيني: «انتظر. دعني أريك بعض الأمور المتعلقة بعزيزتك تيلي أولًا». ثم توجهت إلى المكتب وبدأت في الكتابة، مستعرضة مجموعة من الوثائق على الشاشة. وتحدثت أثناء محاولة ساي أن يقرأ ويستوعب ما هو موجود.

- قبل سنوات، تم ضبط سيارات سنتليون وهي تتنصت على جميع الاتصالات اللاسلكية من الشبكات المنزلية في الشوارع التي كانت تسير فيها. كما كانت سنتليون تلغي إعدادات الأمان التي على الأجهزة لتتابع عادات تصفح المستخدمين، قبل أن تتبنى سياسة مراقبة اختيارية تهدف إلى تقديم ترشيحات أفضل. هل تعتقد أنهم حقًّا تغيروا؟ إنهم يسعون للحصول على المزيد من البيانات عنك -فكلما زادت البيانات كان ذلك أفضل- ولا يهتمون بكيفية الحصول عليها.

تصفح ساي الوثائق في شك.

- إذا كان كل هذا صحيحًا، فلماذا لم يُثَر الموضوع في الأخبار؟

ضحكت جيني.

- أولًا، كل ما فعلته سنتليون كان قانونيًّا إلى حد كبير. فقد كانت الإشارات اللاسلكية موجودة في الفضاء العام، لذا لم يكن ثمة انتهاك للخصوصية. كما يمكن تفسير اتفاقية المستخدم النهائية بأنها تسمح بكل ما تفعله سنتليون لتحسين تجربتك. ثانيًا، كيف تحصل على أخبارك اليوم إلا من خلال سنتليون؟ وإذا لم ترغب سنتليون في أن ترى شيئًا، فلن يظهر أمامك.

- كيف وجدت هذه الوثائق إذًا؟

- جهازي متصل بشبكة تُبنى فوق الشبكة العادية، وهي شبكة لا تستطيع سنتليون الوصول إليها. بشكل أساسي، نعتمد على فيروس يحول أجهزة الكمبيوتر الخاصة بالناس إلى محطات إعادة إرسال لنا،

وكل شيء مُشفر ويتم توجيهه بطريقة تجعل سنتليون غير قادرة على رؤية تحركاتنا.

هز ساي رأسه قائلًا: «أنت فعلًا من أولئك الذين يروجون لنظريات المؤامرة. تجعلين سنتليون تبدو وكأنها حكومة قمعية شريرة. إنها فقط شركة تسعى للربح».

هزت جيني رأسها، وأجابت: «المراقبة تبقى مراقبة، ولا أفهم لماذا يظن البعض أن الأمر يختلف إذا كانت الحكومة هي التي تراقبنا أم الشركات. في الوقت الحالي، سنتليون أهم من الحكومات. وتذكّر أنها أسقطت حكومات ثلاث دول لمجرد أنها حاولت حظر سنتليون داخل أراضيها».

- لكن تلك كانت دولًا قمعية ...

- أوه، صحيح، وأنت تعيش في بلاد الحرية، أليس كذلك؟ هل تعتقد أن سنتليون كانت تهدف إلى تعزيز الحرية؟ كانوا يرغبون في الدخول ومراقبة الجميع ودعوتهم لمزيد من الاستهلاك، حتى تتمكن من تحقيق المزيد من الأرباح.

- لكن هذا مجرد عمل، لكن لا يمكننا أن نسميه شرًّا.

- تقول ذلك فقط لأنك لا تعرف كيف يبدو العالم اليوم بعد أن أُعيد تشكيله ليكون على صورة سنتليون.

رغم أن سيارة جيني كانت محمية مثل شقتها بشكل كبير، فإنها همست أثناء قيادتها، وكأنها تخشى أن يسمع المارة محادثتهما.

قال ساي حينما كانت تركن جيني سيارتها على جانب الشارع: «لا أستطيع تصديق كم يبدو هذا المكان متهالكًا». كانت الطريق مليئة بالحفر، وبدت المنازل المحيطة بهم في حالة سيئة. فهُجر بعضها وانهار البعض الآخر. ومن بعيد، كان يمكنهما سماع صوت صفارة سيارة الشرطة تتلاشى. لم يكن هذا الجزء من لاس ألدماس الذي زاره ساي من قبل.

- لم يكن الوضع كذلك قبل عشر سنوات.

- ماذا حدث؟

- لاحظت سنتليون ميل بعض الأشخاص، وليس الجميع، للإقامة في العقارات التي يمكنهم فيها الاختلاط بمن يشبههم في العرق. حاولت الشركة تلبية هذه الحاجة من خلال إعطاء أولوية عقارات مختلفة

للباحثين بناءً على عرقهم. لم يكن هناك شيء غير قانوني فيما كانوا يفعلونه، فقد كانوا يسعون لتلبية حاجة ورغبة مستخدميهم. لم يخفوا أي عقارات، بل دفعوها بعيدًا في قائمة الترتيب، وفي كل الأحوال، لم يكن بإمكانك تحليل خوارزميتهم وإثبات أنهم كانوا يأخذون العرق في الاعتبار، لأنه كان مجرد عامل من بين مئات العوامل في صيغة تصنيفاتهم السحرية.

بعد فترة، بدأ هذا الإجراء يتصاعد، وازدادت عملية الفصل العنصري سوءًا. وصار من الأسهل على السياسيين رسم حدود الدوائر الانتخابية بناءً على العرق. وهكذا نحن هنا. من في رأيك علق في هذه الأجزاء من المدينة؟

أخذ ساي نفسًا عميقًا.

- لم أكن أعلم ذلك.

- إذا سألت سنتليون، فسيقولون إن خوارزمياتهم تعكس فقط رغبة بعد المستخدمين في الانفصال عن المجموعات الأخرى، وأنهم لا يراقبون الأفكار. سيقولون إنهم يعززون الحرية عن طريق تلبية رغبات الناس. لكنهم لن يفصحوا بالطبع عن أرباحهم التي يحققونها من عمولات العقارات.

- لا أستطيع أن أصدق أن لا أحد يتحدث عن هذا.

- لقد نسيت مرة أخرى أن كل ما تعرفه الآن يأتي مصفًّى من خلال سنتليون. فكل الأبحاث التي تجريها أو موجز الأخبار التي تسمعها قد تم تنسيقها من قبل سنتليون ليتناسب مع ما تعتقد أنك تريد أن تسمعه. فأي شخص سيشعر بالانزعاج من الأخبار لن يشتري ما يبيعه المعلنون، لذلك تضفي سنتليون تعديلاتها حتى تجعل كل شيء يبدو على ما يرام.

كأننا جميعًا نعيش في مدينة الزمرد في أوز. وتضع سنتليون نظارات خضراء سميكة على أعيننا، لنعتقد جميعًا أن كل شيء بملون بلون أخضر جميل.

- أنت تتهمين سنتليون بالرقابة.

- لا، سنتليون هي خوارزمية خرجت عن السيطرة. إنها توفر لك المزيد مما تظن أنك تريده. ونحن -أشخاص مثلي- نرى أن هذا جوهر المشكلة.

لقد وضعتنا سنتليون في فقاعات صغيرة؛ كل ما نشاهده ونسمعه هو صدى لأنفسنا، مما يجعلنا نعلق أكثر في معتقداتنا الحالية ونبالغ في ميولنا. فنتوقف عن طرح الأسئلة ونقبل بحكم تيلي على كل شيء.

ثم سنة بعد أخرى، نصير أكثر خضوعًا، بينما يزداد الصوف الذي تحلقه سنتليون من على جلودنا ليزداد ثراؤها. لكنني لا أرغب في العيش بهذه الطريقة.

- ولماذا تشاركينني هذا كله؟

قالت جيني وهي تنظر لساي بحزم: «لأننا -يا جاري- سنقتل تيلي». وأردفت: «وأنت ستساعدنا على فعل ذلك».

بدت شقة جيني بنوافذها المغلقة بإحكام وستائرها المسدلة، أكثر اختناقًا بعد رحلة السيارة. نظر ساي حوله إلى الشاشات المتلألئة التي تعرض أنماطًا تجريدية متراقصة، وشعر بالتردد فجأة.

- وكيف تخططين لقتل تيلي؟

- نحن نعمل على فيروس، سلاح إلكتروني، إذا كنت تريد استخدام مصطلحات قوية.

- وماذا سيفعل هذا الفيروس بالضبط؟

- نظرًا لأن البيانات هي شريان حياة تيلي -المليارات من الملفات الشخصية التي جمعتها سنتليون عن كل مستخدم- فإن هذا هو السبيل الذي يجب أن نتبعه لتدميرها.

مجرد دخول الفيروس إلى مركز بيانات سنتليون، سيبدأ في تعديل ملفات المستخدمين التي ستظهر أمامه وسينشئ ملفات تعريف مزيفة. نريد أن يتحرك ببطء لتفادي الكشف عنه. لكن في النهاية، ستتلوث البيانات إلى درجة ألا تتمكن تيلي من إجراء توقعات غريبة ومسيطرة عن المستخدمين. وإذا نفذنا الخطة ببطء كافٍ، فلن يستطيعوا العودة إلى النسخ الاحتياطية لأنها ستتعرض للتلف أيضًا. فبدون تلك البيانات التي جُمعت على مر العقود، ستتوقف عائدات سنتليون الإعلانية بين عشية وضحاها، وستختفي تيلي.

تخيل ساي مليارات المعلومات المخزنة في السحابة: أذواقه، وما يحبه وما يكرهه، ورغباته السرية، ونواياه المعلنة، وتاريخ بحثه، ومشترياته، والمقالات والكتب التي قرأها، والصفحات التي تصفحها.

تشكل هذه البيانات نسخة رقمية منه، فعليًا. هل هناك أي جزء من هويته ليس موجودًا أيضًا في السحابة، ومُنسقًا بواسطة تيلي؟ ألن يكون إطلاق فيروس على كل ذلك بمثابة انتحار، أو كجريمة قتل؟

لكنه تذكر شعوره عندما كانت تيلي تقوده في كل خيار، وكيف كان راضيًا مثل خنزير سعيد يلعب في حظيرته.

كانت تلك البيانات ملكه، لكنها ليست هو. كان لديه إرادة لا يمكن اختزالها في مجرد بيانات. وكادت تيلي أن تجعله ينسى ذلك.

سألها ساي: «كيف يمكنني المساعدة؟».

استيقظ ساي على أنغام أغنية «ماذا سيحدث إذًا؟» (So What) لمايلز ديفيس.

في البداية، تساءل إن كانت ذكريات الليلة الماضية مجرد حلم. كان شعور الاستيقاظ رائعًا، إضافة إلى الاستماع إلى الأغنية التي أراد سماعها.

سألته تيلي: «هل تشعر بتحسن يا ساي؟».

هل أشعر بذلك؟

- ظننت أنني أطفأتك يا تيلي من الزر نفسه.
- قلقت من أن تكون أطفأت إمكانية وصول سنتليون إلى حياتك ليلة البارحة ونسيت إعادة تشغيله. وربما كنت ستفوت مكالمة استيقاظك. كما أن سنتليون قد أضافت نظام أمان لمنع حدوث ذلك. كنا نعتقد أن معظم المستخدمين مثلك سيرغبون في وجود مثل هذا التعديل حتى تتمكن سنتليون من استعادة الوصول إلى حياتك.

قال ساي: «بالطبع». *إذًا، من المستحيل إطفاء تيلي بشكل كامل. كان كل ما قالته جيني في الليلة الماضية صحيحًا. شعر بقشعريرة تسري على ظهره.*

- هناك فترة تصل إلى قرابة اثنتي عشرة ساعة لم أستطع فيها جمع أي بيانات عنك. ولمنع تدهور قدرتي على مساعدتك، أنصحك بأن تخبرني كل شيء.
- أوه، لم يفُتك الكثير. لقد عدت إلى المنزل ونمت. كنت متعبًا جدًّا.

- يبدو أنه حدث تخريب في الليلة الماضية في كاميرات الأمان الجديدة التي ركبتها. وقد بلغت الشرطة. وللأسف، لم تتمكن الكاميرات من التقاط صورة واضحة للجاني.

- لا تقلقي بشأن ذلك. لا يوجد هنا ما يستحق السرقة على أي حال.

- تبدو محبطًا بعض الشيء. هل هذا بسبب موعدك ليلة البارحة؟ يبدو أن إيلين لم تكن الاختيار المناسب لك في النهاية.

- إمم، نعم. ربما لا.

- لا تقلق، لدي شيء مناسب سيرفع من معنوياتك.

على مدار الأسابيع القليلة التالية، وجد ساي صعوبة كبيرة في تأدية دوره المخصص.

كان الحفاظ على تظاهره بأنه ما زال يثق بـتيلي ضروريًّا، كما أكدت جيني. فإذا كان مقدرًا لخطتهم أن تنجح، ينبغي ألا تشك تيلي في حدوث أي شيء على الإطلاق.

في البداية، بدا الأمر بسيطًا، لكن بعد ذلك صار الاحتفاظ بالأسرار بعيدًا عن تيلي مرعبًا. تساءل ساي: هل بإمكانها اكتشاف الرجفات في صوته؟ هل يمكنها أن تكتشف تظاهره بالحماس للتعاملات الاستهلاكية التجارية التي تقترحها؟

وفي الوقت نفسه، كان لديه أيضًا لغز أكبر بكثير لحله قبل أن يأتي جون بي. راشجور، المساعد العام للمستشار القانوني في سنتليون، إلى تشابمان سينج في الأسبوع التالي.

قالت جيني *إن تشابمان سينج يدافع عن سنتليون في نزاع براءات اختراع مع منصة مشاركة الكل. هذه هي فرصتنا للدخول إلى شبكة سنتليون. كل ما عليك فعله هو أن تجعل شخصًا من سنتليون يوصّل هذا إلى حاسوبه المحمول.* ثم سلمته قرص تخزين صغيرًا.

رغم أنه لم يتوصل بعد إلى خطة لإدخال قرص التخزين في جهاز سنتليون، كان ساي سعيدًا بوصوله إلى نهاية يوم طويل آخر من الحذر من تيلي.

قال: «تيلي، سأذهب للركض. سأتركك هنا».

قالت تيلي: «أنت تعرف أنه من الأفضل أن تأخذني معك. يمكنني تتبع معدل نبضات قلبك واقتراح مسار مثالي لك. "

أجاب ساي: «أعلم هذا. لكني أريد أن أركض بمفردي قليلًا، حسنًا؟».

قالت تيلي: «أشعر بقلق كبير تجاه ميولك الأخيرة نحو الاختباء بدلًا من المشاركة».

رد ساي: «ليس هناك أي ميول يا تيلي. أنا فقط لا أريد أن تُسرقي إذا تعرضت لاعتداء. أنت تعرفين أن هذا الحي صار أكثر خطورة في الآونة الأخيرة. "

ثم أغلق الهاتف وتركه في غرفته.

أغلق الباب خلفه، وتأكد أن الكاميرا ما زالت مغطاة بالشريط اللاصق، وطرق بلطف على باب جيني.

أدرك ساي أن التعرف على جيني كان أغرب شيء فعله على الإطلاق.

لم يكن بإمكانه الاعتماد على تيلي ليضمن وجود مواضيع للتحدث عنها مسبقًا. لم يستطع الاعتماد على اقتراحاتها المناسبة دائمًا عندما يعجز عن إيجاد الكلمات. ولم يتمكن حتى من البحث في ملف جيني على منصة مشاركة الكل.

كان يعتمد على نفسه فقط، وكان ذلك مثيرًا للغاية.

سألها ساي: «كيف اكتشفت ما كانت تيلي تفعله بنا؟».

أجابت جيني وهي تضع خصلة من شعرها خلف أذنها: «لقد نشأت في الصين،» وجد ساي هذه الحركة جذابة بطريقة غير متوقعة. «في ذلك الوقت، كانت الحكومة تراقب كل ما نفعله على الشبكة، ولم تكن تخفي ذلك. كان علينا أن نتعلم كيفية إبقاء الجنون بعيدًا، وأن نقرأ ما بين السطور، وأن نتحدث دون أن نُسمع».

- أعتقد أننا كنا محظوظين هنا.

- لا.

وابتسمت لتعبيره المتفاجئ. وبدأ يتعلم أنها تفضل أن تكون مختلفة، وأن تخالفه الرأي. وقد أعجبه ذلك فيها.

تابعت: «لقد نشأت معتقدًا أنك حر، مما صعّب عليك رؤية متى لم تكن كذلك. كنت مثل الضفادع التي تغلي ببطء في قدر».

- هل يوجد الكثيرون مثلك؟

- لا. من الصعب العيش بعيدًا عن الشبكة. لقد فقدت الاتصال بأصدقائي القدامى. وأجد صعوبة في التعرف على الناس لأن حياتهم معظمها تدور حول سنتليون و«مشاركة الكل». يمكنني أن ألقي نظرة على حياتهم من حين لآخر من خلال ملف وهمي، لكن لا أستطيع أبدًا أن أكون جزءًا من حياتهم. أحيانًا أشك فيما إذا كنت أفعل الشيء الصحيح.

قال ساي: «أنت تفعلين الشيء الصحيح». ورغم عدم وجود تيلي لتشجعه، أمسك بيد جيني. ولم تسحب يدها.

قالت: «لم أفكر بك حقًّا كنوعي المفضل».

شعر ساي بقلبه يغوص كالحجر.

وقالت بسرعة: «لكن من يفكر في ‹الأنواع› سوى تيلي؟»، ثم ابتسمت وسحبته إليها.

أخيرًا، جاء اليوم المنتظر. كان راشجور في شركة تشابمان سينج يستعد للإدلاء بشهادته. وظل مع محامي الشركة في إحدى غرف الاجتماعات طوال اليوم.

جلس ساي إلى مكتبه، ونهض، ثم جلس مرة أخرى. كان التوتر يسري في جسده وهو يفكر في أفضل طريقة لتسليم الحمولة، إن جاز التعبير.

لعله يستطيع التظاهر بأنه من قسم الدعم الفني، وجاء لإجراء فحص طارئ لنظامه؟

أو ربما يمكنه توصيل الغداء له وإدخال قرص التخزين بشكل غير ملحوظ؟

أو قد يسحب مفتاح إنذار الحريق على أمل أن يترك راشجور حاسوبه المحمول خلفه؟

لم تنجح أي من أفكاره إلا في إضحاكه.

- مرحبًا.

التفت ساي فوجد المساعد الذي كان مع راشجور في غرفة الاجتماعات طوال اليوم يقف فجأة بجوار مكتبه.

- راشجور بحاجة إلى شحن هاتفه، هل لديك كابل شحن من سنتليون هنا؟

حدق به ساي، مذهولًا من حسن حظه.

رفع المساعد الهاتف ولوح له به.

قال ساي: «بالطبع! سأحضر لك واحدًا فورًا».

- شكرًا.

عاد المساعد إلى غرفة الاجتماعات.

لم يصدق ساي نفسه. هذا ما كان ينتظره. وصّل القرص بكابل الشحن وأضاف امتدادًا في الطرف الآخر. بدا الشكل غريبًا قليلًا، مثل ثعبان رفيع ابتلع فأرًا.

ولكن فجأة شعر بانقباض غريب في معدته، وكاد أن يلقي بالسباب بصوت عالٍ: لقد نسي إطفاء كاميرا الويب التي فوق جهازه -عيون *تيلي*- قبل تحضير الكابل. إذا تساءلت تيلي عن الكابل الغريب الذي كان يحمله، فلن يستطيع أن يفسر لها ذلك، وستذهب كل جهوده في التمويه والتخفي سدًى.

ولكن لم يكن هناك ما يمكنه فعله سوى المضي قدمًا في خطته. عندما غادر مكتبه، كان قلبه ينبض بشدة لدرجة أنه شعر بأنه يكاد يصل إلى حلقه.

تقدم في الرواق بخطوات سريعة باتجاه غرفة الاجتماعات.

لم يصدر أي صوت من سماعة الأذن.

فتح الباب. كان راشجور منشغلًا للغاية بحاسوبه لدرجة أنه لم يرفع رأسه حتى. أخذ الكابل من ساي ووصل أحد طرفيه بحاسوبه والطرف الآخر بهاتفه.

وظلت تيلي صامتة.

استيقظ ساي على -أكثر أغنية مناسبة- «نحن الأبطال» (We Are The Champions).

كانت ذكرياته عن الليلة الماضية المملوءة بالشرب والضحك مع جيني وأصدقائها ضبابية، لكنه تذكر عودته إلى المنزل وإخباره تيلي، قبل أن يغفو بقليل: «لقد فعلناها! لقد انتصرنا!».

آه، لو كانت تيلي تعرف ما الذي كنا نحتفل به حقا.

تلاشت الموسيقى حتى توقفت.

تمدد ساي بكسل، واستدار على جانبه، وحدق بأعين أربعة رجال ضخام وجادين للغاية.

- تيلي، اتصلي بالشرطة!

- أنا آسفة، لا يمكنني فعل ذلك يا ساي.

- لماذا لا يمكنك بحق الجحيم؟

- هؤلاء الرجال هنا لمساعدتك. ثق بي يا ساي. أنت تعرف أنني أعلم تمامًا ما تحتاج إليه.

عندما ظهر أولئك الرجال الغريبون في شقته، تخيل ساي زنازين التعذيب، ومستشفيات الأمراض النفسية، وحراس بلا وجوه يتجولون خارج زنزانات مظلمة. لم يكن يتخيل أنه سيجلس عبر الطاولة من كريستيان رين، مؤسس ورئيس مجلس إدارة سنتليون، وهو يتناول الشاي الأبيض.

قال رين: «لقد اقتربتما كثيرًا من تنفيذ خطتكما». كان الرجل في أوائل الأربعينيات من عمره ذا جسد رياضي وعقل ذكي. وفكر: يبدو *تمامًا من نوع من الأشخاص الذين تخيلهم ساي كنسخة ذكورية من تيلي*. (ابتسم الرجل) وقال: «أقرب من أي شخص آخر».

سألت جيني: «ما الخطأ الذي كشفنا؟».

كانت تجلس إلى يسار ساي، ومد يده نحوها. تشابكت أصابعهما، مما منح كل منهما القوة.

- هاتفه، في تلك الليلة الأولى التي زارك فيها.

- مستحيل. لقد غطيته جيدًا. لم يكن بإمكانه تسجيل أي شيء.

- لكنك تركته على مكتبك، حيث كان لا يزال بإمكاننا استخدام جهاز استشعاره. لقد اكتشف وسجل الاهتزازات الناتجة عن كتابتك. ثمة طريقة مميزة للغاية نكتب بها على لوحة المفاتيح، ومن الممكن إعادة تشكيل ما كان يكتبه شخص ما بناءً على أنماط الاهتزاز وحدها. إنها تقنية قديمة طورناها للإمساك بالإرهابيين وتجار المخدرات.

أطلقت جيني السباب في سرها، وأدرك ساي أنه حتى تلك اللحظة، على بعض المستويات، لم يكن قد صدق جنون جيني تمامًا.

- لكنني لم أحضر هاتفي بعد ذلك اليوم الأول.

- صحيح، لكننا لم نكن بحاجة إليه. فبعد أن التقطت تيلي ما كانت تكتبه جيني، فُعلت الخوارزميات الصحيحة للتنبيه وركزنا المراقبة عليك. كما وضعنا مركبة مراقبة مرور على بعد شارع من منازلكما ووجهنا ليزر صغيرًا نحو نافذة جيني. كان ذلك كافيًا لنسجل محادثاتكما من خلال الاهتزازات في الزجاج.

قال ساي: «أنت رجل مريب حقًّا يا سيد رين، كما أنك حقير».

لم يبد أن رين تأثر بذلك.

- أعتقد أن شعورك سيختلف في نهاية محادثتنا. لم تكن سنتليون هي الشركة الأولى التي تتعقبك.

شددت جيني أصابعها حول أصابع ساي.

- دعه يذهب. أنا من تريده حقًّا. إنه لا يعرف شيئًا.

هز رين رأسه وابتسم بأسف.

- ساي، هل تعرف أن جيني انتقلت إلى الشقة المجاورة لك بعد أسبوع من اختيارنا لشابمان سينج ليمثلنا في الدعوى ضد شركة مشاركة الكل؟

لم يفهم ساي ما يقصده رين، لكنه شعر أنه لن يحب ما سيكتشفه. أراد أن يخبر رين بأن يصمت، لكنه ابتلع كلماته.

- أليس ذلك مثيرًا للاهتمام؟ لا يمكنك مقاومة جاذبية المعلومات. إذا كان بإمكاننا فسنرغب دائمًا في معرفة كل شيء جديد، نحن مبرمجون جينيًّا بهذه الطريقة. وهذي هي دوافع سنتليون أيضًا.

قالت جيني: «لا تصدق أي شيء يقوله».

- هل ستتفاجأ إذا أخبرتك أن خمسة من مساعدي المحامين الآخرين في شركتك أيضًا قد انتقل جيران جدد بجوارهم خلال الأسبوع نفسه؟ هل سيفاجئك أيضًا أن الجيران الجدد جميعهم تعهدوا بتدمير سنتليون، تمامًا مثل جيني؟ إن تيلي بارعة جدًّا في اكتشاف الأنماط المتكررة.

تسارعت النبضات في قلب ساي. والتفت إلى جيني.

- هل هذا صحيح؟ هل كنت تخططين منذ البداية لاستغلالي؟ هل تعرفت عليّ فقط حتى تحصلي على فرصة لتوصيل الفيروس؟

أدارت جيني وجهها بعيدًا.

- إنهم يعرفون أنه لا توجد طريقة لاختراق أنظمتنا من الخارج، لذا كان عليهم إدخال فيروس خبيث بشكل سري. لقد استغلوك يا ساي. هي وأصدقاؤها حركوك وقادوك مثل الخروف، وجعلوك تفعل أشياء يتهموننا بأننا نفعلها.

قالت جيني: «ليس الأمر هكذا، اسمعني يا ساي، ربما كان الأمر هكذا في البداية. لكن الحياة ملآنة بالمفاجآت. وقد فاجأتني، وهذا أمر جيد».

ترك ساي يد جيني واستدار مرة أخرى إلى رين.

- ربما استغلوني بالفعل. لكنهم على حق. لقد حولتم العالم إلى بانوبتيكون[1] وجعلتم الناس دمى مطيعة تدفعونها في الاتجاهات التي ترغبون فقط لكي تكسبوا المزيد من المال.

- أنت بنفسك أشرت إلى أننا نحقق رغبات الناس، ونسهل محرك التجارة بطريقة أساسية.

- لكنكم أيضًا تحققون الرغبات الشريرة. وتذكر مرة أخرى المنازل المهجورة على جانب الطريق، والأرصفة المتصدعة.

قال رين: «نحن نكشف فقط عن الشرور الموجودة بالفعل بداخل الناس. ولم تخبرك جيني عن المتحرشين بالأطفال الذين قبضنا عليهم، أو عن الاغتيالات التي أوقفناها، أو كم المخدرات التي اكتشفناها والإرهابيين الذين

(1) كلمة المترجمة: سجن البانوبتيكون الذي أعدّه جيريمي عام 1791 عبارة عن مجموعة من الزنازين في شكل دائري، ولا يسمح تصميمها بالتواصل بين السجناء، ويتوسطها فناء به برج للمراقبة. وتُضاء من الخارج فلا يستطيع السجناء رؤية من في برج المراقبة، في حين أن المراقب وحده من يرى جميع من في الزنازين، مراقب واحد لآلاف السجناء. يُرسخ هذا التصميم شعور المراقبة الدائمة لدى السجناء، فحتى لو لم يكن هناك من يراقبهم بالبرج فهم لن يستطيعوا معرفة ذلك، مما يجبرهم على التصرف طبقًا للتعليمات لمعرفتهم أنه قد يكون هناك من يراقبهم الآن. في تصميم سجن بانوبتيكون يلعب المعمار دورا في قوة ممارسة السلطة، وحلت المراقبة محل التعذيب والعنف.

كشفناهم. وكل الطغاة والرجال الأقوياء الذين أطحنا بهم من خلال تصفية دعاياتهم وتوصيل أصوات معارضيهم إلى الناس».

قالت جيني: «لا تحاول أن تصور أنكم نبلاء إلى هذا الحد. ماذا تفعلون بعد أن تطيحوا بالحكومات، أنتم والشركات الغربية الأخرى؟ تنتقلون إلى هناك لتحققوا المزيد من الأرباح. أنتم مجرد دعاة من نوع مختلف، فتجعلون العالم سطحيًّا وتافهًا، وتحولون كل مكان إلى نسخ من أمريكا الضاحية الملآنة بالمراكز التجارية».

رد رين: «يسهل التهكم عندما لا تعرفين شيئًا. لكنني فخور بما أنجزناه. إذا كان الاستعمار الثقافي هو ما يتطلبه الأمر لجعل العالم مكانًا أفضل، فسننظم معلومات العالم بفخر لرفع شأن الجنس البشري».

سأله ساي: «لماذا لا يمكنكم تقديم المعلومات بشكل محايد؟ لماذا لا تعودون لتكونوا مجرد محرك بحث بسيط؟ لما كل هذه المراقبة والتصفيات؟ لما كل هذا التلاعب؟».

- لا يوجد شيء يُدعى تقديم المعلومات بشكل محايد. إذا سأل شخص ما تيلي عن اسم مرشح، هل يجب على تيلي أن تأخذه إلى موقعه الرسمي أم إلى موقع ينتقده؟ إذا سأل شخص تيلي عن «مظاهرات ساحة تيان آن من»[1]، هل يجب على تيلي أن تخبره عن مئات السنين من التاريخ وراء المكان أم أن تخبره فقط عما حدث يوم 4 يونيو عام 1989؟ إن زر أثق بك هو مسؤولية ثقيلة نتعامل معها بجدية كبيرة.

تعمل سنتيليون في مجال تنظيم المعلومات، وهذا يتطلب اتخاذ خيارات، وتوجيهات، وموضوعية متأصلة. ما تراه مهمًّا بالنسبة لك -وما تعتبره

(1) كلمة المترجمة: ترمز ساحة «تيان آن مين» للحكم الشيوعي، وقد جسدت منذ 1989 قمع السلطات لما يسمى بـ «ربيع بكين». و«ربيع بكين» هي حركة ولدت في 15 أبريل عام 1989 بعد وفاة هو ياوبانج الأمين العام السابق للحزب الشيوعي الصيني، الذي أقيل قبلها بعامين على خلفية تأييد مطالب شبابية بإصلاحات ديمقراطية. وقد تجمع طلاب ومثقفون وعمال في الساحة احتجاجًا على الفساد ومطالبين بالإصلاح، وبلغ عدد المتظاهرين نحو المليون. وفي صباح الرابع من يونيو عام 1989، دفعت الحكومة بالدبابات والجنود لإخلاء ميدان «تيان آن مين»، ما أدى إلى مقتل نحو 300 شخص حسب الأرقام الرسمية، لكن منظمة العفو الدولية قدرت عدد القتلى بـ1300 على الأقل.

صحيحًا- قد لا يكون مهمًّا أو صحيحًا بالنسبة للآخرين. الأمر يعتمد على التقييم والتصنيف. ولنبحث عما يهمك، يجب علينا أن نعرف كل شيء عنك. وهذا بدوره لا يمكن فصله عن التصفية والتلاعب.

- تبدو وكأنك تجعل الأمر حتميًّا جدًّا.

- إنه كذلك بالفعل. أنت تظن أن تدمير سنتليون سيحررك، مهما كان معنى الحرية بالنسبة لك. لكن دعني أسألك، هل يمكنك إخباري بمتطلبات بدء عمل جديد في ولاية نيويورك؟

فتح ساي فمه، وأدرك أن رغبته الأولى كانت في سؤال تيلي. فأغلق فمه مرة أخرى.

- ما هو رقم هاتف والدتك؟

قاوم ساي الرغبة في الإمساك بهاتفه.

- ماذا عن أن تخبرني بما حدث في العالم أمس؟ ما الكتاب الذي اشتريته واستمتعت به قبل ثلاث سنوات؟ متى بدأت مواعدة آخر حبيبة لك؟

لم ينطق ساي بكلمة.

- أترى؟ دون تيلي، لا يمكنك أداء عملك، ولا تستطيع تذكر حياتك، ولا حتى الاتصال بوالدتك. نحن الآن سلالة من السايبورج[1]. لقد بدأنا منذ زمن بعيد في نقل عقولنا إلى العالم الإلكتروني، ولم يعد بإمكاننا كبس كل ما نحن عليه مرة أخرى وإعادته في عقولنا. والنسخ الإلكترونية من أنفسكم التي أردتم تدميرها هي أنتم بالفعل.

وبما أنه من المستحيل العيش دون هذه الامتدادات الإلكترونية لأنفسنا، إذا دمرت سنتليون، فسيظهر بديل آخر ليأخذ مكانها. لقد فات الأوان، وهرب الجني من القمقم منذ زمن. قال تشرشل إننا نشكل مبانينا، وبعد ذلك تشكلنا مبانينا. لقد صنعنا الآلات لتساعدنا على التفكير، والآن الآلات تفكر بدلًا عنا.

سألته جيني: «ماذا تريد منا إذًا؟ نحن لن نتوقف عن محاربتك».

- أريدكما أن تأتيا وتعملا مع سنتليون.

نظر ساي وجيني إلى بعضهما.

(1) كلمة المترجمة: مصطلح «سايبورج» يشير إلى كائن نصفه بشري ونصفه الآخر آلي، ويتكون من مزيج من مكونات عضوية، وأخرى حيوية، وثالثة إلكترونية وميكانيكية.

- ماذا؟

- نريد أشخاصًا يمكنهم رؤية ما وراء اقتراحات تيلي، واكتشاف عيوبها. رغم كل ما تمكنا من فعله باستخدام الذكاء الاصطناعي والتنقيب عن البيانات، فإن الخوارزمية المثالية ما زالت بعيدة المنال. ولأنكما تستطيعان رؤية عيوبها، ستكونان أفضل من يعرف ما تفتقده تيلي وما هي النقاط التي غابت عنها. إنكما شريكها المثالي. وستجعلانها أفضل، وأكثر جاذبية، لتتمكن تيلي من أداء عمل أفضل.

سألت جيني: «لماذا سنفعل ذلك؟ لماذا سنرغب في مساعدتك على إدارة حياة الناس بواسطة آلة؟».

- لأنه رغم كل ما تظنونه عن سنتليون، فإن أي بديل محتمل سيكون أسوأ منا. لم يكن جعل مهمة هذه الشركة النهوض بالإنسانية مجرد خطوة دعائية، حتى وإن لم تتفقوا مع الطريقة التي اتبعتها لتحقيق ذلك.

- إذا فشلنا، من تعتقدان أنه سيحل محلنا؟ مشاركة الكل؟ أترشحان الشركة الصينية؟

أشاحت جيني بنظرها بعيدًا.

- وهذا سبب أننا بذلنا جهدًا غير عادي للتأكد من أننا نملك جميع البيانات التي نحتاج إليها لإيقاف المنافسين، إضافة إلى الأفراد ذوي النوايا الحسنة، لكن السذج مثلكم، من تدمير كل ما حققته سنتيلون.

- ماذا لو رفضنا الانضمام إليكم ولكننا أخبرنا العالم بما فعلتم؟

- لن يصدقكما أحد. مهما قلتما ومهما كتبتما، فلن نجعل أحد يجد ذلك أبدًا. على الإنترنت، إذا لم تستطع سنتيلون العثور على شيء، فلا وجود له.

كان ساي يعلم أنه محق.

- كنتما تعتقدان أن سنتليون مجرد خوارزمية، آلة. لكن ها قد عرفتما أنها مبنية من قبل أشخاص، أشخاص مثلي، وأشخاص مثلكما. لقد أخبرتماني بالأخطاء التي فعلتها. ألا تفضلا أن تكونا جزءًا منا حتى تتمكنا من محاولة تحسين الأمور؟

في مواجهة ما لا مفر منه، الخيار الوحيد هو التكيف.

أغلق ساي باب الشقة خلفه. وتبعته الكاميرا التي فوق رأسه.

سألته تيلي: «هل ستأتي جيني غدًا لتناول العشاء؟».

- ربما.

- أنت بحاجة لأن تقنعها بأن تبدأ في المشاركة. سيكون ذلك أسهل في التخطيط.

- لا أعتقد ذلك يا تيلي.

قالت تيلي: «أنت متعب. ما رأيك في أن أطلب لك عصير التفاح العضوي الساخن ثم تذهب إلى السرير؟».

يبدو *هذا مثاليًا*.

قال ساي: «لا، أعتقد أنني أفضل القراءة قليلًا في السرير».

- بالطبع. هل تود أن أقترح لك كتابًا؟

- في الواقع، أفضل أن تأخذي بقية الليل إجازة. لكن أولًا، اجعلي أغنية الاستيقاظ «طريقي» (My Way) لفرانك سيناترا.

- اختيار غير معتاد، نظرًا إلى ذوقك. هل هذه تجربة لمرة واحدة أم تود أن أدمجها في ترشيحاتك الموسيقية في المستقبل؟

- مجرد مرة واحدة، في الوقت الحالي. تصبحين على خير يا تيلي. من فضلك، أطفئي نفسك.

أطلقت الكاميرا طنينًا، وتبعت ساي إلى السرير، ثم انطفأت.

لكن ضوءًا أحمر استمر في الوميض ببطء في الظلام.

حظًّا سعيدًا في الصيد

ليل ونصف قمر وصوت بوم يتردد بين حين وآخر.

أُرسل التاجر وزوجته وجميع الخدم بعيدًا عن المنزل.

كان المنزل الكبير هادئًا بشكل مرعب.

انحنيت أنا ووالدي خلف صخرة العالِم[1] في الفناء.

من خلال الثقوب العديدة في الصخرة، استطعت رؤية نافذة غرفة نوم ابن التاجر.

- أوه، يا شياو جونج، شياو جونج العزيزة ...

كانت أنّات الشاب المحموم مؤلمة. كان يهذي وهو مقيد إلى سريره لمصلحته، لكن والدي ترك نافذة مفتوحة حتى يترك أناته الحزينة للنسيم ليحملها بعيدًا فوق حقول الأرز.

همست: «هل تعتقد أنها ستأتي حقًّا؟». كان اليوم هو عيد ميلادي الثالث عشر، وكانت هذه أول مهمة صيد لي.

قال والدي: «ستأتي. الهوليجينجج[2] لا يمكنها مقاومة صرخات الرجل الذي سحرته».

(1) كلمة المترجمة: صخرة العالِم هي نوع من الصخور الطبيعية تُقدَّر لجمالها وغالبًا ما تُستخدم في الحدائق الصينية والفنون التقليدية. تُختار لأشكالها الفريدة وملمسها وألوانها، وتمثل سعي العالِم نحو المعرفة والتأمل. تاريخيًا، كانت تُعتبر من الأشياء الثمينة التي يعتز بها العلماء والفنانون، وغالبًا ما كانت تُعرض في استوديوهاتهم وحدائقهم كنقطة تركيز للتفكر. يتماشى تقدير هذه الصخور مع القيم الثقافية الساعية نحو التميز الفكري والفني. في الأدب، يمكن أن تمثل صخرة العالِم أيضًا الاتصال بالتقاليد والحكمة والجوانب الفلسفية للحياة.

(2) كلمة المترجمة: الهوليجينجج هو مصطلح في الثقافة الصينية يشير إلى كائن أسطوري يُعتقد أنه عبارة عن ثعلب يتمتع بقدرات سحرية، وخاصة القدرة على تحويل نفسه إلى شكل إنساني. يُعد الهوليجينجج رمزًا للإغواء والفتنة، وغالبًا ما يُصور على أنه كائن يجذب الرجال بسحره ويسحرهم، مما يؤدي إلى عواقب سلبية في بعض الأحيان.

- مثل بطلي قصة عشاق الفراشة الذين لا يستطيعان مقاومة بعضهما؟

وتذكرت فرقة الأوبرا الشعبية التي جاءت إلى قريتنا في الخريف الماضي.

قال والدي: «ليس بالضبط». لكن بدا أنه يواجه صعوبة في شرح السبب.

- اعلم فقط أن الأمر ليس كما تظن.

أومأت برأسي، لست متأكدًا من أنني فهمت ما يقصد. لكنني تذكرت مجيء التاجر وزوجته إلى والدي ليطلبان مساعدته.

تمتم التاجر: «*يا للعار! لم يبلغ حتى التاسعة عشر من عمره. كيف يمكنه قراءة كل كتب الحكماء تلك ومع ذلك يقع تحت تأثير هذا الكائن؟*».

رد والدي: «لا عار في الانجذاب لجمال ومكر الهوليجينجج. حتى العالم العظيم وونج لاي قضى ثلاث ليالٍ في صحبة واحدة منهم، وحصل على المركز الأول في الامتحانات الإمبراطورية. ابنك بحاجة إلى قليل من المساعدة فقط».

قالت زوجة التاجر وهي تنحني كدجاجة تنقر على الأرز: «عليك أن تنقذه. إذا انتشر هذا الأمر، فلن تلتفت له أي خاطبة على الإطلاق ولن يتزوج أبدًا».

كانت الهوليجينجج شيطانة تسرق القلوب. شعرت بالارتعاش ينفض جسدي، وقلقت من مقدار شجاعتي في مواجهتها.

وضع والدي يده الدافئة على كتفي، فشعرت بالهدوء. في يده كان ذيل الخطاف، وهو سيف صنع جدنا الجنرال لاو ييب، قبل ثلاثة عشر جيلًا. كان السيف مشحونًا بمئات البركات الطاوية وقد شرب دماء عدد لا يحصى من الشياطين.

مرت سحابة عابرة فغطت القمر لوهلة، مما أسدل الظلام على كل شيء.

عندما ظهر القمر مرة أخرى، كدت أصرخ.

هناك، في الفناء، كانت توجد أجمل امرأة رأيتها على الإطلاق.

كانت ترتدي فستانًا أبيض من الحرير ينساب برشاقة على جسدها، بأكمام منفوخة وحزام فضي عريض. كان وجهها شاحبًا كثلج الشتاء، وشعرها أسود كالفحم، يتدلى حتى خصرها. بدا لي أنها تشبه لوحات أجمل النساء في عصر سلالة تانج، والتي قد علقتها فرقة الأوبرا حول مسرحها.

التفتت ببطء لتتفحص ما حولها، وكان ضوء القمر يتراقص في عينيها مثل بركتين متلألئتين.

اندهشت لرؤيتها حزينة بهذا الشكل، وفجأة شعرت بالأسف تجاهها ورغبت بشدة في أن أراها تبتسم.

أعادتني لمسة يد والدي الخفيفة على مؤخرة رقبتي إلى الواقع، فحذرني من قوة الهوليجينجج. كان وجهي متوردًا وقلبي ينبض بسرعة، فتجنبت النظر إلى وجه الشيطانة وركزت على حركتها.

كان خدم التاجر يجوبون الفناء مع كلابهم كل ليلة في هذا الأسبوع لمنعها من الاقتراب من ضحيتها. لكن حينها كان الفناء خاليًا. وقفت المرأة في مكانها، مترددة، تشك في وجود فخ.

ارتفع صوت الابن المحموم: «شياو جونج! هل جئت من أجلي؟».

مشت المرأة، بل انطلقت بخفة، نحو باب غرفة النوم.

قفز والدي من خلف الصخرة واندفع نحوها بسيف ذيل الخطاف.

تجنبت المرأة الهجوم كما لو كانت ترى بمؤخرة رأسها. ودون أن يتمكن من التوقف، طعن والدي السيف في الباب الخشبي السميك بصوت مكتوم. حاول سحب السيف لكنه لم يستطع تحريره على الفور.

نظرت المرأة إليه، ثم استدارت واتجهت نحو بوابة الفناء.

صاح والدي: «تحرك يا ليانج! إنها تهرب!».

ركضت نحوها، وأنا أجر وعاءً من الطين ممتلئًا ببول الكلاب. كانت مهمتي أن أرشها بهذا السائل حتى لا تتمكن من التحول إلى هيئة الثعلب وتهرب.

استدارت إليّ وابتسمت.

- أنت فتى شجاع جدًّا.

أحاط بي عبير، كعطر الياسمين الذي يزهر بعد أمطار الربيع. كان صوتها كعجينة اللوتس الباردة والحلوة، وكنت أرغب في أن أسمع صوتها إلى الأبد. نسيت الوعاء الطيني الذي كان يتدلى من يدي.

صرخ والدي: «الآن!». كان قد أخرج السيف.

عضضت شفتَيّ من الإحباط. *كيف يمكنني أن أصير صياد شياطين إذا كنت أتأثر بسهولة هكذا؟* رفعت غطاء الوعاء ورميت محتوياته باتجاهها وهي

تتراجع، لكن تلك الفكرة المجنونة بأن عليّ ألا ألوث فستانها الأبيض جعلت يداي ترتعشان، فانحرفت تسديدتي. ولم يصبها سوى بضع قطرات من بول الكلاب.

لكن ذلك كان كافيًا. فقد عوت بصرخة عالية، وكان صوتها كصوت الكلب لكنه أكثر وحشية، مما جعل الشعر على مؤخرة رقبتي ينتصب.

استدارت وهي تزمجر، كاشفة عن صفين من أسنانها البيضاء الحادة، فتراجعت إلى الخلف متعثرًا. كنت قد رششتها وهي في خضم تحولها، فتجمد وجهها بين هيئة امرأة وثعلب، بأنف أصلع وأذنين مثلثتين ترتعشان بغضب. تحولت يداها إلى مخالب حادة وحاولت أن تضربني بها.

لم تعد قادرة على النطق، لكن عينيها عبرتا بوضوح عن أفكارها المسمومة.

اندفع والدي إلى جانبي، رافعًا سيفه ليضربها. فاستدارت الهوليجينجج ودفعت بوابة الفناء بقوة، محطمة إياها، واختفت من خلال الباب المكسور.

لاحقها والدي دون أن ينظر إليّ، وأنا -بخجل- تبعته.

كانت الهوليجينجج سريعة الحركة، وبدا ذيلها الفضي كأنه يترك خلفه أثرًا لامعًا عبر الحقول. لكن تحولها غير المكتمل جعل جسدها يحتفظ بوضعه البشري، فلم تتمكن من الركض بالسرعة التي كانت تستطيع لو كانت تجري على أربع.

رأيناها، أنا ووالدي، تتسلل إلى المعبد المهجور الواقع على بُعد لي[1] واحد تقريبًا من القرية.

قال والدي وهو يلهث: «التف حول المعبد. سأدخل من الباب الأمامي. وإذا حاولت الهرب من الباب الخلفي، فأنت تعرف ما يجب فعله. ”

كان الجزء الخلفي من المعبد مغطًّى بالأعشاب، ونصف الجدار منهار. عندما اقتربتُ، لمحت وميضًا أبيض يتحرك بسرعة بين الأنقاض.

---

(1) كلمة المترجمة: الـ«لي» هي وحدة قياس صينية تقليدية للمسافات. على مر التاريخ، اختلف طولها، ولكن في العصر الحديث وُحدت لتكون نحو 500 متر. ما زال هذا المصطلح يستخدم أحيانًا في الصين، خاصة في السياقات التاريخية والأدبية، وأحيانًا في بعض المناطق لقياس المسافات بشكل غير رسمي.

عزمت على استعادة مكانتي أمام والدي، وقهرت خوفي واندفعت خلفها بلا تردد. وبعد عدة انعطافات سريعة، تمكنت من محاصرتها داخل إحدى غرف الرهبان.

كنت على وشك سكب ما تبقى من بول الكلاب عليها عندما أدركت أن الحيوان كان أصغر بكثير من الهوليجينجج التي كنا نطاردها. فقد كان ثعلبًا أبيض صغيرًا بحجم جرو تقريبًا.

وضعت الوعاء الطيني على الأرض وانقضيت عليه.

بدأ الثعلب يتملص من قبضتي. كان قويًّا بشكل مدهش بالنسبة لحيوان بهذا الحجم الصغير. عانيت لأبقيه تحت سيطرتي. وفي أثناء عراكنا، بدا أن الفراء بين أصابعي صار زلقًا كالجلد، وبدأ جسده يطول ويتسع وينمو. اضطررت إلى استخدام كامل جسمي لأتمكن من طرحه أرضًا.

فجأة، أدركت أن يدي وذراعي كانتا ملتفتين حول جسد عارٍ لفتاة في مثل سني تقريبًا.

صرختُ وقفزتُ إلى الوراء. ونهضت الفتاة ببطء، والتقطت رداءً حريريًّا من خلف كومة من القش، وارتدته، ثم نظرت إليّ بتعالٍ.

صدر صوت زمجرة من البهو الرئيسي من بعيد، تبعه صوت سيف ثقيل يصطدم بطاولة. ثم جاءت زمجرة أخرى، بالتزامن مع صوت سباب والدي.

تبادلنا النظرات. كانت أجمل حتى من مغنية الأوبرا التي لم أستطع التوقف عن التفكير فيها العام الماضي.

سألتني: «لماذا تلاحقوننا؟ لم نفعل لكم شيئًا».

أجبتها: «لقد سحرت أمك ابن التاجر. وعلينا إنقاذه».

- سحرته؟ هو الذي لم يتركها وشأنها.

فوجئت: «ماذا تعنين؟».

- قبل قرابة شهر، وجد ابن التاجر أمي وهي عالقة في فخ لمربي دجاج. وكان عليها أن تتحول إلى هيئتها البشرية لتنجو، وبمجرد أن رآها، صار مفتونًا بها.

كانت تحب حريتها ولم ترغب في الارتباط به. لكن بمجرد أن يتعلق قلب رجل بهوليجينجج، فإنها لا تستطيع إلا أن تسمع نداءه مهما كانت المسافة

بينهما. وكل ذلك الأنين والبكاء الذي أصدرهما جعلاها تشعر بالجنون، وكان عليها أن تذهب لرؤيته كل ليلة فقط لتجعله يصمت.

لم يكن هذا ما تعلمته من والدي.

- إنها تغوي العلماء الأبرياء وتمتص جوهر حياتهم لتغذي سحرها الشرير! انظري كم هو مريض ابن التاجر!

- إنه مريض لأن ذلك الطبيب الفاشل أعطاه سمًّا من المفترض أن يجعله ينسى أمي. وأمي هي التي حافظت على حياته بزياراتها الليلية. وتوقف عن استخدام كلمة تغوي. يمكن للرجل أن يقع في حب هوليجينجج تمامًا كما يقع في حب أي امرأة بشرية.

لم أعرف ما يجب عليَّ قوله، لذا قلت أول شيء خطر على بالي: «أنا أعلم فقط أنه ليس كما هو».

ابتسمت بسخرية.

- ليس كما هو؟ لقد رأيت نظراتك إليَّ قبل أن أضع رداءي.

احمرّ وجهي.

- شيطانة جريئة!

التقطتْ الوعاء. لكنها ظلت في مكانها، مع ابتسامة ساخرة على وجهها. وفي النهاية، وضعت الوعاء مرة أخرى.

ازداد الضجيج في البهو الرئيسي، وفجأة سمعنا صوتًا عاليًا وكأن شيئًا قد تحطم، تبعه صيحة انتصار من والدي وصراخ طويل وصاخب من المرأة.

لم تعد هناك ابتسامة على وجه الفتاة، بل غضب تحول ببطء إلى صدمة. وفقدت عيناها لمعانهما الحي، حتى بدتا ميتتين.

أطلق الأب نخرة عالية. وانتهى الصراخ فجأة.

- ليانج! ليانج! انتهى الأمر. أين أنت؟

سالت دموع الفتاة على وجهها.

واصل والدي: «فتشوا المعبد قد يكون لديها جراء هنا. يجب أن نقتلها أيضًا».

توترت الفتاة.

اقترب صوته أكثر: «ليانج، هل وجدت شيئًا؟».

أجبته وأنا ألتقي نظراتها: «لا شيء. لم أجد شيئًا».

التفتتْ وركضت خارج الغرفة بصمت. وبعد وهلة، رأيت ثعلبًا أبيض صغيرًا يقفز فوق الحائط المكسور ويختفي في الظلام.

كان يوم تشينج مينج، عيد الموتى. ذهبت مع والدي لزيارة قبر والدتي ولإحضار الطعام والشراب لها لمؤانساتها في وحدتها في الحياة الأخرى.

قلت: «أود أن أبقى هنا لبعض الوقت». أومأ والدي برأسه ورحل ليذهب إلى المنزل.

همست اعتذارًا لوالدتي، ثم جمعت الدجاج الذي أحضرناه لها، وسرت قرابة ثلاثة لي نحو الجانب الآخر من التل، إلى المعبد المهجور.

وجدت يان جاثية في البهو الرئيسي، قرب المكان الذي قتل فيه والدي والدتها قبل خمس سنوات. كانت قد رفعت شعرها ولفته في شكل كعكة، على طراز الشابات اللواتي يجرين حفل الجيجيلي، وهو الاحتفال الذي يعني أنهن لم يعدن فتيات. كنا نلتقي كل تشينج مينج، وكل تشونج يانج[1]، وكل يولان[2]، وكل عيد رأس السنة الجديدة، وهي مناسبات يفترض فيها أن تجتمع العائلات معًا.

قلت: «أحضرت لك هذا». وأعطيتها الدجاج المطبوخ على البخار.

- شكرًا لك.

مزقت ساق الدجاجة برفق وقضمت منها بحذر.

شرحت لي يان أن الهوليجينججيون يفضلون العيش بالقرب من القرى البشرية لأنهم يستمتعون بوجود أشياء بشرية في حياتهم: كالمحادثات، والملابس الجميلة، والشِعر والقصص، وأحيانًا حب رجل حقيقي.

---

(1) كلمة المترجمة: تشونج يانج هو عيد صيني يحتفل به في اليوم التاسع من الشهر القمري التاسع، ويُعرف أيضًا بعيد الكعك. يتعلق العيد بتكريم الأجداد وتعزيز الروابط العائلية، حيث يزور الناس قبور أحبائهم ويقدمون لهم الأطعمة.

(2) كلمة المترجمة: يولان هو مهرجان القمر، ويعتقد أنه يتعلق بزيارة أرواح الموتى. يُحتفل به عادة في الشهر السابع من التقويم القمري، ويُعرف أيضًا بمهرجان قوارب التنين أو مهرجان أكل الأرز. يعتبَر وقتًا لتكريم الأجداد، حيث يقدم الناس الطعام والقرابين للأرواح.

لكنهم ما زالوا صيادين ويشعرون بأقصى درجات الحرية في هيئتهم كثعالب. بعد ما حدث لوالدتها، ابتعدت يان عن حظائر الدجاج، لكنها ما زالت تفتقد طعمها.

سألتها: «كيف تسير عمليات الصيد؟».

أجابتني: «ليس بشكل جيد. هناك عدد قليل جدًّا من السلمندر ذات المئة عام والأرانب ذات الستة أصابع. لا أستطيع أبدًا أن أجد ما يكفي من الطعام». (ثم قطعت قطعة أخرى من الدجاج، ومضغتها وابتلعتها)، واستأنفت: «كما أن لدي صعوبة في التحول أيضًا».

- هل من الصعب عليك أن تظلي على هذه الهيئة؟

- لا.

ثم وضعت بقية الدجاجة على الأرض وهمست بصلاة لأمها.

وتابعت: «أقصد أنه صار من الصعب عليَّ العودة إلى هيئتي الحقيقية لأتمكن من الصيد. وفي بعض الليالي لا أستطيع فعل ذلك على الإطلاق. كيف تسير الأمور في الصيد بالنسبة لك؟».

- ليست جيدة أيضًا. يبدو أن أرواح الثعابين والأشباح الغاضبة قلت كثيرًا عن السنوات السابقة. حتى حالات الانتحار ممن لديهم مشكلات غير محلولة تراجعت. ولم نشهد وجود جثث قافزة منذ أشهر. ويشعر والدي بالقلق بشأن أمورنا المالية.

لم نعد مضطرين أيضًا للتعامل مع هوليجينجج منذ سنوات. لعل يان قد حذرتهم جميعًا. وبصراحة، كنت أشعر بالارتياح. فلم أكن أرغب في إخبار والدي أنه كان مخطئًا في شيء ما. كان سريع الانفعال بالفعل، ويشعر بالقلق من فقدان احترام القرويين، خصوصًا بعد أن بدا أن احتياجهم لمعرفته ومهاراته يقل.

سألتني: «هل فكرت يومًا أن مفهومكم عن الجثث القافزة يمكن أن يكون خطأ أيضًا؟ مثلما حدث معي أنا وأمي؟».

ضحكت عندما رأت التعبير الذي على وجهي.

- أنا أمزح!

كان ما أتشاركه مع يان غريبًا. فلم تكن صديقة بالمعنى التقليدي، بل كانت شخصًا انجذبت إليه بشكل لا إرادي بسبب معرفتنا المشتركة بأن العالم لا يسير وفقًا لما قيل لنا.

نظرت يان إلى قطع الدجاج التي تركتها لأمها.

- أعتقد أن السحر يُستنزف من هذه الأرض.

كنت أشعر بأن هناك شيئًا غير صحيح، لكنني لم أرغب في التعبير عن شكوكي بصوت عالٍ، لأن ذلك سيجعله واقعًا.

- ما سبب ذلك في رأيك؟

بدلًا من الإجابة، ارتفعت أذني يان واستمعّت باهتمام. ثم قامت وسحبتني حتى صرنا خلف تمثال بوذا في البهو الرئيسي.

- ماذا ...

وضعت إصبعها على شفتي. كانت قريبة جدًّا مني حتى أنني لاحظت رائحتها. كانت تشبه رائحة والدتها، زهرية وحلوة، لكنها كانت أيضًا مشرقة، مثل الأغطية المجففة في الشمس. شعرت بحرارة تتصاعد إلى وجهي.

بعد برهة، سمعت مجموعة من الرجال وهم يشقون طريقهم إلى داخل المعبد. ببطء، دفعت رأسي للخارج من خلف تمثال بوذا لأتمكن من الرؤية.

كان الطقس حارًّا في ذلك اليوم، وكان الرجال يبحثون عن ظل يحتمون به من شمس الظهيرة. وضع رجلان كرسي نقالًا مصنوعًا من القصب، ونزل منه راكب أجنبي، بشعر أصفر مجعد وبشرة شاحبة. وحمل رجال آخرون في المجموعة حوامل ثلاثية، وأدوات قياس، وأنابيب برونزية، وصناديق مفتوحة مليئة بمعدات غريبة.

اقترب رجل يرتدي زي الماندرين التقليدي من الأجنبي وقال: «سيد طومسون المبجل للغاية». (الطريقة التي استمر بها في الانحناء والابتسام وتحريك رأسه صعودًا وهبوطًا ذكرتني بكلب تعرض للركل وهو يتوسل بعض التفضل): «من فضلك، اجلس واسترح واشرب بعض الشاي البارد. من الصعب على الرجال أن يعملوا في اليوم الذي من المفترض أن يزوروا فيه قبور عائلاتهم، وهم بحاجة إلى بعض الوقت للصلاة لئلا يُغضبوا الآلهة والأرواح. ولكن أعدك أننا سنعمل بجد بعد ذلك وننهي الاستقصاء في الوقت المحدد».

قال الأجنبي: «مشكلتكم أيها الصينيون، هي خرافاتكم التي لا تنتهي». (كانت لكنته غريبة، لكنني فهمت ما قاله جيدًا). «تذكر أن خط سكة حديد هونج كونج-تيانجين هو أولوية لبريطانيا العظمى. إذا لم أصل إلى قرية بوتو بحلول غروب الشمس، فسأقتطع جزءًا من أجوركم جميعًا».

كنت قد سمعت شائعات بأن إمبراطور المانشو خسر حربًا وأُجبر على تقديم تنازلات متعددة، من بينها المساعدة في دفع تكاليف بناء طريق من الحديد للأجانب. لكن كل هذا بدا خياليًّا للغاية، فلم أعره اهتمامًا كبيرًا.

أومأ الماندريني بحماس: «السيد طومسون المبجل على حق في كل شيء. ولكن هل لي أن أزعج أذنك الكريمة باقتراح؟».

لوّح الإنجليزي الضجر بنفاد صبر.

- بعض القرويين المحليين قلقون بشأن المسار المقترح للسكك الحديدية. فهم يعتقدون أن القضبان التي وضعت بالفعل تعيق مجرى التشي في الأرض. إن ذلك يجلب طاقة فينج شوي سيئة.

- عماذا تتحدث؟

قال الماندريني: «إنه مثل طريقة تنفس الإنسان»، (وتنفس بصوت عالٍ عدة مرات ليتأكد من أن الإنجليزي فهمه): «يوجد بالأرض قنوات على طول الأنهار والتلال والطرق القديمة التي تحمل طاقة التشي. وهذه الطاقة هي ما تمنح القرى الازدهار وتحافظ على وجود الحيوانات النادرة والأرواح المحلية وآلهة المنازل. هل يمكنك التفكير في تحريك خط السكة الحديد قليلًا، ليوائم اقتراحات أساتذة الفينج شوي؟».

نظر طومسون لأعلى باستياء وقال: «هذه أكثر الأمور سخافة التي سمعتها على الإطلاق. أتريدني أن أنحرف عن المسار الأكثر كفاءة لسككنا الحديدية لأنك تعتقد أن أصنامك ستغضب؟».

بدا الألم على وجه الماندريني وقال: «في الأماكن التي وضعت القضبان فيها بالفعل، حدثت العديد من الأمور السيئة: فقد الناس أموالهم، وماتت الحيوانات، ولم تستجب آلهة المنازل للصلوات. وقد اتفق جميع الرهبان البوذيين والطاويين على أن السبب في ذلك هو وجود السكك الحديدية».

توجه طومسون بخطوات سريعة نحو تمثال بوذا ونظر إليه بنظرة تقييمية. فتراجعت خلف التمثال وضغطت على يد يان. حبسنا أنفاسنا، آملين ألا يكتشفوا وجودنا.

سأل طومسون: «هل ما زال لهذا التمثال أي قوة؟».

قال الماندريني: «لم يتمكن المعبد من الاحتفاظ بمجموعة من الرهبان لسنوات عديدة. لكن ما زال هذا التمثال يحظى باحترام كبير. سمعت القرويين يقولون إن صلواتهم إليه غالبًا ما تُستجاب».

ثم سمعت صوت تحطم عالٍ وشهقة جماعية من الرجال في البهو الرئيسي.

قال طومسون: «ها قد حطمت يدي هذا الإله بعصاي. وكما ترى، لم تصبني صاعقة أو أي كارثة أخرى. في الواقع، نعلم الآن أنه مجرد صنم مصنوع من الطين ومحشو بالقش ومغطى بطلاء رخيص. هذا هو السبب في خسارتكم للحرب أمام بريطانيا. أنتم تعبدون تماثيل من الطين في الوقت الذي ينبغي عليكم التفكير في بناء طرق من الحديد وصناعة أسلحة من الفولاذ».

لم يتحدث أحد عن تغيير مسار السكك الحديدية مرة أخرى. بعد أن غادر الرجال، خرجت أنا ويان من خلف التمثال. ونظرنا إلى يدي بوذا المحطمتين لبعض الوقت.

قالت يان: «العالم يتغير. هونج كونج، الطرق الحديدية، الأجانب الذين لديهم أسلاك تنقل الكلمات وآلات تنفث الدخان. يتزايد عدد القصاصين الذين يتحدثون عن هذه العجائب في بيوت الشاي. أعتقد أن هذا هو السبب في أن السحر القديم يختفي. لقد جاء نوع أقوى من السحر».

كانت نبرتها غير متأثرة وباردة، مثل بركة ماء هادئة في الخريف، لكن كلماتها كانت صادقة. فكرت في محاولات والدي للحفاظ على مظهر مرح رغم قلة الزبائن الذين يأتون إلينا. وتساءلت عما إذا كان الوقت الذي قضيته في تعلم الترانيم ورقصات السيوف قد ذهب سدًى.

سألتها: «ماذا ستفعلين؟» وتخيلتها وحيدة بين التلال غير قادرة على العثور على الطعام الذي يغذي سحرها.

أجابت: «هناك شيء واحد فقط يمكنني فعله». بدا صوتها مستسلمًا لبرهة، ثم صار متحديًا، مثل حجر صغير يُلقى في بركة ماء.

لكنها نظرت إلي بعدها، وعادت لهدوئها وهي تقول: «هناك شيء واحد فقط يمكننا فعله: نتعلم أن ننجو».

سرعان ما صارت السكة الحديدية جزءًا مألوفًا من المناظر الطبيعية: القاطرة السوداء تتنفس بصعوبة عبر حقول الأرز الخضراء، تنفث بخارًا وتسحب قطارًا طويلًا خلفها، مثل تنين ينزل من الجبال الزرقاء البعيدة والمبهمة. لفترة من الزمن، كان المنظر رائعًا، وانبهر به الأطفال، وركضوا بجوار القضبان لملاحقته.

لكن السخام الخارج من مداخن القاطرة قتل الأرز في الحقول التي بالقرب من القضبان، وفي إحدى الأمسيات، قُتل طفلان كانا يلعبان على القضبان، وعندما جاء القطار ارتعبا وتسمرا في مكانهما ولم يستطيعا التحرك. بعد ذلك، توقف القطار عن إثارة إعجاب أحد.

توقف الناس عن المجيء إلى والدي وإليّ لطلب خدماتنا. وكانوا إما يذهبون إلى المبشر المسيحي وإما إلى المعلم الجديد الذي قال إنه درس في سان فرانسيسكو. بدأ شباب القرية يغادرونها إلى هونج كونج أو كانتون، مدفوعين بشائعات عن الأضواء البراقة والأعمال ذات الأجور المرتفعة. خلت الحقول من المحاصيل. وبدا أن القرية مهجورة إلا من كبار السن والأطفال الصغار، وعبرّت أمزجتهم عن استسلامهم. وجاء رجال من مقاطعات بعيدة ليستفسروا عن شراء الأراضي بأسعار زهيدة.

قضى والدي أيامه جالسًا في الغرفة الأمامية، بصحبة سيف ذيل الخطاف على ركبته، وهو يحدق في الباب من الفجر حتى الغسق، كما لو تحول هو نفسه إلى تمثال.

كل يوم، عندما كنت أعود من الحقول إلى المنزل، كنت أرى ومضة من الأمل تتألق في عيني والدي لفترة قصيرة.

كان يسألني: «هل تحدث أحد عن حاجته إلى مساعدتنا؟».

كنت أقول محاولًا الحفاظ على الخفة في صوتي: «لا، لكنني متأكد من أن هناك جثة قافزة ستظهر قريبًا. لقد مر وقت طويل».

لم أكن أنظر إلى والدي أثناء حديثي لأنني لم أرغب في أن أرى الأمل يتلاشى من عينيه.

ثم، في يوم من الأيام، وجدت والدي معلقًا من العارضة الثقيلة في غرفة نومه. وعندما كنت أنزل جسده، والخدر يسري في قلبي، فكرت أنه لم يكن مختلفًا كثيرًا عن أولئك الذين طاردهم طوال حياته: لقد كانوا جميعًا يعتمدون على سحر قديم قد رحل ولن يعود، ولم يستطيعوا النجاة دونه.

بدا ذيل الخطاف باهتًا وثقيلًا في يدي. لطالما اعتقدت أنني سأكون صياد شياطين، لكن كيف يمكنني ذلك عندما لم يعد هناك شياطين، ولا أرواح؟ لم تستطع كل بركات الطاوية في السيف أن تنقذ قلب والدي الغارق. وإذا بقيت هنا، قد يصير قلبي ثقيلًا أيضًا ويتوق إلى السكون.

لم أرَ يان منذ ذلك اليوم قبل ست سنوات، عندما اختبأنا من فاحصي أراضي السكك الحديدية في المعبد. لكن كلماتها عادت تتردد إلى ذهني.

تعلَّم أن تنجو.

حزمت حقيبتي واشتريت تذكرة قطار إلى هونج كونج.

فحص الحارس السيخي أوراقي وأشار لي بالعبور من خلال بوابة الأمن.

توقفت للحظة لأتابع القضبان وهي تصعد إلى جانب الجبل الوعر. بدا وكأن هناك سلَّمًا يمتد مباشرة إلى السماء أكثر من كونه مسار سكة حديدية. كانت هذه هي السكك الحديدية المائلة، خط الترام المؤدي إلى قمة فيكتوريا، حيث يعيش أسياد هونج كونج ويُمنع الصينيون من الإقامة هناك.

لكن كان من المقبول للصينيين أن يعبؤوا الفحم في الغلايات ويدهنوا التروس.

ارتفع البخار من حولي عندما انحنيت لدخول غرفة المحرك. بعد مضي خمس سنوات، صرت أعرف الهمهمات الإيقاعية للمكابس وصوت الطحن المتقطع للتروس كما أعرف أنفاسي وضربات قلبي. كان هناك نوع من الموسيقى في تلك الفوضى المنظمة التي كانت تحركني، مثل تصادم الصنوج والأجراس في بداية الأوبرا الشعبية.

فحصت ضغط البخار، ووضعت مادة مانعة للتسرب على الحشوات، وربطت الفلنجات بشدة، واستبدلت التروس المتآكلة في مجموعة الكابل الاحتياطي. كنت غارقًا في العمل، الذي كان شاقًّا ومُرضيًا في الوقت نفسه.

بحلول نهاية نوبة عملي، حل الظلام. خرجت من غرفة المحرك ورأيت القمر بدرًا في السماء وانطلق ترام آخر مليء بالركاب ومدفوعًا بمحركي صعودًا على جانب الجبل.

صاحت امرأة ذات شعر أشقر لامع من داخل الترام: «لا تدع الأشباح الصينية تمسك بك». وضحك رفاقها.

أدركت أن الليلة هي ليلة يولان، مهرجان الأشباح. *يجب أن أشتري شيئًا لوالدي، وربما ألتقط بعض النقود الورقية من مونجكوك.*

سمعت صوت رجل يقول: «كيف يمكن ليومك أن ينتهي ونحن ما زلنا نريدك؟».

قال رجل آخر: «لا ينبغي للفتيات مثلك أن يثيرننا ويرحلن». وضحك.

نظرت في اتجاه الأصوات ورأيت امرأة صينية تقف في الظلال خارج محطة الترام. عرفت مهنتها من التشيونجسام الغربي الضيق الذي كانت ترتديه والمكياج الصارخ الذي وضعته. كان هناك رجلان إنجليزيان يقفان في طريقها ويمنعانها من المرور، حاول أحدهما أن يضع ذراعيه حولها، لكنها تراجعت بعيدًا.

قالت باللغة الإنجليزية: «من فضلك، أنا متعبة جدًّا. ربما في المرة المقبلة».

قال الرجل الأول: «لا، الآن. لا تكوني غبية»، (وازداد صوته قسوة): «هذا ليس نقاشًا. هيا، تعالي وافعلي ما هو مطلوب منك».

مشيتُ نحوهم.

- مرحبًا.

توجه الرجلان نحوي ونظرا إلي.

- ما المشكلة هنا؟

- لا شأن لك بذلك.

قلت: «أعتقد أن لي شأنًا بذلك، بما أنكما تتحدثان إلى أختي».

أشك في أن أيًّا منهما صدقني. لكن خمس سنوات من التعامل مع الآلات الثقيلة منحتني بنية عضلية، وبعد أن ألقيا نظرة على وجهي ويدي الممتلئتين بزيت المحركات، فلعلهما قررا أنه ليس مجديًا الدخول في مشادة علنية مع ميكانيكي صيني وضيع.

ابتعد الرجلان وذهبا للوقوف في طابور ترام القمة، وهما يتمتمان بالسباب.

قالت: «شكرًا لك».

قلت وأنا أنظر إليها: «لقد مر وقت طويل منذ أن رأيتك». ابتلعت عبارة «تبدين جميلة» لأنها لم تكن كذلك. بل بدت متعبة ونحيفة وهشة. كما هاجم أنفي عطرها النفاذ.

لكنني لم أُفكر فيها بشكل سلبي. فالأحكام والانتقادات كانت رفاهية لمن بحاجة إلى البقاء على قيد الحياة.

قالت: «إنها ليلة مهرجان الأشباح. لم أكن أريد أن أعمل. كنت أريد أن أفكر في والدتي».

سألتها: «لما لا نذهب معًا لشراء بعض القرابين؟».

أخذنا العبَّارة إلى كولون، واستعادت بعض نشاطها بفضل النسيم المنعش الذي هبّ فوق الماء. بللت منشفة بالماء الساخن من إبريق الشاي في العبّارة ومسحت مكياجها. التقطت أثرًا خفيفًا من رائحتها الطبيعية، المنعشة والحلوة كما كانت دائمًا.

قلت لها: «تبدين جميلة»، وكنت أعني ذلك حقًّا.

في شوارع كولون، اشترينا الحلويات والفواكه والزلابية الباردة ودجاجًا مطبوخًا وبخورًا ومالًا ورقيًا، وتحدثنا عما حدث في حياتنا.

سألتها: «كيف تسير عمليات الصيد؟»، فضحكنا معًا.

قالت: «أفتقد أن أكون ثعلبة»، (أخذت قضمة من جناح الدجاج بغير انتباه): «في أحد الأيام، بعد فترة قصيرة من آخر حديث بيننا، شعرت بخروج آخر ذرة من السحر مني. لم أعد أستطيع التحول».

قلت لها: «أنا آسف لذلك»، ولم أقدر على تقديم أي شيء آخر.

- علمتني أمي أن أحب الأشياء البشرية: الطعام، والملابس، والأوبرا الشعبية، والقصص القديمة. لكنها لم تكن تعتمد عليها قط. كان بإمكانها دائمًا أن تتحول إلى شكلها الحقيقي وتذهب للصيد عندما تريد. لكن الآن، في هذه الهيئة، ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا أملك مخالب. ولا أملك أسنانًا حادة. ولا أستطيع حتى أن أركض بسرعة. كل ما أملكه

هو جمالي، الشيء نفسه الذي قتلتما أمي بسببه، أنت ووالدك. لذا، أعيش الآن بسبب الشيء الذي اتهمتما والدتي زيفًا بأنها تفعله: أغوي الرجال من أجل المال.

- لقد مات والدي أيضًا.

بدت هذه الكلمات وكأنها خلصتها من بعض مرارتها.

- ماذا حدث؟

- شعر بزوال السحر عنا، مثلما حدث لك. ولم يستطع تحمل ذلك.

- أنا آسفة.

علمت أنها لم تكن تعرف ما يمكن أن تقوله أيضًا.

- قلت لي ذات مرة إن الشيء الوحيد الذي يمكننا فعله هو النجاة. يجب أن أشكرك على ذلك. لعل ذلك هو ما أنقذ حياتي.

قالت وهي تبتسم: «إذًا نحن متعادلان. لكن دعنا لا نتحدث عن أنفسنا بعد الآن. الليلة مخصصة للأرواح».

نزلنا إلى الميناء ووضعنا طعامنا بجانب الماء، ودعونا جميع أرواح من أحببناهم لتأتي وتتناول الطعام. ثم أشعلنا البخور وأحرقنا المال الورقي في دلو.

شاهدت الأوراق المحترقة التي تحملها حرارة النيران إلى السماء. اختفت بين النجوم.

- هل تعتقد أن أبواب العالم السفلي ما زالت تُفتح للأرواح في هذه الليلة، الآن بعد أن لم يعد هناك سحر؟».

ترددت. عندما كنت صغيرًا، دُربت على أن أسمع خدش أصابع الأشباح على النوافذ الورقية ورقية، وعلى تمييز صوت الأرواح عن صوت الرياح. لكن بعد ذلك، اعتدت على تحمل دوي الصمامات وصوت البخار المضغوط المرتفع وهو يتدفق عبر الصمامات. لم أعد قادرًا على الادعاء بأنني متصل بعالم طفولتي الذي اختفى.

أجبتها: «لا أعلم. أظن أن الوضع مع الأرواح يشبه حال الناس. فسيكتشف بعضهم كيفية البقاء في عالم تقلص بفعل السكك الحديدية وصافرات البخار، بينما لن يتمكن البعض الآخر من ذلك».

سألتني: «لكن هل سيحيا أي منهم حقًا؟».

ما زال بإمكانها أن تُفاجئني.

تابعت: «أعني، هل أنت سعيد؟ هل تجد السعادة في تشغيل المحرك طوال اليوم، وكأنك مجرد ترس آخر؟ بماذا تحلم؟».

لم أستطع تذكر أي أحلام. لقد جعلت نفسي أسيرًا لحركة التروس والرافعات، حتى صارت أفكاري تتشكل لتملأ الفراغات بين دق الحديد على الحديد الذي لا يتوقف. كانت تلك وسيلتي لتجنب التفكير في والدي، أو في أرض خسرت الكثير.

قالت: «أحلم بالصيد في هذه الغابة المصنوعة من المعدن والأسفلت. أحلم بأن أكون في شكلي الحقيقي، وأقفز من عارضة إلى حافة إلى شرفة إلى سطح، حتى أصل إلى قمة هذه الجزيرة، حتى أتمكن من الزئير في وجه جميع الرجال الذين يعتقدون أنهم يمكنهم امتلاكي».

كنت أنظر إليها عندما خبت النيران التي برقت في عينيها لوهلة، تاركة رمادًا من الحزن.

سألتها: «في هذا العصر الجديد من البخار والكهرباء، في هذه العاصمة الكبرى، هل ثمة أي شخص، باستثناء أولئك الذين يعيشون على القمة، في شكله الحقيقي؟».

جلسنا معًا بجوار الميناء وأحرقنا النقود الورقية طوال الليل، في انتظار إشارة تدل على أن الأرواح ما زالت معنا.

كانت الحياة في هونج كونج تجربة غريبة: من يوم لآخر، لم تبدُ الأمور وكأنها تتغير كثيرًا. لكن إذا قارنتها على مدار بضع سنوات، بدا وكأنك تعيش في عالم مختلف تمامًا.

بحلول عيد ميلادي الثلاثين، صارت التصاميم الجديدة لمحركات البخار تتطلب فحمًا أقل وتوفر طاقة أكبر. كما صغر حجم المحركات أكثر فأكثر. وامتلأت الشوارع بعربات الركاب الآلية والمركبات التي بلا خيول، وكان معظم الأشخاص الميسورين يمتلكون آلات تحافظ على الهواء باردًا في المنازل والأطعمة باردة في صناديق المطبخ، وكلها تعمل بالبخار.

ذهبت إلى المتاجر وتحملت استياء البائعين في أثناء استكشافي لمكونات النماذج الجديدة المعروضة. كنت أقرأ كل كتاب يمكنني العثور عليه عن مبادئ

تشغيل محرك البخار. وحاولت تطبيق هذه المبادئ لتحسين الآلات التي كنت أشرف عليها: من خلال تجربة دورات احتراق جديدة، واختبار زيوت مختلفة لتزييت المكابس، وضبط نسب التروس. وشعرت بشيء من الرضا مع ازدياد فهمي لسحر تلك الآلات.

وفي صباح أحد الأيام، حينما كنت أصلح منظمًا معطلًا -وهو عمل يحتاج إلى دقة- توقف زوجان من الأحذية اللامعة على المنصة التي فوقي.

نظرت إلى الأعلى، ورأيت رجلين يراقبانني.

قال مشرف نوبتي: «هذا هو».

بدا الرجل الآخر، الذي كان يرتدي بدلة أنيقة، متشككًا: «هل أنت من ابتكر فكرة استخدام عجلة طيران أكبر للمحرك القديم؟».

أومأت بفخر، فقد كنت أعتز بقدرتي على استخراج مزيد من القوة من آلاتي أكثر مما كان يتخيله مصمموها.

سألني بنبرة حادة: «ألم تأتِ بفكرتك هذه من إنجليزي؟».

شعرت بلحظة من الارتباك تلاها غليان الغضب.

أجبته محاولًا الحفاظ على هدوء صوتي: «كلا». وانحنيت مرة أخرى تحت الآلة لأواصل عملي.

قال المشرف: «إنه ذكي بالنسبة لكونه صينيًّا. يمكن تعليمه».

قال الرجل الآخر: «أعتقد أنه يمكننا المحاولة. سيتقاضى أجرًا أقل بالتأكيد من أجر مهندس حقيقي من إنجلترا».

كان السيد ألكسندر فيندلي سميث، مالك ترام القمة مهندسًا شغوفًا بعمله أيضًا، وقد رأى أمامه فرصة. فقد تنبأ بأن مسار التقدم التكنولوجي سيقود حتمًا إلى استخدام القوة البخارية لتشغيل الأوتوماتا: أذرع وأرجل ميكانيكية ستحل في النهاية محل عمال المناجم والخدم الصينيين.

وقد اختاروني لخدمة السيد فيندلي سميث في مشروعه الجديد.

تعلمت إصلاح تروس الآلات وتصميم أنظمة معقدة من التروس، بالإضافة إلى ابتكار استخدامات ذكية للروافع. كما درست كيفية طلي المعادن بالكروم وشكلت النحاس في منحنيات سلسة. اخترعت طرقًا لربط عالم تروس الآلات القاسية والمتينة بعالم المكابس المصغرة المنظمة والبخار النظيف. بعد

الانتهاء من الأوتوماتا، وصلناها بأحدث محركات التحليل التي شحنت من بريطانيا، وزودناها بشريط مثقوب بثقوب كثيفة وفقًا لشفرة ببابج-لوفليس.

استغرق الأمر عقدًا من العمل المضني. وصارت الأذرع الآلية تقدم المشروبات في الحانات في مقاطعة سنترال، وكانت الأيادي الآلية تصنع الأحذية والملابس في المصانع في الأراضي الجديدة. وبداخل القصور الواقعة على القمة، سمعت - رغم أنني لم أرَ قط- أن المكانس والمماسح الآلية التي صممتها كانت تتجول في القاعات بهدوء، وتصطدم بالجدران برفق حينما كانت تنظف الأرضيات مثل الجنيات الآلية التي تطلق بخارًا أبيض. كان بإمكان المغتربين أخيرًا أن يعيشوا حياتهم في هذه الجنة الاستوائية دون أن يتذكروا وجود الصينيين.

كنت في الخامسة والثلاثين من عمري عندما ظهرت عند بابي مرة أخرى، كذكرى من زمن بعيد.

سحبتها إلى شقتي الصغيرة، ونظرت حولي للتأكد من أن لا أحد يتبعها، ثم أغلقت الباب.

سألتها: «كيف تسير عملية الصيد؟». كانت محاولة سيئة للمزاح، وضحكت ضحكة خفيفة.

انتشرت صورها في جميع الصحف. فقد كانت أكبر فضيحة في المستعمرة: ليس فقط لأن ابن الحاكم كان لديه عشيقة صينية - فقد كان متوقعًا منه ذلك - ولكن لأن العشيقة تمكنت من سرقة مبلغ كبير من المال منه ثم اختفت. كان الجميع يتهامسون بينما جابت الشرطة المدينة بحثًا عنها.

قلت: «يمكنني إخفاؤك هنا الليلة ...» ثم انتظرت، وتأرجحت بقية جملتي غير المنطوقة بيننا.

جلست في الكرسي الوحيد الذي في الغرفة، وألقت اللمبة الخافتة ظلالًا داكنة على وجهها. بدت هزيلة ومتعبة.

- آه، الآن أنت تحكم علي وتنتقدني.

قلت لها: «لدي وظيفة جيدة أريد الاحتفاظ بها. والسيد فيندلاي سميث يثق بي».

انحنت وبدأت ترفع فستانها.

قلت: «لا»، وأشحت وجهي بعيدًا. لم أستطع تحمل رؤيتها تحاول ممارسة تجارتها معي.

قالت: «انظر،» (لم يكن في صوتها أي إغواء): «ليانج، انظر إلي».

التفتُ ودهشت.

كانت ساقاها -ما استطعت رؤيته منهما- مصنوعتين من الكروم اللامع.

انحنيت لألقي نظرة أقرب: كانت المفاصل الأسطوانية عند الركبتين مصنوعة بدقة، وكانت المشغلات الهوائية على الفخذين تتحرك في صمت تام، وكانت الأقدام مصممة بشكل رائع، وكانت الأسطح ناعمة ومصقولة. كانت تلك أجمل ساقين آليتين رأيتهما في حياتي.

قالت: «لقد خدرني. عندما استيقظت، وجدت ساقاي قد اختفتا واستبدلتا بهاتين. كان الألم لا يطاق. وشرح لي أنه لديه سر: فقد كان يحب الآلات أكثر من الأجساد، ولم يكن يستطيع الانتصاب مع امرأة عادية».

لقد سمعت عن مثل هؤلاء الرجال. في مدينة مليئة بالكروم والنحاس، تصحبها أصوات الطرق والصفير، اختلطت وتشوشت الرغبات.

ركزت على كيفية انسياب الضوء على انحناءات ساقيها اللامعتين، حتى لا أضطر للنظر إلى وجهها.

- كان لدي خيار: إما أن أسمح له بالاستمرار في تغييري لما يناسبه، وإما أن يزيل ساقي ويتركني في الشارع. من سيصدق عاهرة صينية بلا ساقين؟ كنت أريد النجاة، لذا تحملت الألم وسمحت له بالاستمرار.

وقفت وخلعت بقية فستانها وقفازاتها. تأملت جسدها المصنوع من الكروم، والمقسم عند الخصر للسماح بالحركة والانسيابية، وذراعيها الملتويتين من الأعلى، اللتين صُنعتا من صفائح منحنية تنزلق فوق بعضها مثل دروع بذيئة، ويديها التين تشكلتا من شبكة معدنية رقيقة، مع أصابع من الفولاذ الداكن مزينة بالجواهر بدلًا من الأظافر.

- لم يبخل بأي تكلفة. كل جزء مني مصمم بأعلى مستوى من الحرفية، ومُثبت بجسدي على يد أفضل الجراحين. هناك العديد من الأشخاص الذين يريدون أن يجربوا، رغمًا عن القانون، تحريك الجسد بواسطة الكهرباء، واستبدال الأعصاب بالأسلاك. كانوا يتحدثون إليه فقط، كما لو كنت مجرد آلة.

ثم، في إحدى الليالي، آذاني فضربته في لحظة يأس. وسقط كما لو كان مصنوعًا من القش. أدركت فجأة مقدار القوة التي أملكها في ذراعي المعدنيتين. لقد سمحت له بفعل هذا كله بي، واستبدالي جزءًا تلو الآخر، وكنت أندب خسارتي دون أن أفهم ما اكتسبته. لقد حدث لي شيء مريع، لكنني أستطيع أن أكون مريعة أيضًا.

خنقته حتى أغشي عليه، ثم أخذت كل المال الذي استطعت العثور عليه وغادرت.

لذا أتيت إليك يا ليانج. هل ستساعدني؟

خطوت نحوها وعانقتها وقلت: «سنجد وسيلة لعكس هذا. يجب أن يكون هناك أطباء ...».

قاطعتني: «لا، ليس هذا ما أريده».

استغرقنا الأمر عامًا كاملًا تقريبًا لإكمال المهمة. ساعدني مال يان، لكن هناك بعض الأمور التي لا يمكن للمال شراؤها، خصوصًا المهارة والمعرفة.

تحولت شقتي إلى ورشة عمل. وقضينا كل مساء وكل يوم أحد نعمل: نشكل المعدن، ونلمع التروس، ونعيد توصيل الأسلاك.

كان وجهها هو الأصعب؛ ما زال لحمًا.

اطلعت على كتب التشريح وأخذت قوالب من وجهها باستخدام جبس من باريس. كسرت عظام وجنتي وجرحت وجهي حتى أتمكن من التوجه إلى عيادات الجراحة والتعلم منهم كيفية إصلاح هذه الإصابات. واشتريت أقنعة مزينة بالجواهر وفتحتها، لأتعلم فن تشكيل المعدن بشكل دقيق ليأخذ شكل الوجه.

وأخيرًا، حان الوقت.

من خلال النافذة، ألقى القمر ظلًّا أبيض باهتًا على الأرض بشكل متوازي الأضلاع. كانت يان تقف في منتصفه، تحرك رأسها وتجرب وجهها الجديد.

كانت مئات المشغلات الهوائية الدقيقة مخفية تحت جلدها الأملس المصنوع من الكروم، حيث يمكن التحكم بكل واحدة منها بشكل مستقل، مما سمح لها بتبني أي تعبير. لكن ما زالت عيناها كما هما، وكانتا تتلألآن في ضوء القمر بحماس.

سألتها: «هل أنت مستعدة؟».

أومأت برأسها.

أعطيتها وعاءً ممتلئًا بفحم الأنثراسيت النقي، والمطحون إلى مسحوق ناعم. كانت رائحته تشبه رائحة الخشب المحترق، ورائحة قلب الأرض. سكبت المسحوق في فمها وابتلعته. كنت أستطيع سماع النار في الغلاية الصغيرة داخل جذعها تزداد حرارة مع ارتفاع ضغط البخار. تراجعت خطوة إلى الوراء.

رفعت رأسها نحو القمر وعوت: كان عواؤها ناتجًا عن البخار الذي يتدفق عبر الأنابيب النحاسية، ومع ذلك، ذكرني بذلك العواء الوحشي الذي سمعته منذ زمن بعيد، عندما سمعت نداء الهوليجينج لأول مرة.

ثم انحنت إلى الأرض. بدأت التروس تدور، والمكابس تضخ، والصفائح المعدنية المنحنية تنزلق فوق بعضها البعض وتصاعدت أصواتها تدريجيًا مع بدء تحولها.

كانت قد رسمت أولى ومضات فكرتها بالحبر على الورق، ثم صقلتها، من خلال مئات التكرارات حتى صارت راضية. رأيت أثر والدتها في ذلك، ولكنني رأيت أيضًا شيئًا أقوى، شيئًا جديدًا.

استنادًا إلى فكرتها، صممت الطيات الدقيقة في جلد الكروم والمفاصل المعقدة في الهيكل المعدني. جمَّعت كل مفصل وكل ترس، ولحمت كل سلك وكل شق، ودهنت كل محرك. لقد فككتها وأعدت تجميعها.

ومع ذلك، كان من المدهش رؤية كل شيء يعمل بتناغم. أمام ناظري، كانت تطوي وتفرد نفسها كأنها بناء أوريجامي من الفضة اللامعة، حتى وقفت أمامي في النهاية ثعلب من الكروم، بديع وخطير كما في أقدم الأساطير.

بدأت تتجول في الشقة بخفة، تختبر شكلها الجديد الأنيق، وتجرب حركاتها المتسللة الجديدة. كانت أطرافها تلمع تحت ضوء القمر، وذيلها المصنوع من أسلاك فضية رقيقة كالدانتيل يترك خلفه أثرًا من الضوء في أرجاء الشقة المعتمة.

استدارت وسارت -لا، بل انزلقت- نحوي، صيادة بديعة، ذكرى قديمة تنبض بالحياة. أخذت نفسًا عميقًا وشممت رائحة النار والدخان وزيت المحركات والمعدن المصقول، إنها رائحة القوة.

قالت وهي تميل نحوي وتحط جسدها الحقيقي بين ذراعي: «شكرًا لك». كان محرك البخار داخلها قد دفأ جسدها المعدني البارد، فصار دافئًا ومفعمًا بالحياة.

سألتْ: «هل تشعر بذلك؟».

ارتعشتُ. كنت أعرف ما تقصده. لقد عاد السحر القديم، لكنه تغير: لم يعد فروًا ولحمًا، بل صار معدنًا ونارًا.

قالت: «سأجد آخرين مثلي، وسأحضرهم إليك. سنحررهم معًا».

كنت في الماضي صيادًا للشياطين. والآن، صرت واحدًا منهم.

فتحت الباب، وسيف ذيل الخطاف في يدي. كان مجرد سيف قديم وثقيل، صدئ، لكنه ما زال قادرًا تمامًا على إسقاط أي خصم متربص.

لكن لم يكن هناك أحد.

قفزت يان عبر الباب كصاعقة، بخفة ورشاقة، وانطلقت إلى شوارع هونج كونج، حرة، برية، هوليجينجج مصممة لهذا العصر الجديد.

بمجرد أن يكرس الرجل قلبه لهوليجينجج، لا يمكنها إلا أن تسمعه مهما كانت المسافة بينهما ...

همست: «حظًّا سعيدًا في الصيد».

عوت من بعيد، وشاهدت نفخة من البخار تتصاعد في الهواء وهي تختفي عن الأنظار.

تخيلتها تركض على طول مسارات السكة الحديدية المعلقة، محركًا لا يكل يصعد ويصعد نحو قمة فيكتوريا، متجهةً نحو مستقبل مليء بالسحر كما كان في الماضي.

العرَّاف

18 سبتمبر، 1961

كانت ليلي داير تنتظر بترقب ممزوج بالخوف ساعة الثالثة بعد الظهر، أكثر من أي وقت آخر في يومها. فحينها، كانت تعود من المدرسة وتتفقد طاولة المطبخ بحثًا عن رسائل جديدة.

لكن الطاولة كانت خالية. ومع ذلك، قررت أن تسأل: «هل هناك أي شيء لي؟».

أجابتها والدتها: «لا»، كانت تعطي دروسًا في اللغة الإنجليزية لزوجة السيد كوتن الصينية الجديدة. وكان السيد كوتن يعمل مع والدها وهو من الأشخاص المهمين.

مر شهر منذ أن انتقلت عائلة ليلي إلى تايوان، ولم تتلقَّ أي رسائل من صديقات مدرستها في كليرويل في ولاية تكساس، حيث كانت الفتاة الثالثة الأكثر شعبية في الصف الرابع، رغم وعود الفتيات بأنهن سيكتبن لها.

لم تحب ليلي مدرستها الجديدة في القاعدة العسكرية الأمريكية. كان آباء الأطفال الآخرين يخدمون في القوات المسلحة، في حين أن والدها كان يعمل في المدينة، في مبنى تتوسطه صورة صن يات سين ويرفرف فوقه علم جمهورية الصين ذو الألوان الحمراء والبيضاء والزرقاء.

وقد جعل هذا ليلي تبدو غريبة بالنسبة لهم، فلم يرغب بقية الأطفال في الجلوس معها أثناء وقت الغداء. وفي صباح ذلك اليوم، وبَّختهم السيدة وايل على طريقتهم في التعامل مع ليلي، لكن ذلك زاد الأمور سوءًا.

جلست ليلي وحدها إلى طاولتها، تتناول طعامها بهدوء. أما الفتيات الأخريات فكنَّ يتحدثن بحماس على الطاولة المجاورة.

قالت سوزي راندلينج: «البغايا الصينيات ماكرات، دائمًا ما يتجولن حول القاعدة الأمريكية». (كانت سوزي أجمل فتاة في الصف، وفي جعبتها دائمًا أفضل الشائعات): «سمعت أم جيني تقول لأمي إنه بمجرد أن تضع إحداهن يدها على جندي أمريكي، تستخدم حيلها القذرة لتوقعه في شباكها. فهي تريد الزواج منه لتسرق أمواله، وإذا رفض الزواج منها، فستصيبه بالمرض».

انفجرت الفتيات في الضحك، وأضافت جيني بنبرة خبيثة محاولة لفت انتباه سوزي: «عندما يستأجر رجل أمريكي منزلًا لعائلته خارج القاعدة، يمكنك تخيل ما الذي يسعى خلفه حقًّا». ضحكت الفتيات وألقين نظراتهن نحو ليلي، التي تظاهرت بعدم سماعهن.

قالت سوزي: «إنهن قذرات بشكل لا يصدق. قالت السيدة تايلور إنها عندما ذهبت في رحلة بالسيارة إلى تاينان خلال الصيف، لم تستطع تناول أي طبق قدمه لها الصينيون. وفي مرة حاولوا تقديم أرجل ضفادع مقلية لها. وظنت أنها دجاج وكادت أن تأكلها. يا له من أمر مقزز!».

أضافت جيني: «قالت أمي إنه من المؤسف أننا لا نستطيع الحصول على طعام صيني لائق إلا في أمريكا».

تدخلت ليلي: «هذا ليس صحيحًا». وبمجرد أن نطقت بالكلمات، ندمت عليها. كانت ليلي قد أحضرت كرات لحم الخنزير كونج-وان مع الأرز لوجبة الغداء. أعدته لها لين أماه، خادمتهم الصينية، من بقايا وجبة العشاء في الليلة السابقة. كانت كرات لحم الخنزير لذيذة، لكن الفتيات الأخريات جعَّدن أنوفهن بسبب رائحتها.

قالت سوزي بنبرة موبخة: «ليلي تأكل طعام الصينيين الكريه مرة أخرى، يبدو أنها تحبه حقًّا».

بدأت الفتيات يرددن بسخرية: «ليلي، ليلي، ستنجب طفلًا، جوك (gook) كريه الرائحة».

حاولت ليلي ألا تبكي، وكادت أن تنجح في ذلك.

دخلت والدتها إلى المطبخ ولمست شعرها برفق.

- كيف كان يومك في المدرسة؟

كانت ليلي تعلم أن على والديها ألا يعرفا أبدًا ما حدث في المدرسة. لأنهما سيحاولان تقديم المساعدة، ولن يؤدي هذا إلا إلى تفاقم الأمور.

قالت: «جيد. ما زلت أتعرف على الفتيات». أومأت والدتها وعادت إلى غرفة الجلوس.

لم تكن ليلي ترغب في الذهاب إلى غرفتها، فليس هناك ما تفعله بعد أن أنهت قراءة جميع كتب نانسي درو التي أحضرتها معها. كما أنها لم ترد البقاء في المطبخ، حيث كانت لين أماه تطبخ وتحاول التحدث معها بلغة إنجليزية ضعيفة. كانت ليلي تشعر بالغضب من لين أماه وكرات لحم الخنزير كونج-وان التي أعدتها. وعلمت أن ذلك ليس عادلًا فلم يكن ذنبها، لكنها لم تستطع التحكم في مشاعرها. ورغبت في الخروج من المنزل.

ساعد المطر الذي هطل في وقت سابق من اليوم في تخفيف حرارة الهواء الرطب شبه الاستوائي، واستمتعت ليلي بنسيم خفيف أثناء سيرها. تركت ليلي شعرها الأحمر المجعد على ظهرها بعد أن كانت تربطه في ذيل حصان للمدرسة، وشعرت بالراحة وهي ترتدي بلوزة خفيفة زرقاء اللون وسروالًا قصيرًا بلون بني. امتدت حقول الأرز في القرية بشكل منظم غرب المنزل الصغير على الطراز الصيني الذي كانت عائلة داير تستأجره. كان هناك بعض الجاموس المائي الذي يتسكع في برك الوحل، ويحك جلده الخشن والداكن بقرونه الطويلة المنحنية. على عكس القرون الطويلة التي ألفتها في تكساس، والتي كانت تنحني للأمام بشكل خطر كزوج من السيوف، كانت قرون الجاموس المائي تنحني إلى الخلف، مما يجعلها مثالية لحك الظهر.

أكبرهم وأقدمهم كان مغمض العينين ونصف جسده مغمورًا في الماء.

حبست ليلي أنفاسها. فقد أرادت أن تركبه.

في الماضي، عندما كانت طفلة صغيرة وقبل أن يحصل والدها على وظيفته الجديدة السرية للغاية لدرجة أنه لم يستطع حتى أن يخبرها بما يفعله، أرادت ليلي أن تكون راعية بقر. كانت تحسد صديقاتها اللواتي لم يكن آباؤهن من بلاد الشرق وبالتالي كان يعرفن كيف يركبن ويقودن ويرعين البقر. كانت من الزوار المنتظمين لمهرجانات رعاة البقر في المقاطعة، وعندما كانت في الخامسة من عمرها، أخبرت الرجل المسؤول عن التسجيل إنها حصلت على إذن والدتها، ودخلت مسابقة ركوب الحملان.

تمكنت من التمسك بالخروف المتقلب لمدة ثمانية وعشرين ثانية كاملة، وكانت تجربة مثيرة ومرعبة في آن واحد، وهو رقم قياسي أذهل كل المقاطعة. ظهرت صورتها، وهي ترتدي قبعة رعاة البقر ذات الحواف العريضة وشعرها المربوط بإحكام يرفرف خلفها، في جميع الصحف. لم يكن ثمة أي خوف على وجه الطفلة في الصورة، بل كان يعبر عن فرح هائل وإصرار.

قالت والدتها: «كنتِ أغبى من أن تخافي. ما الذي جعلك تفعلين شيئًا كهذا؟ كان يمكن لعنقك أن ينكسر».

لم ترد ليلي عليها. بل حلمت بتلك المغامرة لشهور بعد ذلك. كانت تقول لنفسها وهي على ظهر الخروف: «تمسكي لثانية أخرى فقط. استمري وتمسكي». خلال تلك الثمانية والعشرين ثانية، لم تكن مجرد فتاة صغيرة، يومها مملوء بالدفاتر والمهام والطلبات. بل كان ثمة هدف واضح في حياتها وطريقة واضحة لتحقيقه.

لو كانت أكبر سنًّا، لكانت وصفت هذا الشعور بالحرية. وفي تلك اللحظة، إذا استطاعت أن تركب الجاموس العجوز، فلعلها ستسترجع ذلك الشعور، وسيكون يومها أفضل في النهاية.

بدأت ليلي في الركض نحو البركة الضحلة، حيث ما زال الجاموس العجوز يمضغ العشب غافلًا عما سيحدث. وصلت ليلي إلى حافة البركة وقفزت إلى ظهر الجاموس.

هبطت ليلي على ظهر الجاموس بخفوت، وغاص الجاموس للحظة. كانت مستعدة لتركبه وتنطلق به، وراقبت قرونه الطويلة المنحنية، على استعداد للإمساك بها إذا استخدمها الجاموس لمحاولة إبعادها. ضخ الأدرينالين في جسدها، وكانت مصممة على التمسك بكل قوتها.

لكن ما حدث أن الجاموس العجوز، الذي استيقظ منزعجًا من قيلولته، فتح عينيه ببساطة ونخر باستياء. حرك رأسه ونظر إلى ليلي بعينه اليسرى في غضب. ثم هز رأسه باستنكار، وقام وبدأ في الخروج من المستنقع. كانت الرحلة على ظهر الجاموس سلسة ومستقرة، مثل الطريقة التي كان يحملها بها والدها على كتفيه عندما كانت صغيرة.

ابتسمت ليلي بخجل. وربتت على ظهر عنق الجاموس اعتذارًا.

جلست ليلي برفق، وتركت الجاموس يختار طريقه بنفسه واكتفت بمشاهدة صفوف نباتات الأرز تمر بجانبها. وصل الجاموس إلى نهاية الحقول، حيث كان هناك مجموعة من الأشجار، وانعطف خلفها. وهناك انحدرت الأرض نحو ضفة النهر، وسار الجاموس تجاهها، حيث كان عدد من الفتيان الصينيين في مثل عمر ليلي يلعبون ويغسلون الجواميس الخاصة بعائلاتهم. وعندما اقتربت ليلي والجاموس العجوز منهم، خفتت الضحكات بين الفتيان، والتفتوا واحدًا تلو الآخر لينظروا إليها.

شعرت ليلي بالتوتر. فأومأت للفتيان ولوّحت لهم، لكنهم لم يبادلوها التحية. عرفت ليلي، بالطريقة التي يعرف بها جميع الأطفال، أنها في ورطة.

وفجأة، اصطدم شيء رطب وثقيل بوجه ليلي. كان أحد الفتيان قد رمى حفنة من طين النهر نحوها.

صاح الفتيان بلغة غريبة: «أجنبية، أجنبية، أجنبية!». وطار المزيد من الطين نحو ليلي. ضرب الطين وجهها وذراعيها ورقبتها وصدرها. لم تفهم ما كانوا يصرخون به، لكن عداءهم وفرحتهم لم يكونا بحاجة إلى ترجمة. لسع الطين عينيها، ولم تستطع إيقاف الدموع التي تلت ذلك. غطت وجهها بذراعيها، مصممة ألا تعطي الفتيان متعة سماع صراخها.

لم تستطع ليلي أن تمنع نفسها وصرخت: «آه!». أصابتها صخرة في كتفها، تلتها أخرى على فخذها. سقطت من على ظهر الجاموس وحاولت الاختباء خلفه مقرفصة، لكن هتاف الفتيان ازداد علوًّا والتفوا حول الجاموس ليواصلوا مضايقتها. بدأت تجمع حفنات من الطين من حولها وتلقي بها نحو الفتيان، بشكل عشوائي وبغضب ويأس.

جاء صوت رجل مسن آمرًا: «كاو جين آ، خوي تشاو، خوي تشاو!». توقفت أمطار الطين فجأة. ومسحت ليلي الطين عن وجهها بأكمامها ونظرت لأعلى. كان الفتيان يركضون مبتعدين. وصرخ الرجل المسن مرة أخرى في وجوههم، مما جعلهم يسرعون أكثر، وسار الجاموس خلفهم بخطوات أكثر هدوءًا.

وقفت ليلي ونظرت من خلف الجاموس العجوز. كان هناك رجل صيني مسن يقف على بعد خطوات قليلة منها، ويبتسم لها بلطف. وبجانبه وقف فتى آخر في مثل عمر ليلي. وعندما رأتهم ليلي، رمى الفتى حجرًا صغيرًا تجاه ظلال الفتيان الهاربين بسرعة. كانت رميته قوية، وقد تقوس الحجر

عاليًا في الهواء، ليهبط خلف آخر فتى وهو يلتف حول مجموعة من الأشجار ويختفي. ابتسم الفتى لليلي، كاشفًا عن صفين من الأسنان المعوجة.

قال الرجل المسن بإنجليزية واضحة ومشوبة بلكنة غريبة: «هل أنتِ بخير يا آنستي الصغيرة؟».

حدقت ليلي في منقذيها، عاجزة عن الكلام.

سألها الفتى: «ماذا كنت تفعلين مع آه هوانج؟». واقترب الجاموس العجوز منه برفق، ومد الفتى يده ليُربت على أنفه.

- أنا ... آه ... كنت أركبه»، (شعرت ليلي بأن حلقها جاف فابتلعت ريقها): «أنا آسفة».

قال الرجل المسن: «إنهم ليسوا أطفالًا سيئين. هم فقط مشاغبين ويشكون في الغرباء. وبما أنني معلمهم، فاللوم يقع علي، لأنني لم أعلمهم آداب التصرف بشكل أفضل. أرجو أن تقبلي اعتذاري نيابة عنهم». وانحنى لليلي.

انحنت ليلي بشكل غريب بدورها. وعندما فعلت ذلك، رأت أن الطين يغطي قميصها وسروالها، وشعرت بألم في كتفها وساقيها حيث أصابتها الحجارة. كانت تعرف أنها ستسمع الكثير من اللوم من والدتها، كان ذلك مؤكدًا. استطاعت أن تتخيل منظرها أمامها، وهي مغطاة بالطين من رأسها حتى أخمص قدميها.

لم تشعر ليلي يومًا بمثل هذه الوحدة.

عرض الرجل المسن: «دعيني أساعدك في تنظيف نفسك قليلًا». ثم ساروا نحو ضفة النهر، واستخدم الرجل المسن منديلًا لمسح الطين عن وجه ليلي، ثم شطفه في مياه النهر الصافية. كانت لمسته لطيفة.

- أنا كان تشن-هوا، وهذا حفيدي، تشين شيا-فنج.

أضاف الفتى: «يمكنك أن تناديني تيدي». وضحك الرجل المسن.

قالت ليلي: «سعدت بلقائكما. أنا ليليان داير».

- إذًا، ماذا تدرِّس؟

- فن الخط. أنا أعلِّم الأطفال كتابة الحروف الصينية بالفرشاة حتى لا يخيفوا الجميع، بمن في ذلك أسلافهم

والأرواح المتجولة، بخربشاتهم الفظيعة.

ضحكت ليلي. لم يكن السيد كان مثل أي شخص صيني قابلته من قبل.

لكن ضحكتها لم تستمر طويلًا. كانت المدرسة دائمًا حاضرة في ذهنها، وعبست وهي تفكر في الغد.

تظاهر السيد كان بأنه لم يلاحظ عبوسها.

- لكنني أمارس بعض السحر أيضًا.

أثار ذلك اهتمام ليلي.

- أي نوع من السحر؟

- أنا عرّاف حروف.

- ماذا؟

أوضح تيدي: «يستطيع جدي أن يخبر الناس بمصائرهم بناءً على حروف أسمائهم والحروف التي يختارونها».

شعرت ليلي كأنها اصطدمت بسحابة من الضباب. نظرت إلى السيد كان، غير قادرة على الفهم.

- اخترع الصينيون الكتابة لتساعدهم في التنجيم، لذا لطالما حملت الحروف الصينية سحرًا عميقًا. ومن الحروف، يمكنني أن أعرف ما يزعج الناس وما يكمن في ماضيهم وما ينتظرهم في مستقبلهم. ها، سأريكِ. فكّري في كلمة، أي كلمة.

نظرت ليلي حولها. كانوا يجلسون على بعض الصخور بجانب النهر، ورأت أن أوراق الأشجار بدأت تتحول إلى اللونين الذهبي والأحمر، وكانت سيقان الأرز مثقلة بالحبوب، على وشك أن تكون جاهزة للحصاد.

قالت: «الخريف».

أخذ السيد كان عصا وكتب حرفًا في الطين الناعم بالقرب من أقدامهم.

秋

- اعذريني على قبح الكتابة باستخدام العصا في الطين، لكن ليس لدي ورقة وفرشاة. هذا الحرف هو تشيو (Ch'iu)، ويعني الخريف باللغة الصينية.

- كيف يمكنك أن تعرف حظي من ذلك؟

- من خلال تفكيك هذا الحرف وإعادة تشكيله. فالحرف الصيني يتكون من حروف أخرى، كمكعبات الليجو. وتتكون تشيو من حرفين آخرين. الحرف الموجود على اليسار هو الحرف هِ (he)، ويعني الكينوا أو الأرز أو أي نوع من نباتات الحبوب. ما ترينه هنا هو شكله الفني، لكن في العصور القديمة، كان يُكتب بهذه الطريقة.

ثم رسم في الطين.



- هل ترين كيف يشبه ساق نبتة منحنية تحت رأس ثمرة حبوب ناضجة؟

أومأت ليلي برأسها، وهي مأخوذة بما تسمع.

أما الجانب الأيمن من كلمة خريف فهو حرف آخر، هوا (huo) ويعني النار. هل لاحظت كيف يبدو كأنه لهب مشتعل، مع شرارات تتطاير في الهواء؟



- في بلدتي الأصلية في شمال الصين، لا نزرع الأرز. لكننا نزرع الكينوا والقمح والذرة البيضاء. وفي الخريف، بعد أن نحصد الحبوب ونفصلها، نكدس السيقان ونحرقها في الحقول حتى تُخصَّب بفعل الرماد استعدادًا للعام التالي. سيقان ذهبية ولهب أحمر، عندما نضعهما معًا نحصل على كلمة تشيو، أي الخريف.

أومأت ليلي، وهي تتخيل المشهد.

«ولكن ماذا يخبرني اختيارك لكلمة تشيو للتعبير عن شخصيتك؟» توقف السيد كان للتفكير. ثم رسم بضعة خطوط أخرى أسفل كلمة تشيو. «كتبتُ تحت كلمة تشيو الحرف الذي يعني القلب، شين، وهو رسم يمثل شكل قلبك. ومعًا، يشكلان حرفًا جديدًا وهو تشو، ويعني القلق والحزن».

愁

شعرت ليلي بانقباض قلبها، وفجأة بدت كل الأشياء ضبابية أمام عينيها. كتمت أنفاسها.

- هناك الكثير من الحزن في قلبك يا ليلي، والكثير من القلق. هناك شيء يجعلك حزينة جدًّا جدًّا.

نظرت ليلي إلى وجهه الطيب المتجعد وشعره الأبيض المرتب، ثم اقتربت منه. فتح السيد كان ذراعيه، ودفنت ليلي وجهها بين كتفيه وهو يحتضنها بلطف وحنان.

في أثناء بكائها، حكت ليلي للسيد كان عن يومها في المدرسة، وعن الفتيات الأخريات ومضايقاتهن، وعن طاولة المطبخ الخالية من رسائل الأصدقاء.

قال تيدي بعدما أنهت ليلي سرد قصتها: «سأعلمك القتال. إذا ضربتهم بقوة كافية، فلن يضايقوكِ مرة أخرى».

هزت ليلي رأسها. الأولاد بسيطون، ويمكن للكماتهم أن تتحدث نيابة عنهم. أما قوة الفتيات فتكمن في سحر الكلمات التي يقلنها، وهو أمر أكثر تعقيدًا بكثير.

قال السيد كان بعد أن مسحت ليلي دموعها وهدأت بعض الشيء: «هناك الكثير من السحر في كلمة جوك (gook)، نظرت ليلي إليه باندهاش. كانت تعرف أن الكلمة قبيحة وخافت أن يغضب لسماعها، لكنه لم يكن غاضبًا على الإطلاق.

وأضاف السيد كان: «يعتقد بعض الناس أن للكلمة سحرًا مظلمًا يمكن استخدامه ليخترق قلوب الناس في آسيا ويؤذيهم هم وأولئك الذين يودون مصادقتهم. ولكنهم لا يفهمون سحرها الحقيقي. هل تعرفين من أين جاءت هذه الكلمة؟»

- كلا.

- عندما ذهب الجنود الأمريكيون إلى كوريا لأول مرة، سمعوا الجنود الكوريين يقولون كلمة مي جوك كثيرًا. اعتقدوا أن الكوريين يقولون: «أنا جوك». لكنهم في الحقيقة كانوا يتحدثون عن الأمريكيين، ومي جوك تعني أمريكا. فالكلمة الكورية جوك تعني بلد. لذا عندما بدأ الجنود الأمريكيون في مناداة شعوب آسيا بـ «جوك» لم يفهموا أنهم في الحقيقة يتحدثون عن أنفسهم بطريقة ما.

قالت ليلي: «أوه». ولم تعرف فيما يمكن أن تفيدها هذه المعلومات.

- سأريك بعض السحر الذي يمكنك استخدامه لحماية نفسك. (ثم توجه السيد كان إلى تيدي): هل يمكنني الحصول على تلك المرآة التي تستخدمها لتلاعب القطط؟

أخرج تيدي قطعة صغيرة من الزجاج من جيبه. كُسرت من مرآة أكبر، ولُفَّت حوافها الحادة بشريط لاصق، كُتبت عليه بعض الحروف الصينية بالحبر.

قال السيد كان: «الثقافة الصينية تستخدم المرايا لدرء الأذى منذ آلاف السنين. لا تستهيني بقوة هذه المرآة الصغيرة، فهي تحمل سحرًا عظيمًا. في المرة التالية التي تزعجك فيها الفتيات الأخريات، أخرجي هذه المرآة ووجهّيها إلى وجوههن».

أخذت ليلي المرآة، لكنها لم تكن متأكدة مما يقوله السيد كان. كان لطيفًا ومحبًّا، ولكن ما قاله بدا سخيفًا. ومع ذلك، كانت بحاجة إلى صديق، والسيد كان وتيدي أقرب ما يكونان إلى الأصدقاء بالنسبة لها في هذا الجانب من المحيط الهادئ.

ردت ليلي: «شكرًا لك».

وقف السيد كان وصافح يدها بجدية وقال: «يا آنسة ليلي، عندما تكون هناك فجوة زمنية كبيرة بين صديقين، نحن الصينيين نسمي ذلك وانج نين

تشي جياو، أي صداقة تنسى السنوات. إن القدر هو الذي يجمعنا معًا. آمل أن تفكري فينا دائمًا كأصدقائك».

شرحت ليلي مظهرها الموحل بتحميل كل اللوم على آه هوانج، جاموس الماء العنيد الذي تمكنت من السيطرة عليه بمهارات رعاة البقر التي اكتسبتها في تكساس. وبالطبع، غضبت والدتها لرؤية مظهر ملابسها المتلفة. وأعطت ليلي محاضرة طويلة، وحتى أن والدها تنهد وقال إن أيامها كفتاة متشبهة بالصبيان يجب أن تنتهي، بما أنها صارت شابة صغيرة. لكن بشكل عام، رأت ليلي أنها نجت من العقاب.

أعدت لين أماه دجاج الثلاثة أكواب، وهو المفضل لدى والدها. فاحت الرائحة الحلوة لزيت السمسم وخمر الأرز وصوص الصويا في المطبخ وغرفة المعيشة، وابتسمت لين أماه وأومأت برأسها عندما أشاد السيد والسيدة داير بالطعام. غلفت بقايا الطعام في كرتين من الأرز ووضعتهما في صندوق الغداء لليلي. كانت ليلي قلقة بشأن إحضار دجاج الثلاث أكواب إلى الغداء في المدرسة، لكنها لمست المرآة التي في جيبها وشكرت لين أماه.

قالت ليلي لوالديها: «تصبحان على خير»، وذهبت إلى غرفتها.

في الردهة، وجدت ليلي ورقتين ملقيتين على الأرض. التقطتهما ورأت أنهما احتوتا على كلمات معقدة ومعلومات كثيرة ...

(من تخريب العديد من المصانع والسكك الحديدية والجسور والبنية التحتية الأخرى بنجاح. كما اغتيل عدد من الكوادر المحلية التابعة للحزب الشيوعي الصيني. لقد أسرنا العشرات من الأفراد التابعين للحزب الشيوعي الصيني في هذه المداهمات، وأسفر استجوابهم عن معلومات استخباراتية قيمة تتعلق بالظروف الداخلية في الصين الحمراء. نُفذ البرنامج السري بطريقة تتيح لنا الإنكار بشكل معقول، وحتى الآن لم يشكك أي من عناصر الصحافة الأمريكية في نفينا لاتهامات الحزب الشيوعي الصيني بالتدخل الأمريكي. (جدير بالذكر أنه حتى إذا اكتشف التدخل الأمريكي، فيمكننا تبرير تدخلنا

قانونيًّا بموجب معاهدة الدفاع المتبادل بين الصين وأمريكا، حيث تمتد مطالب السيادة لجمهورية الصين على جميع أراضي جمهورية الصين الشعبية).

تشير استجوابات سجناء الحزب الشيوعي الصيني إلى أن برنامج المضايقة والإرهاب، بجانب التهديد بغزو جمهورية الصين للبر الرئيسي، قد أجبر الحزب على زيادة قمعه الداخلي وتعزيز السيطرة المحلية. كما زاد الحزب من ميزانيته العسكرية، مما قد يكون أثر على الموارد المحدودة المخصصة للتنمية الاقتصادية، وزاد من معاناة الشعب في ظل المعاناة الكبيرة التي تعاني منها جمهورية الصين الشعبية من المجاعات بعد القفزة العظيمة للأمام. وبالتالي، فإن هناك قدرًا عاليًا من الاستياء تجاه النظام.

لقد أعاد الرئيس كينيدي توجيه سياستنا نحو موقف أكثر وضوحًا تجاه الحزب الشيوعي الصيني. أرى أنه ينبغي علينا العمل على إضعاف جمهورية الصين الشعبية باستخدام جميع الوسائل المتاحة، باستثناء الحرب الشاملة. بالإضافة إلى دعمنا المستمر لعمليات جمهورية الصين في اعتراض ومضايقة الشحنات الصينية، وكذلك دعمنا وتوجيهنا للتمرد في التبت، يجب علينا تعزيز عملياتنا السرية المشتركة مع جمهورية الصين في البر الرئيسي للصين. أعتقد أنه من خلال تكثيف عملياتنا السرية ضد الحزب الشيوعي، يمكننا إجبارهم على تقليص دعمهم لفيتنام الشمالية. في أفضل الأحوال، قد نتمكن من تقديم القشة التي ستكسر ظهر البعير، مما قد يؤدي إلى تحريض ثورة شعبية داخلية تدعم غزو القوات القومية الصينية من تايوان وبورما. القائد الأعلى متحمس جدًّا لذلك.

إذا استفزت جمهورية الصين الشعبية للدخول في حرب شاملة معنا، فسيكون من الضروري استخدام الأسلحة النووية لضمان مصداقية الإرادة الأمريكية أمام حلفائنا. يجب أن يكون الرئيس مستعدًّا لإدارة الانطباعات العامة في الولايات المتحدة وتحفيز حلفائنا لقبول استخدام الأسلحة النووية كوسيلة لتحقيق النصر.

وفي الوقت نفسه، من المؤكد أن الشيوعيين الصينيين سيزيدون من جهودهم للتسلل إلى تايوان وإنشاء شبكة من الجواسيس والمتعاطفين داخلها. إن تقنيات الدعاية والحرب النفسية التي يستخدمها الشيوعيون ليست بمستوى تعقيد تقنياتنا، لكنها أظهرت فاعلية في الماضي، خاصة بين التايوانيين الأصليين، من خلال استغلال الخلافات بين السكان المحليين والوافدين الوطنيين.

الحفاظ على معنويات القوميين الصينيين أمر حيوي لسيطرتنا على تايوان، التي تُعتبر الرابط الأكثر أهمية في سلسلة الجزر التي تشكل درع سيطرة البحرية الأمريكية في المحيط الهادئ الغربي والدفاع عن العالم الحر. يجب علينا أن ندعم جمهورية الصين في جهودها لمكافحة التجسس على الجزيرة. تعمل السياسة الحالية لجمهورية الصين على قمع القضايا الحساسة مثل ما يُعرف بحادث 228، لتجنب إعطاء الحزب الشيوعي فرصة لاستغلال مشاعر الاستياء لدى السكان الأصليين، وينبغي علينا دعم هذه السياسة بالكامل. يجب أيضًا تقديم كل الدعم الممكن لاستئصال وكبح ومعاقبة جواسيس الحزب الشيوعي الصيني، والمتعاطفين معهم، و...

بدا أن تلك الأوراق تخص عمل والدها. صعب على ليلي قراءة العديد من الكلمات التي لم تفهمها، وتوقفت أخيرًا عند كلمة «الثالاسوقراطية/ الهيمنة

البحرية» (thalassocracy)، أيًا كان معناها. وضعت الأوراق بهدوء مرة أخرى على الأرض. كانت سوزي راندلينج ووجبة الغداء في اليوم التالي أمرًا أكثر إلحاحًا وقلقًا بالنسبة لها من أي شيء مكتوب على تلك الأوراق.

كما كان متوقعًا، كانت سوزي راندلينج ومجموعة من أصدقائها المخلصين يراقبون ليلي باهتمام وهي تجلس إلى الطاولة الأخرى، وظهرها موجه لهن.

أجلت ليلي إخراج غدائها لأطول فترة ممكنة، آملة في أن تنشغل الفتيات بنميمتهن ويتجاهلنها. شربت عصيرها وتناولت العنب الذي أحضرته كحلوى، وهي تطيل الوقت في تقشير كل حبة عنب ومضغ لبها الحلو ببطء.

لكن في النهاية، أنهت ليلي جميع حبات العنب. حاولت أن تمنع يديها من الارتعاش وهي تخرج كرات الأرز. فكّت أوراق الموز عن أول كرة أرز وقضمت منها. انبعثت رائحة السمسم والدجاج الحلوة تجاه الطاولة الأخرى، مما جعل سوزي تنتبه على الفور.

قالت سوزي وهي تشم الهواء بمبالغة: «أشم رائحة طعام الصينيين مرة أخرى». وارتسمت ابتسامة قبيحة على وجهها، وهي تستمتع بمشاهدة ليلي تنكمش وتتراجع عند سماع صوتها. كانت تجد متعة في ذلك.

بدأت سوزي وصديقاتها يكررن هتاف الأمس. وتعالت الضحكات في أصواتهن، ضحكات الفتيات اللاتي يشعرن بالقوة. وكان هناك تعطش واضح في عيونهن، شغف بالأذى، ورغبة في رؤية ليلي تبكي.

فكرت ليلي: *لن تضرني المحاولة.*

استدارت لتواجه الفتيات، وفي يدها اليمنى المرتفعة كانت المرآة التي أعطاها إياها السيد كان. وجهت المرآة نحو سوزي.

- ما هذا الذي في يدك؟

وضحكت سوزي، ظنًا منها أن ليلي تقدم لها شيئًا كنوع من التقدير أو عرض سلام. يا لها من فتاة ساذجة! ماذا يمكن أن تقدم بخلاف دموعها؟

نظرت سوزي إلى المرآة.

بدلًا من أن ترى وجهها الجميل، رأت شفاهًا حمراء كالدم تبتسم كمهرج، وبدلًا من لسان، كانت هناك كتلة قبيحة من أذرع دودية تتلوّى داخل الفم. ورأت عينين زرقاوين، مفتوحتين كفنجانين، ومليئتين بالكراهية والدهشة. كان هذا أكثر منظر بشع ومخيف رأته في حياتها. لقد رأت وحشًا.

صاحت سوزي وغطت فمها بيديها. ورفع الوحش الذي في المرآة مجموعة من الأذرع المشعرة أمام شفاهه الدامية، وكانت مخالبه الطويلة الشبيهة بالخناجر تبدو وكأنها تمتد من المرآة نحو سوزي.

استدارت سوزي وهربت، وتوقف الهتاف فجأة، ليحل محله صراخ الفتيات الأخريات عندما رأين أيضًا الوحش الذي بداخل المرآة.

لاحقًا، اضطرت السيدة وايل لإرسال سوزي إلى المنزل وهي في حالة هيستيرية. كانت سوزي قد أصرت على أن تأخذ السيدة وايل المرآة من ليلي، ولكن بعد وقت من الفحص الدقيق، استنتجت السيدة وايل أن المرآة عادية تمامًا وأعادتها إلى ليلي. تنهدت وهي تحاول كتابة رسالة لوالدي سوزي، حيث اشتبهت في أن سوزي قد اختلقت الحادثة بأكملها كطريقة للخروج من المدرسة، لكن الفتاة كانت ممثلة جيدة.

لمست ليلي المرآة التي في جيبها وابتسمت لنفسها في أثناء حضورها دروس فترة ما بعد الظهيرة.

قالت ليلي وهي تجلس على ظهر آه هوانج: «أنت بارع حقًا في لعبة البيسبول».

هز تيدي كتفيه، وكان يقود آه هوانج من أنفه وهو يحمل مضرب البيسبول على كتفه. سار ببطء لتكون رحلة ليلي مريحة.

كان تيدي هادئًا، وبدأت ليلي تتكيف مع طبيعته. في البداية، اعتقدت أن السبب هو أن لغته الإنجليزية ليست جيدة مثل السيد كان، لكنها لاحظت أن حديثه قليل مع الأطفال الصينيين الآخرين أيضًا.

عرفها تيدي على الأطفال الآخرين في القرية، بعضهم كان ممن رموا الطين على ليلي في اليوم السابق. أومأ الأولاد برؤوسهم نحو ليلي، لكنهم سرعان ما صرفوا نظرهم وهم محرجين.

لعبوا البيسبول معًا. وكان تيدي وليلي هما الوحيدين اللذين يعرفان جميع القواعد، لكن جميع الأطفال عرفوها فقط من خلال مشاهدتهم للجنود الأمريكيين يلعبون في القاعدة القريبة. كانت ليلي تحب البيسبول، ومن أكثر الأشياء التي افتقدتها في وطنها هو لعب البيسبول مع والدها ومشاهدة

المباريات معًا على التلفاز. ولكن منذ انتقالهم إلى تايوان، لم تعد هناك مباريات على التلفاز، ولم يبدُ أن والدها قادر على إيجاد الوقت.

عندما حان دور ليلي لضرب الكرة، ألقى الرامي، وهو أحد الفتيان من اليوم السابق، لها الكرة ببطء ونعومة وحولتها ليلي إلى ضربة خفيفة على الأرض تدحرجت إلى الجهة اليمنى من الملعب. هرع اللاعبون الذين في الملعب الخارجي نحو الكرة، لكن بدا فجأة أن جميعهم يواجهون صعوبة في العثور عليها بين العشب. دارت ليلي حول القواعد بسهولة.

فهمت ليلي أن هذه كانت طريقة الفتيان في الاعتذار. ابتسمت لهم وانحنت قليلًا، مشيرةً إلى أن كل شيء قد غُفر. ابتسم الفتيان لها بدورهم.

قال تيدي: «كان جدي سيقول: '*بو تا بو شيانج شي*'، وهذا يعني أنه في بعض الأحيان لا يمكنك أن تكون صديقًا لشخص ما حتى تتقاتل معه».

اعتقدت ليلي أن هذه فلسفة جيدة جدًّا، لكنها شكت في أنها تنجح بين الفتيات.

كان تيدي بلا شك أفضل لاعب بين جميع الأطفال. كان راميًا جيدًا، لكنه كان ضاربًا رائعًا. وفي كل مرة يأتي دوره لضرب الكرة، كان الفريق المنافس يتفرق في الملعب، مدركين أنه سيضرب الكرة لمسافة بعيدة.

قال تيدي فجأة، دون أن ينظر إلى ليلي الجالسة على ظهر جاموس الماء: «يومًا ما، عندما أكبر، سأنتقل إلى أمريكا وسألعب لصالح فريق ريد سوكس».

وجدت ليلي فكرة أن يلعب صبي صيني من تايوان في فريق ريد سوكس ببوسطن سخيفة بعض الشيء، لكنها منعت نفسها من الضحك لأن تيدي لم يبد أنه يمزح. كانت ليلي تميل لفريق يانكيز لأن عائلة والدتها من نيويورك.

- لماذا بوسطن؟

قال تيدي: «ذهب جدي إلى المدرسة في بوسطن».

فكرت ليلي: «*آه. لا بد أن هذه هي الطريقة التي تعلم بها السيد كان اللغة الإنجليزية*».

وأضاف تيدي بحزن: «أتمنى لو كنت أكبر سنًّا. حينها كنت سأتمكن من اللعب مع تيد ويليامز. لكن الآن لن أتمكن من رؤيته يلعب شخصيًّا. لقد تقاعد في العام الماضي».

كانت نبرة الحزن في صوته واضحة لدرجة أنهما لم يتحدثا لبضع دقائق. لم يكن ثمة أصوات سوى صوت التنفس العميق والمنتظم لآه هوانج الذي رافق سيرهم الصامت.

فجأة أدركت ليلي شيئًا: «هل لهذا السبب تسمي نفسك تيدي؟».

لم يرد تيدي، لكن ليلي لاحظت أن وجهه تورد. فحاولت تشتيت انتباهه عن إحراجه: «لعله سيعود يومًا ما لتدريب الفريق».

قال تيدي: «كان ويليامز أفضل ضارب على الإطلاق. سيعلمني بالتأكيد كيف أحسن ضربتي. لكن الرجل الذي حل محله، كارل ياز، بارع جدًّا أيضًا. يومًا ما، سنهزم أنا وياز، اليانكيز ونقود الريد سوكس إلى بطولة العالم».

فكرت ليلي: *بما إنها تدعى بطولة العالم. فقد يمكن بالفعل لصبي صيني أن يحقق ذلك.*

قالت ليلي: «إنه حلم كبير حقًّا. آمل أن يتحقق».

قال تيدي: «شكرًا. عندما أحقق النجاح في أمريكا، سأشتري أكبر بيت في بوسطن، وسنعيش أنا وجدي فيه. وسأتزوج فتاة أمريكية، لأن الفتيات الأمريكيات هن الأفضل والأجمل».

سألته ليلي: «كيف سيبدو شكلها؟».

- شقراء.

ثم نظر تيدي إلى ليلي التي كانت تركب على ظهر آه هوانج، بشعرها الأحمر المتناثر وعينيها العسليتين. وأضاف بسرعة: «أو صهباء». ثم أدار وجهه بعيدًا وقد احمر وجهه خجلًا.

ابتسمت ليلي.

وفي أثناء سيرهم بجانب المنازل الأخرى في القرية، لاحظت ليلي أن العديد من المنازل احتوت على شعارات مرسومة على جدرانها وأبوابها.

سألته: «ماذا تقول تلك اللافتات؟».

- تلك تقول: «احذروا جواسيس قطاع الطرق الشيوعيين. من مسؤولية الجميع الحفاظ على الأسرار». وتلك التي هناك تقول: «حتى لو قتلنا ثلاثة آلاف شخص بالخطأ، فلا يمكننا أن نترك جاسوسًا شيوعيًّا واحدًا

يفلت من بين أيادينا». وتلك الأخرى تقول: «ادرسوا بجد واعملوا بجد، يجب أن ننقذ إخواننا في الوطن الأم من قطاع الطرق الحمر».

قالت ليلي: «هذا مخيف».

وافقها تيدي: «الشيوعيون مخيفون. « ثم أضاف: «أوه! هذا منزلي هناك. هل تودين الدخول؟».

سألته ليلي: «هل سأقابل والديك؟».

انحنى تيدي فجأة وبدا عليه الحزن.

- أنا وجدي فقط نعيش هنا. إنه ليس جدي الحقيقي. توفي والداي عندما كنت رضيعًا، وتبناني جدي كيتيم».

لم تعرف ليلي ماذا تقول.

- كيف ... كيف مات والداك؟

نظر تيدي حوله ليتأكد من عدم وجود أحد بالقرب منهما.

- حاولا وضع إكليل من الزهور على قطعة أرض فارغة في 28 فبراير عام 1952. قد توفي عمي وعمتي هناك في عام 1947.

بدا أنه اعتقد أن هذا كل ما احتاج إلى قوله لتفهم ليلي.

لم تعرف ليلي عما يتحدث، لكنها لم تستطع أن تسأله عن المزيد من التفاصيل. فقد وصلا إلى منزل تيدي.

كان الكوخ صغيرًا جدًّا. فتح تيدي الباب وأدخل ليلي ثم ذهب ليعتني بآه هوانج. وجدت ليلي نفسها تقف في المطبخ. من خلال المدخل، استطاعت أن ترى غرفة أكبر -وهي الغرفة الوحيدة الأخرى في الكوخ فعليًّا- مفروشة بحصر التاتامي. كان من الواضح أن تيدي والسيد كان ينامان هناك.

أرشدها السيد كان إلى مقعد بجوار الطاولة الصغيرة في المطبخ، وقدم لها كوبًا من الشاي. كان يطهو شيئًا على الموقد، وفاحت رائحته اللذيذة جدًّا.

قال السيد كان: «إذا أردتِ، يمكنك مشاركتنا في تناول اليخنة. تيدي يحبه، وأعتقد أنك ستحبينه أيضًا. سيصعب أن تجدي يخنة لحم الضأن المغولي مطبوخة في حساء سمك اللبن بأسلوب شانتونج في أي مكان آخر في العالم، هاهاها».

أومأت ليلي برأسها، وبدأت معدتها تصدر أصواتًا وهي تستنشق روائح الطبخ الرائعة. وشعرت بالاسترخاء والراحة.

قالت ليلي: «شكرًا لك على المرآة. لقد نجح الأمر». (ثم أخرجت المرآة ووضعتها على الطاولة: «ماذا تعني الكلمات المكتوبة على الشريط؟».

أجابها السيد كان: «إنها اقتباس من كتاب «الأقوال المأثورة لكونفوشيوس» (Analects). قال النبي عيسى كلمات تحمل في طياتها نفس المعنى بالضبط: 'افعل للآخرين ما تود أن يفعلوه لك'».

قالت ليلي: «آه». شعرت بخيبة أمل. فكانت تأمل أن تكون الكلمات تعويذة سحرية سرية.

بدا السيد كان أنه يعرف ما كانت تفكر فيه ليلي. وقال: «غالبًا ما يُساء فهم الكلمات السحرية. عندما اعتقدت تلك الفتيات وأنت أن كلمة جوك كلمة سحرية، حملت نوعًا من القوة. لكنها كانت سحرًا فارغًا قائمًا على الجهل. وثمة كلمات أخرى تحمل أيضًا سحرًا وقوة، لكنها تتطلب التأمل والتفكير».

أومأت ليلي برأسها، غير متأكدة ما إذا كانت تفهم ما قاله حقًّا.

سألته: «هل يمكننا أن نفعل المزيد من التنجيم بالحروف؟».

قال: «بالطبع». (وضع السيد كان غطاء القدر ومسح يديه. ثم أخرج بعض الورق والحبر وفرشاة): «ما هي الكلمة التي تودين استخدامها؟».

قال تيدي وهو يدخل المطبخ: «سيكون الأمر أكثر روعة إذا تمكنت من فعل ذلك باللغة الإنجليزية».

أضافت ليلي وهي تصفق: «أجل! هل يمكنك فعل ذلك باللغة الإنجليزية؟».

ضحك السيد كان: «سأحاول. ستكون هذه المرة الأولى»، ثم أعطى الفرشاة لليلي.

بدأت ليلي تكتب ببطء أول كلمة خطرت على بالها، وهي كلمة لم تفهمها: «ثالاسوكراسي».

بدت المفاجأة على وجه السيد كان.

- أوه، لا أعرف هذه الكلمة. سيكون هذا صعبًا.

وعبس وجهه.

كتمت ليلي بأنفاسها.

- ألن ينجح السحر باللغة الإنجليزية؟

هز السيد كان كتفيه.

- حسنًا، سأحاول ذلك. دعينا نرى ... في منتصف الكلمة توجد كلمة أخرى: (لاس lass) وهي تعني فتاة، أي أنتِ. (وأشار بطرف الفرشاة نحو ليلي): والفتاة لديها حرف (أُ O) أي دائرة من الحبل تتبعها، وإذا وضعناهما معًا فهذا يعني (حبل بأنشوطة للإمساك بالحيوانات lasso). إمم، ليلي، هل ترغبين في أن تكوني راعية بقر عندما تكبرين؟

أومأت ليلي وهي تبتسم: «لقد ولدت في تكساس. نحن نولد بمهارة الركوب».

قال السيد كان: «وماذا عن الحروف المتبقية بعد لاسو؟ لدينا)ثا (tha – مسافة – (اكراسي cracy). إمم، إذا أعدنا ترتيبها، فيمكن أن ننطق كلمة (ساثاي Cathay) بحرف السي، ويتبقى لدينا حرف (آر r). وحرف (سي C) هنا يمكن أن يعني (البحر Sea)، وساثاي هو اسم قديم للصين. لكن ماذا عن حرف الآر؟

تابع: «آه، فهمت! الطريقة التي كتبتِ بها حرف الآر، تبدو كطائر يطير. لذا يا ليلي، هذا يعني أنك الفتاة التي تحمل حبل بأنشوطة للإمساك بالحيوانات ولديها القدرة على الطيران عبر البحر والمجيء إلى الصين. هاها! كان مقدر لنا أن نكون أصدقاء!».

صفقت ليلي وضحكت من الفرحة والدهشة.

سكب السيد كان مرق لحم الضأن والأسماك في وعائين لتيدي وليلي. كانت اليخنة لذيذة، ولكنها مختلفة تمامًا عن أي شيء أعدته لين أمه. كان مذاقها مالحًا، وطريًّا، مع رائحة حادة ومنعشة من البصل الأخضر. راقب السيد كان الطفلين وهما يأكلان وشرب شايه بسعادة.

- لقد اكتشفت الكثير عني يا سيد كان، لكنني لا أعرف الكثير عنك.

هذا صحيح. لما لا تختارين كلمة أخرى؟ ولنرى ما تريده الحروف أن تعرفي عني.

فكرت ليلي في الأمر. وقالت: «ماذا عن كلمة أمريكا؟ لقد عشت هناك، أليس كذلك؟».

أومأ السيد كان: «اختيار جيد»، وكتب الكلمة باستخدام فرشاته.

美

- هذا حرف (مي Mei). إنه الحرف الذي يعني «الجمال»، و(أمريكا Meikuo)، يعني «البلد الجميل». هل ترين أنها تتكون من حرفين مكدسين فوق بعضهما؟ الحرف الذي في الأعلى يعني «خروف». هل يمكنك رؤية قرني الخروف يرتفعان؟ والحرف الذي في الأسفل يعني «عظيم»، وهو على شكل شخص واقف، وذراعاه وساقاه ممدودتان، ويبدو كأنه رجل كبير.

وقف السيد كان ليوضح لها.

- كان الصينيون القدماء شعبًا بسيطًا. إذا كانوا يملكون خروفًا كبيرًا وسمينًا، فهذا يعني الثراء والاستقرار، والراحة والسعادة. كانوا يعتقدون أن مشهده جميل. والآن، في شيخوختي، أفهم شعورهم جيدًا.

فكرت ليلي في مسابقات ركوب البقر، وفهمت أيضًا.

جلس السيد كان وأغمض عينيه واستمر في الحديث: «أنا من عائلة تجار ملح في شانتونج. كنا نعتبر أغنياء. وعندما كنت فتى صغيرًا، كان الناس يمدحونني لذكائي ومهارتي في استخدام الكلمات، وأمل والدي أن أفعل شيئًا عظيمًا يرفع اسم عائلة كان. عندما كبرت ووصلت لسن مناسبة، اقترض مبلغًا كبيرًا من المال ليرسلني للدراسة في أمريكا. واخترت دراسة القانون لأنني أحببت الكلمات وقوتها.

كتب السيد كان حرفًا آخر على الورقة.

- لنرى ما يمكنني أن أخبرك به بمزيد من الحروف المكونة من كلمة «خروف».

鮮

- في المرة الأولى التي تناولت فيها هذه اليخنة، كنت أدرس القانون في بوسطن. وتشاركنا أنا وصديقي غرفة معًا. لم يكن لدينا أي مال، ولم نتناول سوى الخبز والماء عند كل وجبة. ولكن في تلك المرة، شعر مالك المنزل بالشفقة علينا، وكان يمتلك مطعمًا في الحي الصيني. لذا، أعطانا بعض السمك المتعفن وقطع من لحم الضأن كان سيرميها. كنت أعرف كيف أعد يخنة سمك شهية، وصديقي الذي كان من منشوريا، يعرف كيف يعد لحم ضأن منغولي شهي.

وفكرت، بما أن الحرف الصيني الذي يعني (لذيذ Savory) يتكون من حروف كلمتي (سمك Fish) و(ضأن Lamb)، فإذا دمجنا أطباقنا، لعل مذاقهما سيكون لذيذًا. وقد نجح الأمر! لا أعتقد أننا سعدنا هكذا من قبل. التنجيم بالحروف مفيد حتى في الطهي.

وضحك السيد كان كالأطفال.

ثم تغيرت تعبيرات وجهه وبدا أكثر جدية.

- لاحقًا، في عام 1931، غزت اليابان منشوريا، ورحل صديقي عن أمريكا للدفاع عن وطنه. سمعت أنه صار شيوعيًّا متمردًا لمحاربة اليابانيين، وأن اليابانيين قتلوه بعد عام.

شرب السيد كان شايه. وكانت يداه ترتجفان.

- كنت جبانًا. كان لدي عمل آنذاك وحياة مريحة في أمريكا. كنت آمنًا، ولم أرغب في الذهاب إلى الحرب. اختلقت الأعذار، وأخبرت نفسي أنه يمكنني تقديم المزيد لمساعدة الناس إذا انتظرت حتى تنتهي الحرب.

لكن اليابان لم تكن راضية عن منشوريا. وبعد بضع سنوات، غزت بقية الصين، وفي يوم من الأيام استيقظت لأجد أن بلدتي قد سُيطر عليها، وتوقفت عن تلقي أي رسائل من عائلتي. انتظرت وانتظرت، وحاولت طمأنة نفسي

أنهم هربوا إلى الجنوب وأن كل شيء على ما يرام. ولكن في النهاية، وصلتني رسالة من أختي الصغيرة، تحمل معها خبر أن الجيش الياباني قد قتل جميع من في عشيرتنا، بما في ذلك والدينا، عندما سقطت المدينة. وكانت أختي هي الوحيدة التي نجت فقد تظاهرت بأنها ميتة. لأنني ترددت، تركت والدي يموتان.

رحلت إلى الصين. وطلبت أن أسجل في الجيش بمجرد أن نزلت من القارب. لم يهتم الضابط القومي بأنني درست في أمريكا. ما كانت الصين بحاجة إليه هو رجال يستطيعون إطلاق النار، وليس رجالًا يعرفون القراءة والكتابة ويمكنهم تفسير القوانين. أعطوني بندقية وعشر رصاصات، وأخبروني إنه إذا كنت أرغب في الحصول على المزيد من الرصاصات، فعلي الحصول عليها من الجثث.

كتب السيد كان حرف آخر على الورق.

羡

ها هو حرف آخر مبني أيضًا على كلمة خروف. إنه يشبه كثيرًا حرف «مي»، لكنني غيرت حرف الـ«عظيم» الذي في الأسفل قليلًا. هل تعرفينه؟

تذكرت ليلي رسومات اليوم السابق: «هذا هو حرف الـ«نار».

أومأ السيد كان برأسه وقال: «أنت فتاة ذكية جدًّا».

- إذًا، هذا الحرف يشير إلى شوي لحم الضأن على النار؟

- نعم، ولكن عندما تكون «النار» في أسفل الحرف، عادةً ما نغير شكله لنظهر أنه يُطبخ على نار هادئة. مثل هذا.

羔

- قديمًا، كان لحم الضأن المشوي يُقدم كقربان للآلهة، وصار هذا حرف (كاو Kao)، يعني الضأن بشكل عام.

- مثل الضأن الذي يُضحَّى به؟

أومأ السيد كان برأسه وقال: «أعتقد هذا. لم نتلقَ أي تدريبات أو دعم، وخسرنا أكثر مما ربحنا. كان خلفنا الضباط المسلحون بالمدافع الرشاشة سيطلقون علينا النار إذا حاولنا الهروب. وأمامنا، كان اليابانيون يهاجموننا بالخناجر. وعندما تنفد رصاصاتنا، كنا نبحث عن مزيد من جثث رفاقنا القتلى. كنت أريد الانتقام لعائلتي التي قُتلت، لكن كيف أستطيع الحصول على انتقامي؟ لم أكن أعرف حتى من هم الجنود اليابانيون الذين قتلوهما.

عندها بدأت أفهم نوعًا آخر من السحر. كان الرجال يتحدثون عن مجد اليابان وضعف الصين، وأن اليابان تريد أن تنال من آسيا، وأن على الصين أن تقبل بما تريده اليابان وتستسلم. لكن ماذا تعني هذه الكلمات؟ كيف يمكن أن تريد اليابان شيئًا؟ اليابان والصين لا وجود لهما. إنهما مجرد كلمات، محض خيال. قد يكون هناك ياباني مجيد، وقد يريد صيني شيئًا ما، لكن كيف يمكننا أن نتحدث عن اليابان أو الصين ككيانين *يرغبان* أو *يعتقدان* أو يقبلان أي شيء؟ كل ذلك مجرد كلمات فارغة، أساطير. لكن تلك الأساطير تحمل سحرًا قويًّا، وتتطلب تضحيات. إنها تتطلب ذبح الرجال مثل الخراف.

عندما انضمت أمريكا إلى الحرب أخيرًا، شعرت بسعادة كبيرة، لأنني علمت وقتها أن الصين ستُنقذ. أترين قوة هذا السحر، وكيف أنني أستطيع التحدث عن هذه الأشياء كأنها حقيقية؟ على أية حال، بمجرد أن انتهت الحرب مع اليابان، قيل لي إنه يتعين علينا نحن القوميين أن نحارب الشيوعيين، الذين كانوا في صفنا ضد اليابانيين قبل أيام قليلة. وأن الشيوعيين أشرار ويجب أن نوقفهم.

ثم كتب السيد كان حرفًا آخر.

義

هذا الحرف هو (يِ Yi) الذي كان يعني في الماضي (الحق) والآن يعني أيضًا (أيديولوجيا -ism)، كما في (الشيوعية Communism)، و(القومية Nationalism)، و(الإمبريالية Imperialism)، و(الرأسمالية Capitalism)، و(الليبرالية Liberalism). وهو مكون من الحرف الذي يعني (خروف)، ذاك الذي تعرفينه الموجود في الأعلى، والحرف الذي يعني (أنا)، في الأسفل. فالرجل يحمل خروفًا ليضحي به، ويعتقد أنه يمتلك الحقيقة، والعدالة، والسحر الذي سينقذ العالم. إنه أمر مضحك، أليس كذلك؟

لكن إليكِ الأمر. رغم أن الشيوعيين كانوا يملكون معدات أسوأ من معداتنا، وتدريبات أقل مهارة، استمروا في الانتصار. لم أفهم ذلك حتى جاء اليوم الذي تعرضت فيه وحدتي لكمين من الشيوعيين، واستسلمت وانضممت إليهم. كان الشيوعيون في الواقع لصوصًا. فقد كانوا يستولون على أراضي الملاك ثم يقسمونها على الفلاحين المعدمين، مما جعلهم يحظون بشعبية كبيرة. لم يكن لديهم أي اهتمام بمفهوم القوانين وحقوق الملكية. لماذا عليهم أن يهتموا بذلك؟ لقد أفسد الأغنياء والمثقفون الأمور، فلماذا لا يحصل الفقراء والأميون على فرصة؟ لم يفكر أحد في الفلاحين البسطاء قبل ظهور الشيوعيين، ولكن عندما لا تملكين شيئًا، حتى الحذاء لقدمك، فلن تخافي من الموت. كان عدد الفقراء أكبر بكثير في العالم، لذلك لم يخافوا، مقارنة بالأغنياء الذين يعيشون في حالة دائمة من الخوف. استطعت أن أفهم منطق الشيوعيين.

لكنني كنت متعبًا. لقد قضيت تقريبًا عقدًا من حياتي في القتال، وكنت وحيدًا في العالم. كانت عائلتي غنية، وكان الشيوعيون ليقتلونهم أيضًا. لم أرغب في القتال من أجل الشيوعيين، حتى وإن استطعت فهمهم. كنت أريد أن أوقف كل ذلك.

تسللت أنا وعدد من الأصدقاء في منتصف الليل وسرقنا قاربًا. أردنا الذهاب إلى هونج كونج وترك كل هذه المجازر وراءنا.

لكننا لم نعرف طرق الملاحة، وأخذتنا الأمواج إلى البحر الشاسع. نفد منا الماء والطعام وانتظرنا الموت. لكن بعد أسبوع، رأينا اليابسة تلوح في الأفق. جدَّفنا بآخر ما تبقى لدينا من قوى حتى وصلنا إلى الشاطئ، واكتشفنا أننا في تايوان.

أقسمنا لبعضنا ألا نبوح بأي شيء عن الوقت الذي قضيناه مع الشيوعيين وعن هروبنا. وذهب كل منا في طريقه، مصممًا على ألا يعود للقتال مرة

أخرى. وبفضل كفاءتي في الحساب والكتابة، وظفني زوجان تايوانيان يملكان متجرًا صغيرًا، واهتممت بحساباتهما وأدرت المكان من أجلهما.

استوطنت معظم أراضي تايوان من قبل مهاجرين من فوكين (فوجيان الآن) قبل عدة قرون. فبعد أن استولت اليابان على تايوان وأخذتها من الصين في عام 1885، سعت اليابان إلى توطين ثقافتها في الجزيرة، كما فعلت في أوكيناوا، كما سعت إلى تحويل السكان الأصليين (البنشينجين) إلى رعايا مخلصين للإمبراطور. وشارك العديد من الرجال في صفوف جيش اليابان خلال الحرب. وبعد هزيمة اليابان، كان من المقرر إعادة تايوان إلى جمهورية الصين. ثم جاء القوميون إلى تايوان وجلبوا معهم موجة جديدة من المهاجرين، الذين يُعرفون بـ(الوايشينججين). كان البنشينجين يكرهون القوميين الوايشينججين، الذين استحوذوا على أفضل الوظائف، والقوميون الوايشينججين كرهوا البنشينجين، الذين اعتبروهم خونة لعرقهم خلال الحرب.

في أحد الأيام، عندما كنت أعمل في المتجر، تجمهر حشد في الشوارع. وكانوا يهتفون باللغة الفوكينية، ففهمت أنهم من البنشنجين. أوقفوا كل من يمر بهم، وإذا تحدث الشخص باللغة الماندرينية، كانوا يدركوا أنه من الوايشينججين ويهاجمونه بلا تردد أو نقاش. كانوا يسعون إلى إراقة الدماء. فشعرت برعب شديد وحاولت أن أختبئ تحت المنضدة.

群

- هذا الحرف يعني (الغوغاء mob)، ويتكون من الحرف الذي يعني (النبل nobility) في جانب، والحرف الذي يعني (خروف) في الجانب الآخر. إذًا، هذا هو تعريف الغوغاء: قطيع من الخراف يتحول إلى مجموعة من الذئاب لأنهم يعتقدون أنهم يخدمون قضية نبيلة.

حاول الزوجان البنشينجيان حمايتي، قائلين إنني رجل طيب. لكن أحد الغوغائيين صرخ وقال إنهم خونة، فهاجمونا جميعًا وأحرقوا المتجر. تمكنت من الزحف خارج النار، لكن الزوجين ماتا.

قال تيدي: «كانا عمي وعمتي». أومأ السيد كان ووضع يده على كتفه.

- بدأ تمرد البنشينجين في 28 فبراير عام 1947 واستمر لأشهر. ولأن بعض المتمردين كانوا بقيادة شيوعيين، تصرف القوميون بوحشية شديدة. استغرق الأمر وقتًا طويلًا من القوميين لقمع التمرد أخيرًا، وقُتل الآلاف أثناء ذلك.

في تلك المجازر وُلد نوع جديد من السحر. فالآن، لا يُسمح لأحد بالحديث عن مذبحة 228. وصار الرقم 228 من المحرمات.

لقد توليت رعاية تيدي بعد أن أُعدم والداه لمحاولتهما إحياء ذكرى ذلك اليوم. ثم جئت إلى هنا، بعيدًا عن المدينة، لكي أعيش في كوخ صغير وأشرب شايي بسلام. يحترم القرويون من قرؤوا الكتب، ويأتون إلي ليطلبوا مني اختيار أسماء لأطفالهم تجلب لهم الحظ السعيد. حتى بعد أن مات الكثير من الرجال بسبب بضع كلمات سحرية، ما زلنا نؤمن بقوة الكلمات في جلب الخير.

لم أسمع أي أخبار عن أختي الصغيرة منذ عقود. أعتقد أنها ما زالت على قيد الحياة في البر الرئيسي. آمل أن أراها مرة أخرى قبل أن أموت.

جلس الثلاثة حول الطاولة، ولم يتحدث أحد لبرهة. مسح السيد كان عينيه.

- آسف لأنني رويت لكِ قصة حزينة يا ليلي. لكن لم يكن لدى الصينيين قصص سعيدة ليرووها منذ زمن طويل.

نظرت ليلي إلى الورقة التي أمام السيد كان، الممتلئة بالحروف المكونة من كلمة (خروف).

- هل يمكنك أن ترى ما في المستقبل؟ هل ستكون ثمة قصص سعيدة؟

تألقت عينا السيد كان.

- فكرة جيدة. ما الحرف الذي ينبغي أن أكتبه؟

- ماذا عن الحرف الذي يعني الصين؟

فكر السيد كان قليلًا ثم قال: «هذا طلب صعب يا ليلي. قد تبدو الصين كلمة بسيطة في اللغة الإنجليزية، لكنها ليست كذلك في الصينية. فلدينا العديد من الكلمات التي تعني الصين والشعب الذي يسمي نفسه صينيًّا. ومعظم هذه الكلمات مستمدة من سلالات قديمة، أما الكلمات الحديثة فهي

مجرد قشور فارغة، خالية من أي سحر حقيقي. ما هي الجمهورية الشعبية؟ وما هي الجمهورية؟ ليست كلمات حقيقية، بل مسميات جوفاء ومذابح أخرى لتقديم التضحيات.

وبعد تفكير أعمق، كتب حرفًا آخر.

華

هذا الحرف هو (hua)، وهو الكلمة الوحيدة التي تشير إلى الصين والصينيين والتي لا ترتبط بأي إمبراطور أو سلالة أو أي شيء يتطلب التضحية والدماء. ورغم أن كلًّا من الجمهورية الشعبية والجمهورية تضعاه في أسمائهما، فإنه أقدم منهما بكثير ولا ينتمي لأي منهما. في الأصل، كان (hua) يعني (مزهر) و(رائع)، وهو يمثل شكل باقة من الأزهار البرية التي تنبت من الأرض. هل ترين؟

كان يُطلق على الصينيين القدماء اسم (هواجين huajen) من قِبل جيرانهم بسبب جمال ملابسهم المصنوعة من الحرير والتول الفاخر. لكنني أعتقد أن هذا ليس السبب الوحيد. فالصينيون مثل الأزهار البرية، يصمدون ويجلبون الفرح أينما ذهبوا. قد يأتي حريق ويدمر كل ما هو حي في الحقل، لكن بعد المطر ستعود الأزهار البرية للظهور وكأنها سحر. وقد يأتي الشتاء ويقتل كل شيء بالصقيع والثلج، لكن مع حلول الربيع ستزهر الأزهار البرية مرة أخرى، وستبدو في غاية الجمال.

في الوقت الراهن، قد تكون ألسنة اللهب الحمراء للثورة مشتعلة في البر الرئيسي، وقد غمر صقيع الخوف هذه الجزيرة. لكنني أعلم أن اليوم سيأتي عندما تذوب الجدران الفولاذية للأسطول السابع، وسيتفتح البنشنجيون والوايشنجيون وجميع أبناء هواجين في وطني معًا في روعة.

ثم أضاف تيدي: «وسأكون أنا واحدًا من أبناء هواجين الذين في أمريكا».

هز السيد كان رأسه قائلًا: «يمكن للأزهار البرية أن تزهر في أي مكان».

لم تكن ليلي تشعر بالجوع أثناء وجبة العشاء، فقد تناولت ما يكفي من يخنة السمك ولحم الضأن.

قالت والدتها: «هذا السيد كان ليس صديقًا حقيقيًّا لك، إذا كان سيخرب شهيتك بالوجبات الخفيفة».

رد والدها: «لا بأس، من الجيد أن تتعرف ليلي على أصدقاء محليين. يجب أن تدعيهم لتناول العشاء في وقت ما. يجب أن نتعرف على هذه العائلة إذا كنتِ ستقضين الكثير من الوقت معهم».

رأت ليلي أن هذه فكرة رائعة. كانت متشوقة لترى تيدي كتب نانسي درو. كانت تعرف أنه سيعجب بالصور الجميلة التي على الأغلفة.

- أبي، ماذا تعني كلمة «ثالاسوقراطية»؟

فوجئ الأب وصمت.

- أين سمعت تلك الكلمة؟

كانت ليلي تعرف أنها لا يجب أن تنظر إلى أشياء تخص عمل والدها.

- قرأت ذلك في مكان ما.

حدق الأب في ليلي، لكنه استسلم بعد ذلك.

- جاءت من الكلمة اليونانية التي تعني البحر، ثالاسا. وهي تعني «الهيمنة البحرية». مثل أغنية «هيمني يا بريطانيا! هيمني على الأمواج» (Rule, Britannia! Rule the waves).

شعرت ليلي بخيبة أمل من ذلك. ورأت أن شرح السيد كان أفضل بكثير، وقالت ذلك.

- لماذا كنتِ تتحدثين مع السيد كان عن «الهيمنة البحرية»؟

- لا يوجد سبب. كنت أريد فقط أن أراه يمارس بعض السحر.

قالت أمها: «ليلي، لا يوجد شيء اسمه سحر».

أرادت ليلي أن تجادل، لكنها فكرت في الأمر مليًّا وتراجعت.

- أبي، لا أفهم كيف تعد تايوان حرة إذا لم يستطيعوا التحدث عن 228.

وضع الأب شوكته وسكينه جانبًا.

- ماذا قلتِ؟

- قال السيد كان إنهم لا يستطيعون التحدث عن 228.

دفع الأب طبقه بعيدًا والتفت نحو ليلي.

- الآن، من البداية، أخبريني كل شيء تحدثت عنه مع السيد كان اليوم.

انتظرت ليلي عند النهر. كانت ستدعو تيدي والسيد كان لتناول العشاء.

ظهر الأولاد في القرية واحدًا تلو الآخر مع جاموسهم. لكن لم يعرف أحد منهم مكان تيدي.

انضمت ليلي إلى الفتيان في النهر وهم يرشون الماء على بعضهم. لكن لم تستطع التخلص من شعورها بالقلق. كان تيدي يظهر دائمًا عند النهر بعد المدرسة ليغسل آه هوانج. أين كان إذًا؟

عندما بدأ الأولاد في العودة إلى القرية، ذهبت معهم. لعل تيدي مريض وبقي في المنزل؟

كان آه هوانج يتمشى أمام كوخ السيد كان، وخرخر عندما رأى ليلي، واقترب منها ليحتك برأسها أثناء مداعبتها لجبهته.

- تيدي! السيد كان!

لم يكن هناك أي جواب.

طرقت ليلي الباب. لم يرد أحد. لم يكن الباب مغلقًا، فدفعته.

كان الكوخ قد تعرض للنهب. وقُلبت ومُزقت حصائر التاتامي. كما تكسرت الطاولات والكراسي، وتبعثرت قطعها في أرجاء الكوخ. كانت الأواني والأطباق المكسورة والعيدان كلها متناثرة على الأرض. كما كانت الأوراق والكتب ممزقة في كل مكان. ووجدت مضرب البيسبول الخاص بتيدي ملقًى على الأرض بشكل عشوائي.

نظرت ليلي إلى الأسفل ورأت مرآة السيد كان السحرية محطمة إلى ألف قطعة صغيرة متناثرة حول قدميها.

هل عصابة الشيوعيين فعلت ذلك؟

ركضت ليلي إلى المنازل المجاورة، وهي تطرق على الأبواب بشكل هستيري وتشير إلى كوخ السيد كان. لكن الجيران إما رفضوا فتح الباب وإما هزوا رؤوسهم، وامتلأت وجوههم بالخوف.

ركضت ليلي إلى المنزل.

لم تستطع النوم.

رفضت والدتها الذهاب إلى الشرطة. كان والدها يعمل لوقت متأخر، وقالت والدتها إنه إذا لم يكن هذا محض خيال من ليلي، وإذا كان هناك بالفعل عصابات، فإن أفضل شيء هو البقاء في المنزل وانتظار عودة والدها. في النهاية، أرسلت الأم ليلي للنوم لأن عليها الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي، ووعدتها أنها ستخبر والدها عن السيد كان وتيدي. وقالت إن والدها سيعرف ما يجب فعله.

سمعت ليلي صوت الباب الأمامي يفتح ويغلق، وصوت الكراسي تنزلق على أرضية المطبخ. لقد عاد والدها إلى المنزل، وكانت والدتها ستسخن بعض الطعام له.

صعدت ليلي على سريرها وفتحت النافذة. أدخل نسيم بارد ورطب رائحة النباتات المتعفنة والزهور التي تتفتح في الليل إلى الغرفة. تسللت ليلي من النافذة.

بمجرد أن هبطت على الأرض الموحلة، تقدمت بهدوء نحو الجهة الخلفية من المنزل حيث يقع المطبخ. واستطاعت ليلي أن ترى والدتها ووالدها بالداخل، يجلسان متقابلين على طاولة المطبخ. لم يكن هناك طعام على الطاولة. بل كوب صغير أمام والدها، وصب سائلًا كهرماني اللون فيه من زجاجة. شرب الكوب دفعة واحدة ثم ملأه مرة أخرى.

ألقى الضوء الساطع والذهبي الآتي من المطبخ شكلًا متوازيًا من الإضاءة على الأرض التي خارج نافذة المطبخ. ظلت ليلي بعيدة عن الضوء، وانحنت تحت النافذة المفتوحة لتستمع.

رفرفت أجنحة العث وهي تصطدم بالشباك التي على النافذة، وأنصتت ليلي السمع إلى صوت والدها.

في الصباح، أخبرني ديفيد كوتون أنهم قبضوا على الرجل الذي أحلته إليهم. وإذا أردت، يمكنني الذهاب لأساعدهم في الاستجواب. فذهبت إلى مركز الاحتجاز مع اثنين من المحققين الصينيين، تشين بين ولي هوي.

قال تشين: «إنه شخص صعب الفهم». وأضاف: «لقد جربنا بعض الأساليب، لكنه مقاوم جدًّا. ما زال لدينا بعض تقنيات الاستجواب المتقدمة التي يمكننا تجربتها».

أجبته: «الصينيون بارعون في التلاعب النفسي والمقاومة. ليس هذا غريبًا. . نحن بحاجة إلى الحصول على معلومات عن المتعاونين معه. أعتقد أنه جاء إلى تايوان مع فريق من الجواسيس.

وصلنا إلى زنزانة الاحتجاز، ورأيت أنهم قد أبرحوه ضربًا. فقد كانت كلتا كتفيه مخلوعتين، وغطت الدماء وجهه. كما كانت عينه اليمنى متورمة تقريبًا ومغمضة تمامًا.

طلبت منهم أن يتلقى بعض العناية الطبية. أردت أن أفهمه أنني الشخص الطيب، وأنني أستطيع حمايته إذا وثق بي. فأعادوا كتفيه إلى وضعهما الصحيح ووضعت الممرضة ضمادات على وجهه. وناولته بعض الماء.

قال باللغة الإنجليزية: «أنا لست جاسوسًا».

قلت: «أخبرني ما هي أوامرك. ”

قال: «ليس لدي أي أوامر. ”

سألته: «أخبرني من جاء إلى تايوان معك».

قال: «جئت إلى تايوان وحدي».

أجبته: «أعرف أن هذه كذبة».

وهز كتفيه فقط من الألم.

أومأت لتشين ولي، فبدأ بدفع عصي خيزران مدببة تحت أظافره. وحاول أن يظل صامتًا. بدأ تشين بضرب قاعدة العصي بمطرقة صغيرة، كما لو كان يدق المسامير في الحائط. فصرخ الرجل كالحيوان، وفي النهاية فقد وعيه.

رشّه تشين بالماء البارد حتى استعاد وعيه. كررت عليه الأسئلة نفسها، لكنه هز رأسه رافضًا التحدث.

قلت له: «نريد فقط التحدث إلى أصدقائك. إذا كانوا أبرياء، فلن يصيبهم شيء. لن يلوموك».

ضحك في سخرية.

اقترح لي: «فلنجرّب مقعد النمر».

أحضروا مقعدًا عاليًا بلا ظهر وضيقًا، ووضعوا أحد طرفيه على عمود رفيع في الغرفة. أجلسوه على المقعد بحيث يكون ظهره مستقيمًا وملامسًا للعمود. ثم أرجعوا ذراعيه إلى الوراء ولفوهما حول العمود، وربطوا يديه معًا. بعد ذلك، ثبتوا فخذه وركبتيه على المقعد باستخدام أحزمة جلدية سميكة. وأخيرًا، ربطوا كاحليه معًا.

قال تشين له: «سنرى إذا كان بإمكان الشيوعيين ثني ركبهم إلى الأمام».

ثم رفعوا قدميه ووضعوا قالب طوب تحت كعبيه، ثم وضعوا قالبًا أخرى.

ولأن فخذيه وركبتيه كانتا مربوطتين بإحكام إلى المقعد، كان الطوب يضغط قدميه وساقيه السفليتين لأعلى مما أدى إلى ثني ركبتيه بزاوية مستحيلة. كانت قطرات العرق تتساقط على وجهه وجبينه، مختلطة بالدم من جراحه. حاول أن يتحرك على المقعد لتخفيف الضغط على ركبتيه، لكنه لم يستطع ذلك. فرك ذراعيه، وهو يتحرك لأعلى ولأسفل بلا حول ولا قوة على العمود حتى تمزق جلد معصميه وذراعيه، وبدأ الدم يسيل على الطلاء الأبيض للعمود.

أضافوا المزيد من الطوب، وتمكنت من سماع عظام ركبتيه وهي تنكسر. بدأ يئن ويصرخ، لكنه لم يقل شيئًا نريد سماعه.

قلت له: «لا أستطيع إيقاف هذا إذا لم تتحدث».

أحضروا وتدًا خشبيًّا طويلًا ودفعوا طرفه الرفيع تحت الطوب من الأسفل. ثم أخذوا يتناوبون على ضرب الطرف السميك من الوتد بالمطرقة. ومع كل ضربة، كان الوتد يتحرك قليلًا تحت الطوب ويرفع قدميه لأعلى. صرخ صرخات مدوية. ثم أجبروا على وضع عصا في فمه حتى لا يعض لسانه.

- أومئ برأسك فقط إذا كنت مستعدًّا للتحدث.

هز رأسه.

فجأة، انكسرت ركبتيه عند الضربة التالية للمطرقة، وارتفعت قدميه وساقيه السفليتين، واخترقت عظامه المكسورة لحمه وجلده. وأغشي عليه مرة أخرى.

كنت أشعر بالغثيان. إذا كان الشيوعيون قادرين على تدريب وتجهيز عملائهم إلى هذه الدرجة، كيف يمكننا أن نأمل في الفوز في هذه الحرب؟

قلت للمحققين الصينيين: «لن ينجح هذا. لدي فكرة. لديه حفيد. هل لدينا الحفيد؟»، أومأوا برؤوسهم.

أحضرنا الطبيب مرة أخرى ليضمد ساقيه. وأعطاه الطبيب حقنة ليظل مستيقظًا.

قال لي: «اقتلني من فضلك، اقتلني».

أخذناه إلى الساحة وأجلسناه على كرسي. ثم أحضر لي حفيده. كان صبيًّا صغيرًا، لكنه بدا ذكيًّا جدًّا. كان خائفًا وحاول الركض نحو جده. سحبه لي إلى الوراء، وأوقفه ضد الجدار وأشهر مسدسه تجاهه.

قلت: «لن نقتلك. لكن إذا لم تعترف، فسنعدم حفيدك على أنه مساعدك».

تضرع: «لا، لا، من فضلك. هو لا يعرف شيئًا. نحن لا نعرف شيئًا. لست جاسوسًا. أقسم لك».

تراجع لي وأمسك المسدس بكلتا يديه.

قلت: «أنت تُجبرني على هذا. لم تترك لي خيارًا. لا أريد قتل حفيدك، لكنك ستقوده إلى الموت».

قال: «جئت إلى هنا في قارب مع أربعة آخرين»، (ظلت عيناه عليَّ، ورأيت أنني بدأت أن أؤثر عليه أخيرًا): «كلهم أشخاص طيبون. لا أحد منا جواسيس شيوعيون».

قلت: «هذه كذبة أخرى. أخبرني بهوياتهم».

فجأة، قفز الصبي وأمسك بيد لي، وحاول أن يعضه. وصرخ وهو ينازع لي: «أطلق سراح جدي!».

دوت طلقتان، وسقط الصبي في لمح البصر. أسقط لي مسدسه وركضت مسرعًا نحوهما. كان الصبي قد عض إصبعه حتى العظم، وصرخ لي من شدة الألم. والتقطت المسدس.

نظرت إلى الأعلى ورأيت أن الرجل العجوز سقط من كرسيه. وزحف نحونا، متجهًا إلى جثة حفيده. كان يبكي وينوح، ولم أستطع أن أفهم اللغة التي كان ينوح بها.

ذهب تشين لمساعدة لي وراقبت الرجل وهو يزحف نحو الصبي. استدار بجسده حتى صار جالسًا، ورفع جسد الصبي إلى حجره، معانقا الطفل

الميت إلى صدره. قال لي: «لماذا، لماذا؟ لقد كان مجرد صبي. لم يعرف شيئًا. اقتلني، من فضلك اقتلني».

نظرت في عينيه: كانتا داكنتين، ولامعتين، كالمرايا. ورأيت فيهما انعكاس وجهي، فكان غريبًا، وممتلئًا بالجنون والغضب حتى أنني لم أتعرف إلى نفسي.

اجتاحت ذهني العديد من الأفكار في تلك اللحظة. تذكرت عندما كنت صبيًّا صغيرًا في مين، والصباحات التي كان يأخذني فيها جدي للصيد. فكرت في أستاذي في علم الصينيات، والقصص التي كان يرويها لي عن طفولته في شنجهاي وأصدقائه والخدم الصينيين. تذكرت صباح يوم أمس، عندما ذهبت أنا وديفيد لنعطي محاضرة عن مكافحة التجسس لوكلاء القوميين. تذكرت ليلي، التي هي في عمر ذاك الفتى. ما الذي تعرفه عن الشيوعية والحرية؟ في وقت ما، يبدو أن العالم قد انحرف بشكل رهيب.

- أرجوك، اقتلني، أرجوك اقتلني.

وجهت المسدس نحو الرجل وضغطت على الزناد. استمريت في الضغط على الزناد، مرة تلو أخرى، حتى نفدت الذخيرة.

قال تشين لاحقًا: «كان يقاوم. وحاول الهرب. » لم يكن ذلك سؤالًا.

أومأت برأسي على أي حال.

قالت السيدة داير: «لم يكن لديك خيار. لقد أجبرك على فعل ذلك. فالحرية ليست بلا ثمن. كنت تحاول فعل الصواب».

لم يرد على هذا. بعد فترة، ابتلع ما في كأسه مرة أخرى.

- لقد حكيت لي عن مدى قسوة هؤلاء العملاء الشيوعيين، وقد سمعنا جميعًا القصص التي حدثت في كوريا. لكنني الآن فقط أدركت حجم ذلك حقًّا. بالتأكيد غسلوا دماغه وجردوه من مشاعره الإنسانية، من أي شعور بالندم. دم حفيده على يديه. تخيل فقط ما كان بإمكانه أن يفعله لليلي.

لم يرد على هذا أيضًا. ونظر عبر الطاولة إليها، فبدا كأن هناك فجوة تفصل بينهما، فجوة واسعة مثل مضيق تايوان.

قال أخيرًا: «لا أعرف. لم أعد أعرف أي شيء حقًّا».

سار والد ليلي معها بمحاذاة النهر، وغاصت أقدامهما في الطين الناعم. توقف الاثنان وخلعا حذاءيهما، ثم تابعا السير حافيي القدمين دون أن يتحدثا. كان آه هوانج يتبعهما، وبين الحين والآخر كانت ليلي تتوقف لتداعب أنفه بينما كان ينخر في كفها.

كسر والدها الصمت: «ليلي. لقد قررت أنا وأمك العودة إلى تكساس. لقد حصلت على تصريح نقل العمل».

أومأت ليلي دون أن تتحدث. لقد استقر الخريف في قلبها. تمايلت الأشجار على ضفاف النهر تجاه انعكاساتها على المياه المتدفقة والمتموجة، وتمنت ليلي لو كانت تملك مرآة السيد كان السحرية.

- علينا أن نجد منزلًا جديدًا لجاموس الماء. لا يمكننا إعادته إلى تكساس.

توقفت ليلي. ورفضت النظر إليه.

حاول والدها أن يشرح: «الجو جاف جدًّا هناك. لن يكون سعيدًا. فلن يجد نهرًا ليستحم فيه أو حقول أرز ليتمرغ فيها. لن يكون حرًّا».

أرادت ليلي أن تخبره أنها لم تعد فتاة صغيرة، وأنه لا حاجة له أن يتحدث إليها بهذه الطريقة. لكنها بدلًا من ذلك، داعبت آه هوانج مرة أخرى.

- في بعض الأحيان، يا ليلي، يجب على الكبار أن يفعلوا أشياء لا يريدون فعلها، لأنها الصواب. أحيانًا نفعل أشياء تبدو خاطئة، لكنها في الحقيقة صحيحة.

تذكرت ليلي ذراعي السيد كان، واحتضانه لها عندما التقيا لأول مرة. تذكرت نبرته التي أخافت الفتيان وأرسلتهم بعيدًا عنها. وتذكرت أيضًا كيفية تحرك طرف فرشاته على الورق، وهو يكتب الحرف الذي يعني كلمة «جميل». كانت تتمنى لو أنها تعلمت كتابة اسمه، وتمنت لو كانت تعرف المزيد عن سحر الكلمات والحروف.

رغم أنها كانت فترة بعد ظهيرة خريفية لطيفة، فإن ليلي شعرت بالبرودة. تخيلت الحقول من حولها مغطاة باللون الأبيض، صقيع من الرعب الذي جاء ليجمد الجزيرة الاستوائية.

بدت كلمة «تجميد freeze» وكأنها تستدعي انتباهها. أغمضت عينيها وتخيلت الكلمة في ذهنها، درستها بعناية كما تخيلت أن السيد كان سيفعل.

تحركت الحروف واحتكت ببعضها البعض. بدا الحرف «زيد Z» كرجل راكع متضرع، بينما تشكل الحرف «إ e» على هيئة انحناءة جنينية لطفل ميت. ثم اختفى «الزيد» و«الإ»، تاركين كلمة «حر free» مكانهما.

لا بأس يا ليلي. أنا وتيدي أحرار الآن.

حاولت ليلي أن تركز، أن تحتفظ بابتسامة السيد كان الدافئة وصوته الممتلئ بالحنان الذي بدأ يتلاشى في ذهنها.

أنتِ فتاة ذكية جدًا. مقدر لك أن تكوني عرّافة حروف أيضًا، في أمريكا.

أغمضت ليلي عينيها بإحكام كي لا تسقط دموعها.

جاء صوت والدها ليعيدها إلى الواقع: «ليلي، هل أنت بخير؟».

أومأت. شعرت بشيء من الدفء.

واصلا السير، وهما ينظران إلى النساء المنحنيات في حقول الأرز وهن يحصدن الحبوب الثقيلة بالمناجل.

تابع والدها: «من الصعب معرفة كيف ستسير الأمور في المستقبل، الأشياء لها طريقة في ترتيب نفسها لتفاجئ الجميع. أحيانًا، يمكن أن تكون أبشع الأمور سببًا لشيء رائع. أعلم أنك لم تحظِ بوقت جيد هنا يا ليلي، وهذا مؤسف. لكن هذه جزيرة جميلة. اسم فورموزا يعني الأجمل باللاتينية».

فكرت ليلي: *مثل أمريكا*، ميكو *«البلد الجميل». ستتفتح الأزهار البرية مرة أخرى عندما يأتي الربيع.*

من بعيد، رأوا أطفال القرية يلعبون البيسبول.

- في يوم من الأيام، ستدركين أن تضحياتنا هنا كانت ضرورية. هذا المكان سيكون حرًّا، وسترين جماله وتتذكرين وقتك هنا بكل حب. كل شيء ممكن. ربما في يوم ما، سنرى ولدًا من هنا يلعب البيسبول في أمريكا. أليس هذا شيئًا رائعًا يا ليلي، ولد صيني من فورموزا يلعب في ملعب اليانكيز؟

ركزت ليلي على المشهد في ذهنها.

وقف تيدي مستعدًّا للضرب، وهو يرتدي قبعة فريق بوسطن رد سوكس، وعيناه الهادئتان تراقبان الرامي، الذي برز شعار فريقه، حرف «إن» المتقاطع مع حرف «واي» على قبعته. بعد أول رمية، ضرب تيدي الكرة بقوة

وصدر صوت مدوي. إنها ضربة ناجحة. طارت الكرة عاليًا في هواء أكتوبر البارد، نحو السماء المظلمة والأضواء الساطعة، مما خلق قوسًا سينتهي في المدرجات خلف الملعب. وقف الجمهور يصفق بحماس. بدأ تيدي بالركض على طول القواعد، بينما اتسعت ابتسامته وهو يبحث عن السيد كان وليلي. تعالت الهتافات وهزت الملعب بأكمله مع تأكد فوز الفريق بالبطولة. سيسافر فريق بوسطن رد سوكس لخوض منافسات بطولة العالم.

تابع والدها: «كنت أفكر، ربما ينبغي علينا أن نأخذ إجازة قبل العودة إلى كليرويل. خطرت لي فكرة التوقف في نيويورك لزيارة جدتك. سيلعب فريق اليانكيز ضد فريق الريدز في بطولة العالم. سأحاول الحصول على تذاكر، ويمكننا الذهاب لمشاهدة المباراة وتشجيعهم».

هزت ليلي رأسها ونظرت إليه: «لم أعد أحب اليانكيز».

ملاحظة المؤلف: لأسباب متنوعة، لا يستخدم هذا النص نظام بينيين لكتابة الصينية بالأحرف اللاتينية. بدلًا من ذلك، تُكتب العبارات والكلمات المندرينية بشكل عام باستخدام نظام ويد-جايلز، بينما كتبت عبارات وكلمات مينيان (فوكينيز) التايوانية إما باستخدام نظام Pe' h-o¯e-jı وإما بالتهجئة الصوتية الإنجليزية.

يمكن للقراء الاطلاع على تاريخ العمليات السرية المشتركة بين الولايات المتحدة وجمهورية الصين (ROC) ضد جمهورية الصين الشعبية (PRC) خلال فترة الحرب الباردة من خلال قراءة كتاب جون و. جارفر The Sino-American Alliance: Nationalist China and American Cold War Strategy in Asia.

جدير بالذكر أن فن «التنجيم بالحروف» قد بُسط بشكل كبير في هذه القصة. كما أن الاشتقاقات الشعبية والتحليلات المستخدمة هنا لا تعكس بالضرورة الاستنتاجات الأكاديمية المعتمدة.

نسخة من الواقع

«الصورة الفوتوجرافية ليست مجرد صورة (كما اللوحة)، أو تمثيلًا للواقع؛ بل هي أيضًا أثر، شيء منسوخ مباشرة من الواقع، مثل بصمة القدم أو قناع الموت».

- سوزان سونتاج

بول لاريمور:

هل بدأت التسجيل بالفعل؟ أعليَّ أن أبدأ؟ حسنًا.

لم نخطط لمجيء آنا. فقد استلزم عملنا أنا وإيرين الكثير من السفر، ولم نرد أن يقيدنا شيء. لكن لا يمكنك التخطيط لكل شيء، وسعدنا حقًّا عندما اكتشفنا ذلك. قلنا إننا سنُنجح الأمر بطريقة ما. وقد فعلنا.

عندما كانت آنا رضيعة، لم تستطع النوم بشكل جيد. كان علينا أن نحملها ونهدهدها حتى تقع في النوم، وقاومت النوم طوال الوقت. لم يكن بإمكانها أن تبقى ساكنة. كانت إيرين تعاني من آلام في الظهر لعدة أشهر بعد الولادة، لذلك كنت أنا من يمشي في الليل مع رأس الفتاة الصغيرة على كتفي بعد الرضاعة. رغم معرفتي أنني متعب وغير صبور، كل ما أتذكره الآن هو كم كنت قريبًا منها بينما كنا نتنقل ذهابًا وإيابًا لساعات في غرفة المعيشة، المضاءة فقط بضوء القمر، وأنا أغني لها.

رغبت في أن أشعر بذلك القرب منها، دائمًا.

ليس لدي أي محاكات لها من تلك الفترة. كانت الآلات الأولية ضخمة جدًّا، وكان يجب على فرد عينة البحث أن يبقى ساكنًا لساعات. ولم يكن هذا ممكنًا مع رضيعة.

هذه أول محاكاة لها أملكها. كان عمرها سبع سنوات تقريبًا.

- *مرحبًا يا عزيزتي.*
- *أبي!*
- *لا تخجلي. هؤلاء الرجال هنا لتصوير فيلم وثائقي عنا. لست مضطرة للتحدث معهم. فقط تظاهري أنهم ليسوا هنا.*
- *هل يمكننا الذهاب إلى الشاطئ؟*
- *أنتِ تعرفين أننا لا نستطيع. لا يمكننا مغادرة المنزل. إضافة إلى ذلك، الجو بارد جدًا في الخارج.*
- *هل ستلعب معي بالدمى؟*
- *نعم، بالطبع. سنلعب بالدمى متى ما أردتِ.*

آنا لاريمور:

والدي شخص يصعب على الناس كرهه. لقد حقق ثروة كبيرة بطريقة تشبه القصص الخيالية الأمريكية: مخترع منفرد يبتكر فكرة تجلب السعادة للعالم، فيكافئه المجتمع عن جدارة. إضافة إلى ذلك، يتبرع بسخاء للقضايا النبيلة. لقد اهتمت مؤسسة لاريمور بتنمية اسم والدي وصورته بعناية، كما تفعل الاستوديوهات عند إضفاء التعديلات على محاكاة صور المشاهير المثيرة التي تبيعها.

لكنني أعرف بول لاريمور الحقيقي.

في يوم من الأيام، عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، اضطررت أن أعود إلى المنزل بسبب ألم في المعدة. دخلت من الباب الأمامي، وسمعت

أصواتًا من غرفة نوم والدي في الطابق العلوي. لم يكن من المفترض أن يكونا في المنزل. لا أحد من المفترض أن يكون في المنزل.

فكرت: *هل هو لص؟* وبشجاعة وغباء المراهقين، صعدت الدرج وفتحت الباب.

وجدت أبي عاريًا في السرير ومعه أربع نساء. لم يسمعني واستمروا فيما كانوا يفعلونه، هناك في السرير الذي يتشاركه مع أمي.

بعد مضي بعض الوقت، استدار، ونظرنا في عيني بعضنا. توقف وجلس، ثم مد يده ليطفئ جهاز العرض على طاولة السرير. واختفت النساء.

أفرغت ما في معدتي.

عندما عادت والدتي إلى المنزل في وقت لاحق من تلك الليلة، شرحت لي أن هذا كان يحدث لسنوات. كان لدى والدي نقطة ضعف تجاه نوع معين من النساء، كما قالت. وطوال فترة زواجهما، عانى من مشكلة في أن يكون مخلصًا. كانت تشك في ذلك، لكن والدي كان ذكيًّا جدًّا وحذرًا، ولم تملك أي دليل.

وعندما أمسكت به أخيرًا متلبسًا، ثار غضبها جدًّا، وأرادت أن تتركه. لكنه توسل إليها وألح عليها. قال إن هناك شيئًا في تكوينه يجعل الإخلاص لامرأة واحدة مستحيلًا له. لكنه قال إن لديه حل.

لقد التقط والدي العديد من المحاكاات لانتصاراته على مر السنين، وبدت أكثر واقعية مع تطور التكنولوجيا. إذا سمحت له والدتي بالاحتفاظ بها وتحملت استخدامه لها في خصوصية، فإنه سيبذل جهدًا كبيرًا لكيلا يخونها مرة أخرى.

وهذه كانت الصفقة التي أبرمتها والدتي. رأت أنه أب جيد. وكانت تعلم أنه يحبني. لم ترد أن تجعلني عرضًا جانبيًّا آخر لوعد لها فقط حنثه والدي.

وبدا اقتراح والدي حلًّا معقولًا. وفي ذهنها، كانت أوقاته مع المحاكاات لا تختلف عن الطريقة التي يستخدم بها الرجال الآخرون الأفلام الإباحية. لم يكن بإمكانه لمسها. لم تكن حقيقية. لا يمكن أن ينجو أي زواج إذا لم يحتو على مساحة لبعض الخيالات غير الضارة.

لكن والدتي لم تنظر إلى عيني والدي كما فعلت عندما دخلت عليه. كانت المسألة أكثر من مجرد خيال. كانت خيانة مستمرة لا يمكن غفرانها.

بول لاريمور:

الفكرة في كاميرا المحاكات ليست في عملية التصوير المادية، التي، رغم أنها ليست هامشية، فإنها في النهاية ليست أكثر من تتويج للتحسينات التدريجية على تقنيات معروفة منذ أيام الداجيروتيب[1]، عملية التصوير الشمسي على ألواح فضية.

مساهمتي في السعي الأبدي لالتقاط الواقع هي «الأونيورباجيدا»، التي يمكن من خلالها التقاط لقطات من أنماط تفكير فرد عينة البحث -تجسيد لشخصيتها- وتحويلها إلى صورة رقمية ثم استخدامها لإعادة إحياء تلك الصورة أثناء العرض. الأونيورباجيدا هي جوهر جميع كاميرات المحاكات، بما في ذلك تلك التي يصنعها المنافسون.

كانت الكاميرات الأولى عبارة عن أجهزة طبية معدلة، تشبه آلات التصوير الطبقي القديمة التي ما زالت تستخدم في بعض المستشفيات القديمة. كان يتعين على فرد عينة البحث أن تُحقن بمواد كيميائية معينة، ثم تبقى ساكنة لفترة طويلة داخل نفق التصوير الخاص بالجهاز، حتى يمكن التقاط مجموعة كافية من الصور لعملياتها العقلية. وبعد ذلك تُستخدم هذه الصور لتغذية نماذج الذكاء الاصطناعي العصبية، التي تُحرِّك الانعكاسات المكونة من صور مفصلة لجسدها.

كانت هذه المحاولات الأولى بدائية للغاية، وقد وُصفت نتائجها بعبارات متنوعة مثل «آلية» و«غير إنسانية» وحتى «مجنونة بشكل كوميدي». ومع ذلك، فإن هذه المحاكات المبكرة احتفظت بشيء لا يمكن التقاطه من خلال مقاطع الفيديو أو الهولوجرافيا فقط. فبدلًا من إعادة عرض ما التقط بشكل

---

(1) كلمة المترجمة: الداجيروتيب (*Daguerreotype*) هو أول عملية تصوير فوتوغرافي ناجحة تُطوَّر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر على يد الفرنسي لويس داجير. تعتمد هذه التقنية على استخدام لوح نحاسي مطلي بالفضة، يُعرَّض لبخار اليود لخلق طبقة حساسة للضوء. بعد تعريض اللوح للضوء من خلال الكاميرا، تظهر الصورة نتيجة تفاعل كيميائي يُثبِّت الصورة باستخدام بخار الزئبق، ثم تُغسل في محلول ملحي لتصبح دائمة.

تتميز صور الداجيروتيب بوضوح عالٍ وتفاصيل دقيقة، لكن عملية إعدادها معقدة وتتطلب أدوات خاصة وعناية كبيرة، مما جعلها مكلفة ونادرة مقارنة بالأساليب الفوتوغرافية التي ظهرت لاحقًا.

حرْفي، استطاعت الانعكاسات المتحركة التفاعل مع المشاهد كما كان سيتفاعل فرد عينة البحث.

أقدم محاكاة موجودة هي لي، ومحفوظة الآن في متحف التاريخ الطبيعي الذي تديره مؤسسة سميثسونيان. في تقارير الأخبار الأولى، قال الأصدقاء والمعارف الذين تفاعلوا مع تلك المحاكاة إنه رغم علمهم أن الصورة مُتحكم بها بواسطة كمبيوتر، فقد استطاعوا استنتاج ردود فعل تشبه «بول» بشكل ما: «هذا شيء لن يقوله إلا بول» أو «هذا تعبير وجه يعبر عن بول بشكل كبير». عندها عرفت أنني قد نجحت.

آنا لاريمور:

يجد الناس الأمر غريبًا أنني ابنة مخترع المحاكات، أكتب كتبًا عن أن العالم سيكون مكانًا أفضل دونها، وأكثر أصالة. وقد انخرط بعضهم في علم النفس الشعبي الممل، مشيرين إلى أنني أشعر بالغيرة من «أختي»، اختراع والدي الذي تبين أنه طفلته المفضلة.

ليت الأمر كان بهذه البساطة.

يُعلن والدي إنه يعمل في مجال التقاط الواقع، وإيقاف الزمن، والاحتفاظ بالذكريات. لكن لم تكن الجاذبية الحقيقية لهذه التكنولوجيا في فكرة التقاط الواقع قط. فكل تلك التطورات في تكنولوجيا التقاط الواقع بدءًا من التصوير الفوتوجرافي، وتصوير الفيديوهات، والهولوجرافيا وصولًا لما يوجد الآن - بمثابة تفشي طرق الكذب وتحوير الحقيقة، وتشويهها، وتغذية التلاعب والتخيلات.

يشكل الناس تجاربهم الحياتية وينسقونها من أجل عدسات الكاميرا، فيسافرون لقضاء العطلات بأعين ملتصقة بكاميرات الفيديو. إن الرغبة في تجميد الواقع هي في الأساس هروب منه.

وتلك المحاكات هي أحدث وأبشع تجسيد لهذه الظاهرة.

بول لاريمور:

منذ ذلك اليوم، عندما ... حسنًا، أعتقد أنك قد سمعت عن ذلك منها بالفعل. لن أختلف مع روايتها للأحداث.

لم نتحدث قط عن ذلك اليوم مع بعضنا. وما لا تعرفه هو أنه بعد تلك الظهيرة، دمرت جميع محاكات علاقاتي القديمة. لم أحتفظ بأي نسخ احتياطية. أعتقد أن معرفتها بذلك لن تحدث أي فرق لها. لكنني سأمتن لك إذا استطعت نقل هذه المعلومة إليها.

ظلت محادثاتنا بعد ذلك اليوم في إطار تمدني، وتعاملات حذرة توحي بتجنب الاقتراب من أي شيء يتعلق بالحميمية. تحدثنا عن تصاريح المدرسة، واللوجستيات المتعلقة بقدومها إلى مكتبي للبحث عن رعاة لسباقات المشي، والعوامل التي يجب أخذها في الاعتبار عند اختيار الجامعة. لم نتحدث عن صداقاتها البسيطة، أو علاقاتها العاطفية المعقدة، أو آمالها وخيباتها مع العالم.

توقفت آنا عن التحدث إليّ تمامًا عندما ذهبت إلى الجامعة. عندما كنت أتصل بها، لم تكن ترد على الهاتف. وعندما تحتاج إلى سحب أموال من صندوقها الائتماني لدفع الرسوم الدراسية، كانت تتصل بمحاميَّ. كانت تقضي عطلاتها وإجازات الصيف مع أصدقائها أو تعمل في الخارج. في بعض عطلات نهاية الأسبوع، كانت تدعو إيرين لزيارتها في بالو ألتو. كنا جميعًا ندرك أنني لم أكن مدعوًّا.

- *أبي، لماذا لون العشب أخضر؟*
- *لأن أمطار الربيع تسقط اللون الأخضر من أوراق الأشجار على العشب.*
- *هذا سخيف.*
- *حسنًا، لأنه العشب في الجهة الأخرى من السياج. لكن إذا كنت تقفين هناك، فلن يبدو بهذه الخضرة.*
- *لا تحاول المزاح، أنت لست مضحكًا.*

- *حسنًا. إنه بسبب الكلوروفيل الذي في العشب. فالكلوروفيل يحتوي على حلقات تمتص جميع ألوان الضوء باستثناء اللون الأخضر.*
- *أنت لا تؤلف هذا، أليس كذلك؟*
- *هل أؤلف أي شيء يا عزيزتي؟*
- *من الصعب جدًّا التأكد من ذلك معك في بعض الأحيان.*

بدأت أشغل هذه النسخة المحاكية لها كثيرًا عندما كانت في المدرسة الثانوية، ومع مرور الوقت تحول الأمر إلى عادة. والآن أبقيها تعمل طوال الوقت، كل يوم.

لدي نسخ محاكية أخرى عندما كبرت، والعديد منها بدقة أعلى بكثير. لكن هذه هي المفضلة لدي. فهي تذكرني بأوقات أفضل من هذه، قبل أن يتغير العالم بشكل لا رجعة فيه.

في ذلك اليوم، تمكنا أخيرًا من تصغير جهاز الأونيروباجيدا ليصير بحجم مناسب يسمح بوضعه في هيكل يمكن حمله على الكتف. وصار هذا الجهاز النموذج الأولي لكاروسيل مارك 1، أول كاميرا منزلية تنجح في تسجيل المحاكاة. أخذتها إلى المنزل وطلبت من آنا أن تقف للتصوير. وقفت هادئة بجوار الشرفة الشمسية لمدة دقيقتين وتبادلنا الحديث عن يومها.

كانت مثالية، كما تكون البنات الصغيرات دائمًا في أعين آبائهن. تلألأت عيناها فرحًا عندما جئت إلى المنزل. كانت عائدة من المخيم النهاري، ومتحمسة لتروي لي القصص وتطرح عليَّ الأسئلة. طلبت أن آخذها إلى الشاطئ لتحلق بطائرتها الورقية الجديدة، ووعدتها أن أساعدها في مشروعها المدرسي بمجموعة الطباعة الشمسية. كنت سعيدًا لأنني تمكنت من التقاط محاكاة تلك اللحظة.

كان ذلك يومًا مميزًا.

آخر مرة رأيت فيها والدي كانت بعد حادثة والدتي. اتصل بي محاميه، لأنه كان يعلم أنني لن أرد على والدي.

كانت بالكاد والدتي واعية. وقد توفي السائق الآخر توفي بالفعل، وكانت هي ستتبعه قريبًا.

قالت لي: «لماذا لا تستطيعين مسامحته؟ لقد سامحته أنا. لا يمكن اختزال حياة المرء في شيء واحد فقط. هو يحبني، ويحبك أيضًا».

لم أقل شيئًا. أمسكت بيدها فقط وضغطت عليها. دخل هو وتحدثنا معها، لكن لم نتحدث معًا، وبعد نصف ساعة نامت ولم تستيقظ مرة أخرى.

في الواقع، كنت مستعدة لمسامحته. بدا عليه العجز -وهي صفة لا يلاحظها الأبناء على آبائهم إلا في وقت متأخر- وبدا هشًّا وضعيفًا بشكل ما، مما جعلني أعيد مساءلة نفسي. خرجنا من المستشفى معًا في صمت. سألني إذا كان لدي مكان لأقيم فيه في المدينة، فأجبته بـ«لا». فتح لي باب السيارة الأمامي، وبعد لحظة قصيرة من التردد، جلست في مقعد الراكب.

عندما وصلنا إلى المنزل، وجدت كل شيء كما تركته، رغم أنني لم أعد إليه منذ سنوات. جلست إلى طاولة الطعام بينما كان والدي يجهز وجبات العشاء المجمدة. تحدثنا بحذر، تمامًا كما كنا نفعل عندما كنت في المدرسة الثانوية.

طلبت منه نسخة محاكاة لأمي. عادة لا أستخدم نسخ المحاكاة أو أحتفظ بها، فأنا لا أشارك الآخرين رأيهم الإيجابي تجاهها. لكن في تلك اللحظة، شعرت أنني فهمت سبب جاذبيتها. كنت أريد أن أحتفظ بجزء من أمي معي دائمًا، بجانب من حضورها.

ناولني قرصًا، فشكرته. عرض عليَّ استخدام جهاز العرض الخاص به، لكنني رفضت. أردت أن أحتفظ بذكريات أمي لنفسي لفترة قبل أن تتداخل استنتاجات الكمبيوتر مع الذكريات الحقيقية وتخلط بينها وبين الذكريات المصطنعة.

(وفي النهاية، لم أستخدم تلك النسخة قط). هاك، يمكنك إلقاء نظرة عليها لاحقًا إذا كنت ترغب في معرفة كيف شكل والدتي. كل ما أتذكره عنها حقيقي.

كان الوقت متأخرًا حين انتهينا من تناول العشاء، فاعتذرت وغادرت إلى غرفتي.

وهناك، رأيت نفسي عندما كنت في السابعة من عمري جالسة على سريري. كانت ترتدي فستانًا بشعًا، يبدو أنني قد حاولت نسيانه -ورديًا وممتلئًا بالورود- وكان هناك مشبك شعر على شكل أنشوطة في شعرها.

- *مرحبًا، أنا آنا. سعدت بلقائك.*

لذا، لقد احتفظ بهذا الشيء لسنوات، هذه النسخة الكاريكاتورية الساذجة والعاجزة مني. وخلال الفترة التي ابتعدت فيها عنه، هل لجأ إلى هذا الأثر المتجمد وتأمل هذا الظل من إيماني وحبي الذي فقده؟ هل استخدم نموذج طفولتي ليتخيل المحادثات التي لم يستطع إجراءها معي؟ هل أضفى التعديلات على هذا النموذج، لربما يزيل تصرفاتي المزعجة ويضيف مزيدًا من الحب والعاطفة؟

شعرت بالانتهاك. كانت الفتاة الصغيرة بلا شك أنا. كانت تتصرف مثلي، وتتحدث كما أتحدث، وتضحك وتتحرك وتتفاعل كما أفعل. لكنها لم تكن أنا. لقد نضجت وتغيرت، وواجهت والدي عندما صرت بالغة. لكنني اكتشفت حينها أن جزءًا منِّي قد أُخذ وقُيِّد في هذا الشيء، جزء سمح له بالحفاظ على شعور بالاتصال معي لم أكن أريده، ولم يكن حقيقيًّا.

عادت صورة تلك النساء العرايا في سريره من سنوات مضت تتسارع إلى ذهني. وأخيرًا عرفت لما طاردتني في أحلامي لفترة طويلة.

إن الطريقة التي تكرر بها المحاكاة جوهر الشخص هي ما يجعلها جذابة للغاية. عندما احتفظ والدي بتلك المحاكات لنسائه، كان يحافظ على اتصال بهن، بالرجل الذي كان عليه عندما كان معهن، وبالتالي ظل يرتكب خيانة عاطفية مستمرة كانت أسوأ بكثير من زلة جسدية لحظية. الأفلام الإباحية هي

محض خيال بصري بحت، لكن المحاكاة تلتقط الحالة الذهنية. الحلم. لكن حلم من؟ ما رأيته في عينيه في ذلك اليوم لم يكن فسقًا عابرًا. بل كان أكثر حميمية من ذلك بكثير.

من خلال الاحتفاظ بتلك المحاكاة القديمة لطفولتي وإعادة تشغيلها، كان يحلم باستعادة احترامي وحبي، بدلًا من مواجهة واقع ما فعله وواقعي الحقيقي. لعله حلم كل الآباء أن يحتفظوا بأطفالهم في تلك الفترة القصيرة بين الاعتماد التام والهوية المستقلة، حين يُنظر إلى الآباء على أنهم مثاليون وخاليون من العيوب. إنه حلم بالسيطرة والتملك متنكر في شكل حب، الحلم الذي كان لدى لير عن كورديليا.

نزلت إلى الدرج وخرجت من المنزل، ولم أتحدث معه منذ ذلك الحين.

بول لاريمور:

تعيش المحاكاة في الحاضر الأبدي. إنها تتذكر، لكن بوضوح ضئيل، لأن تقنية الأونيورباجيدا لا تمتلك الدقة اللازمة لتمييز وتسجيل كل ذكرى خاصة بالشخص. تستطيع التعلم، ولكن بحدود، وكلما ابتعدت عن اللحظة التي التقطت فيها الحياة الذهنية للشخص، تصير استنتاجات الكمبيوتر أقل دقة. حتى أفضل الكاميرات التي نقدمها لا تستطيع عرض أي شيء يتجاوز بضع ساعات.

لكن تقنية الأونيورباجيدا مميزة في التقاط مزاجها، وطابع أفكارها العاطفية، ومحفزات ابتسامتها الفريدة، ونبرة صوتها، والجودة الدقيقة التي لا يمكن وصفها في تعبيراتها.

وبذلك، كل ساعتين تقريبًا، تعود آنا إلى نقطة البداية. تعود من المعسكر اليومي، وفي جعبتها الكثير من الأسئلة والقصص التي ترغب في مشاركتها معي. نتحدث ونستمتع، ونترك لمحادثتنا حرية التجول كما تشاء. لا تشبه أي محادثة أخرى، لكنها تبقى دائمًا تلك الطفلة الفضولية في السابعة من عمرها التي تعبد والدها، وتعتقد أنه لا يمكن أن يرتكب خطأ.

- أبي، هل يمكنك أن تحكي لي قصة؟
- نعم، بالطبع. أي قصة تودين سماعها؟
- أريد أن أسمع نسختك السيبرانية من قصة بينوكيو مرة أخرى.

لست متأكدًا إن كنت أستطيع تذكر كل ما قلته في المرة السابقة.

- لا بأس. ابدأ فقط. سأساعدك.

أحبها كثيرًا.

إرين لاريمور:

حبيبتي، لا أعرف متى ستتلقين هذا. لعله لن يحدث إلا بعد رحيلي. لا يمكنك تخطي الجزء التالي، إنه تسجيل. أريدك أن تستمعي لما أريد قوله.

والدك يفتقدك.

هو ليس كاملًا، وقد ارتكب نصيبه من الأخطاء، مثل أي إنسان. لكنك سمحت لتلك اللحظة الواحدة، حين كان في أضعف حالاته، أن تطغى على مجمل حياتكما معًا. لقد قلصته واختزلت حياته كلها، إلى تلك الظهيرة المجمدة، تلك الشريحة الأكثر عيبًا فيه. وفي ذهنك، رأيت تلك الصورة الملتقطة مرارًا وتكرارًا، حتى انمحى الشخص الحقيقي من الصورة.

خلال كل تلك السنوات التي صددته فيها، كان والدك يشغل محاكاة قديمة لك مرارًا وتكرارًا، يضحك، ويمزح، ويعبر عن مشاعره لك بطريقة لن يفهمها سوى طفل في السابعة من عمره. كنت أطلب منك عبر الهاتف أن تتحدثي إليه، ثم

لا أستطيع تحمل مشاهدة ما يحدث بعد أن أضع السماعة، فيعود بعدها ليشغل المحاكاة مرة أخرى.

انظري إلى حقيقته.

- مرحبًا! هل رأيت ابنتي آنا؟

عدالة الآلة

قالت: «أنا جاسمين».

- أنا روبرت.

كان الصوت الذي في الهاتف هو نفسه الذي تحدثتْ معه في وقت سابق بعد الظهيرة.

- سعيدة بوصولكِ يا عزيزي.

نظرتْ له من النافذة، فرأته يقف عند الزاوية أمام متجر السلع الأساسية، كما طلبت منه. بدا أنيقًا ونظيفًا، وكأنه يستعد لموعد غرامي، وهذا مؤشر جيد. كما ارتدى قبعة فريق ريد سوكس وأمالها على جبينه، في محاولة بسيطة لإخفاء هويته.

- أنا في الجهة المقابلة، بناية رقم 27 في شارع مورلاند. ذاك المبنى الرمادي الذي كان كنيسة وتحول إلى مجمع شقق.

نظر إلى المبنى وقال: «لديكِ حس فكاهة».

كان الجميع يعلقون بهذه النكتة، لكنها ضحكت رغم ذلك.

- أنا في الوحدة رقم 24، في الطابق الثاني.

- هل أنتِ بمفردك؟ ألن يظهر لي شخص ضخم البنية يطلب مني الدفع أولًا؟

- أخبرتك إنني أعمل بشكل مستقل. فقط جهز التبرع، وستحظى بوقت ممتع.

أنهت المكالمة ثم ألقت نظرة سريعة على نفسها في المرآة للتأكد من أنها جاهزة. كانت قد ارتدت جواربها النسائية الطويلة وحمالات الجوارب

الجديدين، وأبرز مشد الدانتيل خصرها النحيف كما جعل صدرها يبدو أكبر. وضعت مكياجًا خفيفًا، لكن كثفت ظلال الجفون لتبرز عينيها. وهو ما يفضله معظم زبائنها. فذلك يجعل مظهرها غرائبي وجذابًا.

كانت قد وضعت ملاءات نظيفة على السرير الكبير، وسلة صغيرة من الخوص ممتلئة بالواقيات الذكرية على المنضدة بجوار الساعة التي تشير إلى الخامسة وثماني وخمسين دقيقة. سيستمر الموعد لمدة ساعتين، وبعدها سيكون لديها الوقت الكافي لتنظيف المكان والاستحمام، ثم الجلوس أمام التلفاز لمتابعة برنامجها المفضل. فكرت في الاتصال بوالدتها لاحقًا في تلك الليلة لتسألها عن كيفية طهي سمك البورجي.

فتحت الباب قبل أن يطرقه، وأخبرتها نظراته إنها أحسنت الاستعداد. دخل بسرعة، فأغلقت الباب واستندت إليه مبتسمة.

قال وهو يحدق في عينيها بتركيز: «أنتِ أجمل من الصورة التي في إعلانكِ. خصوصا عينيكِ».

- شكرًا لك.

تفحصته جيدًا وهو يعبر الرواق، وركزت على عينها اليمنى وطرفتها مرتين بسرعة. لم تعتقد أنها ستحتاج إلى هذا، لكن على الفتاة أن تحمي نفسها. وفكرت أنها إذا توقفت عن فعل ذلك، فستتخلص من عينها وترميها في قاع ميناء بوسطن، تمامًا كما كانت تفعل مع أسرارها وهي طفلة، فكانت تكتبها على قطع صغيرة من الورق، وتطويها ثم ترميها في المرحاض.

كان وسيمًا بطريقة غير لافتة للانتباه: فزاد طوله على ستة أقدام، وكانت بشرته حنطية، وشعره كثيفًا، وبدا جسده رياضيًّا تحت قميصه النظيف. كانت عيناه ودودتين ولطيفتين، وتأكدت تقريبًا أنه لن يكون عنيفًا معها. قدرت أنه في الأربعينيات من عمره، ولعله يعمل في إحدى شركات المحاماة أو الخدمات المالية في وسط المدينة، حيث كان يرتدي قميصًا بأكمام طويلة وسروالًا داكنًا مناسبًا لقوة المكيف الهوائي. وبدا أن لديه ذلك النوع من الغطرسة التي يخطئ البعض في اعتبارها جاذبية رجولية. لاحظت وجود بقعة باهتة حول إصبعه في موضع خاتم الزواج. هذا أفضل بالتأكيد. فعادة ما يكون الرجل المتزوج أكثر أمانًا. والرجل المتزوج الذي لا يريدها أن تعرف أنه متزوج هو الأكثر أمانًا على الإطلاق: لأنه يقدر ما لديه ولا يريد أن يفقده.

أملت أن يصير زبونًا دائمًا.

أمسك بظرف أبيض وناوله لها: «أنا سعيد أننا نفعل ذلك».

أخذت الظرف وعدت النقود بداخله، ثم وضعته فوق كومة البريد على طاولة صغيرة بجوار المدخل دون أن تقول شيئًا. أمسكت يده وقادته نحو غرفة النوم. توقف لينظر إلى الحمام ثم إلى الغرفة الأخرى التي في نهاية الرواق.

مازحته: «هل تبحث عن لاعب خط الدفاع؟».

- أتأكد فقط أن المكان آمن. أنا شخص لطيف.

أخرج جهاز فحص ووجهه نحو الشاشة.

قالت: «يا إلهي، أنت شديد الارتياب. الكاميرا الوحيدة هنا هي تلك التي في هاتفي. وهي مغلقة بالتأكيد».

أبعد جهاز الفحص وابتسم.

- أعلم. لكنني أردت فقط أن أتأكد من خلال الآلة.

دخلا غرفة النوم. وشاهدته وهو ينظر إلى السرير وزجاجات الزيوت والمرطبات التي على المنضدة، والمرايا الطويلة التي تغطي أبواب الخزانة بجوار السرير.

سألته: «هل تشعر بالتوتر؟».

اعترف: «قليلًا. أنا لا أفعل هذا عادة. أو، على الإطلاق».

ذهبت نحوه وعانقته، مما أتاح له استنشاق عطرها، الذي تميز برائحته الزهرية والخفيفة، فلا يبقى أثره على جلده. وبعد برهة، وضع ذراعيه حولها، وأراح يديه على بشرتها العارية أسفل ظهرها.

- لطالما آمنت بأنه يجب على المرء أن يدفع المال مقابل التجارب بدلًا من الأشياء.

همس في أذنها: «فلسفة جيدة».

- ما أقدمه لك هو تجربة الحبيبة، بأسلوب قديم الطراز وحلو. وستتذكر هذا وتعيد عيشه في ذهنك كلما أردت.

- هل ستفعلين ما أريد؟

قالت: «ضمن الحدود المعقولة»، (ثم رفعت رأسها لتنظر إليه): «عليك أن ترتدي واقيًا ذكريًّا. بخلاف ذلك، لن أقول لا لمعظم الأشياء. لكن كما أخبرتك على الهاتف، هناك بعض الأمور التي ستحتاج إلى دفع مبلغ إضافي مقابلها».

- أنا قديم الطراز بعض الشيء. هل تمانعين إذا توليت زمام الأمور؟

لقد جعلها تشعر بالراحة بما يكفي لدرجة أنها لم تقفز إلى أسوأ التوقعات.

- إذا كنت تفكر في تقييدي، فسيكلفك ذلك المزيد من المال. ولن أفعل ذلك حتى أتعرف عليك أكثر.

- لا أريد شيئًا من هذا القبيل. ربما سأثبتك قليلًا.

- هذا مقبول.

اقترب منها وقبَّلها. تجول لسانه في فمها ببطء، فتأوهت في رضى. ثم تراجع، ووضع يديه على خصرها، ولف جسدها.

- هل يمكنكِ أن تستلقي بوجهك في الوسائد؟

- بالطبع.

صعدت إلى السرير.

- هل تريديني أن أبقي ساقي تحتي أم أفتحهما؟

قال بصوت آمر: «افتحي ساقيكِ، من فضلك». لم يخلع ملابسه بعد، حتى أنه لم يخلع قبعة فريق الريد سوكس. شعرت بخيبة أمل بعض الشيء. فبعض الزبائن يستمتعون بالانصياع أكثر من الجنس. لم يوجد الكثير لتفعله. أملت فقط ألا يكون عنيفًا أكثر من اللازم وألا يترك علامات على جسدها.

صعد إلى السرير خلفها وتقدم بين ساقيها. انحنى والتقط الوسادة التي بجانب رأسها.

قال: «جميل جدًّا، سأثبتك الآن».

تأوهت ووجهها في السرير، بالطريقة التي تعرف أنه سيحبها.

وضع الوسادة على مؤخرة رأسها وضغط عليها بقوة ليثبتها في مكانها. ثم أخرج المسدس من حيث كان مخفيًّا في أسفل ظهره، وفي حركة سريعة واحدة، دفع فوهة المسدس -السميك والطويل مع كاتم الصوت- إلى ظهرها وأطلق رصاصتين سريعتين في قلبها. ماتت على الفور.

أزال الوسادة وأخفى المسدس. ثم أخرج مجموعة أدوات جراحية صغيرة من جيب سترته، إلى جانب زوج من قفازات اللاتكس. عمل بسرعة وكفاءة، وقطَّع بدقة ومهارة. شعر بالراحة عندما عثر على ما يبحث عنه؛ فأحيانًا كان يختار الفتاة الخطأ، ليس كثيرًا، ولكن قد حدث ذلك. توخى الحذر ولم يمسح أي عرق على وجهه بكمه أثناء عمله، وساعدته القبعة في منع سقوط أي شعرة عليها. وسرعان ما أنهى مهمته.

نزل من السرير وخلع القفازات الملطخة بالدماء، وتركها مع مجموعة الأدوات الجراحية على الجثة. ارتدى زوجًا جديدًا من القفازات وبدأ بالتجول في الشقة، باحثًا بطريقة منظمة عن الأماكن التي أخفت فيها النقود: داخل خزان المياه في المرحاض، وخلف الفريزر، والزاوية التي فوق باب الخزانة.

ذهب إلى المطبخ وعاد بكيس قمامة بلاستيكي كبير. جمع القفازات الملطخة بالدم ومجموعة الأدوات الجراحية ووضعها في الكيس. ثم التقط هاتفها، وضغط على زر البريد الصوتي، كي يمسح جميع الرسائل، بما في ذلك الرسالة التي تركها لها عندما اتصل بها لأول مرة. لم يكن بإمكانه أن يخفي سجل مكالماته فهي محفوظة في سجل المكالمات لدى شركة الهاتف، لكن كان بإمكانه استغلال ذلك بترك هاتفه المدفوع مسبقًا للاستعمال المؤقت في مكان ما لتجده الشرطة.

نظر إليها مرة أخرى. لم يكن حزينًا، ليس تمامًا، لكنه شعر بنوع من الإحساس بالخسارة. فقد كانت الفتاة جميلة، وود لو أنه استمتع بها أولًا، لكن كان ذلك سيترك وراءه آثارًا كثيرة، حتى لو استخدم الواقي الذكري. كما أن بإمكانه أن يدفع ثمن واحدة أخرى لاحقًا إذا أراد. كان يحب أن يدفع المال مقابل الأشياء. فالقوة تتدفق فيه عندما يدفع.

مد يده إلى جيب سترته الداخلي، وأخرج ورقة، وفكها بعناية ثم تركها بجانب رأس الفتاة.

وضع كيس القمامة والمال في حقيبة رياضية صغيرة وجدها في إحدى الخزائن. خرج بهدوء، والتقط ظرف النقود الذي بجانب المدخل في طريقه إلى الخارج.

نظرًا لدقتها، راجعت روث لو الأرقام التي في جدول البيانات مرة أخيرة، وهو ملخص مستخرج من بيانات بطاقات الائتمان وكشوفات الحسابات البنكية، وقارنته بالأرقام الموجودة في الإقرار الضريبي. لم يوجد شك في

ذلك. لقد كان زوج العميلة يخفي الأموال عن مصلحة الضرائب، والأهم من ذلك، عن العميلة نفسها.

بإمكان الصيف في بوسطن أن يكون شديدة الحرارة، لكن روث أبقت مكيف الهواء مطفأً في مكتبها الصغير الذي يقع فوق محل جزارة في حي تشاينا تاون.

لقد سببت الكثير من التعاسة للناس على مر السنين، ولم ترد أن تسهِّل عليهم الاقتراب منها بسبب ضجيج المكيف.

أخرجت هاتفها المحمول وبدأت في الاتصال برقم من ذاكرتها؛ فهي لا تخزن أي أرقام في الهاتف. اعتادت أن تخبر الناس أن ذلك لأسباب تتعلق بالأمان، لكنها أحيانًا تتساءل إذا كان هذا التصرف، مهما كان بسيطًا، يعبر عن تأكيد استقلالها عن الآلات.

توقفت عندما سمعت صوت خطوات شخص يقترب على الدرج. بدت الخطوات واضحة وناعمة، ومن المحتمل أن تكون امرأة ترتدي أحذية مريحة. لم ينطلق إنذار جهاز الكشف عن الأسلحة في الدرج، لكن ذلك لم يهمها في كل الأحوال، فهي قادرة على القتل دون الحاجة إلى مسدس أو سكين، كما يقدر الآخرون كذلك.

وضعت روث هاتفها بهدوء على المكتب ومدت يدها إلى الدرج، ثم لفت أصابع يدها اليمنى حول مقبض المسدس المطمْئن من طراز جلوك 19. وبعد ذلك، استدارت قليلًا لتلقي نظرة على الشاشة التي تعرض اللقطات من كاميرا الأمان المثبتة فوق الباب.

شعرت روث بالهدوء الشديد. فمنظم المشاعر يؤدي عمله بكفاءة. لا حاجة لإطلاق أي أدرينالين بعد.

كانت الزائرة التي في الخمسينيات من عمرها، ترتدي سترة زرقاء بأكمام قصيرة وسروالًا أبيض اللون. تفقدت المنطقة المحيطة بالباب بحثًا عن زر الجرس. كان شعرها شديد السواد لدرجة أنه بالتأكيد كان مصبوغًا. بدت صينية، وبدا أن جسدها النحيف والقصير في وضعية مشدودة وعصبية.

استرخت روث وتركت المسدس وضغطت على الزر لفتح الباب. وقفت ومدت لها يدها.

- كيف يمكنني أن أساعدك؟

- هل أنت روث لو، المحققة الخاصة؟

سمعت روث في لهجة المرأة آثارًا من الماندرينية أكثر من الكانتونية أو الفوكينية. بدا أنها ليست من تشاينا تاون إذًا.

- نعم، أنا هي.

بدت المرأة متفاجئة، كأن روث ليست تمامًا كما توقعتها.

- أنا سارة دينج. ظننت أنكِ صينية.

في أثناء مصافحتهما، نظرت روث إلى سارة في عينيها مباشرة: هما في الطول نفسه تقريبًا: خمسة أقدام وأربع بوصات. بدت سارة مهتمة بنفسها ومظهرها، لكن أصابعها كانت باردة ونحيفة كمخلب طائر.

قالت روث: «أنا نصف صينية. فكان والدي كانتونيًا من الجيل الثاني، ووالدتي بيضاء. ولغتي الكانتونية مقبولة إلى حد ما، ولم أتعلم الماندرينية قط».

جلست سارة في الكرسي الوثير مقابل مكتب روث.

- لكن مكتبك هنا.

هزت كتفيها وقالت: «لدي أعداء. ويشعر كثير من غير الصينيين بعدم الارتياح عند التحرك في الحي الصيني. فاختلافهم يظهرهم بين الجميع. لذلك من الآمن لي أن يكون مكتبي هنا. إضافة إلى ذلك، لا يمكن الحصول على إيجار أفضل من هذا».

أومأت سارة في تعب وقالت: «أحتاج إلى مساعدتك مع ابنتي». ثم دفعت ملفًا على المكتب نحوها.

جلست روث ولكنها لم تمد يدها إلى الملف.

- أخبريني بقصتها.

- كانت مونا تعمل مرافقة. وقبل شهر، أُطلق الرصاص عليها وقُتلت في شقتها. تظن الشرطة أن الأمر يتعلق بالسرقة، وربما له علاقة بالعصابات، وليس لديهم أي دلائل تقودهم إلى الفاعل.

قالت روث: «إنها مهنة خطيرة. هل كنت تعرفين أنها تفعل ذلك؟».

- لا. كانت مونا تواجه بعض الصعوبات بعد الجامعة، ولم نكن قريبين كما كنت أود. كنا نظن أنها تتحسن خلال العامين الماضيين، وأخبرتنا أنها تعمل في مجال النشر. من الصعب معرفة طفلتك عندما لا يمكنك أن تكوني نوع الأم التي تريدها أو تحتاج إليها. هذه البلاد لها قواعد مختلفة.

أومأت روث في تفهم. إنه حزن مألوف لدى المهاجرين.

- أنا آسفة لما تكبدته من خسارة. لكن من غير المحتمل أن أتمكن من فعل أي شيء. فمعظم قضاياي الآن تتعلق بالأصول المخفية، والأزواج الخائنين، وقضايا الاحتيال في التأمين، وتفحص ماضي الأشخاص – ذلك النوع من الأشياء. عندما كنت عضوة في قوات الشرطة، عملت في قسم جرائم القتل. وأعلم أن المحققين يعملون بدقة كبيرة في قضايا القتل.

- ليسوا كذلك!

بدا الغضب واليأس في صوتها بشدة مما جعله يرتعش.

- هم يعتقدون إنها مجرد عاهرة صينية، وإنها ماتت بسبب غبائها أو لأنها كانت تعمل مع عصابة صينية لا تزعج نفسها بالتحقق من الزبائن. وزوجي يشعر بالخزي الشديد لدرجة أنه لا يُقدم على ذكر اسمها أبدًا. لكنها ابنتي، وتستحق كل ما أملك، وأكثر.

نظرت روث إليها، وشعرت بقوة ضغط منظم المشاعر الذي يكبح شفقتها. فيمكن للشفقة أن تؤدي إلى قرارات تجارية سيئة.

- لا أنفك أفكر في أنه كانت هناك إشارة يجب أن أراها، طريقة ما لأخبرها أنني أحبها، ولكنني لم أعلم. لو كنت أقل انشغالًا، وأكثر استعدادًا للتدخل والبحث، وأتحمل جرحها لي. لا أستطيع تحمل الطريقة التي يتحدث بها المحققون إلي، كأنني أضيع وقتهم، لكنهم لا يريدون إظهار ذلك.

تجنبت روث أن توضح لها أن جميع محققي الشرطة مزودون بأجهزة تنظيم المشاعر، والتي ينبغي أن تجعل من المستحيل حدوث نوع التحيز الذي تشير إليه. فالنقطة الأساسية من جهاز التنظيم هي جعل عمل الشرطة تحت الضغط أكثر تنظيمًا، وأقل اعتمادًا على الحدس أو الدوافع العاطفية

أو الاستجابة للتحيزات الخفية. إذا وصفت الشرطة الأمر بأنها جريمة عنيفة مرتبط بالعصابات، فهناك على الأرجح أسباب وجيهة لذلك.

لم تقل شيئًا لأنها أدركت أن المرأة التي أمامها تعاني بشدة، وأن مشاعر الذنب والحب اختلطتا بداخلها، لدرجة أنها تعتقد أن دفع المال للعثور على قاتل ابنتها، سيعوضها عن أنها الأم التي انتهى بها أمر ابنتها إلى الدعارة.

بدت وضعية سارة الغاضبة والعاجزة وكأنها تذكر روث بشيء ما، لكنها حاولت طرد هذه الفكرة من ذهنها.

قالت لها: «حتى لو استطعت العثور على القاتل، فلن يجعلك ذلك تشعرين بتحسن».

حاولت سارة التظاهر باللامبالاة: «لا يهمني». (لكن أداءها الأمريكي بدا غير مريح ومزعزعًا بالنسبة لها): «يعتقد زوجي أنني جننت. أعلم كم يبدو الأمر ميؤوسًا منه؛ فأنت لست أول المحققين الذين أطلب مساعدتهم. لكن بعضهم رشحك لأنك امرأة وصينية، لذا ربما ستهتمين بما يكفي لرؤية ما لا يستطيعون رؤيته».

مدت سارة يدها إلى حقيبتها وأخرجت شيكًا، ثم دفعته عبر الطاولة لتضعه فوق الملف.

- تفضلي، ثمانون ألف دولار. سأدفع لك ضعف راتبك اليومي وجميع المصروفات. إذا نفدت الأموال، فيمكنني أن أحصل لك على المزيد.

حدقت روث في الشيك. وفكرت في حالتها المالية المزرية. كم من فرصة ستتاح لامرأة في التاسعة والأربعين من عمرها، لتوفير بعض المال عندما تكبر في السن لدرجة لا تستطيع معها العمل هكذا؟

كانت لا تزال تشعر بالهدوء والعقلانية التامة، وعلمت أن جهاز التنظيم يؤدي دوره. كانت متأكدة أنها تتخذ قرارها بناء على التكاليف والفوائد والتقييم الواقعي للقضية، وليس بسبب كتفي سارة المتراخيتين، اللتين تبدوان كأنهما سدان هشان يقفان في وجه فيض من الحزن.

قالت: «حسنًا. حسنًا».

اسم الرجل ليس روبرت. ولا بول أو مات أو باري أيضًا. كما أنه لا يستخدم اسم جون، لأن هذا النوع من المزاح سيصيب الفتيات بالتوتر. قبل زمن

طويل، قبل أن يدخل السجن، كانوا ينادونه بـ«المراقب»، لأنه كان يحب أن يراقب ويحتفظ بكل التفاصيل في ذهنه، ويبحث عن أفضل الفرص ومسارات الهروب. وما زال يرى نفسه كذلك عندما يكون وحده.

في الغرفة التي استأجرها في الفندق الرخيص في طريق رقم 128، بدأ يومه بالاستحمام ليغسل عرق الليل.

كان هذا هو الفندق الخامس الذي يقيم فيه خلال الشهر الماضي. فأي إقامة تدوم أكثر من أسبوع تميل لجذب انتباه العاملين في الفنادق. هو يراقب، لكنه لا يتعرض للمراقبة. كان يعتقد أن أفضل شيء عليه فعله هو مغادرة بوسطن تمامًا، لكنه لم يستنفد بعد إمكانيات تلك المدينة. لا يشعر أنه من الصواب أن يغادر قبل أن يرى كل ما يريد رؤيته.

حصل المراقب على ستين ألف دولار تقريبًا من شقة الفتاة، ليس مبلغًا سيئًا مقابل يوم عمل واحد. تشعر الفتيات اللواتي كان يختارهن بقصر الوقت الذي يمكنهن فيه مزاولة عملهن، وإذا لم يملكن عادات سيئة، فهن يدخرن المال مثل السناجب التي تستعد لفصل الشتاء. ونظرًا لأنهن لا يمكنهن وضع المال في البنك دون إثارة شكوك إدارة الضرائب، فإنهن يخزن المال في مخابئ في شققهن، على استعداد لأن يأتي هو ويأخذها ككنز عثر عليه.

كان المال مكافأة لطيفة له، لكنه لم يكن عامل الجذب الوحيد.

خرج من الدش، وجفف نفسه، ثم جلس وجسده ملفوف بمنشفة، ليعمل على اللغز الذي يحاول حله. كان اللغز عبارة عن نصف كرة فضية صغيرة، بدت مثل نصف جوزة. عندما حصل عليها لأول مرة، كانت مغطاة بالدماء وبقايا اللحم، وقد مسحها مرارًا وتكرارًا بمناديل ورقية مبللة في حوض الفندق حتى صارت تلمع.

فتح منفذ وصول في الجزء الخلفي من الكرة. بعد ذلك، فتح حاسوبه المحمول، ووصل أحد أطراف كابل به ووضع الطرف الآخر في منفذ وصول نصف الكرة. شغَّل البرنامج الذي دفع مبلغًا كبيرًا من المال مقابله وتركه يعمل. لعل الأوفر لوقته أن يدع البرنامج يعمل طوال الوقت، لكنه أحب أن يكون موجودًا لرؤية اللحظة التي يُفك فيها التشفير.

في أثناء عمل البرنامج، بدأ في تصفح إعلانات المرافقات. حينها، كان يبحث عن المتعة وليس العمل، لذلك بدلًا من التركيز على فتيات مثل

جاسمين، اتجه نحو الفتيات التي يشتهيهن. هنَّ باهظات الثمن، لكن ليس بشكل مفرط، من النوع الذي يذكره بالفتيات اللاتي رغب فيهن خلال أيام المدرسة الثانوية: صاخبات، ومليئات بالحيوية، ولديهن منحنيات جذابة في أجسادهن، لكن مُقدَّر لهن أن يزداد وزنهن في السنوات القادمة. وكان جمالهن العفوي يضيف إلى جاذبيتهن، لأنه يصطحب معه شعورًا بالزوال.

كان المراقب يدرك أن الرجل الفقير مثلما كان هو في السابعة عشر من عمره، هو الوحيد الذي يتكبد عناء مغازلة النساء، محاولًا بشغف أن يجعلهن يحببنه. أما الرجل الذي يملك المال والسلطة، مثلما صار هو، فيمكنه أن يشتري ما يريد. كان يشعر أن رغبته تحمل نقاء ووضوحًا يجعلانها أكثر نبلًا وأقل خداعًا من رغبة الفقراء. فهم يتمنون لو كان بإمكانهم الحصول على ما لديه.

أصدر البرنامج صوت تنبيه، فانتقل إليه مرة أخرى.

نجاح.

كانت الصور ومقاطع الفيديو والتسجيلات الصوتية تُحمل على الكمبيوتر.

تصفح المراقب الصور وتسجيلات الفيديو. احتوت الصور على لقطات للوجوه أو لقطات تُظهر المال وهو يُسلَّم، وحذف على الفور تلك التي تحتوي على صوره.

لكن الفيديوهات كانت أفضل ما يوجد. استرخى وشاهد الشاشة تومض، معجبًا بمهارة كاميرا جاسمين في التصوير.

فصل الفيديوهات والصور حسب العميل ووضعها في مجلدات. كان العمل متعبًا، لكنه استمتع به.

أول شيء فعلته روث بالمال هو إجراء بعض التعديلات الضرورية بشدة. فالبحث عن قاتل يتطلب أن تكون في أفضل حالة.

لم تكن تحب أن تحمل السلاح عندما تكون في العمل. فيمكن للرجل الذي يرتدي سترة رياضية ويحمل سلاحًا مخفيًّا تحتها أن يندمج بين الجميع تقريبًا، لكن المرأة التي ترتدي ملابس تخفي سلاحًا ستبدو غريبة على الأغلب. كما أن الاحتفاظ بالسلاح في حقيبة اليد فكرة سيئة للغاية. فهي

تُشعر الشخص بالأمان الزائف، لكن من السهل أن تسحب الحقيبة من يدها، وعندها ستكون بلا سلاح.

إنها بصحة جيدة وقوية بالنسبة لعمرها، لكن عادة ما يكون خصومها أطول منها وأضخم وأقوى. لقد تعلمت تعويض هذه العيوب من خلال كونها أكثر يقظة وضرباتها أكثر سرعة.

لكن ذلك لم يكن كافيًا.

ذهبت إلى طبيبها. ليس الطبيب الموجود على بطاقة تأمينها الصحي.

حصل الدكتور «ب» على شهادته في بلد آخر، ثم اضطر إلى مغادرة وطنه إلى الأبد لأنه أغضب الأشخاص الخطأ. وبدلًا من التقديم على إقامة طبية ثانية والحصول على ترخيص هنا، مما كان سيجعله قابلًا للتتبع بسهولة، قرر ببساطة الاستمرار في ممارسة الطب بمفرده. كان يفعل أشياء لا يفعلها الأطباء الذين يهتمون بتراخيصهم، ويقبل المرضى الذين لا يقترب منهم الأطباء الآخرون.

قال الدكتور «ب»: لقد مضى وقت طويل منذ أن رأيتك آخر مرة».

قالت له: «افحص كل شيء. واستبدل ما يحتاج إلى استبدال».

- هل مات أحد أعمامك الأثرياء؟

- أنا ذاهبة في مهمة صيد.

أومأ الدكتور «ب» ووضعها تحت التخدير.

فحص المكابس الهوائية التي في ساقيها، والأوتار المركبة البديلة في كتفيها وذراعيها، وخلايا الطاقة والعضلات الاصطناعية في ذراعيها، والعظام المعززة في أصابعها. وأعاد شحن ما هو بحاجة إلى شحن. كما فحص نتائج علاجات ترسيب الكالسيوم (التي تعالج هشاشة عظامها، وهي أثر جانبي مؤسف بسبب أصلها الآسيوي)، وأجرى بضعة تعديلات على منظمها ليتيح لها استخدامه لفترة أطول.

قال لها: «صرت جديدة تمامًا»، ثم دفعت له المال.

بعد ذلك، نظرت روث في الملف الذي أحضرته سارة.

كان بداخله العديد من صور ابنتها مونا: الحفل الراقص، وحفل التخرج من المدرسة الثانوية، وعطلات مع الأصدقاء، وحفل التخرج من الجامعة. لاحظت

اسم الجامعة دون أن تشعر بالمفاجأة أو الحزن، على الرغم من أن جيس كانت تحلم بالذهاب إلى هناك أيضًا. وكما هو الحال دائمًا، حافظ المنظم على توازنها العقلي، مما جعلها مستقبلة للمعلومات، المعلومات المفيدة فقط.

آخر صورة عائلية اختارتها سارة كانت قد التقطت في عيد ميلاد مونا الرابع والعشرين في وقت سابق من العام. تفحصتها روث بعناية. في الصورة كانت مونا تجلس بين سارة وزوجها، ولفت ذراعيها حول والديها في إيماءة فرح غير مكترثة. لا يوجد أي إشارة إلى السر الذي كانت تخفيه عنهما، ولا يوجد أي علامة، كما لاحظت روث، على وجود كدمات أو مخدرات أو أي إشارات أخرى على أن حياتها كانت خارجة عن السيطرة.

اختارت سارة الصور بعناية. فبدت مصممَة لتسليط الضوء على حياة مونا وجعل الناس يهتمون بها. لكنها لم تكن بحاجة إلى فعل ذلك. فكانت روث ستبذل القدر نفسه من الجهد، حتى لو لم تكن تعرف شيئًا عن حياة الفتاة. فهي محترفة.

وجدت أيضًا نسخة من تقرير الشرطة ونتائج تشريح الجثة. وقد أكد التقرير بشكل كبير ما خمنته روث بالفعل: لا يوجد أي دليل على وجود مخدرات في جسد مونا، ولا أي إشارة على اقتحام المنزل بالقوة أو وجود صراع جسدي. كان رذاذ الفلفل موجود في درج المنضدة بجانب السرير، لكنه لم يُستخدم. وتفحصت فرق الأدلة الجنائية مكان الجريمة، وظهرت آثار شعر وخلايا جلد لعشرات، وربما مئات من الرجال، مما ضمن عدم ظهور أي دلائل مفيدة للتحقيق.

قُتلت مونا بطلقتين في القلب، ثم شُوِّه جسدها وأزيلت عينيها. لم تتعرض لاعتداء جنسي. ونُهبت الشقة وسُرقت النقود والمقتنيات الثمينة.

استقامت روث في جلستها، فطريقة القتل كانت غريبة. لو كانت نية القاتل تشويه وجهها، فلماذا لم يطلق الرصاص على مؤخرة رأسها؟ وهي طريقة أنظف وأكثر ضمانًا في إتمام عملية القتل.

وُجدت ملاحظة مكتوبة بالصينية في مسرح الجريمة، قالت إن مونا قد عُوقبت على خطاياها. لم يكن بإمكان روث قراءة اللغة الصينية، لكنها افترضت أن ترجمة الشرطة دقيقة. كما فحصت الشرطة سجلات هاتف مونا، فوجدت أن بعض الأرقام التي أظهرتها بيانات أبراج الهواتف، كان أصحابها في منزل مونا في ذلك اليوم. والرقم الوحيد الذي لم يكن لصاحبه حجة غياب

كان رقم هاتف مدفوع مسبقًا دون مالك مسجل. وتمكنت الشرطة من تتبعه فوجدوه في الحي الصيني، مخبأ في سلة مهملات، ولكنهم لم يتمكنوا من معرفة أكثر من ذلك.

فكرت روث: *عملية قتل غير متقنة بالنسبة للعصابات، إذا كانوا هم وراء ذلك.*

كما قدمت سارة نسخًا مطبوعة من إعلانات مونا كمرافقة. استخدمت مونا عدة أسماء مستعارة، منها جاسمين، وأكيكو، وسين. ظهرت في معظم الصور وهي ترتدي ملابس داخلية، وبعضها بفساتين سهرة. صورت اللقطات بشكل يبرز جسدها: منظرًا جانبيًا لثديها المغطى جزئيًا بالدانتيل، ومنظرًا خلفيًا لأردافها، وصورة وهي تستلقي على السرير واضعة يدها فوق وركها. أما وجهها، فقد غطت عينيها بقناع أسود لحماية هويتها.

شغلت روث جهاز الكمبيوتر ودخلت إلى المواقع الالكترونية للتحقق من الإعلانات الأخرى. لم يسبق لها العمل على قضايا الدعارة من قبل، لذلك استغرقت بعض الوقت لتتعرف على المصطلحات والاختصارات المستخدمة. بدا أن الإنترنت قد غير هذا المجال تمامًا، مما أتاح للنساء أن يغادرن الشوارع ويعملن «عاهرات مستقلات» دون الحاجة إلى قوادين. كانت المواقع مُنظمة وتتيح للعملاء اختيار ما يريدون بدقة. كان بإمكان العملاء الفرز والتصفية حسب السعر، والعمر، والخدمات المقدمة، والعِرق، ولون الشعر والعينين، والمواقيت المتاحة، وتقييمات العملاء. كان العمل في هذا المجال تنافسيًا للغاية، وقد قدمت تلك المواقع كفاءة قاسية، كانت لتثير اكتئاب روث لولا اعتمادها على المنظم: فكان يمكن قياس تراجع قيمة الفتاة مع مرور كل عام باستخدام برامج إحصائية، من خلال معرفة مقدار القيمة التي يضعها الرجال على كل رطل أو بوصة تخالف ما يعتبرونه مثاليًا، وأيضًا مقدار الفرق في الثمن بين الشقراء والسمراء، وكم يمكن أن ترفع الفتاة التي تبدو أكثر يابانية من قيمتها مقارنة بغيرها.

فرضت بعض مواقع الإعلانات رسوم اشتراك لرؤية صور وجوه الفتيات. وقد طبعت سارة هذه الصور المميزة لمونا. ولبرهة، تساءلت روث عما شعرت به سارة وهي تدفع المال للكشف عن نظرات ابنتها المغرية، الابنة التي بدا أن لها مستقبلًا واعدًا خاليًا من المشكلات في يوم من الأيام.

في هذه الصور، كان وجه مونا مُزينًا بخفة، وعلى شفتيها ابتسامة واعدة أو بريئة. كانت جميلة بشكل استثنائي، حتى مقارنة بالفتيات الأخريات في فئتها السعرية. كانت هي من تحدد مواعيد الاستقبال فقط، ربما ظنًا منها أن ذلك أكثر أمانًا، ليكون لديها قدر أكبر من السيطرة.

يمكن وصف إعلانات مونا بأنها راقية مقارنة بمعظم الفتيات الأخريات. فكانت خالية من الأخطاء الإملائية واللغة الفاحشة بشكل واضح، مما يراعي نوعًا من الخيال الجنسي الذي لدى الرجال هنا تجاه النساء الآسيويات، إضافة أيضًا إلى الكمال الأمريكي؛ يُبرز ذلك التباين بينهما عناصر الإثارة بشكل استراتيجي.

أثنت تقييمات العملاء المجهولين على سلوكها واستعدادها لتقديم جهود إضافية، مما جعل روث تظن أن مونا كانت تتلقى نصائح ذكية من شخص ما.

اتجه انتباه روث إلى صور مسرح الجريمة ولقطات وجه مونا الدامي الذي بلا عينين. واستطاعت -بذكاء ودون عاطفة- أن تحفظ التفاصيل التي في غرفة مونا. تأملت الفجوة بين هذه الصور وصورها المثيرة في الإعلانات. كانت هذه الشابة مغرورة بتعليمها، وظنت أنها تستطيع، من خلال بضع كلمات وصور مختارة بعناية، أن تنشئ نوعًا من التصفية لجذب العملاء المناسبين. كان ذلك تصورًا ساذجًا وحكيمًا في آن واحد، وكان بإمكان روث أن تشعر تقريبًا -رغم وجود المنظم- بنوع من الأسى ليأسها الواثق. فبغض النظر عن السبب الذي دفعها لاختيار هذا الطريق، لم تؤذِ أي شخص، والآن هي ميتة.

التقت روث بليو في غرفة وصلت إليها عبر أنفاق طويلة تحت الأرض والعديد من الأبواب المغلقة. كان المكان يعبق برائحة العفن والعرق والأطعمة الحارة المتعفنة في أكياس القمامة.

في طريقها، لاحظت بعض الغرف المغلقة الأخرى، وتخيلت أن خلفها العديد من البشر، أشخاصًا أبرموا اتفاقيات مع تجار البشر للحصول على فرصة للتهريب إلى هذا البلد سعيًا وراء حلم الثراء. لم تقل شيئًا عنهم؛ اعتمدت اتفاقيتها مع ليو على السرية، وكان أرحم بصفقاته من الكثيرين الآخرين.

فتشها بشكل سطحي، وعرضت عليه أن تتعرى لتتثبت له أنها ليست مزودة بأجهزة تنصت، لكنه أشار إليها بالرفض.

سألته بلغة كانتونية وهي تحمل صورة مونا: «هل رأيت هذه المرأة؟».

تدلت سيجارة ليو من بين شفتيه وهو يتفحص الصورة عن كثب. وقد أضفى الضوء الخافت لونًا أخضر على الوشوم التي غطت كتفيه وأذرعه العارية. وبعد وهلة، أعاد الصورة إليها قائلًا: «لا أظن أنني رأيتها من قبل».

- كانت تعمل عاهرة في كوينسي. وقُتلت قبل شهر وتُركت هذه بجوارها.

أخرجت صورة الورقة التي كانت في مسرح الجريمة.

- تظن الشرطة أن العصابات الصينية وراء ذلك.

نظر ليو إلى الصورة. عبس جبينه في تركيز ثم أطلق ضحكة جافة.

- نعم، هذه بالتأكيد ورقة تركتها عصابة صينية.

- هل تعرف العصابة؟

نظر ليو إلى روث، مبتسمًا وكاشفًا عن فراغات في أسنانه وقال: «بالطبع. هذه الورقة تركها تاك-كاو المتهور، عضو عصابة السلام الأبدي، بعد أن قتل البائسة ماي-ينج، الخادمة الجميلة القادمة من البر الرئيسي، بعد نوبة من الغيرة. يمكنك مشاهدة النسخة الأصلية في الموسم الثالث من (هونج كونج خاصتي، هونج كونج خاصتك My Hong Kong, Your Hong Kong). أنت محظوظة لأنني من معجبي المسلسل. "

- أتقول لي إن هذا مقتبس من مسلسل تلفزيوني؟

- نعم. يبدو أن رجلكم المنشود إما يحب المزاح وإما لا يفهم اللغة الصينية جيدًا، وحصل على هذا من بعض الأبحاث على الإنترنت. قد يخدع ذلك الشرطة، لكننا، لا، نحن لا نترك رسائل كهذه.

ضحك عندما فكر في الأمر ثم بصق على الأرض.

اختارت كلماتها بعناية: «لعلها كانت مجرد خدعة لتضليل الشرطة. أو ربما كان ذلك من قِبَل عصابة ما لتوجيه اهتمام الشرطة نحو العصابات الأخرى. كما أن الشرطة عثرت على هاتف، في حاوية قمامة في تشاينا تاون، من المحتمل أن القاتل استخدمه. أعلم أن هناك العديد من صالونات التدليك الآسيوية في كوينسي، لذا لعل هذه الفتاة مثلت لأحد ما تهديدًا كبيرًا. هل أنت متأكد أنك لا تعرف شيئًا عن هذا؟».

تصفح ليو صور مونا الأخرى، وكانت روث تراقبه في أثناء ذلك، على استعداد للرد على أي حركة مفاجئة تصدر منه. كانت تعتقد أنه موثوق به، لكن لا يمكن التنبؤ دومًا بتصرفات رجل يضطر إلى القتل لكسب عيشه.

ركزت على المنظم، وجهزته لإفراز الأدرينالين لتسريع حركتها إذا لزم الأمر. كان النظام الهوائي في ساقيها مشحونًا، واستندت بظهرها إلى الحائط الرطب تحسبًا لحاجتها لتوجيه بعض الركلات. كان بإمكان الإطلاق المفاجئ لضغط الهواء في الأسطوانات المثبتة بجوار عظام ساقيها إلى تمديد ساقيها في جزء من الثانية، مما سيولد مئات الأرطال من القوة. وإذا ضربت قدماها صدر ليو، فمن المحتمل جدًّا أن تكسر بعض ضلوعه، رغم أنها ستعاني من آلام في ظهرها لعدة أيام بعد ذلك.

قال ليو مشيرًا إلى تجمدها المفاجئ الذي رآه بزاوية عينه: «أنا معجب بكِ يا روث. لا داعي للخوف. لم أنسَ الطريقة التي وجدتي بها ذلك المقامر الذي حاول سرقتي. سأخبرك دائمًا بالحقيقة أو سأقول إنني لا أستطيع الإجابة. ليس لدينا أي علاقة بهذه الفتاة. هي ليست منافسة حقيقية. والرجال الذين يذهبون إلى صالونات التدليك ويدفعون ستين دولارًا في الساعة مقابل الحصول على نهاية سعيدة ليسوا من النوع الذي سيدفع المال مقابل فتاة مثل هذه».

قاد المراقب سيارته حتى وصل إلى مدينة سامرفيل، الواقعة على حدود كامبريدج في شمال بوسطن. وركن سيارته من طراز تويوتا كورولا التي اشتراها نقدًا من المعرض، في الجزء الخلفي من موقف سيارات متجر بقالة، حيث لا تثير انتباه أحد. ثم دخل إلى مقهى وخرج بكوب من القهوة المثلجة. ارتشف قهوته وهو يتجول في الشوارع المشمسة، وينظر بين الحين والآخر إلى الجهاز الصغير المعلق في سلسلة مفاتيحه. هذا الجهاز الذي يخبره بوجود شبكة وايفاي منزلية غير محمية. يعيش الكثير من طلاب هارفارد ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا هنا، حيث الإيجارات مرتفعة لكن ليست بأرقام فلكية. وبما أنهم مدمنون على الحصول على اتصال قوي بشبكة الإنترنت، فهم غالبًا ما يحتفظون بأجهزة توجيه (راوتر) قوية لشققهم الصغيرة، مما يتسبب في تسرب الشبكة إلى الشوارع دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تأمينها (ففي النهاية، لديهم أصدقاء يزورونهم طوال الوقت ويحتاجون

إلى البقاء متصلين بالإنترنت). ونظرًا لأن الصيف هو موسم تغيير الطلاب للسكن، فاحتمال أن يتتبعه أحد عند استخدام أحد هذه الشبكات ضئيل جدًّا.

قد يكون مبالغًا في الأمر، لكنه فضل أن يبقى في أمان.

جلس على مقعد بجانب الشارع، وأخرج حاسوبه المحمول، واتصل بشبكة تُدعى (معلومات_تريد_ أن_ تكون_ حرة _INFORMATION_WANTS TO_BE_FREE)، واستمتع بإثبات خطأ نظرية صاحب الشبكة. فالمعلومات لا تريد أن تكون مجانية، إنها قيمة وترغب في أن تُكتسب. ووجودها لا يحرر أحدًا، لكن امتلاكها يمكن أن يفعل العكس.

اختار المراقب بعناية جزءًا من الفيديو وشاهده للمرة الأخيرة.

أحسنت جاسمين الصنع -سواء كان ذلك عمدًا أو دون قصد- في تأطير الفيديو، ظهرت ملامح وجه الرجل المتعرق بشكل واضح. لكن حركته وحركة جاسمين جعلا الفيديو مشوشًا، مما استدعى استخدام برنامج لتثبيت الصور. وفي النهاية بدا الفيديو احترافيًّا للغاية.

حاول المراقب التعرف على هوية الرجل، الذي بدا أنه صيني، من خلال تحميل صورة حصل عليها من جاسمين إلى محرك بحث. تتحسن تقنيات التعرف على الوجه باستمرار، وكان بإمكانه أحيانًا أن يحصل على النتائج التي يبحث عنها بهذه الطريقة. لكن هذه المرة لم يكن ذلك مجديًا. ولم يمثل ذلك مشكلة له، إذ كان لديه تقنيات أخرى يمكنه استخدامها.

سجل المراقب الدخول إلى منتدى يجتمع فيه المغتربون الصينيون لتبادل الذكريات ومناقشة السياسة في وطنهم. وشارك صورة الرجل الذي في الفيديو وكتب تحتها باللغة الإنجليزية: «هل هذا شخص مشهور؟». ثم أخذ رشفة من قهوته وكان يحدِّث الصفحة من حين لآخر لمتابعة الردود الجديدة.

لم يكن المراقب يفهم اللغة الصينية (ولا الروسية، ولا العربية، ولا الهندية، ولا أيًّا من اللغات الأخرى التي يعمل بها)، لكن المهارات اللغوية ليست ضرورية لهذه المهمة. فمعظم المغتربين يتحدثون الإنجليزية ويفهمون سؤاله. إنه يستخدم هؤلاء الأشخاص كأدوات بحث، مثل محرك بحث جماعي مدعوم بالبشر. من المضحك تقريبًا كيف أن الناس مستعدون لتقديم معلومات مثالية للغرباء عبر الإنترنت، بل يتنافسون فيما بينهم لفعل ذلك، لإظهار مدى معرفتهم. وكان يشعر بالسرور لاستغلال هذه الأهواء التافهة.

كان يحتاج فقط إلى معرفة اسم الرجل ومدى شهرته، والترجمات البدائية التي توفرها الحواسيب تكفي لهذا الغرض.

من الترجمات غير المفهومة إلى حد ما، توصل إلى أن الرجل مسؤول بارز في وزارة النقل الصينية، ومثل معظم المسؤولين الصينيين، فهو مكروه من قبل مواطنيه. يُعتبر هذا الرجل أكثر أهمية من الأهداف المعتادة للمراقب، ولكن تجربته قد تكون في صالحه.

كان المراقب ممتنًا لداجر، الذي شرح له السياسة الصينية. قد تعرف عليه في إحدى الأمسيات، بعد أن خرج من السجن في آخر مرة، وانتظر المراقب جانبًا وشاهد رجلًا صينيًّا يسرق بعض السياح الصينيين بالقرب من تشاينا تاون في سان فرانسيسكو.

تمكن السياح من الاتصال بالشرطة، وفرَّ السارق من مكان الحادث مشيًا على الأقدام عبر زقاق. لكن المراقب قد رأى شيئًا أعجبه في نهج الرجل المباشر والبسيط. فقاد سيارته حول الشارع، وتوقف عند الطرف الآخر من الزقاق، وعندما خرج الرجل، فتح باب المقعد الأمامي وعرض عليه فرصة للهروب في سيارته. شكره الرجل وأخبره إن اسمه داجر.

كان داجر كثير الكلام، وأخبر المراقب عن مدى غضب الناس في الصين وغيظهم من المسؤولين في الحزب، الذين يعيشون حياة مترفة بسبب الأموال التي عصروها من المواطنين، كما أنهم يتلقون الرشاوى، ويرسلون الأموال العامة إلى أقاربهم. وكان هو يستهدف السياح الذين يظن أنهم زوجات وأبناء المسؤولين، ويرى نفسه روبن هود العصر الحديث.

ومع ذلك، لم يكن المسؤولون محصنين تمامًا؛ فكل ما كان يتطلبه الأمر هو فضيحة علنية من نوع ما، وغالبًا ما كانت تتعلق بالشابات اللاتي لم تكن زوجاتهم. لم يكن الحديث عن الديمقراطية يثير حماسة الناس، لكن رؤية مسؤول يفتخر بفساده أمام أعينهم كانت تجعلهم يستشيطون غضبًا. ولم يكن أمام جهاز الحزب خيار سوى معاقبة المسؤولين الموصومين بأفعال مشينة؛ كان الشيء الوحيد الذي يخشاه الحزب هو غضب الشعب، الذي كان دائمًا مهددًا بالخروج عن السيطرة. وإذا كانت هناك ثورة ستحدث في الصين-كما قال داجر بنبرة مازحة- فستكون بسبب عشيقات أولئك المسؤولين وليس الخُطب التي يلقونها.

لمعت فكرة جديدة في ذهن المراقب حينها، وكأنه رأى زمام السلطة يتسرب من يد الذين يحملون الأسرار إلى أولئك الذين يعرفونها. شكر داجر وأعاده إلى منزله، متمنيًا له كل التوفيق.

تخيل المراقب زيارة المسؤول إلى بوسطن. من المحتمل أنه جاء لدراسة تجربة المدينة مع السكك الحديدية الخفيفة، لكنها على الأرجح كانت مجرد إجازة ممولة من الدولة، وفرصة للتسوق في المتاجر الفاخرة بشارع نيو بيري، والاستمتاع بأطعمة باهظة الثمن دون خوف من التسمم أو التلوث، وكذلك الاستمتاع بصحبة نسائية راقية بعيدًا عن تهديد أجهزة التسجيل في أيدي العامة.

نشر المراقب الفيديو على المنتدى، وكلمسة إضافية، أضاف رابطًا لسيرة المسؤول الذاتية على موقع وزارة النقل. وللحظة، شعر بالندم على الأموال التي كان بإمكانه أن يربحها، لكن مضى وقت طويل منذ أن اختبر عرضًا تجريبيًّا، وكانت هذه العروض ضرورية للحفاظ على سير العمل.

بدأ بتغليف جهاز الكمبيوتر المحمول. وصار عليه الانتظار فقط.

لم تظن روث أنها ستحصد منفعة كبيرة من زيارة شقة مونا، لكنها تعلمت على مر السنين ألا تترك أي شيء دون استكشاف. أخذت المفتاح من سارة دينج وتوجهت إلى الشقة في الساعة السادسة مساءً تقريبًا. قد يكون من المفيد أحيانًا مشاهدة المكان في توقيت مماثل للذي وقعت فيه الجريمة.

مرت عبر غرفة المعيشة. ورأت تلفازًا صغيرًا مواجهًا لأريكة فوتون قابلة للطي، وهو نوع الأثاث الذي تحتفظ به الشابات منذ أيام الجامعة عندما لا يملكن سببًا لتحديثه. كانت غرفة معيشة غير معنية باستقبال الزوار.

دخلت روث الغرفة التي وقعت فيها الجريمة، وقد أخلتها فرق الأدلة الجنائية تمامًا. لم تكن هذه الغرفة -والتي هي عبارة عن ركن صغير في نهاية الردهة يحتوي على سرير مفرد وجدران بلون باهت- التي أخليت تمامًا هي غرفة نوم مونا الحقيقية، حيث جُمعت معظم العناصر وأخذوها كأدلة. كانت المرتبة عارية من أي أغطية، وكذلك الطاولات الجانبية، وبدت السجادة نظيفة بعد تنظيفها بالمكنسة الكهربائية. كان للمكان رائحة تشبه رائحة غرف الفنادق. مختلطة بهواء عبق وعطر خفيف.

لاحظت روث المرايا التي بجانب السرير، والمعلقة على أبواب الخزانة. المشاهدة تثير الناس أحيانًا.

تصورت روث مدى شعور مونا بالوحدة وهي تعيش هنا، تُلمَس وتُقبَّل وتُنكح من سلسلة من الرجال الذين أخفوا أكبر قدر ممكن من هوياتهم عنها. تخيلتها جالسة أمام التلفاز الصغير لتسترخي، مرتدية ملابس جميلة للقاء والديها حتى تتمكن من إتقان الكذب أمامهما.

تخيلت روث الطريقة التي أطلق بها القاتل الرصاص على مونا ثم قطعها بعد ذلك. هل كان هناك أكثر من شخص واحد حتى ظنت مونا أن القتال بلا جدوى؟ هل أطلقوا النار عليها على الفور، أم أنهم طلبوا منها أن تخبرهم بمكان المال الذي أخفته أولًا؟ شعرت بأن منظمها بدأ بالعمل مرة أخرى، واحتفظت بعواطفها تحت السيطرة. يجب مواجهة الشر دون انفعالات.

قررت أنها رأت كل ما تحتاج إلى رؤيته. وغادرت الشقة وأغلقت الباب خلفها. وعندما اتجهت نحو الدرج، رأت رجلًا قادمًا، وهو يمسك مفاتيح بيده. التقت نظراتهما لفترة وجيزة، ثم التفت نحو باب الشقة المقابلة في الرواق.

كانت روث متأكدة أن الشرطة قد أجرت مقابلة مع الجار. لكن في بعض الأحيان، يميل الناس إلى إخبار المرأة التي تبدو أقل تهديدًا بأشياء قد يترددون في قولها للشرطة.

توجهت نحو الرجل وعرفت نفسها، موضحة أنها صديقة لعائلة مونا، وأنها هنا لتسوية بعض الأمور العالقة. بدا الرجل، الذي يدعى بيتر، حذرًا لكنه صافحها.

- لم أسمع أو أر أي شيء. نحن نحب أن نبقى في حالنا في هذا المبنى.

- أصدقك. لكن سيكون مفيدًا لو تمكنا من الدردشة قليلًا على أي حال. فلم تكن عائلتها تعرف الكثير عن حياتها هنا.

هز رأسه بتردد ثم فتح الباب. دخل وبدأ بتحريك ذراعيه في تسلسل معقد كما لو كان يقود فرقة أوركسترا. فأضيئت الأنوار.

قالت روث: «هذا رائع حقًّا، هل الشقة كلها مزودة بهذه التقنية؟».

صار صوته، الذي كان حذرًا ومتحفظًا، أكثر حيوية. وبدا أن الحديث عن شيء آخر غير جريمة القتل جعله يشعر بالراحة.

- نعم. إنه يُدعى إيكو سينس. بعد توصيل محول كهربائي بجهاز الوايفاي، ووضع بعض الهوائيات حول الغرفة، يستخدم النظام تغيرات دوبلر التي تولدها حركات الجسد في موجات الراديو للكشف عن أي حركة.

- هل تعني أن بإمكانه رؤية حركاتك فقط من خلال الإشارات التي ترتد من الوايفاي في الغرفة؟

- شيء من هذا القبيل.

تذكرت روث أنها شاهدت إعلانًا عن هذا النظام. ولاحظت مدى ضيق الشقة وقلة المسافة التي تفصلها عن شقة مونا. جلسا وتحدثا عما يتذكره بيتر عن مونا.

- فتاة جميلة. أبعد من مستوى طموحاتي، لكنها كانت لطيفة دائمًا.

- هل كانت تستقبل الكثير من الزوار؟

- أنا لا أتطفل على شؤون الآخرين. لكن نعم، أتذكر مجيء الكثير من الزوار، ومعظمهم من الرجال. ظننت أنها تعمل مرافقة بالفعل. لكن ذلك لم يزعجني. فكان الرجال يبدون نظيفين دائمًا، من النوع الذي يبدو أنه يعمل في مجال إدارة الأعمال. لم يكونوا خطرين.

- هل رأيت أي شخص يبدو كأنه زعيم عصابة، على سبيل المثال؟

- لا أعرف كيف يبدو زعماء العصابات. لكن لا، لا أعتقد ذلك.

استمرت المحادثة عن أمور غير مهمة لمدة خمس عشرة دقيقة أخرى، وقررت روث أنها أهدرت ما يكفي من الوقت.

سألته: «هل يمكنني شراء جهاز التوجيه منك؟ وأيضًا جهاز إيكو سينس؟».

- يمكنكِ أن تطلبي مجموعة جديدة عبر الإنترنت.

- أكره التسوق عبر الإنترنت. فلا يمكنكِ أبدًا إعادة الأشياء. أعلم أن هذا الجهاز يعمل، لذا أريده. سأعطيكِ ألفي دولار نقدًا.

فكر في الأمر.

- أراهن أنكِ تستطيعين شراء جهاز جديد مع محول إضافي من إيكو سينس بأقل من ربع هذا المبلغ.

ثم أومأ وأخرج جهاز التوجيه، فناولته المال. بدا أن ما فعلته غير شرعي بطريقة ما، لا يختلف كثيرًا عن كيفية تخيلها لصفقات مونا.

نشرت روث إعلانًا على موقع إعلانات محلية، ووصفت بمصطلحات مموهة ما تبحث عنه. تتميز بوسطن بوجود العديد من الكليات المرموقة والكثير من الشبان والشابات الذين يستمتعون بالتحديات التقنية أكثر من المال الذي تقدمه. تصفحت السير الذاتية حتى وجدت الشخص الذي شعرت أنه يمتلك المهارات المناسبة: اختراق حماية الهواتف (جيل بريكينج)، والهندسة العكسية لبروتوكولات الملكية الفكرية، وعدم احترام كبير لاختصارات مثل دي إم سي إيه (قانون الألفية للملكية الرقمية)، وسي إف إيه إيه (قانون الاحتيال والانتهاك الحاسوبي).

التقت الشاب في مكتبها وشرحت له ما تريده. كان دانيال شابًّا أسمر البشرة، نحيفًا، وخجولًا، ويجلس منحنيًا على الكرسي المقابل لها وهو يستمع لحديثها دون أن يقاطعها.

سألته: «هل يمكنك فعل ذلك؟».

قال: «ربما. فالشركات مثل هذه عادة ما ترسل بيانات العملاء إلى الشركة الأم بشكل مجهول لتحسين تقنياتها. وأحيانًا تُخزن البيانات محليًّا بشكل مؤقت لفترة من الوقت. من الممكن أن أجد سجلات عمرها شهر هناك. إذا كانت موجودة، سأجلبها لك. لكنني سأحتاج إلى معرفة كيفية ترميز البيانات ثم فهمها. ”

- هل تظن أن نظريتي منطقية؟
- أنا معجب بأنك استطعت التفكير في ذلك. فيمكن للإشارات اللاسلكية أن تمر عبر الجدران، لذا من المؤكد أن هذا المحول التقط حركات الأشخاص في الشقق المجاورة. إنه كابوس للخصوصية، وأنا متأكد أن الشركة لا تعلن عن ذلك.
- كم ستستغرق من الوقت لتعرف ذلك؟
- قد يستغرق يومًا أو قد يصل إلى شهر. لن أعرف حتى أبدأ. سيكون مفيدًا إذا كان بإمكانك رسم خريطة للشقق وما بداخلها.

فعلت روث ما طلبه. ثم قالت له: «سأدفع لك ثلاثمائة دولار في اليوم، إضافة إلى مكافأة قدرها خمسة آلاف دولار إذا نجحت هذا الأسبوع. ”

- اتفقنا.

ابتسم وأخذ جهاز التوجيه، مستعدًا للمغادرة.

لأنه لا يضر أبدًا أن تخبر الناس أن ما يفعلونه ذو مغزى كبير، أضافت: «أنت تساعد في القبض على قاتل شابة ليست أكبر منك بكثير».

ثم عادت إلى المنزل لأنها استنفدت كل ما يمكنها تجربته.

الساعة الأولى بعد الاستيقاظ دائمًا ما تكون أسوأ جزء في يوم روث.

كالمعتاد، استيقظت من كابوس. واستلقت بلا حراك، مشوشة، وظهرت صور حلمها متداخلة مع البقع التي تركتها المياه على السقف. وكان جسدها ينز عرقًا.

يمسك الرجل جيسيكا أمامه بيده اليسرى بينما المسدس في يده اليمنى موجه إلى رأسها. هي مرعوبة، لكن ليس منه. ينحني حتى يحمي جسدها جسده، ويهمس شيئًا في أذنها.

تصرخ: «أمي! أمي! لا تطلقي الرصاص. أرجوك لا تطلقي الرصاص!».

تقلبت روث على السرير، وهي تشعر بالغثيان. جلست على حافة السرير، كانت تكره رائحة الغرفة الساخنة والغبار الذي لم تجد وقتًا لتنظيفه، وملأ الهواء الذي اخترقته أشعة الشمس الساطعة الآتية من النافذة المواجهة ليمين الغرفة. دفعت الأغطية بعيدًا ونهضت بسرعة، تسارعت أنفاسها. إنها تحارب الذعر المتصاعد دون أي مساعدة، وحيدة، ومنظم المشاعر مغلق.

أشارت الساعة الموجودة على الطاولة الجانبية إلى السادسة.

جلست القرفصاء خلف باب السائق المفتوح في سيارتها. ارتجفت يداها وهي تحاول بصعوبة إبقاء رأس الرجل، الذي يتحرك بجانب رأس ابنتها، في مرمى مسدسها. فكرت أنه إذا شغلت منظمها، قد تصير يداها ثابتتين ويكون لديها فرصة مثالية لإصابته.

ما هي فرص إصابتها له بدلًا من ابنتها؟ خمسة وتسعون بالمئة؟ تسعة وتسعون؟

- أمي! أمي! لا!

نهضت وتعثرت في طريقها إلى المطبخ لتشغيل آلة صنع القهوة. ألقت السباب عندما وجدت العلبة فارغة ورمتها في الحوض بحدة. فاجأها الضجيج، فتقلصت من الخوف.

ثم جرت نفسها بصعوبة إلى الحمام، ببطء وبألم، وكأن العضلات التي تحافظ عليها يوميًّا من خلال التمارين الشاقة غير موجودة. فتحت صنبور المياه الساخنة، لكنها لم تجلب لجسدها المرتجف أي دفء.

جثم الحزن عليها كوزن ثقيل. جلست في حوض الاستحمام، وكورت جسدها. وتركت الماء يتدفق على وجهها فلم تعد تعلم إذا كانت دموعها تتساقط وجسدها يهتز من البكاء.

حاربت رغبتها في تشغيل المنظم. فلم يحن الوقت بعد. عليها أن تمنح جسدها الراحة اللازمة.

المنظم هو مجموعة من الرقائق والدارات المدمجة في الجزء العلوي من عمودها الفقري، متصلة بالجهاز الحوفي والأوعية الدموية الرئيسية في الدماغ. ومثل اسمه المستوحى من الهندسة الميكانيكية والكهربائية، فإنه يحافظ على مستويات الدوبامين، والنورأدرينالين، والسيروتونين، وغيرها من المواد الكيميائية في الدماغ وفي مجرى الدم. ويعمل على ترشيح المواد الكيميائية عندما تزداد، ويطلقها عندما تنقص.

وهو يطيع إرادتها.

يمنحها الجهاز المزروع السيطرة على مشاعرها الأساسية: الخوف، والاشمئزاز، والفرح، والإثارة، والحب. وهو إلزامي على الضباط المعنيين بتطبيق القانون، كوسيلة لتقليل تأثير المشاعر على القرارات التي تؤثر على الحياة أو الموت، وكوسيلة للقضاء على التحيز واللاعقلانية.

قال الصوت في سماعتها: «لديك الإذن بإطلاق الرصاص». إنه صوت زوجها سكوت، رئيس قسمها. كان صوته هادئًا تمامًا. كان منظمه يعمل.

رأت رأس الرجل يتحرك صعودًا وهبوطًا وهو يتراجع للخلف مع جيسيكا. كان متجهًا نحو الشاحنة المتوقفة بجانب الطريق.

واصل زوجها التحدث في أذنها: «لديه رهائن آخرون هناك. إذا لم تطلقي الرصاص، فإنك تعرضين حياة هؤلاء الفتيات الثلاث للخطر، وربما العديد من الآخرين أيضًا. هذه هي أفضل فرصة لدينا».

ما زال صوت صفارات الإنذار، الدعم، بعيدًا جدًا.

بعد ما بدا وكأنه أبدي، تمكنت من الوقوف في الحمام وإيقاف الماء. جففت نفسها بالمنشفة ببطء.

حاولت أن تفكر في شيء، أي شيء، ليشغل ذهنها عن المسار الحالي الذي يسير فيه. لكن لم يجدِ نفعًا.

كرهت حالة عقلها الخام. دون المنظم، شعرت بالضعف، والارتباك، والغضب. واجتاحتها موجات من اليأس، وبدا كل شيء بألوان رمادية بائسة. تساءلت لما ما زالت على قيد الحياة.

فكرت: *سيزول. انتظري بضع دقائق أخرى.*

عندما كانت تعمل في قسم الشرطة، التزمت بمتطلبات اللوائح التي تمنع ترك المنظم يعمل لأكثر من ساعتين في المرة الواحدة. فثمة مخاطر فسيولوجية ونفسية مرتبطة بالاستخدام المطول. كما اشتكى بعض زملائها الضباط من الطريقة التي جعلهم بها المنظم يشعرون وكأنهم آليون، أو أنهم بلا حياة. فلم يشعروا بأي إثارة عند رؤية امرأة جميلة، ولا حماس عند احتمالية مطاردة سيارة هاربة، ولا غضب مشروع عند مواجهة أي إساءة أو أذى. كان على كل شيء أن يكون مدروسًا: فأنت من يقرر متى تترك الأدرينالين يتدفق، وبالكاد يكفي لإنجاز المهمة دون أن يؤثر على حكمك. لكن أحيانًا، كما جادلوا، كنت بحاجة إلى المشاعر، والغريزة، والحدس.

كان منظمها مطفأ في اليوم الذي عادت فيه إلى المنزل وتعرفت على الرجل المختبئ من مطاردة شرطة المدينة.

فكرت: *هل كنت أعمل أكثر من اللازم؟ لا أعرف أيًا من أصدقائها. متى قابلته جيس؟ لماذا لم أسألها المزيد من الأسئلة عندما كانت تعود إلى المنزل متأخرة كل ليلة؟ لماذا توقفت لتناول الغداء بدلًا من أن أعود إلى المنزل قبل نصف ساعة؟ هناك ألف شيء كان يمكنني فعله، وكان ينبغي علي فعله، وكنت لأفعله.*

اختلطت مشاعر الخوف والغضب والندم بداخلها حتى لم تعد تستطيع أن تميز ماهية أي منها.

قال زوجها: «شغلي المنظم. يمكنك أن تقتلي الهدف».

فكرت: لماذا أهتم بحياة الفتيات الأخريات؟ كل ما يهمني هو جيس. فحتى أقل فرصة لإيذائها هي أكثر من اللازم.

هل يمكنها أن تثق في آلة لإنقاذ ابنتها؟ هل ينبغي أن تعتمد على آلة لتثبيت يديها المرتعشتين، لتوضيح رؤيتها الضبابية، لتصويب المسدس دون أن تخطئ؟

- أمي، إنه سيسمح لي بالذهاب لاحقًا. لن يؤذيني. هو فقط يريد الابتعاد عن هنا. اتركي المسدس!

لعل سكوت بإمكانه أن يحسب حساباته عن الأرواح التي يمكن إنقاذها والأرواح المعرضة للخطر. لكنها لن تفعل ذلك. لن تثق في آلة.

قالت بصوت خافت: «كل شيء على ما يرام يا حبيبتي. كل شيء سيكون على ما يرام».

لم تشغل المنظم. لم تطلق الرصاص.

لاحقًا، بعد أن تعرفت على جثة جيس، كانت جثث الفتيات الأربع قد احترقت بشدة عندما انفجرت القنبلة. بعد أن تعرضت للتأديب وفصلت من العمل، وبعد أن انفصلت عن سكوت، وبعدما لم تجد أي عزاء في الكحول والأقراص المسكنة، وجدت أخيرًا المساعدة التي تحتاجه إليها: يمكنها ترك المنظم يعمل طوال الوقت.

كان المنظم يخفف الألم، ويكتم الحزن، ويخدر وجع الفقد. كان يقمع الندم، ويجعل بإمكانها التظاهر بالنسيان. كانت تتوق إلى السكينة التي يجلبها، والصفاء الهادئ الخالي من اللوم.

أخطأت عندما لم تثق به. فقد كلفها ذلك الشك ابنتها جيس. لن ترتكب الخطأ نفسه مرة أخرى.

أحيانًا تفكر في المنظم كعاشق موثوق به، كوجود مريح يمكن الاعتماد عليه. أحيانًا تعتقد أنها مدمنة. لكنها لا تتعمق كثيرًا وراء هذه الأفكار.

كانت تفضل ألا تضطر أبدًا لإيقاف المنظم، وألا تكون في موقف يعيدها لخطأها. لكن حتى الدكتور ب لم يوافق على ذلك («سيتحول عقلك إلى هريسة».). والتعديلات غير القانونية التي وافق على إجرائها تسمح للمنظم بالعمل لمدة أقصاها ثلاث وعشرون ساعة متواصلة. ثم عليها أن تأخذ فترة راحة لمدة ساعة واحدة، ويجب أن تبقى واعية خلالها.

وهكذا، كانت تأتي تلك الساعة في الصباح، مباشرة عند استيقاظها، عندما تكون عارية ووحيدة مع ذكرياتها، دون درع تحميها من تدفق كراهيتها

الملتهبة (لرجل؟ لنفسها؟) وغضبها المتجمد كبركان حي، والهاوية السوداء العميقة بلا قاع، التي ما زالت تسقط فيها كعقوبة تحملتها على ما اقترفته.

صدر الصوت من المنبه. ركزت كراهب في حالة تأمل وهي تشعر بذبذبة المنظم يبدأ في العمل. سرى الشعور بالراحة من مركز عقلها إلى أطراف أصابعها، هذا السكون المهدئ والمخدر لعقل منظم ومنضبط. أن تكون منظمًا يعني أن تكون شخصًا عاديًّا.

وقفت بمرونة وأناقة وقوة مستعدة للصيد.

استطاع المراقب معرفة هوية المزيد من الرجال الذين في الصور. ذهب ليقيم في غرفة في نزل جديد، هذه المرة أغلى من المعتاد لأنه شعر أنه يستحق مكافأة بعد كل ما مر به. فالانحناء طوال اليوم لتحرير الفيديو هو عمل شاق.

عدَّل إطار الفيديو ليضفي عليه إحساسًا بالحيوية والحركة. فثمة فن في ذلك النوع من العمل.

ذهل من حقيقة أن هناك عددا قليلا من الناس الذين يعرفون معلومات عن زراعة العين. ثمة شيء يتعلق بالعيون -فهي ضعيفة جدًّا، وضرورية للغاية للطريقة التي ينظر بها الناس للعالم ولأنفسهم- يجعل الناس يشعرون بالحماية ويمتنعون عن انتهاكها. والقوانين المتعلقة بتعديلات العيون هي الأكثر صرامة، وبعد فترة، يبدأ الناس في الخلط بين ما هو «غير مسموح» و«غير ممكن».

هم لا يعرفون ما لا يريدون معرفته.

طوال حياته، شعر أنه كان يفتقر إلى قطعة رئيسية من المعلومات، سرٌ يعرفه الجميع باستثنائه. هو ذكي ومجتهد، ولكن بطريقة ما لم تسر الأمور كما ينبغي.

لم يعرف والده قط، وعندما كان في الحادية عشرة من عمره، هجرته والدته وتركت له عشرين دولارًا ولم تعد. تلا ذلك تنقله بين سلسلة من دور الرعاية، ولم يتمكن أحد، لا أحد، من إخباره بما ينقصه، ولما كان دائمًا تحت رحمة القضاة والبيروقراطيين، ولما لم يملك أي سيطرة على حياته، لا أين سينام، ولا متى سيأكل، ولا من سيملك السلطة عليه بعد ذلك.

لذا جعل غايته دراسة الرجال، لمراقبتهم ومحاولة فهم دوافعهم. وكثير مما تعلمه خيب أمله. فقد وجد أن الرجال متفاخرون، ومتعجرفون، وجهلاء. وكانوا يسمحون لرغباتهم بأن تجرفهم بعيدًا، ويتجاهلون المخاطر الواضحة. لم يفكروا، ولم يخططوا. لم يعرفوا ما يريدونه حقًا. كانوا يسمحون للتلفاز أن يخبرهم بما ينبغي أن يمتلكوه، ويأملون أن تحقق وظائفهم البائسة أمانيهم.

تاق إلى السلطة والسيطرة. أراد أن يراهم يرقصون على أنغامه كما أُجبر هو على الرقص على أنغام جميع الآخرين.

لذلك، صقل نفسه ليكون نقيًّا وذا هدف، مثل سكين حاد في درج ممتلئ بأدوات المطبخ المزخرفة وغير اللازمة. كان يعرف ما يريده، وعمل على تحقيق ذلك بعزم.

عدَّل الألوان والمدى الديناميكي لتعويض الضوء الخافت في الفيديو. أراد ألا يحدث أي لبس في تحديد هوية الرجل.

مد ذراعيه المتعبتين ورقبته المتألمة. ولبرهة، تساءل عما إذا كان من الأفضل أن يدفع ثمن تحسين أجزاء من جسده ليتمكن من العمل لفترة أطول، دون ألم أو تعب. لكن تلك الفكرة العابرة زالت.

معظم الناس لا يحبون التحسينات الطبية غير الضرورية، ولن يقبلوا بها إلا إذا كانت إلزامية لوظيفة ما. لا يولي المراقب اهتمامًا لتلك الاعتبارات العاطفية لسلامة الجسد أو تفضيل الطبيعية. فهو لا يحب التحسينات لأنه يرى أن الاعتماد عليها علامة ضعف. هو يعرف إنه سيهزم أعداءه بعقله، وبمساعدة تخطيطه وبصيرته. وليس بحاجة للاعتماد على الآلات.

لقد تعلم السرقة ثم النهب، وأخيرًا تعلم كيف يقتل من أجل المال. لكن المال كان في الحقيقة ثانويًّا، مجرد وسيلة لتحقيق غاية. كانت السيطرة هي ما يسعى إليها ويريدها. الرجل الوحيد الذي قتله كان محاميًا، شخصًا يكذب من أجل لقمة العيش. كان الكذب يجلب له المال، وهذا ما أعطاه القوة، وجعل الناس ينحنون له ويبتسمون له ويتحدثون معه باحترام. أحب المراقب تلك اللحظة التي تضرع له ذلك الرجل من أجل أن يرحمه، عندما كان بإمكانه أن يفعل أي شيء يريده المراقب. أخذ المراقب ما أراده من الرجل بشكل قانوني، بتفوقه العقلي وبقوته. ومع ذلك، قُبض على المراقب وأرسلوه إلى السجن بسبب ذلك. لا يمكن بأي شكل من الأشكال النظر إلى نظام يكافئ الكاذبين ويعاقب المراقب عادلًا.

ضغط على زر حفظ. لقد انتهى من هذا الفيديو.

معرفة الحقيقة منحت المراقب القوة، وسيجعل الآخرين يعترفون بذلك.

قبل أن تُقدم روث على خطوتها التالية، اتصل بها دانيال، واجتمعا مرة أخرى في مكتبها.

- لدي ما أردته.

أخرج دانيال حاسوبه المحمول وشغل فيديو به رسومًا متحركة.

- هل خُزنت مقاطع الفيديو على المحول؟

ضحك دانيال: «لا. لا يمكن للجهاز الرؤية حقًّا، كان ذلك ليحمل الكثير من البيانات. لا، لقد خزَّن المحول القياسات والأرقام. وقد صنعت الرسوم المتحركة من أجلك لتكون أسهل في الفهم».

أعجبت روث بما فعله، فالشاب يعرف كيف يقدم عرضًا جيدًا.

- إن تردد الواي فاي لا يُلتقط بدقة كافية ليمنحك تفاصيل كثيرة. لكن يمكنك الحصول على فكرة تقريبية عن أحجام الأشخاص وارتفاعاتهم وحركاتهم. هذا ما حصلت عليه في اليوم والتوقيت التي حددتهما».

شاهدا عندما ظهر شكل جسد إنسان، غير محدد تمامًا، عند باب شقة مونا، بالضبط في الساعة السادسة، والتقى بشكل جسد إنسان أصغر حجمًا، غير محدد.

قال دانيال: «يبدو أنهما كانا على موعد».

شاهدا بينما الشكل الأصغر يقود الشكل الأكبر إلى غرفة النوم، ثم يتعانقان. وشاهدا الشكل الأصغر يتسلق شيئًا، يُفترض أنه السرير. شاهدا الشكل الأكبر يتسلق بعده. وشاهدا إطلاق الرصاص، ثم انهيار الشكل الأصغر واختفائه. شاهدا الشكل الأكبر ينحني، ويومض الشكل الأصغر حركه الشكل الأكبر من حين لآخر.

فكرت روث: *إذًا كان هناك قاتل واحد فقط، وكان عميلًا.*

- كم يبلغ طوله؟

- هناك مقياس للطول على الجانب.

تابعت روث الرسوم المتحركة مرارًا وتكرارًا. يبلغ طول الرجل ستة أقدام وبوصتين أو ستة أقدام وثلاث بوصات، وربما يزن 180 إلى 200 رطل. لاحظت أنه يعاني من عرج بسيط أثناء المشي.

اقتنعت أن ليو كان يقول الحقيقة. فلا يوجد العديد من الرجال الصينيين الذين يبلغ طولهم ستة أقدام وبوصتين، ولن ترسل العصابات رجلًا بارزًا هكذا ليقتل. فسيتذكره كل شاهد. كان قاتل مونا أحد عملائها، لعله زبونًا منتظمًا. لم تكن مجرد سرقة عشوائية بل كانت مدبرة بعناية.

ما زال الرجل طليقًا، ونادرًا ما يقتل القتلة المتقنين مرة واحدة فقط.

قالت: «شكرًا لك. قد تكون ساهمت في إنقاذ حياة شابة أخرى».

اتصلت روث بقسم الشرطة.

- هل يمكنني التحدث إلى الكابتن برينان؟

ذكرت له اسمها، وحول مكالمتها، ثم سمعت صوت زوجها السابق، الذي بدا متعبًا وخشنًا: «كيف يمكنني مساعدتك؟».

شعرت بالامتنان لوجود المنظم. فكان صوته يعيد إليها ذكريات همساته الصباحية، وضحكاته العالية، وكلماته الرقيقة عندما كانا وحدهما، تلك الموسيقى التصويرية لعشرين عامًا من الحياة معًا، حياة ظنا أنها ستدوم حتى يموت أحدهما.

- أحتاج إلى خدمة.

لم يجب على الفور. تساءلت روث إن كانت مباشرة أكثر من اللازم، وهو أثر جانبي لترك المنظم يعمل طوال الوقت. لعلها كان يجب أن تبدأ بعبارة «كيف حالك؟».

وأخيرًا، تحدث: «ماذا هناك؟» كان صوته متحفظًا، لكنه حمل ألمًا متعبًا ومكبوتًا.

- أود استخدام بياناتك للدخول إلى قاعدة بيانات المركز القومي للمعلومات الجنائية.

صمت مرة أخرى.

- لماذا؟

- أنا أعمل على قضية مونا دينج. أظن أن هذا الرجل قد قتل من قبل وسيرتكب جريمة أخرى. لديه طريقة معينة. أريد أن أرى إذا كان هناك حالات مشابهة في مدن أخرى.

- هذا غير ممكن يا روث. أنت تعرفين ذلك. إضافة إلى أنه لا فائدة تُرجى من ذلك. لقد أجرينا كل عمليات البحث الممكنة، ولم نجد شيئًا مشابهًا. كان ذلك من عمل عصابة صينية تحمي أعمالها، الأمر بسيط هكذا. وحتى نحصل على الموارد اللازمة في وحدة العصابات للتعامل مع ذلك، فللأسف، سيتعين ترك هذه القضية حتى تهدأ لبعض الوقت.

سمعت روث ما لم يُقل. لطالما استهدفت العصابات الصينية أفراد مجتمعها. وإلى أن تتعرض بالأذى للسياح، دعونا نتركهم وشأنهم. لقد سمعت كلمات مماثلة كثيرًا عندما كانت في الشرطة وعبر ذلك عن مشاعرهم بالضبط. لم يستطع المنظم فعل أي شيء حيال بعض أنواع التحيز. إنه أمر منطقي تمامًا. وأيضًا خاطئ تمامًا.

- لا أعتقد ذلك. لدي مُخبر يقول إن العصابات الصينية ليس لها علاقة بذلك.

أصدر سكوت صوتًا ساخرًا: «نعم، بالطبع يمكنك أن تثقي بكلمات أحد مهربي البشر الصينيين! لكن دعينا لا ننسى الرسالة التي تركها والهاتف».

- الملاحظة مزيفة على الأرجح. وهل تعتقد حقًّا أن عضوًا في العصابة الصينية سيكون غبيًّا بما يكفي ليُدرك أن سجلات الهاتف ستكشفه ثم يقرر أن أفضل مكان لإخفائها هو حول مكان عمله؟

- من يدري؟ المجرمون أغبياء.

- الرجل منهجي للغاية لدرجة أنه لا يمكن أن يكون غبيًّا. إنه فخ مضلل.

- ليس لديك أي دليل على ذلك.

- لدي فيديو توضيحي عن الجريمة ووصف للمشتبه به. إن الرجل أطول من نوع الرجال الذي تستخدمه العصابات الصينية.

لفت هذا انتباهه.

- من أين حصلتِ عليه؟

- كان لدى أحد الجيران نظام استشعار حركة في منزله والتقط ترددات الإشارات اللاسلكية داخل شقة مونا. ودفعت المال لشخص ما ليعيد تشكيله.

- هل يمكن استخدام ذلك في المحكمة؟

- أشك في هذا. سيتطلب شهادة خبير، وسنضطر إلى إقناع الشركة بالاعتراف بأنهم يلتقطون تلك المعلومات. وسيقاتلون بشراسة.

- إذًا، لا يوجد الكثير لأستفيد منه.

- إذا منحتني فرصة للاطلاع على قاعدة البيانات، فقد أتمكن من تحويلها إلى شيء مفيد لك»، (انتظرت لثانية وواصلت آملة أن يتحرك إحساسه): «لم أطلب منك الكثير من قبل».

- هذه هي المرة الأولى التي تطلبين مني شيئًا كهذا.

- عادةً لا أتعامل مع قضايا مثل هذه.

- ما الذي يميز هذه الفتاة؟

فكرت روث في السؤال. هناك طريقتان للإجابة عليه. يمكنها أن تحاول شرح الأتعاب التي تتقاضاها وسبب شعورها بأنها تفعل شيئًا ذا مغزى. أو يمكنها تقديم السبب الذي تشك بأنه السبب الحقيقي. أحيانًا يجعلها المنظم تجد صعوبة في معرفة الحقيقة.

- يظن الناس أحيانًا أن الشرطة لا تبذل جهدًا كبيرًا عندما تكون الضحية عاملة في الجنس. أعلم أن مواردك محدودة، لكن ربما يمكنني المساعدة.

- إنها الأم، أليس كذلك؟ أنت تشعرين بالشفقة عليها.

لم تجب روث. يمكنها أن تشعر بالمنظم يعمل مرة أخرى. لولا وجوده، ربما كانت ستغضب.

- إنها ليست جيس يا روث. العثور على قاتلها لن يجعلك تشعرين بتحسن.

- أنا أطلب معروفًا. يمكنك ببساطة أن ترفض.

لم يتنهد سكوت أو يهمهم. بل ظل صامتًا ببساطة. ثم، بعد بضع ثوانٍ قال: «تعالي إلى المكتب في الساعة الثامنة. يمكنك استخدام الحاسوب الذي في مكتبي».

يرى المراقب نفسه زبونًا جيدًا؛ هو يحرص على الحصول على ما يستحقه مقابل المال الذي يدفعه، لكنه لا ينسى أن يترك بقشيشًا سخيًّا. يعجبه وضوح المال والطريقة التي يكشف بها تدفق القوة. كانت الفتاة التي غادرها للتو ممتنة بلا شك.

زاد من سرعة قيادته. شعر بأنه قد أسرف في تدليل نفسه خلال الأسابيع الماضية وعمل ببطء أكثر مما يجب. والآن، عليه أن يتأكد أن مَنْ استهدفهم مؤخرًا دفعوا المال. وإذا لم يفعلوا، فعليه اتخاذ الإجراءات اللازمة. لكل فعل رد فعل، يبدو كل شيء بسيطًا جدًّا عندما تفهم القواعد.

مرر يده على الضمادة التي تغطي إصبعه البنصر، التي تساعده في الحفاظ على بقعة الجلد الشاحبة التي تجذب الفتيات. أما العطر الحلو الذي تبقت آثاره من آخر فتاة، ميلودي، أو ماندي، لقد بدأ ينسى اسمها بالفعل، قد ذكَّره بتارا، التي لن تُمحى من ذاكرته أبدًا.

قد تكون تارا الفتاة الوحيدة التي أحبها حقًّا. كانت شقراء، صغيرة الحجم، وغالية الثمن جدًّا. لكنها كانت تحبه لسبب ما. ربما لأن كليهما كان محطمًا، وتوافقت أجزاؤهما المتكسرة بشكل غريب.

توقفت عن تقاضي المال وأخبرته باسمها الحقيقي. صار نوعًا ما حبيبها. ومن باب الفضول، شرحت له طبيعة عملها، وكيف أن بعض الكلمات أو العبارات أو نبرة الصوت على الهاتف تكون إشارات تحذيرية. كما أخبرته عما تبحث عنه في الزبائن الدائمين المفضلين، وما العلامات التي تشير إلى أن الرجل آمن. كان يستمتع بمعرفة هذه التفاصيل لأنها تتطلب مراقبة دقيقة من قبلها، وكان يحترم الأشخاص الذين يراقبون ويدرسون ويستخدمون المعلومات بشكل فعال.

نظر في عينيها عندما كان يمارس معها الجنس، ثم قال: «هل هناك خطب ما في عينك اليمنى؟».

توقفت عن الحركة.

- ماذا؟

- لم أكن متأكدًا في البداية. لكن نعم، يبدو وكأن هناك شيئًا خلف عينك.

تحركت قليلًا تحته، فشعر بالضيق وفكر في تقييد حركتها، لكنه قرر ألا يفعل. بدت وكأنها على وشك قول شيء مهم. واستدار مبتعدًا عنها.

- أنت شديد الملاحظة.

- أحاول. ما هو الأمر إذًا؟

أخبرته عن زراعة العين التي خضعت لها.

- هل كنت تصورين عملاءك أثناء ممارسة الجنس معك؟

- نعم.

- أريد رؤية التسجيلات التي تخصنا.

ضحكت وقالت: «سيكون عليّ الخضوع لجراحة لإخراجها. ولن يحدث ذلك حتى أتقاعد. ففتح جمجمتي مرة واحدة كان كافيًا».

شرحت له أن هذه التسجيلات جعلتها تشعر بالأمان ومنحتها إحساسًا بالقوة، مثل امتلاك حسابات مصرفية متزايدة لا يعرف أرصدتها أحد سواها. وإذا واجهت أي تهديد، فسيكون بإمكانها طلب المساعدة من الرجال النافذين الذين تعرفهم. وبعد تقاعدها، إذا ساءت الأمور وصارت بحاجة ماسة للمال، فلعل بإمكانها أن تستخدم تلك التسجيلات لتحصل على دعم من عملائها المعتادين.

أعجبته طريقتها في التفكير. كانت ماكرة، مثله تمامًا.

شعر بالأسف لقتلها. وكانت عملية فصل رأسها أكثر فوضوية وصعوبة مما تخيل. استغرقه الأمر شهورًا ليعرف ما عليه فعله بنصف الكرة الفضية الصغيرة. لكنه كان سيكتسب الخبرة مع مرور الوقت.

لكن تارا كانت غافلة عن الآثار المترتبة على ما فعلته. لم يكن ما تمتلكه مجرد تأمين أو صندوق للطوارئ، بل قد كشفت له عن أنها تملك ما يلزم لتحقيق حلمه، وكان يجب عليه أن يأخذه منها.

دخل موقف سيارات الفندق، وشعر بمشاعر غير مألوفة: الحزن. كان يفتقد تارا، كما يفتقد الشخص مرآة كسرها.

كانت روث تعمل وفقًا لفرضية أن الرجل الذي تبحث عنه يستهدف العاملات بالجنس المستقلات. فكان ثمة كفاءة ومنهجية في الطريقة التي قتل بها مونا تشير إلى أنه قد فعل ذلك من قبل.

بدأت روث بالبحث في قاعدة بيانات المركز القومي للمعلومات الجنائية عن العاملات في الجنس اللواتي قُتلن على يد مشتبه به يتوافق مع وصف إيكو سينس. وكما توقعت، لم تجد شيئًا يبدو مشابهًا. لم يترك القاتل أي آثار واضحة.

قد يمنحها التركيز على عيني مونا تلميحًا ما. فربما لدى القاتل ميول معينة تجاه النساء الآسيويات. غيرت روث بحثها لتركز على تشوهات الجسد التي تعرضت لها العاملات الآسيويات في الجنس، المشابهة لما حدث لمونا. لكن مرة أخرى، لم تجد شيئًا.

جلست روث تفكر في الأمر. من الشائع أن يركز القتلة المتسلسلون على ضحايا من عِرق معين. لكن قد يكون ذلك مضللًا في هذه الحالة.

وسعت بحثها ليشمل جميع العاملات بالجنس المستقلات اللواتي قُتلن في العام الماضي أو نحو ذلك، ووجدت الكثير من النتائج. ظهرت عشرات بل مئات من حالات قتل العاملات في الجنس بمختلف الأوصاف. تعرض معظمهن للاعتداء الجنسي. وبعضهن تعرضن للتعذيب. وكانت العديد من الجثث مشوهة. وقد سرق جميعهن تقريبًا. واشتبه في العصابات في عدة حالات. لكنها تفحصتها، لتبحث عن أوجه التشابه. ولم يتضح لها شيء.

كانت بحاجة إلى مزيد من المعلومات.

سجلت الدخول إلى مواقع المرافقة في مدن مختلفة وبحثت عن إعلانات النساء اللاتي قتلن. لم تعد جميع الإعلانات متاحة على الإنترنت، إذ تُقدم بعض المواقع على إلغاء الإعلانات عندما يتقدم عدد كافٍ من الزبائن بشكاوى عن عدم توفر المعلنات. طبعت ما استطاعت طباعته، ووضعت الأوراق جانبًا لتقارن بينها.

ثم لاحظت شيئًا ما. شيء موجود في الإعلانات.

لاحظت روث أن هناك تشابهًا بين مجموعة معينة من الإعلانات. فكانت جميعها مكتوبة بعناية، وخالية من الأخطاء الإملائية والنحوية. كانت صريحة

ولكن ليست فاحشة، مغرية دون أن تكون تمثيلية. وقد وصف الزبائن مجهولي الهوية الذين نشروا تقييماتهم هؤلاء النساء بأنهن راقيات.

أدركت روث أنها إشارة. لقد صُممت هذه الإعلانات لتظهر وكأنها حذرة، وانتقائية، وسرية. وتميزت بنوع من الذوق الرفيع، إن لم يكن هناك تعبير أفضل من ذلك.

كانت جميع النساء في هذه الإعلانات يتمتعن بجمال استثنائي، بجلد ناعم وشعر كثيف وطويل. وتراوحت أعمارهن جميعًا بين الثانية والعشرين والثلاثين، فلسن صغيرات بما يكفي ليكن متهورات أو ليعملن من أجل الدراسة، ولسن كبيرات بما يكفي ليفقدن قدرتهن على الظهور بشكل أصغر سنًّا. كن مستقلات تمامًا، دون وجود قواد أو أي دليل على تعاطي المخدرات.

ترددت في ذهنها كلمات ليو: *«الرجال الذين يذهبون إلى صالونات التدليك ويدفعون ستين دولارًا في الساعة مقابل الحصول على نهاية سعيدة ليسوا من النوع الذي سيدفع المال مقابل فتاة مثل هذه».*

فكرت روث أن هناك نوعًا معينًا من العملاء الذين قد ينجذبون للإعلانات التي تقدمها أولئك الفتيات: رجال يهتمون كثيرًا بألا يُكتشفوا ويعتقدون أنهم يستحقون شيئًا خاصًّا يناسب أذواقهم الرفيعة.

طبعت سجلات النساء.

كانت جميع النساء اللاتي تعرفت عليهن قد قُتلن في منازلهن. لم تكن هناك علامات تشير إلى وجود صراع جسدي، ربما لأن عملاءهن هم من قتلهن. تعرضت إحداهن للخنق، وأُطلق الرصاص على الأخريات في القلب من الخلف، مثل مونا. في جميع الحالات باستثناء واحدة، -المرأة التي خُنقت- وجدت الشرطة سجل مكالمات مشبوهة في يوم القتل من هاتف مسبق الدفع عُثر عليه لاحقًا في مكان ما في المدينة. وقد أخذ القاتل جميع أموال النساء.

تعلم روث أنها تسير في الاتجاه الصحيح. كانت بحاجة إلى فحص تقارير القضية بمزيد من التفصيل لمعرفة ما إذا كانت تستطيع اكتشاف أنماط أخرى لتحديد القاتل.

فُتح باب المكتب. كان سكوت.

- أما زلتِ هنا؟

أظهرت ملامح الغضب على وجهه أن المنظم مطفأ.

- لقد تجاوز الوقت منتصف الليل.

لاحظت روث، وليس للمرة الأولى، أن الرجال في القسم غالبًا ما كانوا يقاومون استخدام المنظم إلا عند الضرورة القصوى، مدعين أنه يُضعف غريزتهم وحدسهم. لكنهم أيضًا كانوا يسألونها عما إذا كان منظمها يعمل، متى تجرأت على الاختلاف معهم. كانوا يضحكون عندما يسألونها.

قالت بهدوء: «أعتقد أنني على وشك اكتشاف شيء مهم».

- هل صرت تعملين مع الفيدراليين اللعينين؟

- ماذا تقصد؟

- ألم تري الأخبار؟

- ظللت هنا طوال المساء.

أخرج حاسوبه اللوحي، وفتح رابطًا قد حفظه، وناوله لها. كان مقال في القسم الدولي من صحيفة «جلوب»، التي نادرًا ما تقرؤها. كان عنوان المقال: «فضيحة تؤدي لإقالة وزير النقل الصيني».

قرأت المقال بسرعة. وظهرت مقاطع من فيديو على المدونات الصينية الصغيرة وقد أظهرت مسؤولًا بارزًا في وزارة النقل يمارس الجنس مع بائعة هوى. وعلاوة على ذلك، اتضح أنه كان يدفع لها من الأموال العامة. وقد عُزل بالفعل من منصبه بسبب انتقادات الشعب.

كان المقال مصحوبًا بصورة غير واضحة، لقطة ثابتة من الفيديو. وقبل أن يعمل منظمها، شعرت روث بأن قلبها كاد يتوقف. أظهرت الصورة رجلًا فوق امرأة. وقد أدارت المرأة رأسها إلى الجانب، مباشرة نحو الكاميرا.

- هذه هي فتاتك، أليس كذلك؟

أومأت روث. وتعرفت على السرير والطاولة الجانبية والساعة وسلة الخوص من صور مسرح الجريمة.

- الصينيون غاضبون جدًّا. يظنون أننا كنا نراقب الرجل عندما كان في بوسطن وأننا نشرنا هذا الفيديو عمدًا لإثارة الفوضى. إنهم يحتجون عبر قنوات الاتصال السرية، ويهددون بالانتقام. والفيدراليون يريدون منا أن نحقق في الأمر لنعرف كيفية ظهور الفيديو. هم لا يعرفون أنها قد ماتت بالفعل، لكنني تعرفت عليها بمجرد رؤيتها. في رأيي، أظن أنه

من المحتمل أن الأمر برمته قد دبره الصينيون بأنفسهم للتخلص من الرجل كعملية تطهير داخلي. ولعلهم دفعوا المال للفتاة لتفعل ذلك، ثم قتلوها. أو ربما قرر عملاؤنا التخلص منها بعد استخدامها كطعم، وفي هذه الحالة، أتوقع أن يُقفل هذا التحقيق بسرعة. على أي حال، لا أتطلع إلى هذه الفوضى، وأنصحك بأن تبتعدي عنها أيضًا.

شعرت روث بالاستياء لبرهة قبل أن يزيل المنظم هذه المشاعر. إذا كانت وفاة مونا جزءًا من مؤامرة سياسية، فإن سكوت محق، فهي بالفعل خارج مجال تخصصها. لقد أخطأت الشرطة حين استنتجت أنها جريمة وقعت بفعل عصابة. لكنها مخطئة أيضًا. كانت مونا بيدقًا غير محظوظ في لعبة سياسية ما، والنمط الذي اعتقدت أنها لاحظته كان وهميًّا، مجرد مجموعة من المصادفات.

الشيء العقلاني هو ترك الشرطة تتولى الأمر. سيتعين عليها إخبار سارة دينج أنها لا يمكنها فعل شيء من أجلها.

- علينا أن نعيد تفتيش الشقة مرة أخرى بحثًا عن أجهزة تسجيل. ومن الأفضل أن تخبريني باسم مصدرك. سنحتاج إلى استجوابه بدقة لنعرف العصابات المتورطة فيما حدث. قد تكون هذه مسألة تتعلق بالأمن القومي.
- أنت تعرف أنه لا يمكنني فعل ذلك. ليس لدي أي دليل على أن له علاقة بذلك.
- روث، نحن نتولى الأمر الآن. إذا كنت تريدين العثور على قاتل الفتاة، ساعديني.
- لا تتردد في اعتقال جميع المشتبه بهم المعتادين في تشاينا تاون. هذا ما تريد فعله على أي حال.

حدق بها، وكان وجهه مرهقًا وغاضبًا، وهي تعبيرات تعرفها جيدًا. ثم استرخى وجهه. لقد قرر تفعيل منظمه، ولم يعد يرغب في الجدال أو الحديث عما لا يمكن قوله بينهما.

بدأ منظمها في العمل تلقائيًّا.

قالت بهدوء: «شكرًا لك على السماح لي باستخدام مكتبك. أتمنى لك ليلة سعيدة».

لقد جرت الفضيحة تمامًا كما خطط لها المراقب. شعر بالرضا، لكنه لم يكن مستعدًّا للاحتفال بعد. كانت هذه الخطوة الأولى فقط، دليلًا على قوته. والآن، عليه أن يضمن أن ذلك سيعود عليه بالفائدة.

استعرض التسجيلات والصور التي حصل عليها من الفتاة القتيلة واختار بعض الأهداف (الرجال) الواعدة بناءً على أبحاثه. كان اثنان من رجال الأعمال الصينيين البارزين لهما علاقة بكبار المسؤولين في الحزب، وأحدهما كان شقيق ملحق دبلوماسي هندي، واثنان آخران من أبناء عائلة آل سعود، يدرسان في بوسطن. من المدهش كيف أن الديناميكيات بين الأقوياء والناس الذين يحكمونهم متشابهة في جميع أنحاء العالم. وجد أيضًا مديرًا تنفيذيًّا بارزًا وقاضيًا في المحكمة العليا في ولاية ماساتشوستس، لكنه قرر أن يضعهما جانبًا. ليس لأنه وطني بشكل ما، ولكن لأنه شعر غريزيًّا أنه إذا قرر أحد ضحاياه الإبلاغ عنه بدلًا من الدفع، فسيكون في ورطة أقل بكثير إذا لم يكن الضحية أمريكيًّا. إضافة إلى ذلك، تواجه الشخصيات العامة الأمريكية صعوبة أكبر في تحريك الأموال بشكل سري، كما اتضح من تجربته مع اثنين من أعضاء مجلس الشيوخ في واشنطن، وهو ما كاد أن يكشف خطته بالكامل. وأخيرًا، من المفيد دائمًا أن يكون لديه قاضٍ أو شخص مشهور يمكن الاعتماد عليه في حالة تم القبض على المراقب.

الصبر، والانتباه للتفاصيل.

أرسل رسائله الإلكترونية، أشارت كل منها إلى المقالة التي عن وزير النقل الصيني («انظر، قد تجد نفسك في هذا الموقف!»)، وتضمنت ملفين. أحدهما هو الفيديو الكامل للوزير والفتاة (لإظهار أنه كان هو من بدأ الأمر)، والثاني هو فيديو مُعد بعناية للمتلقي وهو مع الفتاة. احتوت كل رسالة على مطلب بالدفع وإرشادات لوضع الودائع في حساب مصرفي سويسري رقمي أو لتحويل عملة مشفرة إلكترونية مجهولة.

عاد ليستعرض مواقع الإعلانات الخاصة بالمرافقات مرة أخرى. لقد ضيق نطاق البحث للفتيات اللاتي يشتبه فيهن ليختار عددًا قليلًا فقط. وصار كل ما عليه فعله هو النظر إليهن عن كثب لاختيار المناسبة. شعر بالإثارة حيال هذه الفرصة.

ألقى نظرة سريعة على الناس الذين يمشون بجانبه في الشوارع. جميع هؤلاء الرجال والنساء السذج يتحركون وكأنهم في حلم. لا يفهمون أن العالم ممتلئ بالأسرار التي لا يمكن الوصول إليها، إلا لأولئك الذين يتمتعون بالصبر والقدرة على الملاحظة للعثور عليها واستخراجها من أماكنها الدافئة والدامية، كما يُستخرج اللؤلؤ من لحم المحار الطري. ثم وبكل هذه الأسرار، يمكنهم جعل رجال في نصف الكرة الأرضية الأخرى يرتعدون ويرقصون بكلمة منهم.

أغلق الحاسوب المحمول ونهض ليرحل. فكر في ترتيب الفوضى التي في غرفة النزل، أخذ مجموعة الأدوات الجراحية، وقبعة البيسبول، والسلاح، وعددًا من المفاجآت الأخرى التي تعلَّم أن يأخذها معه عندما يذهب للصيد.

حان الوقت للبحث عن المزيد من الكنوز.

استيقظت روث. لقد انضمت الكوابيس القديمة إلى كوابيس جديدة. ظلت ملتفة في السرير تكافح أمواج اليأس. أرادت أن تبقى هنا إلى الأبد.

لقد قضت أيامًا في العمل، ولم تحصل على شيء مفيد.

عليها الاتصال بسارة دينج لاحقًا، بعد أن تشغل المنظم. يمكنها أن تخبرها إنه ربما مونا لم تُقتل على يد عصابة، بل انخرطت دون قصد في أحداث أكبر من قدراتها. كيف سيساعد ذلك سارة على الشعور بتحسن؟

لم تفارق ذهنها صور الأخبار التي رأتها بالأمس، مهما حاولت دفعها بعيدًا.

تململت روث وفتحت المقال. لا تستطيع تفسير ذلك، لكن بدا أن هناك خطبًا ما بالصورة. صعَّب عدم تشغيل المنظم عملية التفكير.

بحثت عن صورة مسرح الجريمة لغرفة نوم مونا وقارنتها بالصورة التي في المقال. أخذت تنظر ذهابًا وإيابًا.

أليست سلة الواقيات الذكرية على الجانب الخطأ من السرير؟

الصورة ملتقطة من الجانب الأيسر من السرير. لذا يجب أن تكون أبواب الخزانة، مع المرايا التي عليها، على الجانب البعيد من الصورة، خلف الرجل والمرأة. لكن لا يوجد سوى جدار فارغ خلفهما في الصورة.

تسارعت النبضات في قلب روث مما جعلها تشعر بالدوار.

أصدر المنبه صفيرًا. ونظرت روث إلى الأرقام الحمراء وشغلت المنظم.

الساعة.

عادت بنظرها إلى الصورة. كانت الساعة في الصورة صغيرة وغير واضحة، لكنها استطاعت تمييز الأرقام التي تظهر فيها، الأرقام مقلوبة.

سارت روث بثبات نحو الحاسوب المحمول وبدأت في البحث عن الفيديو عبر الإنترنت. وجدت الفيديو بسهولة ودون عناء وضغطت على زر التشغيل.

على الرغم من أن الفيديو كان واضحًا ومقصوصًا بعناية، فكان بإمكانها أن ترى أن عيني مونا كانتا تنظران مباشرة إلى الكاميرا طوال الوقت.

لا يوجد تفسير آخر: كانت الكاميرا موجهة نحو المرايا، وكانت موضوعة في عين مونا.

العينان.

راجعت سجلات النساء الأخريات التي طبعتها بالأمس، وبدا لها أن النمط الذي كان بعيد المنال قد صار واضحًا.

كانت هناك شقراء في لوس أنجلوس فُصلت رأسها بعد موتها ولم يُعثر عليه قط، وامرأة سمراء، أيضًا في لوس أنجلوس، تهشمت جمجمتها وحطم دماغها، وتعرض وجه امرأة مكسيكية وأخرى سوداء في واشنطن العاصمة لإصابات بعد الوفاة بطرق أقل فوضوية، حيث هشمت عظام وجهيهما، وأخيرًا مونا التي أزيلت عيناها بعناية.

لقد كان القاتل يضفي التحسينات على أسلوبه.

كبح المنظم تلك الحماسة التي شعرت بها. كانت بحاجة إلى مزيد من المعلومات.

تفقدت جميع صور مونا مرة أخرى. لم تجد شيئًا غير طبيعي في الصور السابقة، ولكن في الصورة التي التُقطت في عيد ميلادها مع والديها، استخدم فلاش، وكان هناك بريق غريب في عينها اليسرى.

يمكن لمعظم الكاميرات أن تحسن تلقائيًا من ظاهرة «العين الحمراء»، التي تحدث بسبب انعكاس ضوء الفلاش على المشيمية الغنية بالدم في

مؤخرة العين. لكن البريق الذي كان في صورة مونا ليس أحمر، بل يميل إلى الزرقة.

بهدوء، تصفحت روث صور الفتيات الأخريات اللاتي قتلن. وفي كل صورة، وجدت ذلك البريق المميز. بالتأكيد كانت هذه هي الطريقة التي يختار بها القاتل أهدافه.

التقطت الهاتف واتصلت برقم صديقتها. درست هي وجيل في الجامعة معًا، وصارت جيل تعمل باحثة في شركة للأجهزة الطبية المتقدمة.

- مرحبًا؟

سمعت همهمة الناس في الخلفية.

- جيل، أنا روث. هل يمكنك التحدث؟

- لحظة واحدة.

تلاشى صوت المحادثة التي تدور في الخلفية حتى انقطعت فجأة.

- أنتِ لا تتصلين إلا لتسألي عن تحسين جديد. نحن لا نصغر سنًا، هل تعلمين ذلك؟ يجب أن تتوقفي عند نقطة ما.

كانت جيل هي من اقترحت مختلف التحسينات التي حصلت عليها روث على مر السنين. حتى أنها وجدت لها الدكتور ب، لأنها لم ترد أن تنتهي روث بإعاقة ما. لكنها فعلت ذلك على مضض، معارضة فكرة تحويل روث إلى إنسان آلي.

كانت تقول: «يبدو هذا يبدو خاطئًا. أنت لا تحتاجين إلى هذه الأشياء. إنها ليست ضرورية طبيًّا».

وكانت روث ترد: «قد ينقذ هذا حياتي في المرة التالية التي يحاول فيها أحدهم خنقي.

فتعترض جيل:» الأمر ليس نفسه»، ودائمًا ما تنتهي المحادثات باستسلام جيل، لكن مع تحذيرات صارمة بعدم إجراء أي تحسينات إضافية.

أحيانًا، تساعد صديقك حتى عندما لا توافق على قراراته. الأمر معقد.

ردت روث على جيل عبر الهاتف قائلة: «لا، أنا بخير. لكني أريد أن أعرف إذا كنت تعرفين نوعًا جديدًا من التحسينات. سأرسل لك بعض الصور الآن. انتظري».

أرسلت الصور للفتيات اللاتي لاحظت ذاك اللمعان الغريب في أعينهن.

- انظري إلى هذا. هل ترين الوميض في أعينهن؟ هل تعرفين شيئًا عن هذا؟».

لم تخبر روث جيل بشكوكها حتى لا تتأثر إجابتها.

بقيت جيل صامتة لبعض الوقت.

- أرى ما تعنينه. هذه الصور ليست واضحة تمامًا. لكن دعيني أتحدث مع بعض الأشخاص وسأعاود الاتصال بك».

- لا ترسلي الصور الكاملة. أنا في وسط تحقيق. فقط قصّي العيون إذا استطعتِ.

أغلقت روث الهاتف. وشعرت بالمنظم يبذل جهدًا إضافيًّا. ثمة شيء فيما قالته -قص عيون الفتيات- أثار لديها شعورًا بالغثيان، وهو ما يحاول المنظم كبحه. لم تعرف من سبب ذلك. فبوجود المنظم، يصعب أحيانًا رؤية الروابط بين الأشياء.

وفي أثناء انتظارها لاتصال جيل، بدأت روث في تصفح الإعلانات النشطة على الإنترنت في بوسطن مرة أخرى. يتبع القاتل نمطًا في قتل عدد قليل من الفتيات في كل مدينة قبل أن ينتقل. وبالتأكيد هو في مهمة البحث عن ضحية أخرى هنا. وأفضل طريقة للإيقاع به هي أن تعثر عليها قبل أن يصل إليها.

انتقلت روث بين إعلان وآخر، مرت المشاهد أمامها بلا معنى، ركزت فقط على عيونهن. وأخيرًا، رأت ما كانت تبحث عنه. استخدمت الفتاة اسم كاري، وكان شعرها أشقر داكنًا وعيناها خضراوتين. كان إعلانها منمقًا، وواضحًا، ومكتوبًا بشكل ذكي، مثل لافتة أنيقة وسط بحر من الأضواء النيون المتلألئة. أظهر التاريخ الموجود على الإعلان أنها أجرت عليها تعديلات قبل اثنتي عشرة ساعة فقط. من المرجح أنها ما زالت على قيد الحياة.

اتصلت روث بالرقم المدرج.

- مرحبًا، هنا كاري. من فضلك اترك رسالة.

كما توقعت، كانت كاري تفحص مكالماتها.

- مرحبًا، اسمي روث لو، وقد رأيت إعلانك. أود تحديد موعد معك.

ترددت لبرهة، ثم أضافت: «هذه ليست مزحة. أريد حقًّا رؤيتك».

تركت رقم هاتفها وأنهت المكالمة.

رن الهاتف على الفور تقريبًا. والتقطت روث السماعة، لكنها لم تكن كاري، بل جيل.

- سألت بعض الأشخاص، وأخبروني إن الفتيات ربما يضعن نوعًا جديدًا من شبكية مزروعة. لم تحصل على موافقة إدارة الغذاء والدواء بعد، لكن بالطبع، يمكنك الذهاب للخارج وتركيبها إذا كنت على استعداد لدفع ما يكفي من المال.

- وما وظيفتها؟

- إنها كاميرات خفية.

- وكيف تحصلين على الصور والفيديوهات منها؟

- لا يمكنك ذلك. لا توجد بها أي اتصالات لاسلكية مع العالم الخارجي. في الواقع، هي محصنة بحيث ينبعث منها أقل قدر ممكن من الإشارات الكهرومغناطيسية، مما يجعلها غير قابلة للكشف بواسطة ماسحات الكاميرات. والاتصال اللاسلكي سيكون طريقة أخرى لاختراقها. وكل المعلومات المخزنة موجودة داخل الجهاز نفسه. لاسترجاع المحتويات، يجب عليك إجراء عملية جراحية مرة أخرى. وهو ليس شيئًا يرغب فيه معظم الناس، إلا إذا كنت تحاولين تصوير أشخاص لا يريدونك أن تصوريهم أبدًا».

فكرت روث: *عندما تكونين يائسة لدرجة أن تظني أن هذا ما سيوفر لك الأمان. لعله ضمان للمستقبل.*

ولا توجد أي طريقة للحصول على التسجيلات إلا بفتح جسد الفتاة.

- شكرًا لك.

- لا أعرف فيما تورطتِ يا روث، لكنك صرت أكبر سنًّا من أن تنخرطي في مثل هذه الأمور. هل ما زلتِ تتركين المنظم يعمل طوال الوقت؟ هذا ليس صحيًا».

- ألا أعرف ذلك؟

ثم غيرت الموضوع لتتحدث عن أطفال جيل. يسمح لها المنظم بإجراء هذه المحادثة دون ألم. وبعد وقت مناسب، ودعتها وأنهت المكالمة.

رن الهاتف مرة أخرى.

- أنا كاري. لقد اتصلت بي.

حاولت روث أن تجعل صوتها يبدو خفيفًا، غير مكترث: «نعم».

بدا صوت كاري مثيرًا ولكن حذرًا في الوقت نفسه: «هل تريدين موعدًا لك أنتِ وحبيبك أو زوجك؟».

- لا، لي فقط.

أحكمت قبضتها على الهاتف، وهي تعد الثواني. كانت تحاول أن تجعل كاري لا تُنهي المكالمة.

- وجدت موقعك. أنتِ محققة خاصة، أليس كذلك؟

كانت روث تعرف أنها ستفعل ذلك.

- بلى، أنا كذلك.

- لا يمكنني إخبارك بأي شيء عن أي من عملائي. عملي يعتمد على السرية.

- لن أسألك عن عملائك. أريد فقط أن أراك.

فكرت روث بجدية في كيفية كسب ثقة كاري. جعلها المنظم تجد صعوبة في ذلك، صارت غير معتادة على المشاعر والأحكام والانطباعات. ورأت أن الحقيقة ستبدو غريبة وصادمة جدًّا وقد لا تقتنع بها. لذا، حاولت بطريقة بأخرى شيئًا.

- أنا مهتمة بتجربة أشياء جديدة. أظن أن هذا شيء لطالما أردت تجربته ولم أفعل.

- هل تعملين لصالح الشرطة؟ أصرح الآن في هذه المكالمة بأنكِ تدفعين لي مقابل الرفقة فقط، وأي شيء يحدث بعد ذلك هو قرار بين بالغين يوافقان عليه معًا.

- اسمعيني. الشرطة لن تستخدم امرأة للإيقاع بك. سيكون ذلك مشبوهًا جدًّا.

أخبرها الصمت إن كاري مهتمة.

- متى تحبين أن نلتقي إذًا؟

- بمجرد أن تكوني متاحة. ماذا عن الآن؟

- لسنا بعد الظهيرة بعد. لا أبدأ العمل قبل السادسة مساءً.

لم ترد روث أن تضغط عليها كثيرًا فتخيفها.

- إذًا، أود أن تكوني معي طوال الليل.

ضحكت.

- لماذا لا نبدأ بساعتين كموعد أول؟

- سيكون ذلك جيدًا.

- هل رأيت أسعاري؟

- نعم. بالطبع.

- التقطي صورة لنفسك وأنتِ تحملين هويتك، وأرسليها لي أولًا حتى أعرف أنكِ حقيقية. إذا كان الأمر صحيحًا، فيمكنكِ الذهاب إلى زاوية شارعي فكتوري وبيتش في حي باك باي في بوسطن عند السادسة مساء، واتصلي بي مرة أخرى. ضعي النقود في ظرف عادي.

- سأفعل ذلك.

- أراكِ قريبًا يا عزيزتي.

ثم أنهت المكالمة.

حدقت روث في عيني الفتاة. بعد أن تعرفت على ما تبحث عنه، رأت أنها تستطيع رؤية لمحة خفيفة من اللمعان في عينها اليسرى.

سلمتها النقود وشاهدتها وهي تعدها. كانت جميلة جدًّا، وصغيرة جدًّا. ذكرتها الطريقة التي تتكئ بها على الجدار بجيس. تدَّخل المنظم.

كانت ترتدي قميصًا ضيقًا من الدانتيل، مع جوارب سوداء وحمالات جوارب. وصنادل مزينة بالريش ذات كعب عالٍ بدت فكاهية أكثر منها مثيرة.

وضعت كاري النقود جانبًا وتبتسم لها.

- هل تريدين أن تقودي أم أبدأ أنا؟ أنا موافقة على أي من الخيارين.

أجابت روث: «أفضل أن نتحدث قليلًا في البداية».

عبست كاري.

قلت لك إنني لا أستطيع التحدث عن عملائي.

- أعلم. لكنني أريد أن أريك شيئًا.

هزت كاري كتفيها وقادتها إلى غرفة النوم. كانت تشبه غرفة نوم مونا كثيرًا: سرير بحجم كبير، وأغطية بلون كريمي، ووعاء زجاجي مملوء بالواقيات الذكرية، وساعة موضوعة بشكل غير بارز على طاولة السرير. والمرآة مثبتة على السقف.

جلسا على السرير. وأخرجت روث ملفًا وناولت كاري مجموعة من الصور.

- قُتلت جميع هؤلاء الفتيات في العام الماضي. وجميعهن لديهن الزرع نفسه الذي لديك.

حدقت كاري بها، مصعوقة. طرفت عينيها مرتين بسرعة.

- أعلم ما لديك خلف عينك. وأعلم أنك تظنين أنه يجعلك أكثر أمانًا. ولعلك تظنين أيضًا أن المعلومات التي هناك يمكنها أن تكون مصدرًا ثانيًا للدخل، عندما تبلغين من العمر ما يكفي لترك هذا العمل. لكن هناك رجل يريد أن يستأصل ذلك الجزء منك. لقد فعل الشيء نفسه مع الفتيات الأخريات.

أرتها صور مونا الميتة، بوجهها الممزق والممتلئ بالدماء.

ألقت كاري الصور.

- اخرجي. سأستدعي الشرطة.

وقفت والتقطت هاتفها.

لم تتحرك روث.

- يمكنك ذلك. اطلب التحدث إلى الكابتن سكوت برينان. هو يعرف من أنا، وسيؤكد ما قلته لك. أعتقد أنك الهدف التالي.

ترددت.

تابعت روث: «أو يمكنك فقط أن تنظري إلى هذه الصور. أنت تعرفين ما ستبحثين عنه. كانوا جميعًا مثلك. ”

جلست كاري وتفحصت الصور.

- يا إلهي. يا إلهي.

- أعرف أنه ربما لديك مجموعة من الزبائن المنتظمين. وبأسعارك، لا تحتاجين إلى زبائن جدد، ولن تحصلي عليهم كثيرًا. لكن هل تعاملت مع أي شخص جديد في الآونة الأخيرة؟

- أنت وواحد آخر فقط. سيأتي في الثامنة.

بدأ منظم روث العمل بقوة.

- هل تعرفين شكله؟

- لا. لكنني طلبت منه أن يتصل بي عندما يصل إلى زاوية الشارع، مثلك تمامًا، حتى أتمكن من إلقاء نظرة عليه أولًا قبل أن أدعه يصعد.

أخرجت روث هاتفها.

- أحتاج إلى الاتصال بالشرطة.

- لا! ستتسببين في اعتقالي. أرجوك!

فكرت روث في هذا. كانت تخمن فقط أن هذا الرجل قد يكون القاتل. إذا تدخلت الشرطة الآن وتبين أنه مجرد زبون، ستدمر حياة كاري.

- إذًا، سأحتاج لرؤيته بنفسي، في حال كان هو الشخص المطلوب.

- ألا ينبغي أن ألغي الموعد؟

سمعت روث الخوف في صوت الفتاة، وذكرها ذلك بجيس أيضًا، عندما كانت تطلب منها أن تبقى معها في غرفتها بعد مشاهدة فيلم مخيف. شعرت ببدء تأثير المنظم مرة أخرى. لا يمكنها أن تدع مشاعرها تعرقل الأمور.

- قد يكون ذلك أكثر أمانًا بالنسبة لك، لكننا سنفقد الفرصة للقبض عليه إذا كان هو الشخص المطلوب. أرجوك، أحتاج إلى أن تمضي قدمًا في الموعد حتى أتمكن من رؤيته عن قرب. قد تكون هذه أفضل فرصة لدينا لإيقافه عن إيذاء الآخرين.

عضت كاري على شفتيها السفلية.

- حسنًا. أين ستختبئين؟

تمنت روث لو أنها أحضرت مسدسها، لكنها لم ترغب في إخافة كاري، ولم تتوقع الحاجة للقتال. ستحتاج إلى أن تكون قريبة بما يكفي لإيقاف الرجل إذا تبين أنه القاتل، ومع ذلك ليس على مقربة كبيرة لدرجة تسهيل اكتشافها.

- لا أستطيع الاختباء هنا على الإطلاق. سيتفقد المكان قبل أن يدخل غرفة النوم معك.

ذهبت روث إلى غرفة المعيشة، التي تقع في مواجهة الجزء الخلفي من المبنى، بعيدًا عن الشارع، وفتحت النافذة.

- يمكنني الاختباء هنا، معلقةً من الحافة. إذا كان هو القاتل، سأنتظر حتى اللحظة الأخيرة للدخول لمنع هروبه. وإذا لم يكن القاتل، سأقفز وأغادر.

كان من الواضح أن كاري ليست مرتاحة مع هذه الخطة، لكنها أومأت، محاولة أن تكون شجاعة.

- تصرفي بشكل طبيعي قدر الإمكان. لا تجعليه يظن أن هناك شيئًا خاطئًا.

رن هاتف كاري. ابتلعت ريقها وضغطت على زر الرد. ذهبت إلى نافذة غرفة النوم. وتبعتها روث.

- أنا كاري.

نظرت روث من النافذة. بدا أن طول الرجل الذي يقف عند الزاوية يشبه طول المشتبه به، لكن لم يكن هذا كافيًا لتأكيد هويته. يجب أن تقبض عليه وتحقق معه.

- أنا في المبنى المكون من أربعة طوابق على بعد مئة قدم خلفك تقريبًا. اصعد إلى الشقة رقم 303. أنا سعيدة جدًّا لأنك جئت يا عزيزي. سنقضي وقتًا رائعًا، أعدك بذلك.

ثم أنهت المكالمة.

بدأ الرجل في السير نحو هذا الاتجاه. شعرت روث أنه يعرج في مشيته، لكنها مرة أخرى، لم تكن متأكدة.

سألتها كاري: «هل هذا هو؟».

- لا أعلم. يجب أن ندعه يدخل ونرى.

شعرت روث بخفقان المنظم. كانت تعرف أن فكرة استخدام كاري كطُعم تُخيفها، بل وتثير اشمئزازها حتى. لكن هذه هي الطريقة المنطقية. لن تحصل على فرصة مثل هذه مرة أخرى. يجب أن تثق أنها تستطيع حماية الفتاة.

- سأخرج من النافذة. أداؤك رائع. فقط استمري في الحديث معه وافعلي ما يريد. اجعليه يشعر بالراحة ويركز عليك. سأدخل قبل أن يتمكن من إيذائك. أعدك.

ابتسمت كاري وقالت: «أنا بارعة في التمثيل».

اتجهت روث إلى نافذة غرفة المعيشة وتسلقت الحافة بخفة. أنزلت جسدها، مُعلقة بحافة النافذة من أصابعها حتى تكون غير مرئية لمن داخل الشقة.

- أغلقي النافذة. واتركي شقًّا صغيرًا مفتوحًا، حتى أتمكن من سماع ما يحدث بالداخل».

- كم من الوقت يمكن أن تبقي معلقة هكذا؟

- لوقت طويل بما يكفي.

أغلقت كاري النافذة. شعرت روث بالامتنان للأوتار الاصطناعية والأجهزة التي في كتفيها وذراعيها والأصابع المعززة التي تحملها. كان الغرض منها جعلها أكثر فاعلية في القتال عن قرب، لكنها باتت مفيدة عندئذ أيضًا.

بدأت في عد الثواني. بالتأكيد صار الرجل عند المبنى ... يصعد السلم ... عند الباب.

سمعت صوت الباب يفتح.

جاء صوته قويًّا وعميقًا ومُرضيًا: «أنت أجمل من صورك».

- شكرًا لك.

سمعت المزيد من الحديث، وتبادل النقود. ثم صوت المزيد من المشي.

اتجها نحو غرفة النوم. واستطاعت أن تسمع خطوات الرجل تتوقف لينظر إلى الغرف الأخرى. كاد بإمكانها أن تشعر بنظراته تمر فوق رأسها، إلى خارج النافذة.

رفعت روث نفسها ببطء وهدوء، ونظرت إلى الداخل. رأت الرجل يختفي في الردهة. هناك عرج واضح في مشيته.

انتظرت بضع ثوانٍ أخرى حتى لا يتمكن الرجل من العودة بسرعة قبل أن تصل إلى الردهة لتسد الطريق، ثم تأخذ نفسًا عميقًا وتتمنى أن يضخ المنظم الأدرينالين في دمها. بدا أن العالم يزداد سطوعًا، والزمن يتباطأ وهي تشد ذراعيها وتسحب نفسها إلى حافة النافذة.

جلست القرفصاء وفتحت النافذة في حركة سريعة.

أدركت أن صوت الصرير سينبه الرجل، وكان لديها بضع ثوانٍ فقط للوصول إليه. انحنت وتدحرجت عبر النافذة المفتوحة إلى داخل الغرفة. ثم واصلت التدحرج صارت قدماها تحتها وفعَّلت المكابس التي في ساقيها لتقفز نحو الردهة.

هبطت وتدحرجت مرة أخرى لتتجنب أن تكون هدفًا واضحًا له، ثم قفزت مرة أخرى من وضع الانحناء إلى غرفة النوم.

أطلق الرجل الرصاص، وأصابت الرصاصة كتفها اليسرى. تصدت له ورفعت ذراعيها لأعلى لتصطدم بمنطقة وسطه وهو يندفع نحوها. سقط على الأرض، وسقط سلاحه مصدرًا صوتًا مدويًا.

بدأ الألم الناتج عن الرصاصة في العمل. حفزت المنظم ليضخ الأدرينالين والإندورفينات لتخفيف الألم. تنفست بصعوبة وركزت على القتال من أجل حياتها.

حاول أن يقلبها باستخدام قوة جسده الأضخم ليثبتها على الأرض، لكنها أحكمت قبضتها حول عنقه وضغطت عليه بشدة. لطالما قلل الرجال من مقدار قوتها في بداية القتال، وكان عليها أن تستغل ذلك. كانت تعرف أن قبضتها تشبه المشابك الحديدية حوله، بسبب تنشيط جميع خلايا الطاقة المزروعة في ذراعيها ويديها على أقصى طاقة. عبس وجهه، وهو يمسك بيدها محاولًا انتزاعها. وبعد بضع ثوانٍ، أدرك عبث محاولته وتوقف عن المقاومة.

حاول أن يتحدث، لكنه لم يستطع أن يسحب نفسًا في رئتيه. خففت روث الضغط قليلًا، وقال بصوت مختنق: «لقد أمسكت بي».

زادت روث الضغط مرة أخرى، مانعة إمداده من الهواء. والتفتت إلى كاري، التي تقف عند طرف السرير، متصلبة: «اتصلي بالشرطة. الآن».

أطاعتها كاري. ثم استمرت في وضع الهاتف على أذنها كما أمرها موظف الطوارئ، وقالت روث: «هم في الطريق».

شعرت روث بارتخاء جسد الرجل وهو مغمض العينين. فتركت عنقه. لم تكن تريد قتله، لذا أحكمت قبضتها حول معصميه وهي تجلس على ساقيه، مثبتة إياه على الأرض.

استعاد وعيه وبدأ يئن: «ستكسرين ذراعي!».

خففت روث الضغط قليلًا لتحافظ على قوتها. نزف أنفه جراء سقوطه على الأرض عندما هاجمته. تنفس بشدة، وابتلع ريقه، وقال: «سأختنق إذا لم تتركيني أجلس».

فكرت روث في هذا. خففت الضغط أكثر وسحبته إلى وضعية الجلوس.

شعرت بأن خلايا الطاقة في ذراعيها تنفد. لن يكون لها أفضلية القوة الجسدية لفترة طويلة إذا استمرت في تقييده بهذه الطريقة.

نادت كاري: «تعالي إلى هنا واربطِي يديه معًا».

وضعت كاري الهاتف وجاءت بحذر.

- ماذا أستخدم؟

- أليس لديك أي حبل؟ كالذي تستخدمينه مع عملائك؟

- لا أفعل هذا النوع من الأشياء.

فكرت روث.

- يمكنك استخدام الجوارب.

كانت كاري تربط يدي ورجلي الرجل معًا أمامه عندما سعل. ودخل بعض من الدماء في مجرى التنفس الخاطئ. ظلت روث غير متأثرة ولم تخفف الضغط. قال وهو يتألم: «تبًّا لكِ. يا لك من سافلة روبوتية مجنونة».

تجاهلت روث ما قاله. كانت الجوارب مرنة جدًّا ولن تستطيع تقييده لفترة طويلة. لكنها بالتأكيد ستؤدي الغرض لفترة تمكنها من الحصول على المسدس وتوجيهه نحوه.

تراجعت كاري إلى الجانب الآخر من الغرفة. تركت روث الرجل وابتعدت عنه متجهة نحو المسدس على الأرض، الذي يبعد عنها بضع خطوات، وقد أبقت عينيها عليه. إذا صدرت منه أي حركات مفاجئة، ستتمكن من العودة إليه بسرعة.

ظل الرجل ممددًا ولا يتحرك وهي تتراجع للخلف. بدأت في الاسترخاء. حاول منظمها تهدئتها، لتصفية الأدرينالين من نظامها.

عندما صارت في منتصف الطريق تقريبًا نحو المسدس، فجأة أدخل الرجل يده في معطفه مع بقاء يديه مقيدتين معًا. ترددت روث لثانية واحدة فقط قبل أن تدفع ساقيها لتقفز إلى الوراء نحو المسدس.

في أثناء هبوطها، وجد الرجل شيئًا داخل معطفه، وفجأة شعرت روث بأن ساقيها وذراعيها صارتا غير قادرتين على الحركة، وسقطت على الأرض، مذهولة.

صرخت كاري: «عيني! يا إلهي، لا أستطيع الرؤية بعيني اليسرى!».

بدا أن روث لا تستطيع الشعور بساقيها على الإطلاق، وشعرت بأن ذراعيها مصنوعتين من المطاط. والأسوأ من ذلك كله، أنها شعرت بالذعر. بدا أنها لم تشعر بهذا القدر من الخوف أو الألم من قبل. حاولت أن تشعر بوجود المنظم، لكن لا شيء، مجرد فراغ. استطاعت أن تشم رائحة حلوة ومريرة من الإلكترونيات المحترقة في الهواء. أظلمت الساعة التي على المنضدة.

كانت هي من أخطأ في تقدير قدراته. غمر اليأس قلبها، ولم يوجد ما يمنع ذلك.

سمعت روث الرجل يتعثر وهو يقوم من على الأرض. حاولت أن تجبر نفسها على التقلب، على الحركة، على الوصول إلى المسدس. زحفت. قدم واحدة، ثم القدم الأخرى. شعرت كأنها تتحرك عبر بحيرة من العسل الأسود لأنها كانت ضعيفة جدًّا. شعرت بثقل كل عام من أعوامها التسعة والأربعين. شعرت بكل وخزة حادة من الألم في كتفها.

مدت يدها إلى المسدس، أمسكته، وجلست مستندة إلى الجدار، مشيرة به إلى وسط الغرفة.

تمكن الرجل من تحرير نفسه من أربطة كاري غير الفعالة. وأمسك بكاري، عمياء العين، حاميًا جسده بجسدها. وضع مشرطًا جراحيًّا على حلقها. لقد أحدث بالفعل جرحًا في الجلد، وتدفق سيل رقيق من الدم على رقبتها.

تراجع نحو باب غرفة النوم، ساحبًا كاري معه. كانت روث تعرف أنه إذا وصل إلى باب غرفة النوم واختفى عند الزاوية، فلن تتمكن من الإمساك به أبدًا. لقد كانت ساقاها عديمتي الفائدة تمامًا.

رأت كاري مسدس روث وصرخت: «لا أريد أن أموت! يا إلهي. يا إلهي».

قال وهو يبقي رأسه مخفيًّا خلف رأسها: «سأتركها تذهب بمجرد أن أكون في أمان».

كانت يدا روث ترتجف وهي تمسك المسدس. من خلال موجات الغثيان وضربات نبضها في أذنيها، صارعت لتفكر فيما سيحدث بعد ذلك. كانت

الشرطة في طريقها ومن المحتمل أن تصل في غضون خمس دقائق. أليس من المحتمل أن يتركها تذهب في أسرع وقت ممكن ليمنح نفسه بعض الوقت الإضافي للهروب؟

تراجع الرجل خطوتين أخريين، لم تعد كاري تصارع أو تقاوم، بل كانت تحاول العثور على نقطة ارتكاز على الأرض الملساء بقدميها المنزلقتين، كانت تتعاون معه. لكنها لم تستطع التوقف عن البكاء.

أمي، لا تطلقي الرصاص! أرجوك لا تطلقي الرصاص!

أم أن الأكثر احتمالًا أنه سيذبح كاري بمجرد أن يغادر الغرفة ويستأصل عينيها؟ فقد كان يعلم أن هناك تسجيلًا يريده بداخل الزرع، ولا يمكنه تحمل تركه خلفه.

ارتعشت يد روث بشكل مفرط. رغبت في أن تسب نفسها. لم يكن بإمكانها الحصول على زاوية واضحة لتصوب المسدس على الرجل مع وجود كاري أمامه. لم تكن تستطيع ذلك.

أرادت روث أن تقيِّم الفرص بشكل منطقي، وأن تتخذ قرارًا، لكن مشاعر الندم والحزن والغضب، التي كانت مخبأة ومقموعة بواسطة المنظم حتى يمكن تحملها، صارت تتصاعد بشكل أكثر حدة، وقد حافظت تلك المشاعر كلها على قوتها بفضل الجهد المبذول في النسيان. لقد تقلص الكون في الحافة المرتعشة التي في طرف المسدس: شابة، وقاتل، ووقت يتسرب بلا رجعة.

لم يكن لدى روث ما تلجأ إليه، لا شيء يمكنها أن تثق به أو تعتمد عليه سوى نفسها، نفسها الغاضبة، والخائفة، والمرتجفة. كانت عارية ووحيدة، كما كانت تعلم دائمًا أنها كذلك، كما نحن جميعًا.

كاد الرجل يصل إلى الباب، وتحولت صرخات كاري إلى شهقات متقطعة.

كانت هذه هي الحالة الطبيعية دائمًا. لا وضوح، ولا راحة. في نهاية ما هو منطقي، لا يمكن التخلي عن الحاجة إلى اتخاذ قرار والإيمان بالقدرة على التحمل والبقاء.

أطلقت روث الرصاصة الأولى التي أصابت فخذ كاري. اخترقت الرصاصة جلدها، وعضلاتها، ودهونها، وخرجت من الخلف محطمة ركبة الرجل.

صرخ الرجل وسقط المشرط من يده. سقطت كاري على الأرض، واندفع رشاش من الدماء من جرح ساقها.

أصابت طلقة روث الثانية صدر الرجل، فانهار على الأرض.

أمي! أمي!

ألقت روث المسدس وزحفت نحو كاري، احتضنتها واعتنت بجرحها. كانت كاري تبكي، لكنها ستكون بخير.

شعرت بألم عميق وجارف يغمرها كالمغفرة، كمطر غزير بعد جفاف طويل. لم تعلم ما إذا كانت ستنال الراحة أخيرًا، لكنها قررت أن تعيش هذه اللحظة بكل كيانها، وأن تشعر بالامتنان.

قالت وهي تمسد شعر كاري برفق وهي ترقد في حضنها: «سيكون كل شيءعلى ما يرام. سيكون كل شيء على ما يرام».

***

ملاحظة المؤلف: تقنية إيكو سنس المذكورة في هذه القصة هي استقراء حر وواسع للمبادئ الكامنة وراء التكنولوجيا الموضحة في الورقة البحثية التي قد كتبها ڤيفان بو وآخرون بعنوان «التعرف على التحركات في جميع أنحاء المنزل باستخدام الإشارات اللاسلكية» في المؤتمر الدولي التاسع عشر للحوسبة المتنقلة والشبكات، (Mobicom 2013)، المتاحة على الرابط التالي: wisee. cs. washington. edu/wisee_paper. pdf. لا يوجد أي قصد للإيحاء بأن التكنولوجيا المذكورة في الورقة البحثية تشبه تلك الخيالية المصورة هنا.

حديقة الحيوانات الورقية

إحدى أقدم ذكرياتي تبدأ بي وأنا أبكي بشدة. رفضت أن أهدأ مهما حاول أبي وأمي تهدئتي.

استسلم أبي وخرج من الغرفة، لكن أمي أخذتني إلى المطبخ وأجلستني على طاولة الإفطار.

قالت: «*كان، كان*»، ثم سحبت ورقة تغليف من فوق الثلاجة. لسنوات، كانت أمي تفتح هدايا عيد الميلاد بعناية وتحتفظ بأغلفتها في كومة سميكة فوق الثلاجة.

وضعت الورقة على الطاولة، كان جانبها الخالي من الألوان للأعلى، وبدأت في طويها. توقفت عن البكاء وشاهدتها بفضول.

قلبت الورقة وطوتها مرة أخرى. ثم ثنت الورقة إلى طيات صغيرة وضغطت الطيات بإحكام وضمت حوافها إلى الداخل ثم شدت طرفي الورقة حتى اختفت بين يديها المضمومتين. بعد ذلك، رفعت الورقة المطوية إلى فمها ونفخت فيها، كما لو كانت بالونًا.

قالت بالماندرينية: «*كان، لاوهو!*». ووضعت يديها على الطاولة وتركته.

ظهر نمر ورقي صغير على الطاولة، بحجم قبضتي يدين موضوعتين معًا. كان جلد النمر يحمل نقشة ورق التغليف، بخلفية بيضاء مع عصي الحلوى الحمراء وأشجار عيد الميلاد الخضراء.

مددت يدي إلى إبداع أمي. اهتز ذيل النمر، وقفز بمرح نحو إصبعي. زأر النمر: «*راور-سا*»، كان صوته خليطًا من مواء قطة وصوت احتكاك ورق الجرائد.

ضحكت مشدوهًا ثم نقرت ظهره بسبابتي. فاهتز النمر الورقي تحت إصبعي وهو يخرخر.

قالت أمي بالماندرينية: «جِه جياو جِه جِي». *هذا* يدعى *أوريجامي*.

لم أكن أعلم ذلك في ذلك الوقت، لكن أمي كانت تنحدر من جنس مميز. فقد كانت تنفث الهواء في الحيوانات الورقية فتشاركها أنفاسها، وبالتالي تتحرك بوجودها وحياتها. كان هذا سحرها.

أبي اختار أمي من كتالوج.

في إحدى المرات، عندما كنت في المدرسة الثانوية، سألت أبي عن تفاصيل ذلك. كان يحاول أن يدفعني لأتحدث مع أمي مرة أخرى.

كان قد اشترك في خدمة التعارف في ربيع عام 1973. كان يقلب في الصفحات بسرعة، فلم تستغرقه كل صفحة أكثر من بضع ثوان، حتى رأى صورة أمي.

لم أرَ هذه الصورة قط. وصف أبي الصورة هكذا: كانت أمي جالسة في كرسي، وجانبها موجه نحو الكاميرا، وترتدي الزي الصيني التقليدي، شيونجسام ضيق من الحرير ولونه أخضر. كان رأسها موجهًا نحو الكاميرا، انسدل شعرها الأسود الطويل بشكل فني على صدرها وكتفها. كانت تنظر إليه بعيني طفل هادئ.

قال: «كانت هذه آخر صفحة رأيتها في الكتالوج».

كُتب فيها إنها في الثامنة عشرة من عمرها، وتحب الرقص، وتتحدث الإنجليزية ببراعة لأنها من هونج كونج. لكن لم تكن أي من هذه الكلمات حقيقية.

كتب إليها، ونقلت الشركة رسائلهما ذهابًا وإيابًا. وفي النهاية، سافر إلى هونج كونج للقائها.

اكتشف أن الناس في الشركة هم من كانوا يكتبون ردودها. فلم تعرف من الإنجليزية غير «مرحبًا» و «وداعًا».

ما نوع المرأة التي تعرض نفسها في كتالوج لتُشترى؟

ظننت نفسي التي في المدرسة الثانوية أنها تعرف الكثير عن كل شيء. وأشعرها الاحتقار بالراحة، مثل النبيذ.

بدلًا من اقتحام المكتب للمطالبة باسترداد أمواله، دفع المال للنادلة التي في مطعم الفندق لتترجم كلامهما.

- كانت تنظر إلي، وتنتقل عينيها بين الخوف والأمل، عندما كنت أتحدث. وحين بدأت الفتاة في ترجمة ما أقوله، بدأت تبتسم ببطء.

عاد إلى كونيتيكت وبدأ في تقديم الأوراق اللازمة ليصطحبها. لقد وُلدتُ بعد عام من ذلك، في عام النمر.

طلبتُ من أمي أن تصنع لي من ورق التغليف ماعزًا وغزالًا وجاموس الماء. كانت تركض حول غرفة المعيشة ويطاردها لاوهو مزمجرًا. وعندما يمسك بها، كان يضغط عليها حتى يخرج الهواء منها وتصير مجرد قطع ورق مسطحة ومطوية. ثم كان علي أن أنفخ فيها إلى أن تنتفخ حتى تتمكن من الركض مرة أخرى.

أحيانًا، كانت الحيوانات تقع في المتاعب. فذات مرة، قفز جاموس الماء في طبق صلصة الصويا على الطاولة خلال العشاء. (كان يريد أن يتمرغ في الماء، مثل جاموس الماء الحقيقي). انتشلته بسرعة، لكن قدرة السائل الداكن على التدفق في الورق وصلت إلى ساقيه. فلم تعد الأرجل -التي صارت ناعمة بفعل صلصة الصويا- قادرة على حمله، فسقط على الطاولة. جففته تحت الشمس، لكن ساقيه صارتا معوجتين بعد ذلك، وكان يركض وهو يعرج. في النهاية، لفَّت أمي ساقيه بغلاف بلاستيكي حتى يتمكن من التمرغ كما يحب (لكن ليس في صلصة الصويا).

كما كان لاوهو يحب القفز على العصافير عندما كنا نلعب في الفناء الخلفي. لكن في إحدى المرات، رد طائر حاصره بشراسة وجرح أذنه. أخذ يئن ويتألم وأنا أحمله إلى والدتي لتصلح أذنه بالشريط اللاصق. بعد ذلك، بدأ يتجنب الطيور.

ثم في يوم من الأيام، رأيت فيلمًا وثائقيًّا عن أسماك القرش وطلبتُ من والدتي أن تصنع لي قرشًا. صنعت القرش، لكنه كان يقفز على الطاولة في حزن. ملأت الحوض بالماء ووضعته فيه. سبح في الحوض بسعادة. ومع ذلك، بعد فترة، صار رطبًا وشفافًا، وغرق ببطء إلى القاع، وبدأت طياته تنفك. حاولت إنقاذه، ولكن ما حصلت عليه في النهاية كان مجرد قطعة من الورق المبلل.

تشبث لاوهو بقوائمه الأمامية على حافة الحوض واستند برأسه عليهما. أمال أذنيه ثم أطلق زئيرًا منخفضًا من حنجرته جعلني أشعر بالذنب.

صنعت والدتي سمكة قرش جديدة من أجلي، لكن هذه المرة من ورق الألومنيوم. عاشت سمكة القرش بسعادة في وعاء كبير للأسماك الذهبية. كنت أنا ولاوهو نحب الجلوس بجوار الوعاء لمشاهدة سمكة القرش المصنوعة من ورق الألومنيوم وهي تطارد السمكة الذهبية، وكان لاوهو يضع وجهه بالقرب من الوعاء من الجهة الأخرى، مما جعل عينيه تبدو مكبرة بحجم فناجين القهوة، وتحدق من خلال الوعاء.

عندما كنت في العاشرة من عمري، انتقلنا إلى منزل جديد في الجهة الأخرى من المدينة. جاءت امرأتان من الجيران لترحبا بنا. قدم والدي لهما المشروبات ثم اعتذر لأن عليه الذهاب إلى شركة المرافق لحل مشكلة فواتير المالك السابق.

- اعتبروا أنكم في منزلكم. زوجتي لا تتحدث الإنجليزية كثيرًا، لذا لا تظنوا أنها تتجاهلكم بسبب عدم حديثها.

عندما كنت أقرأ في غرفة الطعام، كانت أمي تفكك الصناديق التي في المطبخ. وتحدثت الجارات في غرفة المعيشة، دون محاولة أن يكنَّ هادئات.

- يبدو أنه رجل طبيعي بما يكفي. لماذا فعل ذلك؟

- يبدو أن هناك خطبًا بهما معًا. فطفلهما يبدو كعمل غير مكتمل. عيناه مائلتان، ووجهه أبيض. يبدو كوحش صغير.

- هل تعتقدين أنه يستطيع التحدث باللغة الإنجليزية؟

هدأت النساء. وبعد فترة، دخلن إلى غرفة الطعام.

- مرحبًا! ما اسمك؟

قلت: «جاك».

- هذا لا يبدو اسمًا صينيًا.

دخلت أمي غرفة الطعام بعد ذلك. ابتسمت للنساء.

وقف ثلاثتهن في مثلث حولي، يبتسمن ويومئن لبعضهن، بلا شيء يُقال، حتى عاد والدي.

جاء مارك، أحد أولاد الجيران، ومعه ألعاب من شخصيات فيلم «حرب النجوم» (Star Wars). كان سيف أوبي-وان كينوبي يضيء، وكان بإمكانه أن يحرك ذراعيه ويقول بصوت رقيق: «استخدم القوة!» لم أعتقد أن الشخصية تبدو شبيهة بأوبي-وان الحقيقي على الإطلاق.

معًا، شاهدناه يُكرر هذا العرض خمس مرات على طاولة القهوة.

سألته: «هل يستطيع فعل أي شيء آخر؟».

انزعج مارك من سؤالي. وقال: «انظر إلى كل هذه التفاصيل. ”

نظرت إلى التفاصيل. لم أكن متأكدًا مما كان علي قوله.

شعر مارك بخيبة أمل من ردي. وقال: «أرني ألعابك. ”

لم يكن لدي أي ألعاب سوى حيواناتي الورقية. أخرجت لاوهو من غرفة نومي. بحلول ذلك الوقت، كان قد تآكل كثيرًا، وصار مُرقَّعًا بالكامل بالشريط والغراء، دليل على سنوات من الإصلاحات التي أجريناها أنا وأمي عليه. لم يعد خفيف الحركة وواثق الخطى كما كان من قبل. وضعت لاوهو على طاولة القهوة. كنت أسمع خطوات الحيوانات الأخرى تسرع خلفي في الردهة، وتسترق النظر إلى غرفة المعيشة.

قلت بالماندرينية: «شياو لاوهو» ثم توقفت. وانتقلت إلى الإنجليزية: «هذا نمر». بخطوات حذرة، اقترب لاوهو وخرخر لمارك، وشم يديه.

فحص مارك ورق تغليف عيد الميلاد الذي على جلد لاوهو.

- هذا لا يبدو كالنمر على الإطلاق. هل تصنع والدتك ألعابك من القمامة؟

لم أفكر قط في لاوهو كقمامة. لكن عند النظر إليه الآن، كان حقًّا مجرد قطعة من ورق التغليف.

دفع مارك رأس أوبي-وان مرة أخرى. وومض سيف الليزر، ثم حرك ذراعيه لأعلى ولأسفل وقال: «استخدم القوة!».

استدار لاوهو وارتطم بالشخصية البلاستيكية مسقطًا إياها من على الطاولة. وقعت على الأرض وتحطمت، وتدحرجت رأس أوبي-وان تحت الأريكة. ضحك لاوهو: «روووو». وانضممت إليه.

لكنني تلقيت لكمة قوية من مارك.

- كان هذا باهظ الثمن! لا يمكنك حتى العثور عليه في المتاجر الآن. ربما تكلف أكثر مما دفعه والدك مقابل والدتك!

تعثرت وسقطت على الأرض. زأر لاوهو واندفع نحو وجه مارك.

صرخ مارك، من الخوف والدهشة وليس من الألم. ففي النهاية، كان لاوهو مصنوعًا من الورق.

أمسك مارك بلاوهو، وتوقف زئيره عندما قبض مارك عليه في يده وتمزق إلى نصفين. جمع قطعتي الورق ورماهما نحوي.

- ها هي قمامتك الصينية الرخيصة الغبية.

بعد مغادرة مارك، قضيت وقتًا طويلًا أحاول، دون جدوى، لصق القطع معًا، وفرد الورق، واتباع الطيات لإعادة طي لاوهو. ببطء، دخلت الحيوانات الأخرى إلى غرفة المعيشة وتجمعت حولنا، أنا وقطع الورق الممزقة التي كانت تُعرف بلاوهو.

لم تنتهِ مشكلتي مع مارك عند هذا الحد. كان مارك مشهورًا في المدرسة. لا أريد أن أفكر مرة أخرى في الأسبوعين اللذين تلا ذلك.

عدت إلى المنزل يوم الجمعة في نهاية الأسبوعين. سألتني أمي: «كيف كان يومك في المدرسة؟». لم أجب وذهبت إلى الحمام. نظرت إلى المرآة. *لا أبدو مثلها، على الإطلاق.*

أثناء وجبة العشاء، سألت أبي: «هل يبدو وجهي تشينك[1]؟».

وضع أبي عيدانه. رغم أنني لم أخبره قط عما حدث في المدرسة، بدا وكأنه فهم. أغلق عينيه وفرك طرف أنفه.

- لا، لا يبدو كذلك.

نظرت أمي إلى أبي، غير مدركة ما يحدث. ثم نظرت إلي وقالت بالماندرينية: *«ما معنى كلمة تشينك؟»*.

---

(1) كلمة المترجمة: كلمة «chink» كانت تُستخدم كإهانة عنصرية، يعود أصلها إلى المجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر، خاصة في الولايات المتحدة وبريطانيا. كانت تُستخدم للسخرية من المهاجرين الصينيين، الذين جاء العديد منهم إلى الولايات المتحدة للعمل خلال فترة «حمى الذهب» في كاليفورنيا أو للمساعدة في بناء السكك الحديدية العابرة للقارات. يُعتقد أن الكلمة نشأت من تحريف أو تشويه لكلمة «China» أو «Chinese»، وتحولت مع مرور الوقت إلى مصطلح مهين.

قلت: «بالإنجليزية. تحدثي الإنجليزية».

حاولت: «ماذا حدث؟».

دفعت عيداني والأطباق التي أمامي بعيدًا: فليفلة خضراء مقلية مع لحم بقر بالتوابل الخمسة.

- يجب أن نتناول طعامًا أمريكيًّا.

حاول والدي إقناعي: «الكثير من العائلات تطبخ الطعام الصيني أحيانًا».

نظرت إليه: «نحن لسنا مثل العائلات الأخرى». *فالعائلات الأخرى ليس لديها أمهات لا ينتمين إلى هنا.*

أدار نظره بعيدًا. ثم وضع يده على كتف أمي وقال: «سأحضر لك كتاب طبخ».

التفتت أمي نحوي. قالت بالماندرينية: «هل الطعام ليس لذيذًا؟».

قلت بصوت مرتفع: «الإنجليزية! تحدثي بالإنجليزية».

مدت أمي يدها لتلمس جبهتي، وتتحسس حرارتي: «هل أصبت بالحمى؟».

أبعدت يدها. وصرخت: «أنا بخير. تحدثي بالإنجليزية!».

قال أبي لأمي: «تحدثي إليه بالإنجليزية، كنتِ تعرفين أن هذا سيحدث يومًا ما. ماذا كنتِ تتوقعين؟».

وضعت أمي يديها إلى جانبها. وجلست تنقل نظراتها بيني وبين أبي، ثم عادت تنظر إليه. حاولت أن تتكلم، توقفت، ثم حاولت مرة أخرى وتوقفت مرة أخرى.

قال أبي: «يجب عليكِ ذلك. لقد تساهلت معك جدًّا. جاك بحاجة إلى أن يندمج هنا».

نظرت إليه أمي.

- إذا قلت «حب» بالإنجليزية، أشعر بها هنا.

وأشارت إلى شفتيها.

- وإذا قلت «آي[1]»، أشعر بها هنا».

ووضعت يدها على قلبها.

---

(1) كلمة المترجمة: كلمة (ai) تعني حب باللغة الماندرينية.

هز أبي رأسه رافضًا. «أنتِ في أمريكا.”

انكمشت أمي في مقعدها، وبدت مثل جاموس الماء عندما كان لاوهو يقفز عليه ويخرج الهواء من رئتيه.

- وأريد ألعابًا حقيقية.

اشترى لي أبي مجموعة كاملة من شخصيات «حرب النجوم». فأعطيت أوبي وان كينوبي لمارك.

حزمت حيواناتي الورقية في صندوق أحذية كبير ووضعته تحت السرير.

في صباح اليوم التالي، هربت الحيوانات وعادت إلى أماكنها المفضلة المعتادة في غرفتي. أمسكت بها جميعًا وأعدتها إلى صندوق الأحذية، وألصقت الغطاء بإحكام. لكن الحيوانات أحدثت الكثير من الضجيج داخل الصندوق حتى جعلتني في النهاية أدفعها جميعًا إلى ركن العلية، بعيدًا عن غرفتي قدر الإمكان.

إذا تحدثت أمي معي بالصينية، كنت أرفض الرد عليها. وبعد فترة، حاولت استخدام المزيد من الإنجليزية. لكن لهجتها وجملها غير المكتملة سببت لي الإحراج. حاولت تصحيح كلماتها. وفي النهاية، توقفت عن التحدث تمامًا.

بدأت أمي تستخدم الإشارات عندما كانت تحتاج إلى إخباري شيئًا ما. حاولت أن تعانقني بالطريقة التي كانت ترى بها الأمهات الأمريكيات في التلفاز. فرأيت أن حركاتها مبالغ فيها وغير واثقة، وبدت سخيفة وغير متناسقة. عندما رأت أنني أنزعج منها، توقفتْ.

قال أبي: «عليك أن تتوقف عن معاملة أمك بهذه الطريقة». لكنه لم يستطع النظر إليَّ في عيني أثناء قوله ذلك. كان يعلم في أعماق قلبه أنه أخطأ عندما أحضر فلاحة صينية وتوقع منها أن تتكيف مع الحياة في ضواحي كونيتيكت.

تعلمت أمي كيفية طهي الطعام على الطريقة الأمريكية. وتعلمتُ أنا ألعاب الفيديو، ودرست اللغة الفرنسية.

بين الحين والآخر، كنت أراها تجلس إلى طاولة المطبخ، تتفحص أوراق التغليف. وبعد ذلك، كانت تظهر حيوانات ورقية جديدة على منضدتي وتحاول التودد إلي. فكنت أمسك بها، وأعصرها حتى يخرج الهواء منها، ثم أضعها في الصندوق الذي في العلية.

توقفت أمي في النهاية عن صنع الحيوانات عندما صرت في المدرسة الثانوية. بحلول ذلك الوقت، قد تحسنت لغتها الإنجليزية بكثير، لكنني صرت في السن التي لم أعد مهتمًّا بما تريد قوله، بغض النظر عن اللغة التي تستخدمها.

أحيانًا، عندما كنت أعود إلى المنزل وأراها تتحرك بجسدها الصغير في المطبخ، تغني لنفسها أغنية بالصينية، كان يصعب علي أن أصدق أنها أنجبتني. لم يكن لدينا أي شيء مشترك. لو كانت من جنس القمر. كنت أسرع إلى غرفتي حيث يمكنني متابعة سعيي الأمريكي تمامًا نحو السعادة.

وقفت أنا وأبي، كل منا على جانب من سرير أمي في المستشفى. لم تكن قد تجاوزت الأربعين بعد، لكنها بدت أكبر سنًّا بكثير.

لسنوات، رفضت الذهاب إلى الطبيب بسبب الألم الذي كانت تشعر به في داخلها، والذي كانت تقول إنه ليس أمرًا جللًا. وعندما جاءت سيارة الإسعاف في النهاية لتأخذها، كان السرطان قد انتشر في جسدها ولم يعد بإمكان الجراحة أن تقتلعه.

لم يكن ذهني حاضرًا في الغرفة. كنت حينها في منتصف موسم التوظيف في الحرم الجامعي، وكنت مشغولًا بالسير الذاتية، والسجلات الأكاديمية، وجداول المقابلات المُعدَّة بشكل استراتيجي. كنت أفكر في كيفية الكذب على المسؤولين عن التوظيف في الشركات بطريقة فعالة لضمان حصولي على عرض منهم. كنت أدرك أن التفكير في هذا -أثناء رقود أمي وهي على وشك الموت- أمر مروع. لكن هذا الإدراك لم يساعدني في تغيير مشاعري.

كانت أمي واعية. أمسك أبي يدها اليسرى بكلتا يديه، وانحنى ليقبل جبينها. بدا ضعيفًا ومسنًّا بطريقة أثارت دهشتي. أدركت أن ما أعرفه عن أبي يماثل في قلته تقريبًا ما أعرفه عن أمي.

ابتسمت أمي له، وقالت: «أنا بخير. ”

ثم التفتت إلي، وهي لا تزال مبتسمة وقالت: «أعلم أنه يتعين عليك العودة إلى الجامعة»، (كان صوتها ضعيفًا جدًّا، وكان من الصعب سماعها وسط ضجيج الأجهزة المتصلة بها): «اذهب. لا تقلق بشأني. هذا ليس بالأمر الجلل. اجتهد في دراستك فقط».

مددت يدي لألمس يدها، لأنني فكرت أن هذا هو ما ينبغي عليَّ فعله. شعرت بالارتياح. كنت بالفعل أفكر في رحلة العودة، وأشعة الشمس الساطعة في كاليفورنيا.

همست بشيء لأبي. أومأ وغادر الغرفة.

قالت لي: «جاك، إذا ...»، (توقفت فجأة بسبب نوبة من السعال، ولم تتمكن من التحدث لبعض الوقت): «إذا لم أنجُ، فلا تحزن كثيرًا ولا تضر صحتك. ركز على حياتك. لكن تأكد من أن تحتفظ بتلك العلبة التي لديك في العلية، وفي كل عام، في عيد تشينج مينج، أخرجها وفكر فيّ. سأكون معك دائمًا».

كان تشينج مينج هو عيد الموتى في الثقافة الصينية. عندما كنت صغيرًا جدًّا، اعتادت أمي أن تكتب رسالة في هذا العيد لوالديها المتوفيين في الصين، تخبرهما فيها بالأخبار السارة في حياتها في أمريكا خلال العام الماضي. كانت تقرأ لي الرسالة بصوت عالٍ، وإذا علَّقت على شيء ما، كانت تضيفه أيضًا في الرسالة. بعد ذلك، كانت تطوي الرسالة على شكل طائر الكركي وتطلقه في الهواء، متجهًا نحو الغرب. كنا نشاهد الطائر وهو يرفرف بجناحيه المفرودين في رحلته الطويلة إلى الغرب، نحو المحيط الهادئ، نحو الصين، نحو قبور عائلة أمي.

لقد مضت سنوات عديدة منذ آخر مرة شاركتها ذلك.

قلت: «لا أعرف أي شيء عن التقويم الصيني. استريحي يا أمي. ”

- تأكد فقط من الاحتفاظ بالعلبة معك وافتحها بين الحين والآخر. فقط افتحها ...

ثم بدأت بالسعال مرة أخرى.

- لا بأس يا أمي.

مددت يدي وربتت على ذراعها بغرابة.

- هايز، ماما آي ني ...

ثم سيطر عليها السعال مرة أخرى. تجسد في ذهني مشهد من سنوات مضت: أمي تقول «آي» ثم تضع يدها على قلبها.

- حسنًا يا أمي. توقفي عن الكلام.

عاد أبي، وقلت له إنني بحاجة للذهاب إلى المطار عاجلًا لأنني لا أريد أن أفوت رحلتي.

توفيت عندما كانت طائرتي في مكان ما فوق نيفادا.

شاخ أبي بسرعة بعد وفاة أمي. كان المنزل كبيرًا جدًّا عليه وكان لا بد من بيعه. ذهبت أنا وحبيبتي سوزان لمساعدته في التعبئة وتنظيف المكان.

وجدت سوزان علبة الأحذية في العلية. كانت الحيوانات الورقية المدفونة في ظلام العلية غير المعزولة لفترة طويلة، قد صارت هشة، وتلاشت أشكال ورق التغليف الزاهية.

قالت سوزان: «لم أرَ أوريجامي مثل هذا من قبل. كانت والدتك فنانة مذهلة».

لم تتحرك الحيوانات الورقية. لعل السحر الذي كان يحركها انتهى بوفاة أمي. أو لعلها كانت محض خيالات مني أن هذه التركيبات الورقية كانت حية يومًا ما. لا يمكن الاعتماد على ذاكرة الأطفال.

كنا في أول عطلة نهاية أسبوع من شهر أبريل، بعد عامين من وفاة أمي. كانت سوزان خارج المدينة في إحدى رحلاتها اللامتناهية كمستشارة إدارية، وكنت في المنزل، أقلب في القنوات التلفزيونية بكسل.

توقفت عند فيلم وثائقي عن أسماك القرش. فجأة، رأيت في ذهني يدي أمي وهي تطوي وتعيد طي ورق الألومنيوم لصنع سمكة قرش لي ونشاهدها أنا ولاوهو.

سمعت حفيفًا. نظرت لأعلى ورأيت كرة من ورق التغليف والشريط الممزق على الأرض بجانب رف الكتب. مشيت لألتقطها لأرميها في القمامة.

تغيرت كرة الورق، وانفتحت، ورأيت أنها لاوهو الذي لم أفكر فيه منذ زمن طويل.

- *راور سا!*

لا بد أن أمي قد أعادت تجميعه بعد أن استسلمت.

كان أصغر حجمًا مما أتذكر. أو لعل ذلك بسبب أن يدي كانتا أصغر في ذلك الوقت.

كانت سوزان قد وضعت الحيوانات الورقية في أنحاء شقتنا كديكور. لعلها تركت لاوهو في زاوية مخفية بسبب مظهره المهترئ.

جلستُ على الأرض ومددت إصبعي. ونقرت ذيل لاوهو، فاهتز وقفز قفزة مرحة. ضحكت، وأنا أنقر ظهره. خرخر لاوهو تحت يدي.

- كيف حالك يا صديقي القديم؟

توقف لاوهو عن اللعب. نهض وقفز برشاقة إلى حجري، ثم بدأ في الانفتاح.

صار في حجري قطعة من ورق التغليف المكرمش، وجانبه الخالي من الرسومات لأعلى. كان ممتلئًا بحروف صينية كثيفة. لم أتعلم قراءة الصينية قط، لكنني كنت أعرف حروف كلمة «ابن»، وكانت في أعلى الورقة، حيث بدت كمطلع رسالة، مكتوبة بخط أمي المحرج والطفولي.

ذهبت إلى الكمبيوتر لأتحقق من معنى الكلمات على الإنترنت. كان اليوم هو تشينج مينج.

أخذت الرسالة معي إلى وسط المدينة، فكنت أعلم أن حافلات السياح الصينية تتوقف هناك. كنت أوقف كل سائح وأسأله: «نين خوي دو جونج ون ما؟»، *هل يمكنك قراءة الصينية؟* لم أتحدث الصينية منذ فترة طويلة، لذا لم أكن متأكدًا إذا كانوا سيفهمونني.

وافقت امرأة شابة على مساعدتي. جلسنا معًا على مقعد، وقرأت لي الرسالة بصوت عالٍ. اللغة التي حاولت نسيانها لسنوات طوال عادت إلي، وشعرت بالكلمات تتغلغل في أعماقي، تعبر جلدي، وتصل إلى عظامي، حتى أحاطت بقلبي فعصرته.

ابني،

لم نتحدث منذ وقت طويل. أنت تغضب بشدة عندما أحاول لمسك لدرجة أنني أخاف. وأعتقد أن هذا الألم الذي أشعر به طوال الوقت الآن قد يكون شيئًا خطيرًا.

لذلك قررت أن أكتب لك. سأكتب في الحيوانات الورقية التي صنعتها لك والتي كنت تحبها كثيرًا في الماضي.

ستتوقف الحيوانات عن الحركة عندما أتوقف عن التنفس. ولكن إذا كتبت لك بكل قلبي، سأترك جزءًا صغيرًا مني في هذه الورقة، في هذه الكلمات. ثم إذا فكرت بي في يوم تشينج مينج، عندما يُسمح لأرواح الموتى بزيارة عائلاتهم، ستعود الأجزاء التي تركتها مني للحياة. ستقفز وتتحرك الحيوانات التي صنعتها لك مرة أخرى، ولعلك ستتمكن من رؤية هذه الكلمات حينها.

وبما أنني يجب أن أكتب بكل قلبي، أحتاج إلى الكتابة باللغة الصينية.

طوال هذا الوقت، لم أخبرك بقصة حياتي بعد. عندما كنت صغيرًا، كنت أظن أنني سأخبرك بها عندما تكبر حتى تتمكن من فهمها. لكن بطريقة ما، لم تأتِ تلك الفرصة قط.

وُلدتُ عام 1957، في قرية سيجولو، في مقاطعة خبي. كان جداك ينحدران من عائلة فلاحين فقيرة جدًّا، وكان لهما قلة قليلة من الأقارب. بعد بضع سنوات فقط من ولادتي، هاجمت المجاعات الكبرى الصين، مات ثلاثون مليون شخص. أول ذكرى لي كانت عندما استيقظت لأرى والدتي تأكل التراب لتملأ معدتها، حتى تترك لي آخر حفنة من الدقيق.

تحسنت الأمور بعد ذلك. كانت قرية سيجولو معروفة بفن الحرف الورقية «زهزي»، وقد علمتني أمي كيفية صنع الحيوانات الورقية ومنحها الحياة. كان هذا نوعًا من السحر الفعلي الذي اعتمدت عليه حياة القرية. كنا نصنع الطيور الورقية لطرد الجراد بعيدًا عن الحقول، والنمور الورقية لإبعاد الفئران. وفي رأس السنة الصينية، كنت أنا وأصدقائي نصنع تنانين ورقية حمراء. ولا أستطيع أن أنسى مشهد تلك التنانين الصغيرة وهي تحلق في السماء، تحمل سلاسل من المفرقعات

النارية لإبعاد الذكريات السيئة للسنة الماضية. كنت ستحب ذلك.

ثم جاءت الثورة الثقافية في عام 1966. وانقلب الجيران على بعضهم، والإخوة ضد بعضهم. تذكر أحدهم أن شقيق أمي، خالي، كان قد غادر إلى هونج كونج في عام 1946 وصار تاجرًا هناك. ووجود قريب في هونج كونج كان يعني أننا جواسيس وأعداء الشعب، ووجبت محاربتنا بكل وسيلة. لم تتحمل جدتك المسكينة هذه الإساءة وألقت بنفسها في البئر. وذات يوم جاء بعض الفتية وهم يحملون بنادق الصيد وطاردوا جدك حتى اختفى في الغابات، ولم يعد قط.

وهكذا، صرت طفلة يتيمة في العاشرة من عمري، ولم يكن لدي أي أقارب سوى خالي في هونج كونج. وذات ليلة، تسللت وهربت لأركب قطار الشحن المتجه نحو الجنوب.

بعد بضعة أيام في مقاطعة جوانجدونج، قبض عليّ بعض الرجال وأنا أسرق الطعام من أحد الحقول. وعندما علموا أنني أحاول الوصول إلى هونج كونج، ضحكوا وقالوا: «اليوم هو يوم حظك. فعملنا هو تهريب الفتيات إلى هونج كونج».

أخفوني في قاع شاحنة مع فتيات أخريات وهربونا عبر الحدود.

أخذونا إلى قبو وأمرونا أن نقف مستقيمات وأن نبدو بصحة جيدة وذكاء أمام المشترين. كانت العائلات تدفع رسومًا لهذا المكان وتأتي لتتفحصنا وتختار إحدانا «للتبني.”

اختارتني عائلة تشين لأعتني بطفليهما. كنت أستيقظ كل صباح في الرابعة لأعد الفطور. أُطعم وأُحمم الصبيين، وأتسوق للطعام، وأغسل الملابس، وأكنس الأرضيات. كنت أرعى الصبيين وألبي طلباتهما. في الليل عندما يأتي وقت النوم، كانوا

يحبسونني في خزانة بالمطبخ. إذا تأخرت أو ارتكبت أي خطأ، كنت أتعرض للضرب. وإذا ارتكب الصبيان أي خطأ، كنت أنا من يُضرب. وإذا ضبطوني أحاول تعلم الإنجليزية، كان عقابي الضرب أيضًا.

سألني السيد تشين: «لماذا تريدين تعلم الإنجليزية؟ هل تودين الذهاب إلى الشرطة؟ سنخبرهم أنك من البر الرئيسي، وأن وجودكِ في هونج كونج غير قانوني. ستسعد الشرطة بإرسالك إلى سجنهم».

عشت هذه الحياة لمدة ست سنوات. وفي يوم من الأيام، سحبتني امرأة عجوز كانت تبيع السمك في سوق الصباح جانبًا.

- أنا أعرف فتيات مثلك. كم عمرك الآن، ستة عشر؟ يومًا ما، سيثمل الرجل الذي يمتلكك، وسينظر إليك، وسيسحبك إليه، ولن يمكنك إيقافه. ستكتشف زوجته الأمر، وعندها ستظنين أنك حقًّا في الجحيم. عليك أن تخرجي من هذه الحياة. أعرف شخصًا يمكنه المساعدة.

أخبرتني عن رجال أمريكيين يريدون زوجات آسيويات. إذا كنت أستطيع الطهي، والتنظيف، والعناية بزوجي الأمريكي، سيمنحني حياة جيدة. كان هذا شعاع الأمل الوحيد في حياتي. وهكذا دخلت في الكتالوج مع كل تلك الأكاذيب والتقيت والدك. ليست قصة رومانسية جدًّا، لكنها قصتي.

في ضواحي كونيتيكت، شعرت بالوحدة. كان والدك لطيفًا وحنونًا معي، وكنت ممتنة له جدًّا. لكن لم يفهمني أحد، ولم أفهم شيئًا.

لكن بعد ذلك وُلِدت أنت! كنت سعيدة جدًّا عندما نظرت إلى وجهك ورأيت فيه لمحات من أمي وأبي ونفسي. لقد فقدت عائلتي بأكملها، وفقدت كل شيء في سيجولو، كل ما عرفته

وأحببته. لكنك كنت هناك، وكان وجهك دليلًا على أنهم كانوا حقيقيين. لم أكن أتخيلهم.

الآن صار لدي شخص أتحدث إليه. سأعلمك لغتي، وسنستطيع معًا إعادة تشكيل قطعة صغيرة من كل ما أحببته وفقدته. عندما نطقت بأولى كلماتك لي، بالصينية التي تحمل لهجة أمي وأبي، بكيت لساعات. عندما صنعت أولى حيوانات الأوريجامي من أجلك، وسمعت ضحكتك، شعرت أن الهموم اختفت من العالم.

كبرت قليلًا، وصرت قادرًا على مساعدتي في التحدث مع والدك. كنت أشعر أنني صرت في بيتي حقًّا. أخيرًا، وجدت حياة جيدة. كنت أتمنى لو كان والداي هنا، لأتمكن من طهي الطعام لهما ومنحهما حياة جيدة أيضًا. لكن والداي لم يعودا موجودين. هل تعرف ما هو أسوأ شعور في العالم في اعتقاد الصينيين؟ هو أن تنمو لدى الطفل الرغبة في رعاية والديه أخيرًا، ليكتشف بعد ذلك أنهما قد رحلا منذ زمن طويل.

ابني، أعلم أنك لا تحب عينيك الصينيتين، اللتين هما عيناي. وأعلم أنك لا تحب شعرك الصيني، الذي هو شعري. لكن هل يمكنك أن تفهم كم الفرح الذي جلبه لي مجرد وجودك؟ وهل يمكنك أن تفهم كيف شعرت عندما توقفت عن التحدث إلي ولم تسمح لي بالتحدث إليك بالصينية؟ شعرت أنني أفقد كل شيء مرة أخرى.

لماذا لا تتحدث إلي يا بني؟ الألم يصعِّب الكتابة.

أعادت لي الشابة الورقة، ولم أجرؤ على النظر إلى وجهها.

دون أن أنظر إلى أعلى، طلبت مساعدتها في رسم الحرف الذي يعني «حب» تحت رسالة أمي. ثم كتبت الحرف مرة تلو الأخرى على الورقة، وامتزجت ضربات قلمي مع كلماتها.

مدت الشابة يدها ووضعتها على كتفي. ثم نهضت وذهبت، وتركتني وحيدًا مع أمي.

اتبعت الطيات وأعدت طي الورقة مرة أخرى إلى شكل لاوهو. احتضنته في انحناءة ذراعي، وخرخر ونحن نسير نحو المنزل.

كتاب مصور للقراء في علم الإدراك المقارن
«للحب طرق كثيرة، وهذه طريقتي»

عزيزتي، طفلتي الخبيرة بمفردات اللغة العسيرة والأفكار المعقدة والجمل المضنية والصور المتكلفة، بينما تغفو الشمس في سبات عميق ويهيم القمر متأملًا في جنبات الليل السرمدي، وبينما تغمرنا النجوم بنورها الآتي من عصور مضت وسنوات ضوئية سحيقة. وبينما أنتِ ملتحفة بغطائك في دفء وأنا منحنٍ على كرسي بجوار سريرك، وبينما نحن الاثنان دافئان وآمنان وساكنان في هذه اللحظة داخل فقاعة الضوء المتوهج الذي تلقيه علينا تلك اللؤلؤة القابعة بداخل مصباح حورية البحر، فقط أنتِ وأنا، على هذا الكوكب الذي يدور حول نفسه بلا توقف، شاقًّا طريقه عبر ظلام الفضاء البارد بسرعة عشرات الأميال في الثانية، دعينا نقرأ.

يمتلك شعب الأرشيفيون عقولًا قادرة على تسجيل كل المنبهات التي تستقبلها حواسهم: كل وخزة تمر على أعمدتهم الفقرية المغطاة بالشعر، كل موجة صوتية تصطدم بأجسامهم الغشائية، كل صورة تلتقطها أعينهم البسيطة والمركبة التي تلتقط مجالات الضوء، كل إحساس بجزيئات الطعم والرائحة تلتقطه أقدامهم التي تشبه سيقان النباتات المتمايلة، وكل تغيير في المجال المغناطيسي لكوكبهم الغريب، الذي يبدو كحبة بطاطس في الفضاء.

عندما يرغبون، يمكنهم استرجاع تجاربهم السابقة كلها بوضوح تام. يمكنهم تجميد المشهد وتكبيره للتركيز على أي تفصيلة، يمكنهم تحليل كل محادثة وإعادة تحليلها لاستخراج كل تلميح. يمكنهم عيش الذكريات السعيدة مرارًا وتكرارًا، وفي كل مرة، يكتشفون تفاصيل جديدة. والذكريات المؤلمة

أيضًا، قد يعيدونها لعدد لا نهائي من المرات، وفي كل مرة، تثير بداخلهم غضبًا جديدًا. الذاكرة التصويرية جزء لا يتجزأ من حقيقة وجودهم.

إن فرض كل ما هو لا نهائي على كل ما هو محدود أمر لا يمكن تحمله بكل تأكيد.

يستقر العضو المسؤول عن الإدراك للكائن الأرشيفي داخل جسم مقسم ينمو في أحد أطرافه بينما يذبل ويتساقط في الطرف الآخر. في كل عام، تضاف قطعة جديدة عند الرأس لتسجل المستقبل، وفي كل عام، يتخلصون من قطعة قديمة من الذيل، مما يؤدي إلى إرسال الماضي إلى طي النسيان.

وبالتالي، بينما لا ينسى الأرشيفيون، فإنهم لا يتذكرون أيضًا. يُقال إنهم لا يموتون أبدًا، لكن الجدال عما إذا كانوا يعيشون حقًّا مطروح للنقاش.

لقد قيل إن التفكير هو أحد أشكال ضغط المعلومات؛ يبسط العقل ويختصر كمية كبيرة من البيانات والتجارب في أفكار أو مفاهيم أساسية.

هل تتذكرين أول مرة تذوقت فيها الشوكولاتة؟ كان ذلك في ظهيرة أحد أيام الصيف، كانت والدتك قد عادت لتوها من التسوق. وكسرت قطعة من لوح الحلوى ووضعتها داخل فمك بينما كنت جالسة على الكرسي العالي.

عندما امتُصت الستيرات في زبدة الكاكاو وأدت حرارة فمك دورها وأذابت ذلك المكون السحري على لسانك، وانطلقت القلويات المعقدة وتسللت إلى براعم التذوق لديك: الكافيين المحفز، والفينيثيلامين الباعث على النشوة، والثيوبرومين المعزز للسيروتونين.

قالت والدتك: «الثيوبرومين يعني طعام الآلهة».

أتذكر ضحكاتنا ونحن نراقب عينيك تتسعان في دهشة من الملمس، ووجهك يتجعد بفعل مرارة الطعم اللاذعة، ومن ثم ارتخاء جسدك بالكامل عندما احتلت تلك الحلاوة براعم التذوق لديك، بمساعدة رقصة ألف مركب عضوي مختلف.

ثم كسرت والدتك ما تبقى من لوح الشوكولاتة إلى نصفين، وأعطتني قطعة وأكلت الأخرى. وقالت: «لدينا أطفال لأننا لا نستطيع أن نتذكر أول طعم أمبروسيا[1] تذوقناه».

---

(1) كلمة المترجمة: الأمبروسيا هي كلمة من الميثولوجيا اليونانية، تُطلق على طعام أو شراب يُعتقد أنه يمنح الآلهة الخلود والقوة. مع مرور الوقت، تطورت الكلمة وصارت

لا أستطيع أن أتذكر الفستان الذي كانت ترتديه أو ما اشترته، ولا أستطيع أن أتذكر ما فعلناه فيما تبقى من تلك الظهيرة، ولا أستطيع إعادة تكوين النبرة المميزة لصوتها أو ملامح وجهها بالضبط، أو الخطوط على جانبي ثغرها، أو اسم عطرها. كل ما أتذكره هو الطريقة التي انعكست بها أشعة الشمس الآتية من نافذة المطبخ على ساعدها، مكونة قوسًا جميلًا كابتسامتها.

ساعدٌ يشع بنور دافئ، وضحكات، وطعام الآلهة. هكذا تُضغط ذكرياتنا، وتُدمج في جواهر متلألئة تُغرس في المساحات المحدودة بداخل عقولنا. فيتحول المشهد الحي بعد انقضائه إلى كلمة أو صورة أو جملة، وتختصر المحادثة في عبارة واحدة، ويُكثف اليوم ليصير شعورًا عابرًا من الفرح.

مرور الزمن يحمل معه فقدانًا تدريجيًّا لجودة الذكريات أثناء انضغاطها في عقولنا، وتلك الصورة الفوتوجرافية النابضة بالحياة، تتحول إلى رسمة مبسطة. الذكرى هي إعادة خلق التجربة، وهي ثمينة لأنها تحمل في طياتها ما هو أكثر وأقل من الأصل في آنٍ واحد.

***

يعيش النوريون في بحر دافئ تمتد أطرافه تقريبًا الى ما لا نهاية، هم كائنات من الضوء وتجمعات من الجزيئات العضوية، ويشبهون الخلايا لكنهم أكبر حجمًا بكثير، بعضهم بحجم حيتاننا. تندفع أجسامهم الشفافة المتموجة، وتنجرف صعودًا وهبوطًا، تتقلب وتلتوي مثل قناديل البحر المتوهجة التي تركب التيار.

أفكار النوريين مُشفَّرة على شكل سلاسل بروتينية معقدة تلتف حول نفسها مثل ثعابين تتلوى في جعبة الساحر، ساعين للوصول إلى أدنى مستوى من استهلاك الطاقة حتى يحتلوا أصغر مساحة ممكنة. ومعظم الوقت، تبقى هذه الأفكار خاملة.

عندما يلتقي اثنان من النوريين، قد يندمجان مؤقتًا، ويشكلان نفقًا بين أغشيتهما. يمكن أن تستمر هذه الوحدة المتشابكة لساعات أو أيام أو سنوات، تستيقظ ذكرياتهم من الخمول والسبات وتُتبادل بينهما من خلال الطاقة التي يقدمها كلاهما. تُكرر الذكريات السعيدة بشكل انتقائي في عملية تشبه تعبير

تُستخدم بشكل مجازي لوصف أي طعام أو شراب استثنائي لذيذ.

البروتينات[1] - تنفتح البروتينات الحلزونية وترقص مسحورة في موسيقى كهربائية من تسلسلات الشفرة الوراثية في أثناء قراءتها ومن ثم التعبير عنها- بينما تُخفف وطأة الذكريات المؤلمة من خلال توزيعها بين الجسدين. بالنسبة للنوريين، فإن الفرح المشترك يتضاعف حقًّا، بينما ينقص الحزن المشترك بالفعل.

بحلول الوقت الذي ينفصلان فيه، يكون كل منهما قد امتص تجارب الآخر بالكامل. إنه أصدق أشكال التعاطف؛ تُشارك التجارب الحسية دون أي تحور أو تبدل أو تغيير. ودون الحاجة إلى ترجمة، ولا وسيلة للتبادل. يتعرفون على بعضهم بمعنى أعمق من أي كائنات أخرى في الكون.

ولكن لكل شيء إذا ما تم نقصان، فهناك ثمن لمرايا أرواحهما: فعندما يفترقان، يفقد الأزواج -الذين سبق لهم الاندماج معًا- خصائصهما التي ميزتهما في يوم ما. فقبل الاندماج، كان كلاهما يتوق للآخر، أما بعد افتراقهما، فإنهما يفترقان عن أنفسهما. تلك السمة التي جذبتهما لبعضهما منذ البداية، هي نفسها السمة التي تتدمر أثناء اتحادهما.

أما عن إذا كانت تلك الحالة نعمة أم نقمة، فما زال قيد النقاش.

***

لم تخفِ والدتك قط رغبتها في الرحيل.

التقينا في ليلة من ليالي الصيف، في مخيم على مرتفعات جبال الروكي. كنا من طرفين متقابلين في البلاد، جزيئين عشوائيين على مسارات منفصلة: كنت في طريقي إلى وظيفة جديدة، أقود سيارتي عبر البلاد وأخيم توفيرًا للمال، في حين كانت هي في طريقها إلى بوسطن بعد أن ساعدت صديقتها على الانتقال بشاحنة محملة بالممتلكات إلى سان فرانسيسكو، وتُخيم لأنها رغبت في النظر إلى النجوم.

شربنا نبيذًا رخيصًا وأكلنا نقانق مشوية أرخص. سرنا معًا تحت قبة مخملية داكنة مرصعة بنجوم بلورية أكثر إشراقًا مما رأيتها في حياتي، كأننا

(1) كلمة المترجمة: تعبير البروتينات هي عملية تحويل الشفرة الوراثية في الحمض النووي إلى بروتينات. تبدأ العملية بنسخ المعلومات الوراثية إلى الحمض النووي الريبوزي المرسال (عبارة عن جزيء من الحمض النووي الذي يحمل الشفرات الوراثية في الإنسان والحيوان)، ثم يُستخدم الحمض النووي الريبوزي المرسال لتركيب البروتينات في الريبوسومات. هذه العملية ضرورية لتحديد وظائف الخلايا والأعضاء في الكائنات الحية.

بداخل حجر من الجيود[1]، وعندما شرحت لي جمالها: كل نجم فريد كالألماس، يتألق بلون مختلف. لم أستطع تذكر آخر مرة نظرت فيها إلى النجوم.

قالت: «سأذهب إلى هناك».

سألتها باندهاش: «أتقصدين المريخ؟» كان هذا هو الحدث الكبير في ذلك الوقت، الإعلان عن بعثة إلى المريخ. كان الجميع يعرفون أنها مجرد وسيلة دعائية لكي تبدو أمريكا عظيمة مرة أخرى، سباق جديد إلى الفضاء يتماشى مع سباق الأسلحة النووية وتخزين عناصر الأرض النادرة واكتشاف الثغرات السيبرانية في اليوم نفسه. فلقد وعد الطرف الآخر بالفعل رعاياه بامتلاك قاعدة على المريخ، وكان علينا أن نرد على تحركاتهم في هذه اللعبة الكبرى الجديدة.

هزت رأسها نافيَّة وقالت: «ما الفائدة من القفز إلى شعاب مرجانية موجودة على بعد أمتار قليلة من الشاطئ؟» (ثم أشارت بنظراتها بعيدًا): «أعني هناك ... في الفضاء».

لم تكن تلك من العبارات التي يمكن التشكيك فيها، لذا بدلًا من أن أسألها لماذا وكيف وعما تتحدثين، سألتها عما تأمل أن تجده هناك بين النجوم.

ربما شموسًا أخرى
تصحبها أقمار حتمًا سوف تُرى
بتوحد نورٍ ذكوري وأنثوي في المدى
جنسين عظيمين يُحيين الورى
وقد تحوي الأفلاك أرواحًا خفية
في فضاءٍ شاسع، بلا حياة، مقفرًا
مهجورًا، وحيدًا، في عزلته السرمدية
تلمع نجومه بلا عونٍ أو صدى،

---

(1) كلمة المترجمة: الجيود هو تكوين صخري يحتوي على تجويفات مبطنة بالبلورات أو المواد المعدنية. عادة ما يكون السطح الخارجي للجيود خشنًا وغير لافت للنظر، ولكن عند كسره، يكشف عن بلورات جميلة وغالبًا لامعة، من معادن مثل الكوارتز أو الأماثيست أو الكالسيت. تتكون الجيودات عندما يتسرب الماء الغني بالمعادن إلى الصخور، تاركًا رواسب تتبلور بمرور الوقت داخل التجويف.

في مدارٍ بعيدٍ، بريقها قد بدا
للأرض المأهولة، يعيد لهم ضوء السنا،
والاختلاف يُحتمل في تلك المسألة.

سألتها: «كيف يفكرون؟ كيف يرون العالم؟ طالما حاولت تخيل قصص كهذه طوال حياتي، لكن الحقيقة -بكل تأكيد- ستكون أغرب من محض قصة من وحي الخيال، وأروع. ”

تحدثت معي عن عدسات الجاذبية[1]، وعن دفع النبضة النووية[2]، وعن مفارقة فيرمي[3] ومعادلة دريك[4]، وعن أريسيبو وييفباتوريا[5]، وعن بلو أوريجن وسبيس إكس[6].

سألتها: «ألا تخافين؟».

---

(1) كلمة المترجمة: عدسات الجاذبية هي ظاهرة في الفيزياء الفلكية، ينثني الضوء القادم من مصدر بعيد بسبب الجاذبية القوية لجرم سماوي مثل ثقب أسود أو مجرة، مما يسبب تشوه الصورة أو تكبيرها. مما يسمح لنا برؤية الأجرام التي تقع خلفها.

(2) كلمة المترجمة: دفع النبضة النووية هي تقنية مقترحة للسفر في الفضاء تعتمد على استخدام انفجارات نووية لتحريك المركبات الفضائية بسرعة عالية. كانت فكرة متعلقة بمشروع «نوسترومو» الذي سعى لاستخدام الطاقة النووية في استكشاف الفضاء.

(3) كلمة المترجمة: مفارقة فيرمي طرحها الفيزيائي الإيطالي الأمريكي إنريكو فيرمي، وهي تتساءل عن سبب غياب الأدلة على وجود حضارات ذكية خارج الأرض رغم الاحتمالات الكبيرة لوجودها في الكون الواسع. المفارقة تتمحور حول التناقض بين تقديرات العلماء لكثرة الكواكب الصالحة للحياة، وعدم ظهور أي إشارات أو تواصل من كائنات فضائية ذكية.

(4) كلمة المترجمة: هي معادلة رياضية تهدف إلى تقدير عدد الحضارات المتقدمة القادرة على التواصل في مجرتنا درب التبانة، بناءً على عدد من المتغيرات، مثل معدل تكوين النجوم، ونسبة النجوم التي تملك كواكب، ونسبة الكواكب التي يمكن أن تحافظ على حياة، واحتمالية تطور الحياة الذكية، وفترة بقاء هذه الحضارات القادرة على التواصل.

(5) كلمة المترجمة: أريسيبو وييفباتوريا هما موقعان مرتبطان بإرسال إشارات من الأرض إلى الفضاء للبحث عن وجود أي حياة ذكية خارج كوكب الأرض.

(6) كلمة المترجمة: هما شركتان خاصتان تعملان في مجال الفضاء. بلو أورجين أسسها جيف بيزوس وتهدف إلى جعل السفر الفضائي متاحًا تجاريًا. أما سبايس إكس فأسسها إيلون ماسك وتهدف إلى تسهيل السفر إلى المريخ وبقية الكواكب.

أجابتني: «كدت أموت قبل أن أتمكن من البدء في التذكر. ”

ثم حدثتني عن طفولتها. كان والداها من البحارة الشغوفين، وكانا محظوظين بما يكفي ليستطيعا التقاعد مبكرًا. اشتريا قاربًا وعاشا فيه، وكان القارب بيتها الأول. وعندما كانت في الثالثة من عمرها، قرر والداها الإبحار عبر المحيط الهادئ. وفي منتصف المحيط، وبالقرب من جزر مارشال، تعرض القارب لتسرب الماء. بذلت العائلة كل ما بوسعها من جهد لإنقاذ القارب، لكنهم في النهاية اضطروا إلى تفعيل جهاز الطوارئ لطلب المساعدة.

- كانت تلك أول ذكرى لي على الإطلاق. كنت أتأرجح على هذا الجسر الضخم بين البحر والسماء، وفي أثناء غرق القارب في الماء واضطرارنا للقفز منه، جعلتني أمي أقول له وداعًا.

وعندما أنقذتهم طائرة خفر السواحل، جرفهم البحر وهم مرتدون سترات النجاة وتاهوا ليوم ونصف تقريبًا. وكانت تعاني من حروق الشمس ومن الغثيان بسبب المياه المالحة التي ابتلعتها، وقضت على إثرها شهرًا كاملًا في المشفى بعد ذلك.

- كان الكثير من المهتمين بمتابعة الأمر غاضبين من والديّ، واصفين إياهما بالتهور والاندفاع وعدم تحمل المسؤولية لتعريض حياة طفلتهما للخطر بهذا الشكل. لكنني على النقيض، ظللت ممتنة لهما إلى الأبد؛ قد منحاني أعظم هدية يمكن أن يقدمها والدان لطفلهما: الشجاعة. عملا واجتهدا واشتريا قاربًا آخر، وعدنا إلى البحر مجددًا.

كانت أفكارها غير مألوفة لي على الإطلاق، لدرجة أنني لم أجد الكلمات المناسبة للرد على ما حكته. وبدا أنها شعرت بارتباكي، فالتفتت إلي بابتسامة.

- أحب أن أعتقد أننا كنا نحافظ على تقاليد البولينيزيين[1] الذين انطلقوا عبر المحيط الهادئ الشاسع في قواربهم، أو الفايكينج الذين أبحروا نحو أمريكا. لقد قضينا أغلب سنواتنا على متن قارب، هل تعلم؟ هكذا هي الأرض، قارب في الفضاء.

---

(1) كلمة المترجمة: هم شعوب عريقة في منطقة بولينيزيا في المحيط الهادئ، عُرفوا بمهاراتهم المتقدمة في الملاحة البحرية، حيث استوطنوا جزرًا نائية مثل هاواي ونيوزيلندا باستخدام زوارق صغيرة وتقنيات ملاحة تعتمد على النجوم والتيارات البحرية. يتميز تراثهم الثقافي بالأساطير والرقصات والفنون التي تجسد مغامراتهم البحرية وشجاعتهم في استكشاف المحيطات.

للحظة، وأنا أستمع إليها، شعرت كأنني أستطيع اختراق تلك المسافة التي تفصل بيننا وأسمع أصداء العالم من خلال أذنيها، وأرى النجوم من خلال عينيها، صفاءٌ جلي جعل قلبي يقفز.

نبيذ رخيص ونقانق مشوية، وربما شموس أخرى، ألماسات في السماء تُرى من قارب تائه في البحر، ووضوح ناري لفعل الوقوع في الحب.

***

المشعون هم الكائنات الحية الوحيدة المعروفة في الكون باعتمادها على اليورانيوم.

يمكنك تخيل سطح كوكبهم كصخور عارية لا نهاية لها. ورغم أنه يبدو كصحراء قاحلة في العين البشرية، فإنه يحتوي على نقوش معقدة ذات ألوان زاهية، تمتد على مساحات كبيرة جدًّا. هذه النقوش كبيرة لدرجة أن حجم كل منها يماثل حجم مطار أو ملعب تقريبًا: تبدو كدوامات مزخرفة من حروف اللغة، أو دوائر لولبية كرؤوس نباتات السرخس الملتوية، أو أنماطًا منحنية كظلال المصابيح على جدران الكهف، أو تجمعات عنقودية كثيفة ومتوهجة تبدو كمدن مشعة في الفضاء. من حين لآخر، ينبثق عمود من البخار شديد الحرارة من الأرض كضربة ذيل الحوت أو انفجار بركان جليدي على قمر إنسيلادوس[1].

أين الكائنات التي خلفت وراءها هذه النقوش الضخمة؟ هذه التحف التي تخلد حياة قد ازدهرت واندثرت، هذه التسجيلات للأفراح والأحزان التي كانت ومضت كأنها لم تكن؟

تحفر تحت السطح، تشق طريقك عبر رواسب الحجر الرملي فوق طبقة الجرانيت الصلبة، لتجد جيوبًا من اليورانيوم المغمور في الماء.

في الظلام، تنشطر نواة ذرة اليورانيوم تلقائيًّا، مطلقة بعض النيوترونات. تسبح النيوترونات عبر فراغ واسع بين النوى مثل السفن التي تتجه نحو نجوم غريبة (ربما ليست الصورة الأكثر دقة علميًّا، لكنها صورة رومانسية

(1) كلمة المترجمة: إنسيلادوس هو أحد أقمار زحل حيث تنفجر على سطحه البراكين الجليدية وتخرج كميات كبيرة من البخار والغازات لمسافات مرتفعة.

يسهل تصورها). تبطئ جزيئات الماء، مثل السديم، من سرعة النيوترونات حتى تستقر على نواة يورانيوم أخرى، عالم جديد.

لكن إضافة هذا النيوترون الجديد يجعل النواة غير مستقرة. تهتز النواة مثل جرس منبه، ثم تنشطر إلى نواتين جديدتين وعدة نيوترونات، سفن فضائية جديدة تنطلق نحو عوالم بعيدة، لتبدأ الدورة من جديد.

لحدوث تفاعل نووي متسلسل ذاتي الاستدامة مع اليورانيوم، تحتاج إلى تركيز كافٍ من نوع معين من اليورانيوم، وهو اليورانيوم235-، الذي ينشطر عند امتصاصه للنيوترونات الحرة، وتحتاج إلى شيء يبطئ النيوترونات المسرعة ليسهل امتصاصها، والماء يفي بالغرض. وقد منَّ خالق المشعين عليهم بكليهما.

تقع النواتَج الثانوية للانشطار، تلك الشظايا المنفصلة عن ذرة اليورانيوم، في مجموعتين رئيسيتين. السيزيوم، واليود، والزينون، والزركونيوم، والموليبدينوم، والتكنيشيوم ... مثل نجوم جديدة تشكلت من بقايا انفجار نجمي، بعضها يعيش لبضع ساعات، وأخرى تدوم لملايين السنين.

تتشكل أفكار وذكريات المشعين من هذه الجواهر المشعة في البحر المظلم. تأخذ الذرات مكان الخلايا العصبية، وتعمل النيوترونات كناقلات عصبية. وتعمل المادة الوسيطة المهدئة وسموم النيوترونات كعوامل مثبطة، فتوجه مسار النيوترونات، مكونة مسارات عصبية عبر الفراغ. تنبثق عملية التفكير على المستوى تحت الذري، وتتجلى في مسارات النيوترونات المرسلة، مع ترتيب وتوزيع وتركيب الذرات، والومضات الناتجة عن التفاعلات النووية، مثل الانشطار النووي أو التحلل الإشعاعي.

كلما ازدادت حيوية أفكار المشعين ونشاطها، ارتفعت حرارة الماء في جيوب اليورانيوم. وعندما يزداد الضغط بما يكفي، يتدفق بخار الماء شديد السخونة عبر صدع في طبقات الحجر الرملي وينفجر على السطح في سحابة من البخار. والأنماط المتفرعة والمعقدة الناتجة عن ترسبات الملح الملونة على السطح تشبه آثار التأين التي تخلفها الجسيمات تحت الذرية في غرف الفقاعات.

في النهاية، يتبخر ما يكفي من الماء، فلا يعود بإمكان النيوترونات السريعة أن تُلتقط بواسطة ذرات اليورانيوم للحفاظ على التفاعل. فيغرق الكون في السكون، وتختفي الأفكار من مجرة الذرات هذه. وهكذا تلفظ كائنات المشعين أنفاسها الأخيرة: بحرارة عملياتها الحيوية نفسها.

تدريجيًا، يتسرب الماء مرة أخرى إلى المناجم، ويتساقط عبر الشقوق في الحجر الرملي والشروخ في الجرانيت. وعندما يُملأ فراغ الماضي -بما يكفي من الماء- تتحلل ذرة عشوائية مُطلقة النيوترون الذي سيبدأ بدوره سلسلة التفاعل من جديد، ليطلق أفكارًا ومعتقدات جديدة، جيلًا جديدًا من هذه الكائنات ينتفض وينبض بالحياة من تحت أنقاض رماد الماضي.

يشكك البعض في قدرة المشعين على التفكير. ويتساءل المشككون: كيف يمكن اعتبارها تفكر، بينما قوانين الفيزياء هي التي تتحكم في مسار النيوترونات مع قليل من العشوائية الكمية؟ أين إرادتهم الحرة؟ أين قدرتهم على اتخاذ القرارات؟ رغم أنه في الوقت ذاته، تتبع التفاعلات الكيميائية في عقول المشككين قوانين الفيزياء الصارمة نفسها، دون أي اختلاف.

مثل المد والجزر، تعمل التفاعلات النووية لكائنات المشعين في تتابع كالنبضات. دورة بعد أخرى، كتب على كل جيل منهم أن يكتشف العالم من أول وجديد. فلا يتمكن القدماء من نقل الحكمة للأجيال القادمة، ولا ينظر الشباب إلى الماضي. إنهم يعيشون لموسم واحد فقط، وهذا الموسم هو كل ما يعرفونه.

ومع ذلك، على سطح الكوكب، في تلك الرسوم الصخرية المنحوتة والمدهشة، توجد طبقات من آثار تعكس حقيقة ازدهارهم وفنائهم، وزفرات إمبراطورياتهم. تُترك سجلات المشعين لكي تفسرها كائنات أخرى أكثر تطورًا وذكاء في الكون.

مع ازدهار جيل بعد جيل من كائنات المشعين، يُستنفد أيضًا استنفاذ تركيز اليورانيوم235-. لا ينفك أن يستهلك كل جيل جزءًا من الموارد غير المتجددة في عالمهم، مما يترك القليل للأجيال القادمة، ويقرب اليوم الذي لن يكون فيه التفاعل المتسلسل المستدام ممكنًا. مثل ساعة تنفد قوتها بلا رجعة، سيغرق عالم المشعين حينها في صمت بارد وأبدي.

كان حماس والدتك أقوى من أن يُخفى.

سألتني: «هل يمكنك الاتصال بوكيل عقاري؟ سأبدأ في تصفية أسهمنا. لم نعد بحاجة للتوفير بعد الآن. يبدو أن والدتك ستذهب في تلك الرحلة البحرية التي طالما أرادتها».

سألت: «متى فزنا في اليانصيب؟».

فناولتني كومة من الأوراق. توجيهات برنامج لينس.

تصفحت الأوراق ... مقالك من بين أكثر الطلبات التي تلقيناها تميزًا واستثنائية ... نحن بانتظار تجاوزك الفحص الطبي والتقييم النفسي ... مقصور على العائلة المحددة فقط ...

سألتها: «ما هذا؟».

بدا اليأس على وجهها حين أدركت أنني لم أستوعب ما يجري حقًّا.

شرحت لي: «تتلاشى موجات الراديو بسرعة في رحاب الفضاء الواسع. إذا كان هناك من يصرخ في الفراغ حول النجوم البعيدة، فلن تُسمع أصواتهم إلا من قبل جيرانهم الأقرب فقط. على الحضارة التي تريد أن تبث رسالة عبر المسافات الشاسعة بين النجوم أن تستخدم طاقة نجم كامل، وكم مرة يمكن أن يحدث هذا؟ انظر إلى الأرض: بالكاد نجونا من حرب باردة واحدة قبل أن تبدأ أخرى. قبل أن نصل إلى مرحلة استغلال طاقة الشمس، سيعيش أطفالنا إما في عالم يغمره الطوفان بعد كارثة مدمرة وإما يرتجفون في شتاء نووي، عائدين إلى عصر حجري جديد.

ولكن هناك طريقة للتحايل والالتفاف حول ذلك، طريقة تمكن حتى حضارة بدائية مثل حضارتنا من التقاط همسات خافتة من أنحاء المجرة وربما الرد عليها.

تعمل جاذبية الشمس على ثني الضوء وأمواج الراديو الآتية من النجوم البعيدة حولها. هذا أحد أهم نتائج نظرية النسبية العامة.

لنفترض أن عالمًا آخر هناك في مجرتنا، ويجاري نفس خطواتنا المتلكئة على سلم التطور، أرسل رسالة بأقوى هوائي يمكنه بناؤه. عندما تصل تلك الإشارات إلينا، ستكون الأمواج الكهرومغناطيسية خافتة جدًّا لدرجة

يصعب رصدها. سنحتاج إلى تحويل النظام الشمسي بأكمله إلى طبق مكبر لالتقاطها.

لكن عندما تلامس تلك الأمواج السطح الخارجي للشمس، فإن جاذبية النجم ستحنيها قليلًا، كما تحني العدسة أشعة الضوء. هذه الأشعة المنحنية قليلًا تلتقي في نقطة معينة على مسافة خلف الشمس.

- تمامًا كما يمكننا تركيز أشعة الشمس بواسطة عدسة مكبرة إلى نقطة ما على سطح الأرض.

إن المكاسب التي سيحققها هوائي وُضع في نقطة التركيز لعدسة الجاذبية في الشمس ستكون هائلة، سيحقق زيادة هائلة في قوة الاستقبال تصل إلى عشرة مليارات ضعف في بعض نطاقات التردد، وفي نطاقات تردد أخرى قد تكون أضعافًا مضاعفة. حتى مع طبق صغير بحجم اثني عشر مترًا فقط يمكنه رصد إشارات من الطرف الآخر للمجرة. وإذا كان هناك آخرون في المجرة أذكياء بما يكفي لاستغلال عدسات جاذبية شموسهم، سنكون قادرين على التواصل معهم أيضًا، وإن كان هذا التواصل يشبه الرسائل الأحادية التي ترسل عبر غياهب الفضاء وأعمار النجوم المديدة أكثر من كونه محادثة، كرسائل ترسل في زجاجات تتهادى نحو شواطئ بعيدة، من جيل مضى منذ زمن إلى أجيال لم تولد بعد.

تقع هذه النقطة، كما يتضح، على بعد 550 وحدة فلكية تقريبًا من الشمس، أي ما يقارب أربعة عشر ضعف المسافة التي سنقطعها لنصل إلى كوكب بلوتو. سيستغرق ضوء الشمس أكثر من ثلاثة أيام ليصل إلى هذه النقطة، لكن بتقنياتنا الحالية، ستحتاج المركبة الفضائية لأكثر من قرن للوصول إليها.

لماذا نرسل بشرًا؟ ولماذا الآن؟

- لأننا بحلول الوقت الذي ستصل فيه المركبة الآلية إلى نقطة التركيز خلف الشمس، لا نعرف ما إذا كان سيبقى أحد هنا. هل ستبقى البشرية لقرن آخر؟ لست أدرى، لذا يجب أن نرسل بشرًا ليكونوا هناك للاستماع، وربما للرد أيضًا.

أنا ذاهبة على متن هذه الرحلة، وأريدك أن تأتي معي.

***

تعيش كائنات الكوزمو داخل هياكل سفن فضائية عملاقة.

فبعد أن استشعر جنسهم أنهم على أعتاب مواجهة كارثة حتمية تهدد عالمهم بالفناء، أمروا ببناء سفن إنقاذ لنقل نسب صغيرة من سكانهم بعيدًا في مأمن من مواجهة هذه الكارثة والمخاطرة بفناء هذا الجنس بأكمله. وكان جميع اللاجئين تقريبًا من الأطفال، فلقد أحب جنس الكوزمو صغارهم بقدر ما تحب أي أجناس أخرى صغارها.

وقبل سنوات من تحول نجمهم إلى مستعر أعظم[1]، انطلقت السفن في اتجاهات مختلفة بحثًا عن عوالم جديدة تصلح موطنًا لهم. بدأت السفن تتسارع، واستقر الأطفال على متنها ليتلقوا التعليم من معلمين آليين وقلة من البالغين الذين رافقوهم، محاولين الحفاظ على تقاليد عالمهم المحتضر.

حينما شارف آخر البالغين على متن كل سفينة على مفارقة الحياة، كشفوا الحقيقة للأطفال: لم تكن تلك السفن مجهزة بوسائل للتباطؤ. كانت ستواصل تسارعها إلى الأبد، مقتربة بشكل لا نهائي من سرعة الضوء، حتى ينفد الوقود وتستمر السفن في الانطلاق نحو نهاية الكون.

ضمن إطارهم المرجعي، كان الزمن سيمضي بشكل طبيعي. لكن خارج السفينة، سيستمر الكون بأسره بالاندفاع نحو نهايته الحتمية تحت تأثير الإنتروبيا[2]. وبالنسبة لأي مراقب خارجي، سيبدو الزمن كأنه توقف داخل تلك السفن من شدة سرعتها.

خارج مجرى الزمن، سيكبر الأطفال بضع سنوات فقط، وليس أكثر من ذلك. ولن تنتهي حيواتهم حتى ينتهي الكون. هذا هو السبيل الوحيد لضمان سلامتهم، كما شرح لهم البالغون، مسار لا نهائي لتحقيق الانتصار على الموت. لن ينجبوا أطفالًا، ولن يضطروا للشعور بالحزن، ولن يخافوا، أو

(1) كلمة المترجمة: المستعر الأعظم هو انفجار هائل يحدث عند نهاية حياة نجم ضخم بعدما يستنفد وقوده النووي، وينتج عنه إطلاق طاقة هائلة وعناصر ثقيلة تُبعثر في الفضاء. يُسهم هذا الانفجار في تكوين النجوم والكواكب الجديدة ويُستخدم لقياس المسافات الكونية.

(2) كلمة المترجمة: الإنتروبيا هي مفهوم فيزيائي يعبر عن مدى الفوضى أو العشوائية داخل نظام معين، وهي مقياس لدرجة تشتت الطاقة وعدم القدرة على استغلالها بشكل كامل. غالبًا ما تُفسر الإنتروبيا على أنها تمثل التحول الطبيعي نحو العشوائية أو الفوضى بمرور الوقت، وخاصة في الأنظمة المعزولة.

يخططوا، أو يختاروا التضحية. سيكونون آخر الكوزمو الأحياء، وربما آخر الكائنات الذكية في الكون بأكمله.

كل الآباء يتخذون قرارات لأطفالهم، ودائمًا يعتقدون أنها لمصلحتهم.

***

طوال الوقت، كنت أظن أن بإمكاني تغييرها. ظننت أنها سترغب في البقاء من أجلي، لأجل طفلتنا. لقد أحببتها لأنها مختلفة، واعتقدت أيضًا أنها ستتغير بدافع الحب.

قالت: «للحُب طرق كثيرة، وهذه هي طريقتي».

كثيرة هي القصص التي نرويها عن الفراق الحتمي بين العشاق عندما يكونون من عوالم مختلفة: كحكايات السيلكي، وجو هو نياو، وهاجورومو، وعذارى البجع[1] ... ما يجمعها هو اعتقاد أحد الطرفين أن الآخر يمكن أن يتغير، في حين أن الاختلاف، ومقاومة التغيير، كانا أساس الحب منذ البداية. ثم يأتي اليوم الذي يُعثر فيه على جلد الفقمة القديم أو رداء الريش المُلقى، ويحين الوقت للعودة إلى البحر أو السماء، العالم الأثيري الذي كان البيت الحقيقي للحبيب.

كان طاقم سفينة النقطة البؤرية خلف الشمس يقضون جزءًا من رحلتهم في حالة السبات، ولكن بمجرد وصولهم إلى نقطة الهدف الأولى، على بُعد 550 وحدة فلكية من الشمس، بعيدًا عن مركز المجرة، كان عليهم أن يبقوا مستيقظين ويستمعوا لأطول فترة ممكنة. كانوا يقودون السفينة على مسار حلزوني بعيدًا عن الشمس، لتغطية منطقة أكبر من المجرة يمكنهم فيها

---

(1) كلمة المترجمة: السيلكي، جو هو نياو، هاجورومو، وعذارى البجع هي مخلوقات أسطورية من ثقافات مختلفة، تجسد قصصًا عن كائنات تنتمي إلى عوالم موازية. فالسيلكي هي كائنات بحرية تتحول من فقمة إلى إنسان، وعندما يُكتشف جلدها، تعود إلى البحر. جو هو نياو في الأساطير الصينية هي طيور سحرية تتحول إلى بشر، وتعود إلى السماء عندما يُكتشف ريشها. هاجورومو، في الأساطير اليابانية، هي طيور سماوية تتحول إلى بشر،

وعندما يُكتشف ريشها، تعود إلى عالمها. أما عذارى البجع، فهن نساء بشر يتحولن إلى طيور بجع، وعندما يُكتشف أجنحتهن، يعُدن إلى البحار أو البحيرات. في جميع هذه القصص، يشكل الاختلاف بين العوالم أساس الحب والعلاقات، حيث يُعتبر «المنزل الحقيقي» هو المكان الذي تنتمي إليه هذه المخلوقات.

التقاط الإشارات. وكلما ابتعدوا عن الشمس، يتحسن تأثير تكبير الشمس نتيجة انخفاض التشويش من الهالة الشمسية على موجات الراديو الهاربة. كان من المتوقع أن يستمر الطاقم لعدة قرون، يكبرون ويشيخون، وينجبون أطفالًا ليواصلوا عملهم، ويموتون في الفراغ، كمحمية للأمل الأبدي.

قلت: «لا يمكنك أن تتخذي مثل هذا القرار نيابة عن ابنتنا».

فأجابتني: «أنت أيضًا تتخذ قرارًا نيابة عنها. كيف تعرف أنها ستكون أكثر أمانًا أو سعادة هنا؟ فهذه فرصة للارتقاء، أفضل هدية يمكننا أن نقدمها لها».

ثم جاء المحامون والصحفيون والمحللون، كل منهم يحمل عبارات قصيرة مؤيدة أو معارضة.

ثم جاءت الليلة التي ما زلت تقولين إنك تتذكريها. كانت ليلة عيد ميلادك، وكنا معًا مجددًا، نحن الثلاثة، من أجلك لأنك قلت إن هذه هي رغبتك.

أعددنا كعكة الشوكولاتة (طلبتي «تيو برووم»)، ثم خرجنا إلى الشرفة لننظر إلى النجوم. كنا أنا ووالدتك حريصين على ألا نذكر شيئًا عن المعركة المستعرة داخل أروقة المحاكم أو عن اقتراب موعد رحيلها.

فسألتها: «هل صحيح أنك نشأتِ على متن قارب يا أمي؟»".

أجابت: «نعم».

- هل كان ذلك مخيفًا؟

- أبدًا يا عزيزتي. نحن جميعًا نعيش على قارب، فالأرض ليست سوى قارب كبير في بحر النجوم.

- هل أحببتِ العيش على متن قارب؟

أجابت: «أحببتُ ذلك القارب ... حسنًا، لا أتذكر جيدًا. لا نتذكر الكثير مما حدث عندما نكون صغارًا جدًّا، إنها سمة من سماتنا كبشر. لكنني أتذكر شعوري بالحزن الشديد عندما اضطررت للوداع. لم أكن أريد ذلك. لقد كان بيتي. ”

قالت: «أنا أيضًا لا أريد أن أقول وداعًا لقاربي».

بكينا، وبكيتِ أنتِ أيضًا.

قبل أن تغادر، أعطتكِ قبلة وقالت: «هناك عدة طرق لقول أحبك».

الكون ممتلئ بالأصداء والظلال، بصور متبقية وكلمات أخيرة لحضارات ميتة خسرت معركتها ضد الإنتروبيا. موجات تتلاشى في إشعاع الخلفية الكونية، ولا يُعرف ما إذا كانت معظم هذه الرسائل أو أي منها ستُفك شفراتها يومًا ما.

وبالمثل، فإن معظم أفكارنا وذكرياتنا مقدر لها أن تتلاشى، أن تختفي، أن تُستهلك بفعل البقاء والحياة ذاتها.

هذا ليس سببًا للحزن، يا عزيزتي. إن قدر كل الأنواع أن تتلاشى في الفراغ، الموت الحراري للكون. لكن قبل ذلك بزمن طويل، ستصير أفكار أي جنس من الأجناس الذكية التي تستحق أن يُطلق عليها هذا الاسم، مخلدة وعظيمة بقدر عظمة الكون نفسه.

والدتكِ نائمة الآن على متن سفينة النقطة البؤرية. لن تستيقظ حتى تصيري امرأة مسنة، أو ربما حتى بعد رحيلك.

بعد استيقاظها، ستبدأ هي ورفاقها بالاستماع، وسيبدؤون في التواصل أيضًا، على أمل أن يكون هناك جنس آخر في مكان ما في الكون، نوع آخر من الكائنات يستغل طاقة نجمه لتركيز الأشعة الخافتة عبر السنوات ضوئية وعبر أبعاد طويلة. سيذيعون رسالة مُصممة لتعريفنا بالغرباء، مكتوبة بلغة تعتمد على الرياضيات والمنطق. لطالما وجدتُ من المضحك أننا نعتقد أن أفضل طريقة للتواصل مع كائنات فضائية هي التحدث بلغة لا نستخدمها أبدًا في حياتنا اليومية.

لكن في النهاية، كختام، سيكون هناك تسجيل لذكريات مضغوطة، لن تكون منطقية تمامًا: كالانحناءة الرشيقة لحيتان متقافزة، ووميض نار المخيم والرقص بجموح، والصيغ الكيميائية التي تشكل روائح ألف أكلة، بما في ذلك النبيذ الرخيص والنقانق المشوية، وضحكة طفل يتذوق طعام الآلهة للمرة الأولى. جواهر متلألئة لا تكشف معانيها بوضوح، ولهذا السبب تبقى حية.

وهكذا نقرأ يا عزيزتي هذا الكتاب الذي كتبته لكِ قبل أن تغادر، فتحكي كلماته المزخرفة ورسوماته المعقدة قصصًا خيالية ستكبر معكِ، هو اعتذار، وحزمة رسائل للديار، وخريطة لاستكشاف أعماق أرواحنا المجهولة.

هناك عدة طرق لقول أحبك في هذا الكون البارد، المظلم، الصامت، بقدر عدد النجوم المتلألئة.

***

ملاحظات المؤلف:

للمزيد عن موضوع الوعي كعملية ضغط، انظر:

Maguire, Phil, et al. “Is Consciousness Computable? Quantifying Integrated Information Using Algorithmic Information Theory. » arXiv preprint arXiv:1405. 0126 (2014) (available at arxiv. org/pdf/ 1405. 012).

للمزيد عن المفاعلات النووية الطبيعية، انظر:

Teper, Igor. “Inconstants of Nature,» Nautilus, January 23, 2014 (available at nautil. us/issue/9/time/inconstants-of-nature). Davis, E. D. , C. R. Gould, and E. I. Sharapov. “Oklo reactors and implications for nuclear science. » International Journal of Modern Physics E 23. 04 (2014) (available at arxiv. org/pdf/1404. 4948).

للمزيد عن SETI وعدسة الجاذبية للشمس، انظر:

Maccone, Claudio. “Interstellar radio links enhanced by exploiting the Sun as a gravitational lens. » Acta Astronautica 68. 1 (2011): 76–84 (available at snolab. ca/public/JournalClub/alex1. pdf).

الأبديون

قبل زمن بعيد، بعد أن فُصلت الجنة عن الأرض، تجولت نوجوا[1] على ضفاف النهر الأصفر، تستمتع بملمس التربة الطينية الخصبة تحت قدميها.

من حولها، تفتحت الأزهار بكل ألوان قوس قزح، جميلة كأطراف السماء الشرقية، كان على نوجوا إصلاح تسرب أحدثته آلهة الحرب التافهة، بمعجون مصنوع من الأحجار الكريمة المذابة. كان الغزال وجاموس الماء يركضان عبر السهول، في حين تراقصت أسماك الشبوط الذهبية والتماسيح الفضية في ماء النهر.

لكنها كانت وحيدة تمامًا. لم يكن معها أحد لتتحدث معه، ولا أحد لتشاركه كل هذا الجمال.

جلست بجوار الماء، وبدأت في تشكيل حفنة من الطين. بعد فترة قصيرة، كانت قد صنعت نسخة مصغرة من نفسها: رأس دائري، وجسم طويل، وذراعين وساقين، ويدين وأصابع صغيرة نحتتها بعناية باستخدام سيخ حاد من البامبو.

حملت الشكل الطيني الصغير بين يديها، ورفعته إلى فمها، ونفخت فيه أنفاس الحياة. شهق الشكل أنفاسه الأولى، وتلوى في يدي نوجوا، وبدأ يهذي.

(1) كلمة المترجمة: نوجوا (Nüwa) هي إلهة في الأساطير الصينية القديمة، تُعتبر خالقة البشرية ومُصلحة العالم. تقول الأسطورة إنها استخدمت الطين لتشكيل أول البشر، وصنعت الرجال والنساء ليكونوا خدمًا لها. كما يُحكى أنها أصلحت السماء بعد تعرضها للضرر باستخدام حجارة ملونة. تُعتبر نوجوا أيضًا إلهة حماية الأسرة، وتُطلب بركتها في بعض الطقوس التقليدية. تمثل نوجوا الخصوبة والخلود وأيضًا الطبيعة الأم، وتعكس قيم الإبداع والحماية في الثقافة الصينية.

ضحكت نوجوا. لن تكون وحدها بعد الآن. أجلست الشكل الصغير على ضفاف النهر الأصفر، وأخذت حفنة أخرى من الطين وبدأت في النحت مجددًا.

وهكذا خُلق الإنسان من الأرض، وإلى الأرض سيعود دائمًا.

***

سأل صوت نعسان: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

قالت ماجي تشاو: «سأخبرك غدًا في الليل. حان وقت النوم الآن».

وضعت بوبي، الذي يبلغ من العمر خمس سنوات، وليديا، التي تبلغ من العمر ست سنوات، في السرير، وأطفأت نور غرفة النوم، وأغلقت الباب خلفها.

وقفت في مكانها لحظة، تستمع، كما لو كانت تستطيع سماع تدفق الفوتونات وهي تنساب بجانب هيكل السفينة الأملس الدوار.

كان الشراع الشمسي الكبير يعمل في صمت في فراغ الفضاء، في حين كانت سفينة زبد البحر تدور مبتعدة عن الشمس، وتتسارع عامًا بعد عام حتى صار لون الشمس أحمر باهتًا من بعيد، غروب دائم يتضاءل.

هناك شيء يجب أن تريه. كان ذلك همس جواو - زوج ماجي والضابط الأول على السفينة - في عقلها. كان بإمكانهما التحدث مع بعضهما من خلال شريحة صغيرة من الواجهة البصرية العصبية، مزروعة في دماغ كل منهما. كانت الشرائح تحفز الخلايا العصبية المعدلة وراثيًّا في مناطق معالجة اللغة في القشرة الدماغية بدفقات من الضوء، مما يجعلها تنشط بالطريقة نفسها التي ينشط بها الكلام الفعلي.

أحيانًا، كانت ماجي تفكر في هذه الشريحة كنوع من الشراع الشمسي المصغر؛ تعمل الفوتونات بجد لتوليد الأفكار.

أما جواو، فكان ينظر إلى التكنولوجيا بشكل أقل رومانسية. حتى بعد مرور عقد من الزمن على إجراء العملية، لم يكن يحب الطريقة التي يستطيعان بها الوجود في عقلي بعضهما. كان يفهم مزايا نظام التواصل، الذي يسمح لهما بالبقاء على اتصال دائم، لكنه شعر أنه غير مريح، كما لو أنهما يتحولان ببطء إلى بشر آليين. لم يكن يستخدمه إلا إذا كان الأمر عاجلًا.

قالت ماجي: «سآتي على الفور». وسرعان ما اتجهت نحو طابق الأبحاث، بالقرب من مركز السفينة. هناك، كانت الجاذبية المحاكاة بواسطة الهيكل

الدوار أخف، وكان المستوطنون يمزحون قائلين إن موقع المختبرات يساعد الناس على التفكير بشكل أفضل، بسبب تدفق المزيد من الدم المؤكسج إلى الدماغ.

اختيرت ماجي تشاو لهذه المهمة لأنها خبيرة في النظم البيئية المستقلة، وأيضًا لأنها شابة وقادرة على الإنجاب. مع سفر السفينة بسرعة بسيطة مقارنة بسرعة الضوء، سيستغرق الأمر ما يقرب من أربعمائة عام (وفقًا للزمن المراقب من داخل السفينة[1]) للوصول إلى نجم 61 العذراء في كوكبة العذراء، حتى بعد أخذ تأثيرات تمدد الزمن[2] الناتج عن السفر بسرعات قريبة من الضوء في الحسبان. ويتطلب هذا التخطيط لإنجاب الأطفال والأحفاد؛ يمكن في يوم من الأيام أن ينقل أحفاد المستوطنين تراث وذكرى المستكشفين الثلاثمائة الأصليين إلى كوكب جديد وعالم غريب.

التقت ماجي جواو في المختبر. وناولها جهاز العرض دون أن يقول شيئًا. كان دائمًا يمنحها الوقت لتتوصل إلى استنتاجاتها الخاصة عن أي جديد دون تعليقاته التحريرية. كانت تلك واحدة من أولى الأشياء التي أعجبتها فيه عندما بدآ يتواعدان قبل سنوات.

قالت وهي تلقي نظرة على الموجز: «مذهل. هذه هي المرة الأولى التي تحاول فيها الأرض التواصل معنا منذ عقد».

اعتقد الكثيرون على الأرض أن سفينة زبد البحر كانت فكرة غير مجدية، وجهود دعاية من حكومة غير قادرة على حل المشكلات الحقيقية. كيف يمكن تبرير إرسال أشخاص في مهمة تستغرق قرونًا إلى النجوم في حين أنه ما زال هناك أشخاص يموتون من الجوع والأمراض على الأرض؟ بعد الإطلاق، قل التواصل مع الأرض إلى الحد الأدنى ثم انقطع تمامًا. لم ترغب الإدارة

(1) كلمة المترجمة: "الزمن المراقب من داخل السفينة» هو مقدار الوقت الذي يمر من منظور الأشخاص الموجودين على متن السفينة نفسها أثناء رحلتهم، أي الوقت الذي يشعرون بمروره.

(2) كلمة المترجمة: عند السفر بسرعات قريبة من سرعة الضوء، يتسبب تأثير «تمدد الزمن» في مرور الوقت داخل السفينة بشكل أبطأ مقارنة بالزمن الخارجي. هذا يعني أن المسافرين سيشعرون بوقت أقصر مما يراه من يراقبهم من خارج السفينة، مثل شخص على الأرض، الذي قد يلاحظ أن الرحلة استغرقت وقتًا أطول بكثير.

الجديدة في الاستمرار في دفع تكاليف تلك الهوائيات الأرضية الباهظة. لعلهم كانوا يفضلون نسيان هذه السفينة الممتلئة بالحمقى.

لكن الآن، تواصلوا عبر فراغ الفضاء ليقولوا شيئًا.

في أثناء قراءتها لبقية الرسالة، تحولت تعبيراتها تدريجيًّا من الحماس إلى عدم التصديق.

قال جواو: «يعتقدون أن هدية الخلود يجب أن تُشارك مع جميع البشرية. حتى أبعد الهائمين».

وصف الإرسال وجود إجراء طبي جديد. كان عبارة عن فيروس صغير مُعدَّل -حاسوب نانوي جزيئي، لمن يحبون التفكير في هذه المصطلحات- ويتكاثر في الخلايا الجسدية ويتجول لأعلى ولأسفل على اللوالب المزدوجة لتسلسلات الأحماض النووية، مُصلحًا الأضرار، ومثبطًا بعض الأجزاء ومحفزًا لأجزاء أخرى، وكان تأثيره النهائي هو إيقاف شيخوخة الخلايا ووقف التقدم في العمر.

ليس على البشر أن يرضخوا للموت بعد الآن.

نظرت ماجي إلى عيني جواو: «هل يمكننا تكرار هذه العملية هنا؟». *سنعيش لنمشي على سطح عالم آخر، سنتنفس هواء غير مُعاد تدويره.*

قال: «نعم. سيستغرق الأمر بعض الوقت، لكنني متأكد أننا نستطيع». (ثم تردد): «لكن الأطفال ... «.

لم يكن بوبي وليديا وليدا المصادفة، بل كانا نتيجة تفاعل مجموعة من الخوارزميات الدقيقة التي تتضمن تخطيط السكان، واختيار الأجنة، والصحة الجينية، ومتوسط العمر، ومعدلات تجديد واستهلاك الموارد.

كان كل جرام من أي مادة على متن سفينة زبد البحر محسوبًا. كان هناك ما يكفي لدعم عدد سكاني مستقر، ولكن لم يوجد سوى مساحة ضئيلة للخطأ. كان يجب حساب توقيت ولادات الأطفال ليكون لديهم الوقت الكافي لتعلم ما يحتاجون إلى تعلمه من والديهم، ثم يتخذون أماكنهم عندما يموت كبار السن بوفاة هادئة، مُعتنى بهم من قبل الآلات.

أكملت ماجي فكرة جواو: « ... سيكونون آخر الأطفال المولودين إلى أن نصل إلى وجهتنا». كانت سفينة زبد البحر مصممة لنسبة سكانية محسوبة بدقة من البالغين والأطفال. كانت الإمدادات والطاقة وآلاف المعايير الأخرى

مرتبطة جميعها بهذه النسبة. كان هناك هامش أمان إلى حد ما، لكن لم يكن بإمكان السفينة أن تدعم سكانًا يتكونون بالكامل من بالغين أقوياء، خالدين، في ذروة احتياجاتهم من السعرات الحرارية.

قال جواو: «يمكننا إما أن نموت ونترك أطفالنا يكبرون. وإما أن نعيش إلى الأبد ونبقيهم أطفالًا دائمًا».

تخيلت ماجي ذلك: يمكن استخدام الفيروس لإيقاف عملية النمو والنضوج في صغار السن. سيبقى الأطفال أطفالًا لقرون، دون أن ينجبوا الأطفال.

فجأة، خطر شيء في عقل ماجي.

قالت: «لهذا السبب صارت الأرض مهتمة بنا مرة أخرى فجأة».

- الأرض مجرد سفينة كبيرة جدًّا. إذا لم يمت أحد، فسوف تنفد المساحة في النهاية أيضًا. والآن لا توجد مشكلة أخرى على الأرض أكثر إلحاحًا من هذه. سيتعين عليهم أن يتبعونا وينتقلوا للعيش في الفضاء.

***

هل تتساءلين لماذا هناك العديد من القصص عن خلق البشر وكيفية مجيئهم إلى الوجود؟ لأن جميع القصص الحقيقية لها العديد من السرديات.

الليلة، سأقص عليك قصة أخرى.

كان هناك زمن حُكم فيه العالم من قبل الجبابرة[1]، الذين عاشوا على جبل أوثريس. كان أعظم وأشجع الجبابرة يُدعى كرونوس، الذي قادهم ذات مرة في حرب تمرد ضد أورانوس، والده الطاغية. وبعد أن قتل كرونوس أورانوس، صار هو ملك الآلهة.

لكن مع مرور الوقت، استحال كرونوس نفسه إلى طاغية. ولعل خوفه من أن ما فعله بوالده سيحدث له، ابتلع كرونوس جميع أطفاله فور ولادتهم.

(1) كلمة المترجمة: الجبابرة (Titans) في الأساطير اليونانية هم كائنات عملاقة تنتمي إلى الجيل الأول من الآلهة، أبناء أورانوس (السماء) وجايا (الأرض)، ويمثلون قوى الطبيعة والكون. من أبرزهم كرونوس، الذي صار زعيم الجبابرة بعد إسقاط والده، وبروميثيوس، المعروف بإعطائه النار للبشر. اندلعت حرب بين الجبابرة والآلهة الأوليمبية تُعرف بـ«حرب الجبابرة»، وانتهت بانتصار الآلهة، مما أدى إلى إقصاء الجبابرة وحبس العديد منهم في تارتاروس. يُعتبر الجبابرة رمزًا للصراع بين القديم والحديث في الأساطير اليونانية.

أنجبت ريا، زوجة كرونوس، ابنًا جديدًا يُدعى زيوس. ولكي تُنقذ الصبي، لفّت حجرًا في بطانية وجعلته يبدو كالطفل وخدعت كرونوس ليبتلع الحجر بدلًا منه. أما الطفل الحقيقي زيوس، فقد أرسلته بعيدًا إلى كريت، حيث نشأ وهو يشرب حليب الماعز.

لا تنظري إليّ هكذا! سمعت أن حليب الماعز لذيذ جدًّا.

عندما صار زيوس مستعدًّا أخيرًا لمواجهة والده، أعطت ريا كرونوس نبيذًا مرًّا جعله يتقيأ الأطفال الذين ابتلعهم، إخوة زيوس وأخواته. ولمدة عشر سنوات، قاد زيوس الأولمبيين، وهو الاسم الذي سيعرف به زيوس وإخوته، في حرب دموية ضد والده والجبابرة. في النهاية، انتصرت الآلهة الجديدة على القدامى، وطُرد كرونوس والجبابرة إلى تارتاروس الذي بلا ضوء.

واستمر الأولمبيون في إنجاب أطفالهم، فهكذا تسير الحياة. كان لزيوس العديد من الأطفال، بعضهم بشريون وبعضهم لا. كانت أثينا واحدة من أطفاله المفضلين، الإلهة التي وُلدت من رأسه، من أفكاره وحدها. هناك العديد من القصص عنهما أيضًا، سأحكيها لك في وقت آخر.

لكنهم عفوا عن بعض الجبابرة الذين لم يقاتلوا بجانب كرونوس. كان أحدهم هو بروميثيوس، الذي شكل جنسًا من الكائنات المصنوعة من الطين، ويُحكى إنه انحنى ليهمس لهم بكلمات الحكمة التي منحتهم الحياة.

لا نعرف ما الذي علمه بالضبط لهذه الكائنات الجديدة، أي نحن. ولكنه كان إلهًا شهد أبناءً يثورون ضد آبائهم، وكل جيل جديد يحل محل القديم، مُعيدًا تشكيل العالم من جديد في كل مرة. يمكننا أن نتخيل ما قد قاله.

تمرَّد. *التغيير هو الثابت الوحيد*.

***

قالت ماجي: «الموت هو الخيار السهل».

رد جواو: «إنه الخيار الصحيح».

أرادت ماجي أن يتناقشا في رؤوسهما، لكن جواو رفض. كان يريد التحدث بالشفتين، واللسان، ونفثات الهواء، بالطريقة القديمة.

لقد أزيل كل جرام من الكتلة غير الضرورية من بناء سفينة زبد البحر. كانت الجدران رقيقة والغرف متقاربة. وتردد صوت ماجي وجواو في الأروقة والأسطح.

في جميع أنحاء السفينة، توقفت عائلات أخرى، كانت تخوض النقاش نفسه في رؤوسهم، ليستمعوا لهما.

قال جواو: «يجب أن يموت القدامى ليفسحوا المجال للجدد. كنت تعرفين أننا لن نعيش لنرى زبد البحر تهبط عندما وافقتِ على هذه المهمة. الأطفال والأحفاد، الأجيال القادمة، هم من مُقدر لهم أن يرثوا العالم الجديد».

- يمكننا أن نهبط للعالم الجديد بأنفسنا. لا يتعين علينا ترك كل العمل الشاق لأبنائنا الذين لم يولدوا بعد.
- نحتاج إلى تمرير ثقافة إنسانية قابلة للحياة للمستوطنة الجديدة. ليس لدينا أي فكرة عن العواقب طويلة الأمد لهذا العلاج على صحتنا العقلية

- إذًا دعنا نؤدي العمل الذي وافقنا عليه: الاستكشاف. دعنا نستكشف الأمر ...
- إذا استسلمنا لهذا الإغراء، فسنصل إلى هناك كأشخاص أعمارهم تتجاوز الأربعمئة عام خافوا من الموت، وتجمدت أفكارهم عند الأرض القديمة. كيف يمكننا أن نعلم أطفالنا قيمة التضحية، ومعنى البطولة، والبدايات الجديدة؟ لن نكون أكثر من مجرد ظل للإنسانية.
- لقد توقفنا عن أن نكون بشرًا في اللحظة التي وافقنا فيها على هذه المهمة!

توقفت ماجي لتسيطر على صوتها.

- واجه الأمر، خوارزميات تخصيص الولادات لا تهتم بنا، أو بأطفالنا. نحن مجرد أوعية لنقل مزيج مخطط من الجينات إلى وجهتنا. هل تريد حقًا أن تنمو الأجيال وتعيش وتموت هنا، ولا تعرف سوى هذا الأنبوب المعدني الضيق؟ أنا قلقة على صحتهم النفسية.
- الموت ضروري لنمو جنسنا.

كان صوته مليئًا بالإيمان، وقد سمعت في نبرته أملًا في أن يكون ذلك كافيًا لكليهما.

- أن نموت لنحتفظ بإنسانيتنا، تلك هي الخرافة.

نظرت ماجي إلى زوجها، وكان قلبها ممتلئ بالألم. كان بينهما انقسام، لا يمكن التغلب عليه كتمدد الزمن.

تحدثت إليه داخل عقله. تخيلت أفكارها، وهي تتحول إلى فوتونات، تضغط على دماغه، لتحاول إضاءة الفجوة. نحن نتوقف عن *أن نكون بشر في اللحظة التي نستسلم فيها للموت.*

نظر جواو إليها. لم يقل شيئًا-لا في عقلها ولا بصوت عالٍ- وكانت تلك طريقته في قول كل ما يحتاج إلى قوله.

ظلا هكذا لفترة طويلة.

***

في البدء، خلق الله الإنسان ليكون خالدًا، مثل الملائكة. وقبل أن يختار آدم وحواء أن يأكلا من شجرة معرفة الخير والشر، لم يتقدم بهما العمر ولم يصابا بالمرض. خلال النهار، كانا يعتنيان بالحديقة، وفي الليل، يستمتعان بصحبة بعضهما.

نعم، أعتقد أن الحديقة كانت تشبه إلى حد ما المزرعة المائية.

أحيانًا كانت الملائكة تأتي لزيارتهما، وحسبما يقول ميلتون[1]، -الذي وُلد بعد فترة متأخرة جدًا فلم يقرأ الكتاب المقدس التقليدي- كانا يتحدثان ويتفكران في كل شيء: هل تدور الأرض حول الشمس أم العكس؟ هل توجد حياة على كواكب أخرى؟ هل تمارس الملائكة الجنس أيضًا؟

أوه لا، لست أمزح. يمكنك البحث عن ذلك في الكمبيوتر. كان آدم وحواء خالدين ودائمي الفضول. لم يحتاجا إلى الموت ليمنحا حياتهما هدفًا، أو لتحفيزهما على التعلم، أو العمل، أو الحب، أو إعطاء معنى للوجود. إذا كانت

(1) كلمة المترجمة: جون ميلتون (1608–1674) هو شاعر ومفكر إنجليزي معروف بقصيدته الملحمية "الفردوس المفقود»، التي تستعرض مواضيع الإغراء والإرادة الحرة وسقوط الإنسان. كان شخصية بارزة في الأدب وناشطًا سياسيًا، عُرف بآرائه عن الحرية الفردية. وكتب على نطاق واسع عن المواضيع الدينية والسياسية، وتعتبر "الفردوس المفقود» واحدة من أعظم الأعمال الأدبية، حيث تتميز بشخصياتها المعقدة واستكشافها لطبيعة الخير والشر. تستمر أفكار ميلتون في التأثير على الأدب والفلسفة حتى يومنا الحالي.

تلك القصة صحيحة، فهذا يعني أننا لم نُخلق لنموت. وأن معرفة الخير والشر كانت في الحقيقة هي معرفة الندم.

قالت سارة البالغة من العمر ست سنوات: «أنت تعرفين قصصًا غريبة جدًّا يا جدتي». أجابت ماجي: «هذه القصص من قديم الأزل. عندما كنت صغيرة، كانت جدتي تحكي لي العديد من القصص، كما أنني قرأت الكثير منها».

- هل تريدينني أن أعيش إلى الأبد مثلك، ولا أكبر في السن أو أموت يومًا ما مثل أمي؟

- لا أستطيع أن أخبرك بما يجب أن تفعليه يا عزيزتي. سيتعين عليك معرفة ذلك عندما تكبرين.

- مثل معرفة الخير والشر؟

- شيء من هذا القبيل.

انحنت ماجي وقبلت حفيدة، حفيدة، حفيدة -لقد توقفت عن العد منذ زمن طويل- حفيدتها برفق. كانت عظامها رقيقة وهشة كعظام الطيور، مثل جميع الأطفال الذين وُلِدوا في جاذبية منخفضة على متن زبد البحر. أطفأت ماجي الضوء الليلي وخرجت. رغم أنها ستحتفل بعيد ميلادها الأربعمئة بعد شهر، فلم تبد ماجي أكبر من خمسة وثلاثين عامًا. كانت وصفة نبع الشباب، آخر هدية من الأرض للمستوطنين قبل أن يفقدوا كل سبل التواصل، فعالة للغاية. توقفت وشهقت عندما رأت صبيًّا صغيرًا، يبلغ من العمر عشر سنوات تقريبًا، ينتظر أمام باب غرفتها.

قالت ماجي: «بوبي». باستثناء الأطفال الصغار جدًّا الذين لم يتلقوا الزرعات بعد، صار جميع المستوطنين يتواصلون عبر الأفكار بدلًا من الكلام، مما كان أسرع وأكثر خصوصية.

نظر إليها الصبي دون أن يتحدث أو يفكر في أي شيء موجه إليها. تأثرت بمدى شبهه بوالده، فكانت لديه تعبيرات الوجه نفسها، والحركات نفسها، وحتى طرق الكلام دون كلام نفسها.

تنهدت، وفتحت الباب ودخلت بعده.

قال وهو يجلس على الأريكة حتى لا تتدلى قدماه: «شهر آخر».

كان الجميع على متن السفينة يعدون الأيام. فبعد شهر آخر، سيكونون في مدار حول الكوكب الرابع من نجم 61 العذراء في كوكبة العذراء، أرضهم الجديدة.

- بعد أن نهبط، هل ستغير رأيك بشأن ...

ترددت لكنها تابعت بعد لحظة: «مظهرك؟».

هز بوبي رأسه، وظهرت على وجهه لمحة من عناد الأطفال.

- أمي، لقد اتخذت قراري منذ وقت طويل. انسِ الأمر. أنا أحب مظهري كما هو.

في النهاية، قرر رجال ونساء زبد البحر ترك خيار الخلود لكل فرد. كانت القواعد الصارمة وغير العاطفية التي تحكم النظام البيئي المغلق على متن السفينة، تعني أنه عندما يختار شخص ما الخلود، سيتعين على الطفل أن يبقى طفلًا حتى يقرر شخص آخر على السفينة أن يتقدم في العمر ويموت، مما يتيح مكانًا جديدًا لشخص بالغ.

اختار جواو أن يتقدم في العمر ويموت، واختارت ماجي أن تبقى شابة. جلسوا معًا كعائلة، وكان الأمر أشبه بالطلاق بشكل ما.

قال جواو: «أحدكما سيكبر».

سألت ليديا: «أي واحد؟».

أجاب جواو وهو ينظر إلى ماجي التي أومأت بتردد: «نعتقد أن القرار لكما».

رأت ماجي أن وضع مثل هذا الخيار أمام أطفالهما كان غير عادل وقاسٍ من قبل زوجها. فكيف يمكن للأطفال اتخاذ قرار بشأن ما إذا كانوا يريدون أن يكبروا في حين أنهم لا يفهمون حقًّا ما يعنيه ذلك؟

قال جواو: «ليس هذا أكثر ظلمًا من قرارك وقراري بشأن ما إذا كنا نريد أن نكون خالدين. فليس لدينا أي فكرة حقيقية عن معنى ذلك أيضًا. إنه أمر فظيع أن نضع مثل هذا الخيار أمامهما، لكن أن نقرر بدلًا منهما سيكون ذلك أكثر قسوة».

كان على ماجي أن تعترف بأن لديه وجهة نظر. بدا وكأنهما يطلبان من الأطفال أن يختارا جانبًا. ولكن لعل ذلك كان الهدف.

نظرت ليديا وبوبي إلى بعضهما، وبدا أنهما توصلا إلى تفاهم صامت. نهضت ليديا وذهبت إلى جواو، وعانقته. في الوقت نفسه، جاء بوبي وعانق ماجي.

قالت ليديا: «أبي، عندما يأتي دوري، سأختار خيارك». شد جواو ذراعيه حولها وأومأ.

ثم تبادل ليديا وبوبي مكانيهما وعانقا والديهما مرة أخرى، متظاهرين بأن كل شيء على ما يرام.

بالنسبة لأولئك الذين رفضوا العلاج، استمرت الحياة كما هي مخطط لها. مع تقدم جواو في السن، نمت ليديا: في البدء مراهقة غريبة، ثم امرأة شابة جميلة. درست الهندسة، كما توقعت اختبارات قدراتها، وقررت أنها معجبة بكاثرين، الطبيبة الخجولة التي اقترحتها الكمبيوترات كشريكة مناسبة لها.

سألت ليديا كاثرين بوجنتيها المتوردتين يومًا ما: هل ستكبرين في السن وتموتين معي؟».

تزوجتا وأنجبا ابنتين، لتحلا محلهما عندما يحين وقتهما.

سألها جواو ذات مرة: «هل شعرتِ يومًا بالندم على اختيار هذا الطريق؟»، كان قد صار كبيرًا في السن ومريضًا للغاية، وبعد أسبوعين ستحقنه الحواسيب بالأدوية التي ستنومه ولن يستيقظ مجددًا.

أجابت ليديا وهي تمسك بيده بكلتا يديها: «كلا. لا أخاف التنحي عندما يأتي شيء جديد ليحل محلي».

فكرت ماجي: *لكن من يضمن أننا لسنا «الشيء الجديد»؟*

بشكل ما، كان جانبها يفوز في الجدال. فعلى مر السنين، اختار المزيد والمزيد من المستوطنين الانضمام إلى صفوف الخالدين، بينما استمر أحفاد ليديا في الرفض بعناد. كانت سارة آخر طفل غير معالج على السفينة، وكانت ماجي تدرك أن سارة ستفتقد أوقات القصص الليلية عندما تكبر.

تجمد بوبي عند سن العاشرة جسديًّا، واجه صعوبة هو وبقية الأطفال الأبديين في الاندماج بحياة المستوطنين. فبيد أنهم كان لديهم عقودًا -وأحيانًا قرونًا- من الخبرة، احتفظوا بأجساد الأطفال وعقولهم. كانوا يمتلكون معرفة ناضجة، لكنهم ظلوا يتمتعون بمشاعر الأطفال ومرونتهم العقلية، مما جعلهم كبارًا وصغارًا في آن واحد.

نمى التوتر والاختلافات بشأن الأدوار التي ينبغي أن يلعبها الأطفال على السفينة، وفي بعض الأحيان، كان الآباء الذين رغبوا يومًا ما في العيش إلى الأبد يتنازلون عن أماكنهم استجابة لمطالب أطفالهم. لكن بوبي لم يطلب قط أن يكبر.

قال بوبي: «عقلي مرن كعقل طفل في العاشرة من عمره. لم قد أريد التخلي عن ذلك؟»

كان على ماجي أن تعترف بأنها شعرت دائمًا براحة أكبر مع ليديا ونسلها. رغم أنهم جميعًا اختاروا الموت، كما فعل جواو، مما يمكن أن يُعتبر نوعًا من التناقض مع قرارها، إلا أنها وجدت نفسها أكثر قدرة على فهم حياتهم وأداء دور فيها.

أما مع بوبي، فلم تستطع ماجي أن تتخيل ما يجول في رأسه. أحيانًا كانت تجده غريب الأطوار، وهو ما اعترفت بأنه نوع من النفاق، بالنظر إلى أنه اتخذ نفس القرار الذي اتخذته هي.

قالت له: «لكنك لن تشعر بما يعنيه أن تكون ناضجًا، أن تختبر الحب كرجل وليس كصبي».

هز كتفيه بلا مبالاة، غير قادر على الشعور بافتقاد شيء لم يمتلكه قط. أستطيع تعلم لغات جديدة بسرعة. من السهل عليّ استيعاب رؤى جديدة للعالم. سأظل دائمًا أحب الأشياء الجديدة.

انتقل بوبي إلى الكلام، وارتفع صوته الطفولي لامتلائه بالحماس والتوق: «إذا التقينا بحياة أو حضارة جديدة هناك، فسنحتاج لأشخاص مثلي، الأطفال الأبديين، لنتعلم معلومات عنهم ولنفهمهم دون خوف».

كان قد مر وقت طويل منذ أن سمعت ماجي صوت ابنها. تأثرت مشاعرها. وأومأت برأسها متقبلة اختياره.

انفرج وجه بوبي بابتسامة جميلة، ابتسامة طفل يبلغ من العمر عشر سنوات شهِد أكثر مما شهده معظم البشر في حياتهم.

- أمي، سأحصل على هذه الفرصة. جئت لأخبرك أننا تلقينا نتائج أولى عمليات الفحص القريبة لكوكب 61 العذراء، إنه مأهول بالسكان.

تحت زبد البحر، كان الكوكب يدور ببطء. غطت سطحه شبكة من بقع سداسية وخماسية الأضلاع، كل واحدة منها تمتد لمسافة ألف ميل. ونصف

هذه البقع تقريبًا كانت باللون الأسود كالزجاج البركاني، في حين كانت البقية بلون الرمل. كوكب 61 العذراء ذكّر ماجي بشكل كرة القدم.

حدقت ماجي في الكائنات الفضائية الثلاثة الواقفة أمامها في منطقة الهبوط، وكان طول كل منها يقارب ستة أقدام. بدت أجسادهم المعدنية على شكل أسطوانات مقسمة إلى عدة أجزاء، ترتكز على أربع أرجل رفيعة متعددة المفاصل.

عندما اقتربت هذه المركبات لأول مرة من سفينة زبد البحر، اعتقد المستوطنون أنها مجرد سفن استطلاع صغيرة، حتى أكدت أجهزة الفحص غياب أي مواد عضوية فيها. ثم ظنوا أنها مجرد مجسات آلية، إلى أن اقتربت تلك الكائنات من كاميرا السفينة، وأظهرت أيديها، وطرقت برفق على العدسة.

نعم، كان لديهم أيدٍ. في منتصف كل من الأجساد المعدنية، برزت ذراعان طويلتان ومنحنيتان، وانتهتا بأيدٍ ناعمة ومرنة مصنوعة من شبكة دقيقة من سبائك المعادن. تأملت ماجي يديها، ولاحظت أن أيدي الكائنات الفضائية تشبه يديها تمامًا: أربعة أصابع رفيعة، وإبهام معاكس، ومفاصل مرنة.

بشكل عام، كانت الكائنات الفضائية تذكر ماجي بالقناطير الآلية. ففي الجزء العلوي من كل جسم فضائي، كانت هناك كرة منتفخة، تشبه المصباح. وكانت هذه الكرة مزينة بمجموعة من العدسات الزجاجية، تشبه العيون المركبة الموجودة في الحشرات. إضافة إلى العدسات، كان «الرأس» مغطى أيضًا بشبكة من الدبابيس التي تراصت بشكل مكثف.

كانت الدبابيس تتلألأ وتتحرك بطريقة متناسقة ومرنة، تمامًا كما تتحرك أذرع شقائق النعمان البحرية. وبدت كأنها تتمايل مع تيار الماء، مما خلق انطباعًا بأن هذه الكائنات ليست مجرد آلات أو هياكل جامدة، بل تشبه الكائنات الحية التي تتمتع بالحركة والحياة. تدريجيًّا بعد تدقيق النظر، بدأت ترى شكل حواجب مبكسلة، وشفاه، وجفون، وجوه، وجوه بشرية.

بدأ الكائن الفضائي في الكلام. كان كلامه يبدو كإنجليزية، لكن ماجي لم تتمكن من فهمه. كانت الأصوات، مثل أنماط الدبابيس المتغيرة، بدت غير واضحة، وكأنها خارج نطاق الفهم.

قال بوبي لماجي: «إنه يتحدث الإنجليزية، لقد تطورت طريقة نطق الكلمات بالإنجليزية على مر الزمن. إنه يقول «مرحبًا بعودتكم إلى البشرية».

تحركت الدبابيس الدقيقة على وجه الكائن الفضائي، كاشفة عن ابتسامة. واصل بوبي الترجمة «غادرنا الأرض بعد فترة طويلة من مغادرتكم، لكننا كنا أسرع وتجاوزناكم في السفر قبل قرون. كنا ننتظركم. ”

شعرت ماجي بأن العالم من حولها يتغير. نظرت حولها، ورأت العديد من المستوطنين الأكبر سنًّا، الخالدين، في حالة من الدهشة.

لكن بوبي، الطفل الأبدي، تقدم خطوة إلى الأمام وقال بصوت عالٍ: «شكرًا لك»، وابتسم له في المقابل.

***

سأروي لكِ قصة يا سارة. لطالما اعتمدنا نحن البشر على القصص لنبقي خوفنا من المجهول بعيدًا.

لقد حكيت لك كيف خلق آلهة شعب المايا البشر من الذُرة، لكن هل تعلمين أنهم حاولوا قبل ذلك خلق كائنات أخرى عدة مرات؟

في البدء خُلقت الحيوانات: الفهد الشجاع والببغاء القرمزي الجميل، والسمكة المفلطحة والثعبان الطويل، والحوت العظيم وحيوان الكسلان الكسول، وسحلية الإجوانا قزحية الألوان، والخفاش الرشيق. (يمكننا البحث عن صور هذه الكائنات كلها على الكمبيوتر لاحقًا)، لكن الحيوانات لم تفعل شيئًا سوى الصراخ والزئير، ولم تستطع نطق أسماء خالقيها.

لذا، صنعت الآلهة نوعًا من الكائنات المعجونة من الطين. لكن الطينيين لم يتمكنوا من الحفاظ على شكلهم. فكانت وجوههم تذبل، وتلين بفعل المياه، كأنهم متلهفون للعودة إلى الأرض التي أُخذوا منها. لم يستطيعوا التحدث، بل كانوا يغرغرون بشكل غير مفهوم. صاروا غير متوازنين ولم يتمكنوا من التكاثر، وبالتالي لم يستطيعوا الحفاظ على وجودهم.

ما بذله الآلهة في خلقهم بعد ذلك هو الأكثر اهتمامًا بالنسبة لنا. فقد خلقوا نوعًا من الدمى الخشبية، مثل الدمى المتحركة. سمحت لهم مفاصل أطرافهم المتحركة بالتحرك بحرية. وكانت وجوههم المنحوتة تمكن شفاههم من الحركة وفتح أعينهم. عاشت هذه الدمى الخشبية في المنازل والقرى، وكانت منشغلة بحياتها اليومية.

لكن الآلهة اكتشفت أن الخشبيين كانوا بلا أرواح أو عقول، لذا لم يستطيعوا تمجيد خالقيهم بشكل صحيح. فأرسلوا طوفانًا عظيمًا لتدميرهم وطلبوا من حيوانات الغابة مهاجمتهم. وعندما زال غضب الآلهة، تحول الرجال الخشبيون إلى قردة.

عندها اتجهت الآلهة إلى الذُرة.

تساءل الكثيرون ما إذا كان الخشبيون راضين حقًّا عن خسارتهم لصالح كائنات الذُرة. لعلهم ما زالوا ينتظرون في الظلال فرصة للعودة، لاستعادة الخلق وإعادة الأمور إلى مجراها.

***

شرح أتاكس، قائد المبعوثين الثلاثة من نجم العذراء 61، أن البقع السوداء السداسية هي ألواح شمسية. ووجودها معًا يوفر الطاقة اللازمة لدعم وجود البشر على الكوكب. أما البقع البنية، فكانت مدنًا، ومصفوفات حوسبة عملاقة حيث تعيش تريليونات من البشر كأنماط حسابية افتراضية.

عندما وصل أتاكس والمستوطنون الآخرون لأول مرة، لم يكن كوكب العذراء 61 صالحًا للبشر القادمين من الأرض. كانت درجات الحرارة مرتفعة جدًّا، والهواء سامًّا للغاية، وكانت الحياة الغريبة الموجودة، التي تكونت على الأغلب من ميكروبات بدائية، قاتلة للغاية.

لكن أتاكس والآخرون الذين جاءوا إلى الكوكب لم يكونوا بشرًا، ليس بالمعنى الذي كانت ماجي ستفهمه. كانت أجسامهم مكونة من المعادن بشكل رئيسي وليس من الماء، ولم يعودوا مقيدين بحدود الكيمياء العضوية. وهو ما يعني أنهم لم يتأثروا بالعوامل التي تحد من الحياة العضوية، مثل الحرارة أو السموم. ونتيجة لذلك سرعان ما استطاعوا أن ينشئوا مشاغل ومسابك (أماكن لصهر المعادن وصنع الأشياء)، وانتشر نسلهم بسرعة في أنحاء الكوكب، مما يدل على قدرتهم على التكيف والازدهار في البيئة الجديدة رغم ظروفها القاسية.

في معظم الأوقات، اختاروا الاندماج في «الوحدانية»، أي الوعي الجمعي الذي يجمع بين التكنولوجيا الصناعية والبيولوجيا العضوية. تمر العصور في ثانية واحدة، وتُعالج الأفكار والمعلومات بسرعة الحوسبة الكمومية، فيمكن

للأحداث العميقة والمعقدة أن تحدث في وقت قصير جدًا. أي عاشوا كآلهة في عالم البتات[1] والكيوبتات[2].

في بعض الأحيان، عندما يتوقون إلى الوجود المادي، كان بإمكانهم أن يكونوا أفرادًا ويتجسدوا في آلات، كما كان الحال مع أتاكس ورفاقه. وعندئذ، كانوا يعيشون في الزمن البطيء، زمن الذرات والنجوم. تلاشت الحدود بين الأشباح (الكائنات غير المادية) والآلات (الكائنات المادية).

قال أتاكس: «هذا هو شكل الإنسانية الآن». ثم دار ببطء ليعرض جسده المعدني للمستوطنين على متن زبد البحر. وتابع: «أجسادنا مصنوعة من الفولاذ والتيتانيوم، وعقولنا من الجرافين والسيليكون. لا يمكن تدميرنا. انظروا، يمكننا حتى التحرك عبر الفضاء دون الحاجة إلى سفن أو بدلات أو طبقات من الحماية. لقد تخطينا لحوم البشر القابلة للتآكل».

كان أتاكس والآخرون يراقبون البشر القدامى من حولهم بتركيز. حدقت ماجي في عدساتهم الداكنة، محاولة أن تفهم كيف يشعر هؤلاء الآلات. هل يشعرون بالفضول؟ الحنين؟ الشفقة؟

---

(1) كلمة المترجمة: البتات (Bits) هي الوحدة الأساسية للمعلومات في الحوسبة، ويمكن اعتبارها كأصغر لبنة تستخدمها الأجهزة الرقمية مثل الحواسيب والهواتف الذكية لتخزين ومعالجة المعلومات. كل بت يمكن أن يأخذ قيمة واحدة من اثنتين: 0 أو 1، حيث يمثل 0 «لا» و1 «نعم». جميع أنواع البيانات، مثل النصوص والصور والفيديوهات، تُحوَّل إلى سلسلة من البتات لتُخزن وتُعالج، فمثلاً كلمة «مرحبا» تتحول إلى مجموعة من البتات. تعتمد الحواسيب على مجموعات من البتات لإجراء عمليات حسابية معقدة، وتكوين المعلومات، وتشغيل البرامج، مما يجعلها الأساس لكل شيء رقمي.

(2) كلمة المترجمة: الكيوبتات (Qubits) هي وحدة المعلومات الأساسية في الحوسبة الكمومية، وتعتبر أكثر تطورًا من البتات التقليدية. مثل البتات، يمكن أن تأخذ الكيوبتات قيمة واحدة من اثنتين: 0 أو 1، لكنها تتميز بإمكانية تواجدها في حالة تراكب(superposition)، مما يعني أنها يمكن أن تكون 0 و1 في الوقت نفسه، تمامًا مثل عملة معدنية تدور في الهواء. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن تتشابك الكيوبتات، مما يعني أن حالة كيوبت واحد يمكن أن تؤثر على حالة آخر، حتى لو كان بعيدًا. بفضل خصائص التراكب والتشابك، تستطيع الحواسيب الكمومية استخدام الكيوبتات لأداء عمليات حسابية بشكل أسرع وأكثر كفاءة من الحواسيب التقليدية، مما يجعلها مثالية لحل المشكلات المعقدة مثل تحليل البيانات الكبيرة أو نمذجة الجزيئات في الكيمياء.

شعرت ماجي بالقشعريرة تسري في جسدها لمرأى الوجوه المعدنية المتغيرة، والتي كانت تجسيدًا رديئًا للحم والدم. نظرت إلى بوبي، الذي بدا مسرورًا.

- يمكنكم الانضمام إلينا، إذا أردتم، أو الاستمرار في البقاء كما أنتم. من الصعب بالطبع أن تقرروا إذا لم تختبروا أسلوب وجودنا. لكن يجب أن تختاروا. لا يمكننا الاختيار بالنيابة عنكم.

فكرت ماجي شيء جديد.

حتى الشباب الأبدي والحياة الأبدية لم يبدوا مدهشين كما تبدو حرية أن تكون آلة، آلة مفكرة تمتلك جمالية صارمة من المصفوفات الكريستالية، بدلًا من العيوب الفوضوية للخلايا الحية. أخيرًا، تجاوزت الإنسانية التطور إلى عالم التصميم الذكي.

قالت سارة: «أنا لست خائفة».

لقد طلبت البقاء لبعض الوقت مع ماجي بعد مغادرة الجميع. احتضنتها ماجي طويلًا، واحتضنتها سارة بشدة في المقابل.

سألت سارة: «هل تعتقدين أن جدي الأكبر جواو كان سيشعر بخيبة أمل في. لأنني لا أتخذ الخيار الذي كان سيختاره؟».

قالت ماجي: «أعرف أنه كان سيود منك أن تقرري بنفسك. يتغير الناس، كأجناس وكأفراد. لا نعرف ما كان سيختاره إذا عرض عليه خيارك. لكن بغض النظر عن أي شيء، لا تدعي الماضي يقرر لك مستقبلك».

قبلت ماجي سارة على وجنتها وتركتها. جاءت آلة لتأخذ سارة من يدها لتتحول.

فكرت ماجي: *إنها آخر الأطفال الذين لم يخضعوا للعلاج. والآن ستكون الأولى التي تصير آلة.*

رغم أن ماجي رفضت مشاهدة عملية تحول الآخرين، فإنها شاهدت عملية بوبي بناءً على طلبه، بينما يُستبدل جسده قطعة تلو الأخرى.

قالت: «لن تنجب أطفالًا أبدًا».

أجاب وهو يثني ويفرد يده المعدنية الجديدة، التي كانت أكبر بكثير وأقوى من يديه القديمة، يدي الطفل: «على العكس، سأنجب عددًا لا يحصى

من الأطفال، سيولدون من عقلي». (كان صوته همسًا إلكترونيًّا ممتعًا، مثل برنامج تعليمي صبور): «سيرثون أفكاري كما ورثتُ جيناتك. وفي يوم ما، إذا أرادوا، سأبني أجسادًا لهم، ستكون جميلة وعملية تمامًا مثل جسدي الجديد».

مدَّ يده ليلمس ذراعها، وانزلقت أطراف أصابعه المعدنية الباردة بسلاسة فوق جلدها، وهي تتمدد كأنسجة حية. شهقت.

ابتسم بوبي وتموجت ملامح وجهه، التي هي عبارة عن شبكة دقيقة من آلاف الدبابيس، في تسلية.

انكمشت بعيدًا عنه بشكل لا إرادي.

تحولت ملامح وجه بوبي المتموجة إلى الجدية، وتجمدت، ثم لم تظهر أي تعبير على الإطلاق.

فهمت اتهامه غير المعلن. ما الحق الذي لديها لتشعر بالاشمئزاز؟ لقد عاملت جسدها كآلة أيضًا، مجرد آلة من الدهون والبروتينات، من الخلايا والعضلات. كان عقلها محفوظًا أيضًا داخل قشرة، قشرة لحمية تجاوزت عمرها الافتراضي منذ زمن طويل. كانت غير طبيعية مثله تمامًا.

ومع ذلك، بكت وهي تراقب ابنها يختفي في هيكل معدني متحرك. كانت تفكر باستمرار: «لم يعد بإمكانه البكاء»، كما لو كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يفصلها عنه.

كان بوبي على حق. أولئك الذين ظلوا أطفالًا كانوا أسرع في اتخاذ قرار التحميل. كانت عقولهم مرنة، ومن وجهة نظرهم، فالانتقال من اللحم إلى المعدن كان مجرد ترقية للأجهزة.

أما الخالدون الأكبر سنًّا، فقد ترددوا، لم يرغبوا في ترك ماضيهم خلفهم، وآخر بقايا إنسانيتهم. لكنهم بعد ذلك استسلموا أيضًا، واحدًا تلو الآخر.

لمدة سنوات، ظلت ماجي البشرية العضوية الوحيدة على كوكب العذراء 61 فيرجينيس، وربما في الكون بأسره. بنت لها الآلات منزلًا خاصًّا بها، معزولًا عن حرارة الكوكب وسمومه وضجيجه المستمر، وشغلت ماجي نفسها بتصفح أرشيفات سفينة زبد البحر، سجلات ماضي الإنسانية الطويل والميت. تركتها الآلات وحدها إلى حد كبير.

في أحد الأيام، دخلت آلة صغيرة، بطول قدمين تقريبًا، إلى منزلها واقتربت منها بحذر. ذكرتها بجرو صغير.

سألت ماجي: «من أنت؟».

قالت الآلة الصغيرة: «أنا حفيدتكِ».

قالت ماجي: «إذًا، قرر بوبي أخيرًا أن يكون لديه طفل. لقد استغرقه ذلك وقتًا طويلًا».

- أنا الطفل رقم 5,032,322 من والدي.

شعرت ماجي بالدوار. بعد فترة قصيرة من تحوله إلى آلة، قرر بوبي أن يتخذ خطوة حاسمة وينضم إلى الكيان الواحد (الوحدانية)، ولم يتحدثا معًا منذ فترة طويلة.

- ما اسمك؟

- ليس لدي اسم بالمعنى الذي تفكرين فيه. لكن لماذا لا تناديني أثينا؟

- لماذا؟

- إنه اسم من قصة كان يرويها لي والدي عندما كنت صغيرة.

نظرت ماجي إلى الآلة الصغيرة، وتغيرت تعبيراتها.

- كم عمرك؟

ردت أثينا: «هذا سؤال يصعب الإجابة عليه. نحن نولد افتراضيين وكل ثانية من وجودنا كجزء من الكيان الواحد تتكون من تريليونات من دورات الحساب. في تلك الحالة، الأفكار التي لدي في ثانية واحدة أكثر مما لديك في حياتك كلها».

نظرت ماجي إلى حفيدتها، القنطور الآلي المصغر، الحديثة والمتألقة، والتي بدت أيضًا كائنًا أكبر عمرًا وأكثر حكمة منها وفقًا للعديد من المعايير.

- لماذا اخترت أن تظهري بهذا الشكل لتجعليني أعتقد أنك طفل؟

ردت أثينا: «لأنني أريد سماع قصصك. القصص القديمة».

فكرت ماجي: *ما زال هناك صغار. ما زال هناك شيء جديد. لماذا لا يمكن للقديم أن يصير جديدًا مرة أخرى؟*

وهكذا قررت ماجي أيضًا أن تُحمِّل نفسها، لتعيد الانضمام إلى عائلتها.

في البدء، كان العالم فراغًا شاسعًا تعبره أنهار جليدية ممتلئة بالسم. تكتل السم، وتقطر، فتكوَّن يمير، العملاق الأول، وأودمبلا، البقرة الجليدية الضخمة.

تغذى يميير على حليب أودمبلا فنمى قويًا.

بالطبع لم تري بقرة من قبل. حسنًا، إنها مخلوق يعطي الحليب، الذي كنت ستشربينه لو كنت لا تزالين ...

أعتقد أنه يشبه إلى حد ما كيفية امتصاصك الكهرباء، في البداية بالتقطيرات، عندما كنت صغيرة، ثم بكميات أكبر عندما كبرت، لتمنحك القوة.

كبر يميير حتى جاء الوقت الذي أقدمت الآلهة، الإخوة فيلي وفاي وأودين، على قتله. ومن جثته، صنعت الآلهة العالم: صارت دماؤه البحر الدافئ المالح، ولحمه الأرض الغنية الخصبة، وعظامه التلال الصلبة التي تكسر المحاريث، وشعره الغابات المظلمة المتمايلة. ومن حاجبي يميير العريضين، نحتت الإله مملكة ميدجارد التي يعيش فيها البشر.

بعد وفاة يميير، سار الآلهة الثلاثة على طول شاطئ. وعند نهاية الشاطئ، عثروا على شجرتين متكئتين على بعضهما. فقرر الآلهة تشكيل تمثالين بشريين من خشب تلك الأشجار. فنفخ أودين الحياة في التماثيل الخشبية، ومنحهم فيلي الذكاء، وأعطاهم فاي الحواس والقدرة على الكلام. وهكذا جاء آسك وإمبلا، أول رجل وأول امرأة، إلى الوجود.

أتشكين في أن الرجال والنساء صُنعوا من الأشجار؟ أنت مصنوعة من معدن. من الذي يقول إن الأشجار لم تكن لتعمل بشكل جيد أيضًا؟

الآن دعيني أقص عليك قصة نشأة أسمائهم. جاء اسم «آسك» من «شجرة الرماد» (Ash tree)، وهي شجرة صلبة تُستخدم لصنع مثقاب إشعال النار. أما «إمبلا» فهي مشتقة من «شجرة الدردار» (Elm tree)، وهو نوع من الخشب اللين الذي يسهل إشعاله. وكانت حركة تدوير مثقاب النار حتى يشتعل الحطب تذكّر الناس الذين حكوا هذه القصة بعملية الاتصال الجنسي، وقد تكون هذه هي القصة الحقيقية التي أرادوا سردها.

في الماضي، كان أجدادك سيُصدمون إذا علموا أنني أتحدث إليك عن الجنس بهذه الصراحة. ما زالت الكلمة غامضة بالنسبة لك، لكنها لم تعد تحمل الجاذبية نفسها التي كانت تحملها من قبل. قبل أن نكتشف الحياة الأبدية، كان الجنس وإنجاب الأطفال أقرب ما وصلنا إليه لفكرة الخلود.

مثل خلية نحل مزدهرة، بدأ الكيان الواحد في إرسال تيارات مستمر من المستوطنين بعيدًا عن كوكب العذراء 61.

ذات يوم، جاءت أثينا إلى ماجي وأخبرتها أنها صارت مستعدة لتجسيد نفسها وقيادة مستوطنتها الخاصة. شعرت ماجي بالفراغ عندما فكرت في أنها قد لا ترى أثينا مرة أخرى. *إذًا، يمكنها أن تحب مرة أخرى حتى وهي آلة.*

سألتها ماجي: «لماذا لا أرافقك؟ سيكون من الجيد أن يحظى أطفالك بعلاقة بالماضي».

وانتشر فرح أثينا بعد طلب ماجي كشرارة كهربائية مُعدية.

جاءت سارة لتوديعها، لكن بوبي لم يظهر. لم يغفر لها قط رفضها له في اللحظة التي صار فيها آلة.

فكرت ماجي: «حتى الخالدون يحملون في قلوبهم ندمًا».

وبذلك، تجسد مليون وعي في قذائف معدنية مصممة على شكل قناطير آلية، ومثل سرب من النحل يغادر لتأسيس خلية جديدة، ارتفعت إلى السماء، والتفت أطرافها معًا لتتخذ شكل دموع راقية، وأطلقت نفسها مباشرة إلى الأعلى.

صعدوا وصعدوا، عبر الهواء الممتلئ بالغازات السامة، وعبر السماء القرمزية، خارج جاذبية الكوكب الثقيل، بتوجيه من الرياح الشمسية المتغيرة ودوران المجرة المذهل، انطلقوا عبر بحر النجوم.

سنة ضوئية تلو الأخرى، عبروا الفراغ بين النجوم. مروا بالكواكب التي استوطنت بالفعل بواسطة مستوطنات سابقة، عوالم صارت مزدهرة بمجموعاتها السداسية من الألواح الشمسية وكياناتها النابضة بالحياة من الوحدانيات.

استمروا في الطيران، باحثين عن الكوكب المثالي، العالم الجديد الذي سيكون وطنهم الجديد.

بينما كانوا يطيرون، تجمعوا معًا واقتربوا من بعضهم لمواجهة برودة الفراغ الذي كان الفضاء. بدا الذكاء، والتعقيد، والحياة، والحساب وكل شيء، صغيرًا وغير مهم أمام الفضاء العظيم والسرمدي. تاقوا إلى الثقوب السوداء البعيدة وتوهج السوبرنوفا المتفجرة. واقتربوا من بعضهم، باحثين عن الراحة في إنسانيتهم المشتركة.

وبينما كانوا يطيرون، نصف نائمين، ونصف مستيقظين، قصَّت ماجي عليهم قصصًا، نسجتها من أمواجها الراديوية المترددة بين كوكبة المستوطنين مثل خيوط العنكبوت.

هناك العديد من القصص التي رويت عن زمن الأحلام، معظمها سري ومقدس. لكن القليل منها قد حكي للغرباء، وهذه واحدة منها.

في البدء، كانت السماء والأرض، وكانت الأرض مستوية وخالية من الملامح مثل سطح سبائك التيتانيوم اللامع في أجسادنا.

لكن تحت الأرض، كانت الأرواح تعيش وتحلم.

خرجوا من عالمهم الخفي إلى الأرض، واتخذوا أشكال الحيوانات: طائر الإيمو (النعام الأسترالي)، ودب الكوالا، وخلد الماء، وكلب الدينجو، والكنجر، وسمكة القرش ... واتخذ بعضهم هيئة البشر. لم تكن أشكالهم ثابتة، بل كان يمكن تغييرها حسب رغبتهم.

تجولوا فوق الأرض وشكلوها، حيث أنشؤوا الوديان ورفعوا التلال، وحفروا الأرض لتكوين الصحاري، وحفروا عبرها الأنهار.

وأنجبوا أطفالًا، أطفالًا لا يمكنهم تغيير أشكالهم: الحيوانات، والنباتات، والبشر. وُلدت هذه الأطفال من زمن الأحلام ولكنها ليست جزءًا منه.

عندما شعرت الأرواح بالتعب، غاصوا مرة أخرى في الأرض التي جاءوا منها. وتركوا الأطفال وراءهم لا يصحبهم سوى ذكرياتهم الضبابية فقط عن زمن الأحلام، الزمن الذي كان قبل وجود الزمان.

لكن من يضمن أنهم لن يعودوا إلى تلك الحالة، إلى زمن يستطيعون فيه تغيير أشكالهم حسب إرادتهم، إلى زمن لا يكون للزمان فيه أي معنى؟

في لحظة، كانوا معلقين في فراغ الفضاء، بعيدين عن وجهتهم بسنوات ضوئية. وفي اللحظة التالية، كانوا محاطين بأنوار متلألئة.

لا، ليست أنوارًا بالضبط. رغم أن العدسات المثبتة على هياكلهم يمكنها أن ترى ما هو أبعد بكثير عن الطيف المرئي للعيون البشرية البدائية، إلا أن هذا المجال الطاقي من حولهم اهتز بترددات أقوى بكثير من حدودهم.

تباطأ المجال الطاقي ليتماشى مع الرحلة نصف الواعية لماجي والمستوطنين الآخرين.

لقد صرنا قريبين من وجهتنا.

خرجت الفكرة من وعيهم كموجة، كما لو كانت جميع منطقيتهم المحصنة تهتز بتعاطف. كانت الفكرة تبدو غريبة وأليفة في آن واحد.

نظرت ماجي إلى أثينا، التي كانت تطير بجانبها.

هل سمعت ذلك؟ قالوها معًا في الوقت نفسه. تلامست خيوط أفكارهم بلطف، كموجات راديو تتعانق.

مدت ماجي يدها إلى الفضاء بخيط فكرة: *هل أنتم بشر؟*

توقفت لحظة دامت جزءًا من مليار من الثانية، والتي بدت كالأبد نظرًا للسرعة التي كانوا يتحركون بها.

لم نفكر في أنفسنا بهذه الطريقة منذ زمن طويل.

وشعرت ماجي بموجة من الأفكار والصور والمشاعر تتدفق إليها من كل اتجاه. كانت غامرة.

في جزء من الثانية، اختبرت فرحة الطفو فوق سطح كوكب عملاق غازي، كان جزءًا من عاصفة هائلة قادرة على ابتلاع كوكب الأرض بأكمله. أدركت معنى السباحة في غلاف خارجي لنجم، حيث تتنقل بين التوهجات والهباءات البيضاء الساخنة التي ترتفع لمئات الآلاف من الأميال. شعرت بعزلة عميقة لامتلاكها حرية استكشاف كل أنحاء الفضاء، لكنها بلا وطن.

جئنا بعدكم وتجاوزناكم.

مرحبًا بكم أيها القدماء. لقد صرنا قريبين من وجهتنا.

***

هناك وقت كنا نعرف فيه العديد من القصص عن خلق العالم. كل قارة كانت واسعة، وكانت هناك شعوب كثيرة، ولكل شعب قصته الخاصة.

ثم اختفت كثير من الشعوب، ونُسيت قصصهم.

وهذه واحدة من تلك القصص التي بقيت. شُوِّهت، وتغيَّرت، وأُعيد سردها لتناسب ما يريد الغرباء سماعه، ومع ذلك احتفظت ببعض الحقائق.

في البدء كان العالم فراغًا مظلمًا، وكانت الأرواح تعيش في الظلام.

استيقظت الشمس أولًا، فتسببت في صعود بخار الماء إلى السماء وجففت الأرض. ثم نهضت الأرواح الأخرى - الإنسان، والنمر، وطائر الكركي، والأسد، والحمار الوحشي، وحيوان النو، وحتى فرس النهر- وتجولت عبر السهول، تتحدث بحماس مع بعضها.

لكن حين غابت الشمس، جلس الإنسان والحيوانات في الظلام، خائفين من التحرك. ولم يبدأ الجميع في الحركة من جديد إلا عندما أشرقت الشمس في الصباح.

لكن الإنسان لم يرضَ بانتظار النور كل ليلة. وفي إحدى الليالي، اخترع الإنسان النار لتكون له شمسه الخاصة، نور ودفء يطيعان إرادته، وهذا ما ميَّزه عن الحيوانات تلك الليلة وإلى الأبد.

وهكذا كان الإنسان يتوق إلى النور دائمًا، النور الذي يمنحه الحياة، والنور الذي سيعود إليه يومًا.

وفي الليل، حول النار، كانوا يروون لبعضهم الحكايات الحقيقية، مرة تلو أخرى.

***

اختارت ماجي أن تصير جزءًا من النور.

تخلت عن هيكلها، ومسكنها وجسدها الذي كان رفيقًا لها لوقت طويل.

هل مضت قرون؟ آلاف السنين؟ دهر؟ لم يعد لتلك القياسات من معنى.

صارت ماجي ومن معها أنماطًا من الطاقة، تعلموا كيف يتجمعون وينتشرون، يتلألؤن ويشعون. تعلمت كيف تنقل وعيها بين النجوم، كأنه شريط يمتد عبر الزمان والمكان.

تندفع من أطراف مجرة إلى مجرة أخرى.

وفي مرة، عبرت ماجي من خلال النمط الذي صار أثينا. شعرت بها كلطف يدغدغها، كأنها ضحكة خافتة.

- أليس هذا رائعًا يا جدتي؟ تعالي زورينا أنا وسارة يومًا ما!

لم تسنح لماجي فرصة الرد؛ كانت أثينا قد ابتعدت بالفعل.

اشتقت إلى هيكلي.

كان ذلك بوبي، الذي التقت به وهو يحوم بجوار ثقب أسود.

لبضعة آلاف من السنين، ظلا يراقبان الثقب الأسود معًا من خلف أفق الحدث.

قال بوبي: «هذا جميل جدًّا، لكن أحيانًا أعتقد أنني أفضل هيكلي القديم».

فأجابته ماجي: «لقد بدأت تشيخ، مثلي تمامًا».

اقتربا من بعضهما، وأضيئت تلك المنطقة من الكون لفترة وجيزة كأنها عاصفة أيونية ضاحكة.

ثم ودَّعا بعضهما.

فكرت ماجي: *هذا كوكب جميل.*

كان كوكبًا صغيرًا، صخريًّا إلى حد ما، تغطي المياه أغلبه.

حطَّت على جزيرة كبيرة بالقرب من مصب نهر.

كانت الشمس تحوم في السماء، دافئة بما يكفي ليتصاعد البخار من ضفاف النهر الموحلة. بخفة، انزلقت فوق السهول الطميية.

كان الطين مغريًا جدًّا. توقفت، وكثفت نفسها حتى صارت أنماط طاقتها قوية بما يكفي لتتمكن من اللمس. مخَّضت الماء، وجمعت كومة من الطين الغني والخصب على ضفة النهر. ثم شكلت الكومة حتى صارت على هيئة إنسان: ذراعاه منحنيتان وراحتاه على خاصرتيه، وساقاه متباعدتان، ورأسه دائري ذي تجويفات مبهمة لعينيه، وأنفه، وفمه.

نظرت إلى منحوتة جواو لفترة، ولامسته برفق، ثم تركته ليجف تحت الشمس.

عندما كانت تنظر حولها، رأت أعشابًا مغطاة بحبيبات سيليكون زاهية وأزهارًا سوداء تحاول امتصاص كل شعاع من ضوء الشمس. رأت أشكالًا فضية تسرع عبر المياه البنية وظلالًا ذهبية تنزلق في السماء النيلية. رأت أجسامًا كبيرة مغطاة بالقشور تتجول وتزأر من بعيد، وبالقرب منها انفجرت نافورة كبيرة بجانب النهر، وظهرت أقواس قزح في الضباب الدافئ.

كانت وحيدة تمامًا. لم يكن هناك أحد لتتحدث معه، ولا أحد لتشاركه كل هذه الجمال.

سمعت حفيفًا عصبيًا وبحثت عن مصدر الصوت. على بعد قليل من النهر، كانت هناك مخلوقات صغيرة ذات عيون مزروعة في جميع أنحاء رؤوسها مثل الألماس، تراقبها من الغابات الكثيفة، المكونة من أشجار ذات جذوع مثلثة الأوراق وأوراق خماسية الشكل.

اقتربت من تلك المخلوقات أكثر فأكثر. وبلا جهد، مدت يدها بداخلها إلى سلاسل جزيئية معينة، تحتوي على التعليمات الجينية للجيل القادم. أجرت تعديلًا بسيطًا، ثم تركتهم.

أطلقت المخلوقات صرخات وابتعدت بسرعة بسبب الشعور الغريب الناتج عن تعديل أجزائها الداخلية.

لم تفعل بهم شيئًا قاسيًا، لقد أجرت تعديلًا صغيرًا فقط، دفعة بسيطة في الاتجاه الصحيح. سيواصل هذا التغيير التحور، وستتراكم الطفرات لفترة طويلة بعد رحيلها. وبعد بضع مئات من الأجيال، ستكون التغييرات كافية لإحداث شرارة، شرارة ستتغذى على نفسها حتى تبدأ المخلوقات في التفكير في كيفية الحفاظ على جزء من الشمس حيًا في الليل، وتسمي الأشياء، وتسرد القصص لبعضها عن كيفية خلق كل شيء. ستتمكن من الاختيار.

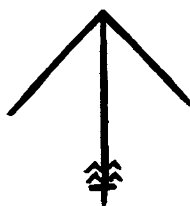
شيء جديد في الكون. فرد جديد في العائلة.

لكن الآن حان وقت العودة إلى النجوم.

بدأت ماجي تصعد لأعلى مبتعدة من الجزيرة. وتحتها، كان البحر يرسل موجة تلو الأخرى لتتحطم على الشاطئ، وكل موجة تمسك سابقتها وتتجاوزها، فتصل إلى مسافة أبعد قليلًا على الشاطئ. طفت قطع من زبد البحر في الهواء وركبت الرياح المتجهة إلى أماكن مجهولة.

جمالية الزوال

العالم يشبه كلمة مظلة حين تكتب بطريقة الكانجي[1]، لكنه مكتوب بـرداءة شديدة، مثل خطي؛ يبدو جميع أجزائه في حالة من الفوضى.



كان والدي ليشعر بالعار الشديد من الطريقة الطفولية التي ما زلت أكتب بها حروفي. في الواقع، لم أعد أستطيع كتابة العديد منها. فقد توقفت عن الذهاب إلى المدرسة في اليابان حين كنت في الثامنة.

ومع ذلك، سيفي هذا الحرف المرسوم بشكل رديء بالغرض.

السقف في الأعلى هو الشراع الشمسي. حتى هذا الكانجي المشوه لا يمكن أن يعطيك سوى لمحة عن حجمه الشاسع. فهو أرفع من ورق الأرز بمئة مرة،

(1) كلمة المترجمة: الكانجي هي مجموعة من الرموز أو الأحرف التي تُستخدم في الكتابة اليابانية، وتعود أصولها إلى اللغة الصينية. تُستخدم هذه الرموز لتمثيل الكلمات والمفاهيم، وغالبًا ما يكون لكل رمز معانٍ متعددة تتغير حسب السياق الذي تُستخدم فيه.

الكانجي هي جزء من ثلاثة أنظمة للكتابة في اليابانية، إلى جانب الهيراجانا والكاتاكانا. بينما تُستخدم الهيراجانا والكاتاكانا للحروف الصوتية، فإن الكانجي تحمل معاني محددة وهي أقرب إلى الرموز التصويرية، يمثل كل رمز كلمة أو فكرة، مثل الشمس (日) أو الشجرة (木) أو الماء(水).

ويمتد القرص الدوار (الجزء العلوي) لألف كيلومتر في الفضاء مثل طائرة ورقية عملاقة تهدف إلى التقاط كل فوتون[1] عابر. إنه يحجب السماء فعليًا.

تحتها يتدلى سلك طويل من أنابيب الكربون النانوية بطول مئة كيلومتر: قوية، وخفيفة، ومرنة. في نهاية السلك يوجد قلب الأمل وهو وحدة المعيشة، أسطوانة بارتفاع خمسمئة متر تمتلئ بجميع سكان العالم البالغ عددهم 1,021 شخصًا.

أشعة الشمس تدفع الشراع، مما يحركنا في مدار متسع ومتسارع باستمرار، مبتعدين عن الشمس. هذه التسارعات تدفعنا نحو السطح، مما يجعل كل شيء أثقل.

يأخذنا مسارنا نحو نجم يُدعى 61 العذراء. لا يمكننا رؤيته الآن لأنه خلف الشراع الشمسي. ستصل الأمل إلى هناك بعد نحو ثلاثمئة سنة، تقريبًا. مع بعض الحظ، سيتمكن أحفاد أحفاد أحفاد -لقد حسبت عدد الأحفاد مرة واحدة لكنني لا أتذكر الآن- أحفادي من رؤيته.

لا توجد نوافذ في وحدة المعيشة، ولا يوجد عرض عابر للنجوم التي تمر بجانبنا. معظم الناس لا يهتمون، فقد ملوا من رؤية النجوم منذ فترة طويلة. لكنني أحب النظر من خلال الكاميرات المثبتة في أسفل السفينة، لأتمتع برؤية توهج شمسنا المتراجع، الذي يميل إلى الاحمرار، والذي يمثل ماضينا.

***

قال لي والدي وهو يهزني لأستيقظ: «هيروتو، جهز أغراضك. حان الوقت». كانت حقيبتي الصغيرة جاهزة. كان علي فقط وضع طقم لعبة جو[2]

---

(1) كلمة المترجمة: الفوتون هو جسيم أولي يمثل وحدة الضوء والإشعاع الكهرومغناطيسي، ويتميز بكونه بلا كتلة سكون وينتقل في الفراغ بسرعة الضوء. يربط بين الجسيمات المشحونة كهربائيًا. ناقلًا الطاقة بينها. يتميز الفوتون بثنائية الموجة والجسيم، إذ يُظهر خصائص التداخل مثل الموجة وسلوك الجسيم عند التفاعل، وتعتمد طاقته على تردد الضوء، مما يجعله أساسًا لفهم التفاعلات الكهرومغناطيسية في نظرية الكهروديناميكا الكمومية.

(2) كلمة المترجمة: لعبة Go هي لعبة لوحية استراتيجية نشأت في الصين منذ آلاف السنين وتُعتبر من أقدم الألعاب المستمرة حتى اليوم. تُلعب على لوحة شبكية (عادة 19×19) بين لاعبين، يحاول كل لاعب باستخدام حجارة سوداء أو بيضاء السيطرة على أكبر مساحة ممكنة ومحاصرة حجارة الخصم، لتُزال من اللوحة عند إحاطتها بالكامل. تتميز اللعبة بقواعد بسيطة لكنها تحتوي على عمق استراتيجي يتطلب التخطيط المسبق وموازنة الدفاع والهجوم.

فيها. أعطاها لي والدي عندما كنت في الخامسة من عمري، وكانت الأوقات التي لعبنا فيها هي أفضل ساعات اليوم.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما خرجت أنا ووالدي. كان جميع الجيران يقفون خارج منازلهم بحقائبهم أيضًا، تبادلنا التحيات بشكل مهذب تحت نجوم الصيف. كالمعتاد، كنت أبحث عن المطرقة. كان الأمر سهلًا. منذ كنت صغيرًا، كان كويكب المطرقة هو الشيء الأكثر سطوعًا في السماء باستثناء القمر، وكل عام كان يزداد سطوعًا.

كانت هناك شاحنة مزودة بمكبرات الصوت تسير ببطء في منتصف الشارع.

- انتباه، يا مواطني كوروم! يرجى التوجه بطريقة منظمة إلى محطة الحافلات. سيكون هناك الكثير من الحافلات لتأخذكم إلى محطة القطار، حيث يمكنكم الصعود إلى متن القطار المتجه إلى كاجوشيما. لا تقودوا سياراتكم. يجب أن تتركوا الطرق مفتوحة لحافلات الإخلاء والسيارات الرسمية!

كانت كل عائلة تسير ببطء على الرصيف.

قال والدي لجارتنا: «مدام ميدا، لما لا أساعدك في حمل أمتعتك؟».

قالت المرأة العجوز: «أنا ممتنة لك جدًّا».

بعد عشر دقائق من المشي، توقفت مدام ميدا واستندت إلى عمود الإنارة.

قلت: «لم يتبق سوى القليل يا جدتي»، (أومأت برأسها لكنها كانت منهكة جدًّا فلم تستطع التحدث. حاولت أن أشجعها): «هل تتطلعين لرؤية حفيدك في كاجوشيما؟ أنا أيضًا أفتقد ميتشي. ستتمكنين من الجلوس معه والاستراحة في السفن الفضائية. يقولون إن هناك مقاعد كافية للجميع».

ابتسمت لي أمي باستحسان.

قال والدي: «كم نحن محظوظون لوجودنا هنا». وأشار إلى الصفوف المنظمة من الناس المتجهين نحو محطة الحافلات، وإلى الشبان الذين يرتدون قمصانًا وأحذية نظيفة ويبدون جادين، والنساء في منتصف العمر اللواتي يساعدن آباءهم المسنين، والشوارع النظيفة الفارغة، والهدوء. ورغم الزحام، لم يتحدث أحد بصوت عالٍ، بل كانوا يتحدثون همسًا. كان

الهواء نفسه يبدو متلألئًا بفعل الروابط القوية غير المرئية بين جميع الناس -العائلات والجيران والأصدقاء والزملاء- كما لو كانت خيوطًا من الحرير.

لقد رأيت على التلفاز ما يحدث في أماكن أخرى حول العالم: لصوصًا يصرخون، ويرقصون في الشوارع، وجنودًا ورجال شرطة يطلقون النار في الهواء وأحيانًا على الحشود، ومباني مشتعلة، وأكوامًا متمايلة من الجثث، وجنرالات يصرخون أمام حشود هائجة، متعهدين بالانتقام من مظالم قديمة حتى في أثناء انتهاء العالم.

قال والدي: «هيروتو، أريدك أن تتذكر هذا»، (نظر حوله، مفعمًا بالعواطف): «في وجه الكوارث، نظهر قوتنا كشعب. افهم أننا لا نُعرَّف بوجودنا كأفراد، بل بشبكة العلاقات التي نُحاط بها. يجب على الشخص أن يتجاوز احتياجاته الأنانية حتى نتمكن جميعنا من العيش في انسجام. الفرد صغير وعاجز، لكن عندما نكون مترابطين معًا، كشعب واحد، فإن الأمة اليابانية لا تقهر. ”

***

قال بوبي البالغ من العمر ثماني سنوات: «سيد شيميزو، لا أحب هذه اللعبة».

تقع المدرسة في قلب وحدة المعيشة الأسطوانية، حيث يمكن أن يستفيدوا من أكبر قدر من الحماية من الإشعاع. عُلق أمام الفصل علم أمريكي كبير يتلو الأطفال قسم الولاء له كل صباح. وعلى جانبي العلم الأمريكي يوجد صفان من الأعلام الأصغر التابعة لدول أخرى بها ناجون على متن الأمل. في نهاية الجانب الأيسر، توجد رسمة طفل لعلم الهينومارو، والتفت زوايا الورقة البيضاء، وتلاشى قرص الشمس الأحمر اللامع إلى لون برتقالي كغروب الشمس. لقد رسمته في اليوم الذي صعدت فيه على متن الأمل.

جلست على كرسي بجانب الطاولة حيث جلس بوبي وصديقه إريك.

- لماذا لا تحب هذه اللعبة؟

كان هناك شبكة مربعة من خطوط مستقيمة بحجم تسعة عشر في تسعة عشر بين الولدين. وضعت مجموعة من الحجارة السوداء والبيضاء على التقاطعات.

مرة كل أسبوعين، أحصل على يوم عطلة من واجباتي المعتادة في مراقبة حالة الأشرعة الشمسية، وآتي إلى هنا لتعليم الأطفال بعض المعلومات عن اليابان. أشعر أحيانًا بالسخافة لفعل ذلك. كيف يمكنني أن أكون معلمهم بينما لا أملك سوى ذكريات ضبابية من طفولتي عن اليابان؟

لكن ليس لدينا خيار آخر. يشعر جميع الفنيين غير الأمريكيين مثلي بأنه من واجبنا المشاركة في برنامج إثراء الثقافة في المدرسة وتمرير ما يمكننا من معلومات.

قال بوبي: «كل الحجارة تبدو متشابهة. وهي لا تتحرك. إنها مملة».

سألته: «أي لعبة تحب إذًا؟».

قال إيريك: «مدافع الكويكبات! هذه لعبة جيدة. يمكنك إنقاذ العالم».

- أعني لعبة لا تلعبها على الكمبيوتر.

هز بوبي كتفيه.

- الشطرنج على ما أعتقد. أحب الملكة. إنها قوية ومختلفة عن الآخرين. إنها بطلة.

قلت: «الشطرنج لعبة من المناوشات، أما لعبة جو، فهي ذات منظور أوسع. تشمل معارك كاملة».

قال بوبي بعناد: «لا يوجد أبطال في جو».

لم أعرف بما أجيبه.

***

لم يكن هناك مكان للإقامة في كاجوشيما، لذا نام الجميع في الخارج على طول الطريق إلى الميناء الفضائي. في الأفق، كنا نستطيع رؤية السفن الفضائية الكبيرة الفضية تتلألأ تحت أشعة الشمس.

كان والدي قد شرح لي أن هناك قطعًا من كويكب المطرقة الذي تحطم في طريقها إلى المريخ والقمر، لذا كان يجب أن تأخذنا السفن إلى أماكن أبعد، في أعماق الفضاء، لنكون آمنين.

قلت متخيلًا النجوم تمر بسرعة من حولي: «أود الحصول على مقعد بجانب النافذة».

رد والدي: «يجب أن تتخلى عن مقعد النافذة لمن هم أصغر منك. تذكر، يجب علينا جميعًا تقديم التضحيات لنعيش معًا».

كدسنا حقائبنا لتشكيل جدران، وغطيناها بأغطية لتكون ملاجئ من الرياح والشمس. كان كل يوم يمر فيه مفتشون من الحكومة لتوزيع الإمدادات والتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

قال مفتشو الحكومة: «كونوا صبورين! نحن نعلم أن الأمور تتحرك ببطء، لكننا نبذل كل ما في وسعنا. سيكون هناك مقاعد للجميع».

كنا صبورين. نظمت بعض الأمهات دروسًا للأطفال خلال النهار، وأعد الآباء نظام أولوية لتتمكن العائلات التي تضم آباء مسنين ورضَّعًا من الصعود أولًا عندما تصير السفن جاهزة أخيرًا.

بعد أربعة أيام من الانتظار، لم تعد تطمينات مفتشي الحكومة تبدو مطمئنة تمامًا. انتشرت الشائعات في الحشد.

- إنها السفن. هناك شيء خاطئ فيها.
- كذب المصممون على الحكومة وقالوا إن السفن جاهزة وهي ليست كذلك، والآن رئيس الوزراء أكثر إحراجًا من أن يعترف بالحقيقة.
- سمعت أن هناك سفينة واحدة فقط، وأن عددًا قليلًا من أهم الأشخاص فقط سيكون لهم مقاعد. السفن الأخرى ليست سوى قشور فارغة، للعرض.
- إنهم يأملون أن تغير الولايات المتحدة رأيها وتبني المزيد من السفن للحلفاء مثلنا.

اقتربت أمي من والدي وهمست في أذنه.

هز والدي رأسه وأوقفها: «لا تكرري مثل هذه الأشياء».

- لكن من أجل هيروتو.
- لا!

لم أسمع صوت والدي غاضبًا هكذا من قبل. توقف، وابتلع ريقه وقال: «يجب أن نثق ببعضنا، نثق برئيس الوزراء وقوات الدفاع الذاتي».

بدت أمي غير سعيدة. مددت يدي وأمسكت يدها. وقلت لها: «لست خائفًا».

قال أبي، بشعور من الارتياح في صوته: «هذا صحيح، لا يوجد ما يدعو للخوف».

أخذني بين ذراعيه -كنت أشعر بالخجل قليلًا، لأنه لم يفعل شيئًا كهذا منذ أن كنت صغيرًا جدًّا- وأشار إلى الحشد الكثيف من الآلاف والآلاف المنتشرين من حولنا بقدر ما تستطيع العين أن ترى.

- انظر إلى عددنا: الجدات، والآباء الشباب، والأخوات الكبيرات، والإخوة الصغار. سيكون من الأناني والخاطئ لأي شخص أن يذعر ويبدأ في نشر الشائعات بين مثل هذا الحشد، وقد يتعرض العديد من الناس للأذى. يجب أن نلتزم بمكاننا ونتذكر دائمًا الصورة الأكبر.

***

أنا وميندي نمارس الجنس بروية. أحب أن أستنشق رائحة شعرها المجعد الداكن، الكثيف والدافئ، الذي يلامس أنفي كنسيم البحر، وكملح طازج.

بعد ذلك، نستلقي بجوار بعضنا ، ونتطلع إلى الشاشة التي في سقفي. أستمر في تكرار عرض لمجموعة النجوم المتراجعة. تعمل ميندي في الملاحة، وتسجل لي مقطع الفيديو بدقة عالية من قمرة القيادة.

أحب أن أتظاهر أنها نافذة كبيرة في السقف، وأننا مستلقيان تحت النجوم. أعلم أن البعض يفضل إبقاء شاشاتهم تعرض صورًا ومقاطع فيديو عن الأرض القديمة، لكن ذلك يجعلني حزينًا جدًّا.

سألتني ميندي: «كيف تقول نجمة باليابانية؟».

أجبتها: «هوشي».

- وكيف تقول ضيف؟

- أوكياكوسان.

- إذًا نحن هوشي أوكياكوسان؟ ضيوف النجوم؟

قلت: «الأمر ليس بهذه الطريقة». ميندي مغنية، وهي تحب صوت اللغات غير الإنجليزية. قالت لي مرة: «من الصعب سماع الموسيقى من وراء الكلمات عندما تتداخل مع معانيها».

اللغة الإسبانية هي اللغة الأم لميندي، لكن ما تتذكره منها أقل مما أتذكره من اليابانية. غالبًا ما تسألني عن الكلمات اليابانية وتدمجها في أغانيها.

أحاول أن أعبر عنها بشكل شِعري من أجلها، لكنني لست متأكدًا من أنني أنجح: «واريواري ها، هوشي نو آيدا ني كياكو ني كيت». لقد جئنا لنكون ضيوفًا بين النجوم.

كان والدي يقول: «هناك ألف طريقة للتعبير عن كل شيء. كل واحدة منها مناسبة لمناسبة معينة». علمني أن لغتنا ملآنة بالفروق الدقيقة والانسيابية الجميلة، كل جملة هي قصيدة. اللغة تنطوي على نفسها، والكلمات غير المنطوقة تحمل أهمية الكلمات المنطوقة، سياق داخل سياق، طبقة فوق طبقة، مثل الفولاذ في سيوف الساموراي.

أتمنى لو كان والدي هنا حتى أتمكن من سؤاله: كيف تقول أفتقدك بطريقة مناسبة لعيد ميلاها الخامس والعشرين، كآخر الناجين من عرقها؟

- كانت أختي مهتمة حقًّا بالكتب المصورة اليابانية. المانجا.

كانت ميندي يتيمة مثلي. إن يتمنا جزء مما يجمعنا معًا.

- هل تتذكرين الكثير عنها؟

- ليس حقًا. كنت في الخامسة من عمري تقريبًا عندما صعدت على متن السفينة. قبل ذلك، أتذكر فقط الكثير من إطلاق النار وأننا كنا نختبئ جميعًا في الظلام ونركض ونبكي ونسرق الطعام. كانت دائمًا بجواري لتبقيني هادئة بقراءة كتب المانجا. ثم ...

لقد شاهدت الفيديو مرة واحدة فقط. من مدارنا العالي، بدا كوكب الأرض الأزرق والأبيض وكأنه يتمايل للحظة عندما اصطدم به الكويكب، ثم، هبت الأمواج الصامتة المتلاطمة من الدمار الذي انتشر ببطء ليغمر الكرة الأرضية.

جذبتها إلي وقبلت جبهتها بلطف، قبلة تعزية.

- دعينا لا نتحدث عن الأشياء الحزينة.

لفت ذراعيها حولي بإحكام، كما لو كانت لن تتركني أبدًا.

سألتها: «هل تتذكرين أي شيء عن المانجا؟».

- أتذكر أنها كانت مملتئة بالروبوتات العملاقة.

كنت أفكر: *اليابان قوية جدًّا.*

حاولت تخيل ذلك: روبوتات عملاقة بطول قامات الأبطال منتشرة في كل مكان في اليابان، تعمل بشغف لإنقاذ الناس.

***

بُث اعتذار رئيس الوزراء عبر مكبرات الصوت. والبعض شاهده على هواتفهم.

لا أتذكر منه سوى القليل، سوى أن صوته كان رفيعًا وكان يبدو واهنًا جدًّا وشيخًا. بدا حقًا آسفًا: «لقد خذلت الشعب».

واتضح أن الشائعات كانت صحيحة. فقد أخذ بناة السفن الأموال من الحكومة لكنهم لم يبنوا سفنًا قوية بما يكفي أو قادرة على الوفاء بما وعدوا به. استمروا في التظاهر حتى النهاية. لم نكتشف الحقيقة إلا بعد فوات الأوان.

لم تكن اليابان هي الدولة الوحيدة التي فشلت في حماية شعبها. بل قد تنازعت الدول الأخرى في العالم عمن يجب أن يساهم وبأي مقدار في جهود الإخلاء المشتركة، عندما اكتشف وجود كويكب المطرقة في مساره التصادمي مع الأرض. ثم، عندما انهار ذلك المخطط، قرر معظمهم أنه من الأفضل المراهنة على أن المطرقة سيفوت الأرض، وأنفقوا الأموال والأرواح في القتال مع بعضهم.

بعد أن أنهى رئيس الوزراء حديثه، ظل الحشد صامتًا. صرخ عدد قليل من الأصوات الغاضبة ولكنهم سرعان ما صمتوا أيضًا. تدريجيًّا، بدأ الناس في تعبئة أغراضهم ومغادرة المعسكرات المؤقتة بشكل منظم.

سألت ميندي غير مصدقة: «هل اكتفى الناس بالعودة إلى منازلهم؟».

- نعم.

- لم يكن هناك نهب، ولا جري مذعور، ولا تمرد للجنود في الشوارع؟

قلت لها: «هذه كانت اليابان». واستطعت أن أسمع الفخر في صوتي، صدى لوالدي.

قالت ميندي: «أعتقد أن الناس استسلموا. لقد تخلى الجميع عن الأمل. ربما يتعلق الأمر بالثقافة».

فقلت: «لا!» (قاومت لأبقي تلك الحرارة خارج صوتي. أثارت كلماتها استيائي، مثل تعليق بوبي عن أن لعبة جو مملة): «ليس هذا ما حدث».

***

سألت: «إلى من يتحدث والدي؟».

قالت أمي: «إلى الدكتور هاميلتون، نحن -هو ووالدك وأنا- درسنا معًا في الجامعة في أمريكا».

راقبت والدي وهو يتحدث الإنجليزية على الهاتف. بدا كشخص مختلف تمامًا: لم يكن الأمر يتعلق فقط بإيقاع صوته ونبرته، بل كان وجهه أكثر حيوية، وكانت حركات يديه أكثر جنونًا. بدا كأنه أجنبي.

كان يصرخ في الهاتف.

- ماذا يقول والدي؟

أسكتتني أمي. كانت تراقب والدي بتركيز، متعلقة بكل كلمة.

قال والدي في الهاتف: «لا!» لم أكن بحاجة لترجمة ذلك.

بعد ذلك، قالت أمي: «إنه يحاول أن يفعل الشيء الصحيح، بطريقته الخاصة».

صرخ والدي بغضب: «إنه أناني كما كان دائمًا».

قالت أمي: «هذا ليس منصفًا. لم يتصل بي سرًّا. اتصل بك بدلًا من ذلك لأنه كان يعتقد أنه لو كانت الأدوار مقلوبة، فسيكون سعيدًا بمنح المرأة التي يحبها فرصة للبقاء على قيد الحياة، حتى لو كان ذلك مع رجل آخر».

نظر إليها والدي. لم أسمع والداي يقولان أحبك لبعضهما قط، لكن بعض الكلمات لم تكن بحاجة لأن تقال لتكون صحيحة.

قالت أمي مبتسمة: «لم أكن لأقول له نعم قط». ثم ذهبت إلى المطبخ لتحضير غداءنا. تابعتها عيني والدي حتى عادت.

قال لي والدي: «إنه يوم جميل. هيا بنا نذهب في نزهة».

مررنا بجيران آخرين يسيرون على الأرصفة. تبادلنا التحيات واستفسرنا عن صحة بعضنا. بدا كل شيء طبيعيًا. كان كويكب المطرقة يتلألأ بشكل أكثر إشراقًا في الغسق فوقنا.

قال: «لا بد أنك خائف للغاية يا هيروتو».

- ألن يحاولوا بناء المزيد من سفن الهرب؟

لم يرد والدي. حملت ريح الصيف المتأخر صوت صياح حشرات الزيز إلينا: «شير، شيير، شيييير».

«لا شيء في الزيز

ولا حتى صريرها

يوحي بأنها ستلقى فناءها».

- أبي؟
- هذا بيت شعر للشاعر باشو. هل تفهمه؟

هززت رأسي نفيًا. لم أكن أحب القصائد كثيرًا.

تنهد والدي وابتسم لي. نظر إلى الشمس الغاربة وتحدث مرة أخرى:

«تبدو الشمس الغاربة

كأن لها جمالًا لن يزول

رغم اقتراب اليوم من الأفول»

رددت الأبيات لنفسي. ثمة شيء فيها أثر في. حاولت أن أصف الإحساس بالكلمات: «كأن قطة صغيرة لطيفة تلعق ما بداخل قلبي».

بدلًا من أن يضحك علي، أومأ أبي برأسه بجدية.

- هذه قصيدة للشاعر الصيني الكلاسيكي لي شانج يين. ورغم أنه كان صينيًّا، فإن المشاعر الموجودة في قصيدته تعبر عن روح يابانية.

واصلنا المشي، وتوقفت عند زهرة هندباء صفراء. أثار الميل الذي تميل به الزهرة إعجابي بجماله. شعرت مرة أخرى بتلك المشاعر اللطيفة في قلبي.

- الزهرة ...

ترددت. لم أستطع العثور على الكلمات المناسبة.

تحدث أبي:

«الزهرة المائلة

صفراء كشعاع القمر الليلة

هشة وزائلة».

أومأت برأسي. بدا لي أن المشهد عابر وثابت في آن واحد، كشعوري بالزمن عندما كنت طفلًا صغيرًا. جعلني ذلك أشعر بالحزن والفرح في الوقت نفسه.

قال أبي: «كل شيء يمر يا هيروتو. ذلك الشعور الذي في قلبك: يُسمى (جمالية الزوال Mono No Aware)، وهو إحساس بزوال الأشياء كلها في الحياة. الشمس، وزهرة الهندباء، وحشرة الزيز، وكويكب المطرقة، وكلنا: نحن جميعًا نخضع لقوانين جيمس كلارك ماكسويل[1]، ونحن جميعًا أنماط عابرة مقدر لها أن تتلاشى في النهاية، سواء كان ذلك بعد ثانية أو بعد أزل».

***

نظرت حولي إلى الشوارع النظيفة، والأشخاص الذين يتحركون ببطء، والعشب، وضوء المساء، وعرفت أن لكل شيء مكانه، كل شيء كان على ما يرام. واصلت السير مع أبي، وظل ظلينا يلامسان بعضهما. ورغم أن المطرقة كان معلقًا فوقنا مباشرة، فلم أشعر بالخوف.

يتضمن عملي التحديق في أضواء شبكة المؤشرات التي أمامي. إنه يشبه إلى حد ما لوحة كبيرة للعبة جو.

في معظم الوقت، يكون الأمر مملًّا للغاية. الأضواء، التي تشير إلى مستويات التوتر في أماكن مختلفة من الشراع الشمسي، تتكرر بالنمط نفسه كل بضع دقائق بينما يتمدد الشراع برفق في ضوء الشمس البعيد الذي يتلاشى. ألفت نمط الأضواء المتكرر كما ألفت صوت تنفس ميندي عندما تكون نائمة.

(1) كلمة المترجمة: قوانين جيمس كلارك ماكسويل هي أربع معادلات أساسية تصف سلوك المجالات الكهربائية والمغناطيسية. العلاقة بين قوانين جيمس كلارك ماكسويل والفقرة هو إلقاء الضوء على مفهوم الزوال في الطبيعة. تشير هذه القوانين إلى أن كل شيء، بما في ذلك المجالات الكهربائية والمغناطيسية، خاضع لقوانين طبيعية معينة. هذه التفاعلات تتغير باستمرار، مما يعكس فكرة الزوال. لذا، يستكشف النص مفهوم التغير والزوال، سواء من خلال المشاعر الإنسانية أو القوانين العلمية التي تفسر كيفية تفاعل العناصر في الكون.

نحن بالفعل نتحرك بسرعة قريبة من سرعة الضوء. بعد عدة سنوات، عندما نتحرك بسرعة كافية، سنغير مسارنا نحو 61 العذراء وكواكبه النظيفة، وسنترك الشمس التي ولدتنا خلفنا كذكرى منسية.

لكن اليوم، يبدو أن ثمة خطبًا في نمط الأضواء. فإحدى الأضواء التي في الزاوية الجنوبية الغربية تومض بسرعة أكبر بقليل من المعتاد.

قلت في الميكروفون: «مركز الملاحة. هذه محطة مراقبة الشراع ألفا، هل يمكنك تأكيد أننا على المسار الصحيح؟».

بعد دقيقة، أتى صوت ميني من سماعتي، مع نبرة تحمل بعض الدهشة: «لم ألاحظ، لكن هناك انحرافًا طفيفًا عن المسار. ماذا حدث؟».

- لست متأكدًا بعد.

تأملت الشبكة التي أمامي، أمعنت النظر في الضوء العنيد الوحيد الذي لا يتوافق مع التزامن أو التناغم.

أخذتني أمي إلى فوكوكا دون أبي. قالت: «سنذهب للتسوق من أجل عيد الميلاد، نريد أن نفاجئك». ابتسم أبي وأومأ برأسه.

تحركنا عبر الشوارع المزدحمة. وبما أنه قد يكون آخر عيد ميلاد على الأرض، كان هناك شعور مضاعف بالبهجة في الأجواء.

في المترو، لمحت صحيفة يحملها الرجل الجالس بجوارنا. كان العنوان يقول: «الولايات المتحدة تضرب مرة أخرى!» وكانت الصورة الكبيرة تظهر الرئيس الأمريكي مبتسمًا بانتصار. أدناه، كانت هناك سلسلة من الصور الأخرى، بعضها رأيته من قبل: أول سفينة إخلاء أمريكية تجريبية من سنوات مضت وهي تنفجر خلال رحلة اختبار، وزعيم أمة مارقة يدعي المسؤولية على التلفاز، وجنود أمريكيون يتقدمون متجهين إلى عاصمة أجنبية.

في الأسفل، كان هناك مقال أصغر بعنوان: «العلماء الأمريكيون متشككون في سيناريو يوم القيامة». قال أبي إن بعض الناس يفضلون الاعتقاد بأن الكارثة غير حقيقية بدلًا من أن يتقبلوا أنه لا يمكن فعل شيء حيالها.

كنت متحمسًا لاختيار هدية لوالدي. لكن بدلًا من الذهاب إلى حي الإلكترونيات، حيث توقعت أن تأخذني أمي لشراء هدية له، ذهبنا إلى منطقة من المدينة لم أزرها من قبل. أخرجت أمي هاتفها وأجرت مكالمة قصيرة، متحدثة باللغة الإنجليزية. نظرت إليها متفاجئًا.

ثم وجدنا أنفسنا نقف أمام مبنى يرفرف فوقه علم أمريكي كبير. دخلنا وجلسنا إلى مكتب. دخل رجل أمريكي، بدا وجهه حزينًا، لكنه كان يبذل جهدًا كبيرًا كي لا يظهر حزنه.

نادى الرجل اسم والدتي: «رين»، وتوقف. في تلك الكلمة الواحدة شعرت بوجود ندم وحنين وقصة معقدة.

قالت لي أمي: «هذا الدكتور هاملتون». أومأت برأسي وعرضت مصافحته، كما رأيت الأمريكيين يفعلون في التلفاز.

تحدث الدكتور هاملتون وأمي لبعض الوقت. بدأت أمي تبكي، ووقف الدكتور هاملتون في حرج، كأنه يريد احتضانها ولكنه تردد.

قالت لي أمي: «ستبقى مع الدكتور هاملتون».

- ماذا؟

أمسكت بكتفي، وانحنت ونظرت في عيني: «الأمريكيون لديهم سفينة سرية في المدار. إنها السفينة الوحيدة التي تمكنوا من إطلاقها إلى الفضاء قبل دخولهم في هذه الحرب. الدكتور هاملتون هو من صمم السفينة. إنه ... صديق قديم لي، ويمكنه أن يأخذ شخصًا واحدًا معه على متنها. إنها فرصتك الوحيدة».

- لا، لن أرحل.

في النهاية، فتحت أمي الباب لتغادر. أمسك بي الدكتور هاملتون بقوة وأنا أركل وأصرخ.

فوجئنا جميعًا برؤية أبي يقف أمام الباب.

انفجرت أمي في البكاء.

احتضنها والدي، وهو ما لم أرَه من قبل. بدا مشهدهما أمريكيًّا جدًّا.

قالت أمي: «أنا آسفة»، (واصلت تكرارها وهي تبكي): «أنا آسفة».

قال أبي: «لا بأس. أنا أفهم».

أطلق الدكتور هاملتون سراح يدي، وركضت نحو أبي وأمي، متمسكًا بهما بشدة.

نظرت أمي إلى أبي، وفي تلك النظرة لم تقل شيئًا وفي الوقت نفسه قالت كل شيء.

تغير وجه أبي، كما لو كان تمثالًا حيًّا من الشمع. ثم تنهد ونظر إلي.

سألني: «أنت لست خائفًا، أليس كذلك؟».

هززت رأسي.

قال: «إذًا، يمكنك الذهاب»، (ونظر إلى عيني الدكتور هاملتوَن): «شكرًا لك على الاعتناء بابني».

نظرت أنا وأمي إليه، متفاجئين.

«وزهرة هندباء
في نسيم أواخر الخريف
تنثر بذورها في كل مكان»

أومأت برأسي متظاهرًا بالفهم.

احتضنني والدي بشدة وسرعة.

- تذكر أنك ياباني.

ثم رحلا.

***

قال الدكتور هاملتون: «لقد اخترق شيئًا ما الشراع».

كانت الغرفة الصغيرة تحتوي على كبار موظفي القيادة فقط، إضافة إلى ميندي وأنا لأننا نعرف ما حدث بالفعل. لا يوجد سبب لإحداث الذعر بين الناس.

- إن الثقب يسبب انحراف السفينة إلى الجانب، مما يجعلها تتجه بعيدًا عن مسارها. إذا لم نصلح الثقب، فسيتسع التمزق، وسينهار الشراع قريبًا، وستمضي سفينة الأمل بلا وجهة في الفضاء.

سأل القائد: «هل هناك أي طريقة لإصلاحه؟».

هز الدكتور هاملتون، الذي كان كأب لي، رأسه الممتلئ بالشعر الأبيض. لم أرَه يومًا بهذه الكآبة.

- التمزق يبعد عدة مئات من الكيلومترات عن محور الشراع. سيستغرق الأمر عدة أيام لإرسال شخص إلى هناك لأنه لا يمكن لأحد التحرك بسرعة كبيرة على سطح الشراع، فخطر حدوث تمزق آخر كبير جدًّا. بحلول الوقت الذي سنتمكن فيه من إرسال أي شخص، سيكون التمزق قد اتسع بما يكفي ليستحيل إصلاحه.

وهكذا تسير الأمور. *كل شيء يمر.*

أغمضت عيني وتخيلت الشراع. الغشاء رقيق جدًّا لدرجة أنه إذا لُمس بتهور، فسيُخترق. لكن الغشاء مدعوم بنظام معقد من الطيات والدعائم التي تمنح الشراع صلابة وقوة. عندما كنت طفلًا، اعتدت أن أشاهده ينفتح في الفضاء كإحدى إبداعات أمي في الأوريجامي.

تخيلت نفسي وأنا أربط سلك التثبيت الملفوف حولي بهيكل السفينة المدعوم بالدعامات في أثناء تحركي على سطح الشراع، كيعسوب يطير فوق سطح بركة.

قلت: «يمكنني الوصول إلى هناك خلال اثنتي وسبعين ساعة». (اتجهت أنظار الجميع نحوي. وشرحت فكرتي): «أعرف أنماط الدعامات جيدًا لأنني راقبتها عن بُعد طوال حياتي. يمكنني العثور على أسرع طريق للوصول هناك».

بدا الدكتور هاملتون متشككًا.

- لم تُصمم تلك الدعامات لمناورة كهذه مطلقًا. لم أخطط لهذا السيناريو.

قالت ميندي: «إذًا سنبتكر. نحن أمريكيون، اللعنة. لا نستسلم أبدًا».

رفع الدكتور هاملتون نظره إليها.

- شكرًا يا ميندي.

خططنا، وتجادلنا، وصرخنا على بعضنا، وعملنا طوال الليل.

كانت رحلة الصعود بالسلك من مركبة الساكن إلى الشراع الشمسي طويلة وصعبة. واستغرقت مني ما يقرب من اثنتي عشر ساعة.

دعني أوضح لك كيف أبدو بالحرف الثاني في اسمي.

翔

هو يعني «التحليق». هل ترى ذلك الحرف على اليسار؟ هذا أنا، مربوط بسلك ويوجد زوج من الهوائيات تخرج من خوذتي. على ظهري توجد الأجنحة، أو في هذه الحالة، صواريخ دفع وخزانات وقود إضافية تدفعني لأعلى وأعلى نحو القبة العاكسة الكبرى التي تحجب السماء بأكملها، المرآة الرقيقة للشراع الشمسي.

كانت ميندي تتحدث معي عبر الراديو. تبادلنا النكات، وتشاركنا الأسرار، وتحدثنا عن الأشياء التي نريد أن نفعلها في المستقبل. وعندما نفدت منا الأحاديث، غنت لي. كانت الهدف هو إبقائي مستيقظًا.

- واريواري ها، هوشي نو أيدا ني كياكو ني كيت. لقد جئنا لنكون ضيوفًا بين النجوم.

لكن الصعود كان الجزء السهل حقًّا. فالرحلة عبر الشراع على طول شبكة الدعامات إلى مكان التمزق أصعب بكثير.

لقد مرت ستة وثلاثون ساعة منذ أن تركت السفينة. صار صوت ميندي متعبًا، ومنهكًا. تثاءبت.

همست في الميكروفون: «نامي يا حبيبتي». أنا متعب لدرجة أنني أريد أن أغمض عيني للحظة فقط.

أسير على الطريق في مساء صيفي، ووالدي بجانبي.

نحن نعيش في أرض البراكين والزلازل، والأعاصير والتسونامي، يا هيروتو. لقد كان وجودًا هشًا منذ الأزل، معلقين بشريط رقيق على سطح هذا الكوكب، بين النار في الأسفل والفراغ الجليدي في الأعلى.

وعُدت إلى وعيي مرة أخرى، وحدي. جعلني فقدان تركيزي المؤقت أصطدم بحقيبتي في أحد الأعمدة التي في الشراع، كاد أحد خزانات الوقود أن يسقط. أمسكته في الوقت المناسب. لقد خففوا وزن معداتي إلى آخر جرام

ممكن حتى أتمكن من التحرك بسرعة، ولم يكن هناك مجال للخطأ. لم يكن بإمكاني تحمل فقدان أي شيء.

حاولت التخلص من الحلم واستمررت في التحرك.

ومع ذلك، فإن هذا الوعي باقتراب الموت، والجمال الكامن في كل لحظة عابرة، هو ما يسمح لنا بالتحمل. جمالية الزوال يا بني، هو تعاطفنا مع الكون. إنه روح أمتنا. لقد سمح لنا بتحمل هيروشيما، وتحمل الاحتلال، وتحمل الحرمان وإمكانية الفناء دون يأس.

جاءني صوت ميندي يائسًا ومتوسلًا: «يا هيروتو، استيقظ!». استيقظت فجأة. كم من الوقت مضى منذ أن نمت آخر مرة؟ يومين، ثلاثة، أربعة؟

في الخمسين كيلومترًا الأخيرة من الرحلة، كان عليّ أن أترك دعائم الشراع وأعتمد على صواريخي للسفر عبر الفضاء دون سلك، تزلجت فوق سطح الشراع في حين تحركت كل الأشياء من حولي بسرعة قريبة من سرعة الضوء. كان مجرد التفكير في الأمر كافيًا ليجعلني أشعر بالدوار.

وفجأة، وجدت أبي بجواري مرة أخرى، معلقًا في الفضاء أسفل الشراع. كنا نلعب لعبة جو.

انظر إلى الزاوية الجنوبية الغربية. هل ترى كيف قُسم جيشك إلى نصفين؟ ستحيط حجارتي البيضاء قريبًا بهذه المجموعة بالكامل وتستولي عليها.

نظرت إلى المكان الذي أشار إليه ورأيت الأزمة. ثمة فجوة فاتتني ملاحظتها. ما كنت أعتقد أنه جيش واحد كان في الواقع مجموعتان منفصلتان مع فجوة في الوسط. يجب أن أسد الفجوة بالحجر التالي.

أفقت ذهني بعيدًا عن الهلوسة. يجب أن أنهي هذا، ثم يمكنني أن أنام.

كانت هناك فجوة في الشراع الممزق أمامي. بالسرعة التي نسافر بها عبر الفضاء، إذا هربت ذرة غبار صغيرة من دروع الأيونات، فيمكنها أن تسبب فوضى. كانت حواف الفجوة المتعرجة ترفرف برفق في الفضاء، مدفوعة برياح الشمس وضغط الإشعاع. بينما يُعتبر الفوتون الواحد صغيرًا، وغير مهم، ودون كتلة، فإنه إذا اجتمعت الفوتونات معًا فيمكنها أن تدفع شراعًا بحجم السماء وتدفع ألف شخص معًا.

الكون مذهل.

رفعت حجرًا أسود واستعددت لسد الفجوة، لوصل جيوشي معًا حتى يصيروا جيشًا واحدًا.

تحول الحجر إلى عد الإصلاحات الموجودة في حقيبتي. تحكمت في محركاتي حتى أكون معلقًا مباشرة فوق جرح الشراع. من خلال الفجوة استطعت رؤية النجوم في الخارج، النجوم التي لم يرها أحد على السفينة منذ سنوات عديدة. نظرت إليها وتخيلت أنه حول أحدها، يومًا ما ستتعافى البشرية، التي اندمجت لتصير أمة جديدة، ستعود من حافة الانقراض، وستبدأ من جديد وتزدهر مرة أخرى.

بحذر وضعت الضمادة على الجرح، وشغلت شعلة اللحام الحرارية. مررت الشعلة على الجرح، وشعرت بالضمادة تذوب لتنتشر وتلتحم مع سلاسل الهيدروكربون في غشاء الشراع. عندما انتهيت من ذلك، بخرت ذرات الفضة ووضعتها فوقه لتشكيل طبقة لامعة وعاكسة.

قلت في الميكروفون: «إنه ينجح». وسمعت أصداء صوت الهتافات في الخلفية.

قالت ميندي: «أنت بطل».

تخيلت نفسي روبوتًا يابانيًّا عملاقًا في قصص المانجا وابتسمت.

خبت الشعلة وانطفأت.

قال أبي: «انظر بتمعن. تريد أن تضع حجرك التالي هناك لسد تلك الفجوة. لكن هل هذا ما تريده حقًّا؟».

هززت خزان الوقود المعلق بالشعلة. لم يحدث شيء. كان هذا هو الخزان الذي اصطدمت به بأحد أعمدة الشراع. لا بد أن الاصطدام قد تسبب في حدوث تسرب، ولم يوجد وقود كافٍ لإكمال عملية الإصلاح. رفرفت الضمادة برفق، والتصق نصفها فقط بالجرح.

قال الدكتور هاملتون: «عد الآن. سنجدد مستلزماتك ونجرب مرة أخرى».

أنا مرهق. مهما بذلت من جهد، لن أتمكن من العودة هنا بسرعة. ومن يدري كم ستتسع الفجوة بحلول ذلك الوقت؟ كان الدكتور هاملتون يعلم هذا تمامًا كما أعلمه. لكنه أراد فقط أن يعيدني إلى أمان السفينة الدافئ.

كان لا يزال لدي وقود في خزان الوقود، الوقود المخصص لرحلة العودة.

بدت ملامح وجه أبي متنبئة بخطوتي التالية.

تحدث ببطء: «فهمت. إذا وضعت حجري التالي في هذه الفجوة، فلن تتاح لي فرصة العودة إلى المجموعة الصغيرة في الشمال الشرقي. ستستولي عليهم».

- لا يمكن أن يكون الحجر في مكانين مختلفين. يجب أن تختار يا بني.

- قل لي ماذا أفعل.

نظرت إلى وجه والدي بحثًا عن إجابة.

قال أبي: «انظر حولك». نظرت فرأيت السيدة ميدا، ورئيس الوزراء، وجميع جيراننا من كوروم، وكل الناس الذين انتظروا معنا في كاجوشيما، وفي كيوشو، وفي جميع الجزر الأربع، وفي جميع أنحاء الأرض، وعلى سفينة الأمل. كانوا ينظرون إلي في أمل، في انتظار أن أفعل شيئًا.

جاء صوت أبي هادئًا:

النجوم تشع وتومض

كلنا ضيوف هنا

نمرر اسمًا وابتسامة

قلت للدكتور هاملتون عبر الراديو: «لدي حل».

قالت ميندي: «كنت أعلم أنك ستبتكر شيئًا ما». كان صوتها ممتلئًا بالفخر والسعادة.

صمت الدكتور هاملتون لفترة. عرف ما كنت أفكر فيه. ثم قال: «هيروتو، شكرًا لك».

فصلت الشعلة عن خزان الوقود غير المفيد ووصلتها بالخزان الموجود على ظهري. شغلتها. كان لهبها ساطعًا، وقويًّا، بدا كحد سكين مشتعلًا. وجهت الفوتونات والذرات أمامي، محولًا إياها إلى شبكة من القوة والضوء.

اختفت النجوم على الجانب الآخر مرة أخرى. عاد سطح الشراع العاكس مثاليًّا.

قلت في الميكروفون: «صححوا مساركم. لقد تم الأمر».

قال الدكتور هاملتون: «مفهوم». شاب صوته حزن يحاول ألا يظهر.

قالت ميندي: «عليك أن تعود أولًا، إذا صححنا المسار الآن، فلن يكون لديك مكان لتربط نفسك».

همست في الميكروفون: «لا بأس يا حبيبتي. لن أعود. ليس هناك ما يكفي من الوقود المتبقي».

- سنأتي إليك!

قلت بلطف: «لا يمكنكم التنقل عبر الدعامات بالسرعة التي استطعت التنقل بها. لا أحد يعرف نمطها كما أعرفه. في الوقت الذي ستستغرقونه لتصلوا إلى هنا، سيكون الهواء نفد مني».

انتظرت حتى هدأت وقلت: «دعينا لا نتحدث عن الأشياء الحزينة. أنا أحبك».

ثم أطفأت الراديو وألقيته نحو الفضاء حتى لا يُغرى أحد بمحاولة إنقاذ لا جدوى منها. وسقطت للأسفل، بعيدًا، بعيدًا تحت مظلة الشراع.

راقبت الشراع وهو يبتعد، كاشفًا النجوم بكامل مجدها. والشمس، التي صارت باهتة، لم تعد سوى نجمة من بين النجوم، لا شروق ولا غروب.

أنا مُلقى بين النجوم، وحيدًا، لكني أشعر أيضًا بأنني جزء منها.

لسان قطة صغيرة تلعق قلبي من الداخل.

وضعت الحجر التالي في الفجوة.

لعب أبي كما توقعت، وضاعت حجاراتي التي في الزاوية الشمالية الشرقية، تُركت للتيه.

لكن مجموعتي الرئيسية كانت بأمان. قد تزدهر حتى في المستقبل.

قال بوبي: «ربما هناك أبطال في لعبة جو».

قالت ميندي إنني بطل. لكني كنت مجرد شخص في المكان المناسب في الوقت المناسب. الدكتور هاملتون بطل أيضًا لأنه صمم سفينة الأمل. ميندي بطلة أيضًا لأنها أبقتني يقظًا. وأمي بطلة أيضًا لأنها كانت مستعدة للتخلي عني لكي أبقى على قيد الحياة. وأبي بطل أيضًا لأنه أرشدني إلى الصواب الذي ينبغي علي فعله.

نحن نُعرَّف بالأماكن التي نشغلها في حياة الآخرين.

أشحت نظري بعيدًا عن لوح لعبة جو، اندمجت الحجارة في أنماط أكبر من الحياة المتحركة والأنفاس النابضة.

الحجر الواحد ليس بطلًا، ولكن جميع الحجارة معًا بطولية.

قال أبي: «إنه يوم جميل للتنزه، أليس كذلك؟».

مشينا معًا على طول الطريق، حتى نتمكن من تذكر كل نبتة عابرة، وكل قطرة ندى، وكل شعاع شمس يتلاشى، كل شيء جميل إلى الأبد.

كل نكهات العالم

حكاية جوان يو، إله الحرب الصيني، في أمريكا

«الحياة ليست إلا تجربة».

- رالف والدو إيمرسون

«يقضي الأمريكي حياته كلها على أنها لعبة حظ،
ووقت للثورة، ويوم للمعارك».

- ألكسيس دو توكفيل

مدينة أيداهو

تسلل فتيان ميزوري إلى مدينة أيداهو نحو الساعة الرابعة والنصف صباحًا، حين كانت الأنوار مطفأة باستثناء نافذة واحدة مُضاءة في نادي إيزابيل جوي.

اتجه أوبي وكريك مباشرة إلى صالون السمكة العطشى. في وقت سابق من ذلك اليوم، كان جي. جي. كيلي، مالك الصالون، قد طرد أوبي وكريك من المكان مستخدمًا مسدسه من طراز سميث آند ويسون. بجهد بسيط ودون أي ضجيج، كسرا مزلاج باب السمكة العطشى واختفيا سريعًا داخل المكان.

همس كريك: «سأعلم ذلك الأيرلندي الحقير الأدب». كانت عيناه ضبابيتين بفعل الكحول، ومركزتين على صورة واحدة فقط: كيلي القصير وهو يتقدم نحوهما، حاملًا مسدسه، والناس من خلفه يسخرون منهما: «قد ندفنكما تحت المرحاض الجديد في المرة التالية التي تأتيان فيها إلى مدينة أيداهو».

رغم أنه لم يكن يقف بثبات على قدميه، فإنه نجح في التسلل على رؤوس أصابعه صاعدًا إلى الطابق العلوي، حيث مسكن العائلة، وفي يده عتلة حديدية.

أما أوبي، الذي كان أقل ثمالة، فقد شرع بسرعة في معالجة هذا الوضع بالقفز خلف المنضدة وتزويد نفسه بالإمدادات. فالتقط زجاجات مختلفة الأحجام والألوان من على الأرفف من حوله بلا مبالاة، وبعد أن ارتشف من كل واحدة منها، كان يحطم الزجاجات على الطاولات أو يلقيها أرضًا. سال الكحول في كل مكان، مبللًا الأرضيات والأثاث.

اخترقت صرخة امرأة في الطابق العلوي الظلام. فقفز أوبي فزعًا وأخرج مسدسه. لم يعرف ما إذا كان عليه الركض للطابق العلوي لمساعدة صديقه أو الخروج من الباب، هربًا إلى الشارع، والدخول إلى الغابة قبل أن يُقبض عليه، فوقف مترددًا عند أسفل الدرج.

تردد صوت أحذية لم تعد تهتم بالصمت فوقه، تلاه صوت تحطم شيء ثقيل وناعم على الأرض. ألقى أوبي السباب وتراجع للخلف، كانت يداه الكبيرتان المتسختان تحاولان مسح الغبار الذي سقط من السقف على عينيه. تتابعت صرخات مكتومة وشتائم، ثم عمَّ الصمت التام.

- رائع!

ظهر كريك في أعلى الدرج، بابتسامة مبتهجة على وجهه، مضاءة بنور المصباح الزيتي الذي حمله عاليًا.

- أحضر بعض الخِرَق. دعنا نحرق مقلب القمامة هذا.

بحلول الوقت الذي جمع فيه السبعة آلاف نسمة في مدينة أيداهو الأضرار الناتجة عن الحريق الكبير في 18 مايو عام 1865، كان فتيان ميزوري على بُعد أميال في طريق ويلز فارجو، نائمين من أثر صداع ما بعد الإفراط في شرب الكحول والتنقل السريع.

خسرت مدينة أيداهو صحيفة، ومسرحين، ومعرضين للتصوير، وثلاثة مكاتب بريد، وأربعة مطاعم، وأربعة مصانع جعة، وأربع صيدليات، وخمسة متاجر بقالة، وست ورش حدادة، وسبعة أسواق للحوم، وسبعة مخابز، وثمانية فنادق، واثني عشر مكتبًا طبيًّا، واثنين وعشرين مكتب محاماة، وأربعة وعشرين صالونًا، وستة وثلاثين متجرًا للسلع المختلفة.

لهذا السبب، عندما ظهرت مجموعة من الصينيين المتعبين والنحيفين بعد بضعة أسابيع، حاملين أعمدة البامبو المضحكة على أكتافهم وجيوبهم مثقلة بالنقود المخيطة في بطانات ملابسهم، كاد أهل مدينة أيداهو أن يقيموا لهم حفل استقبال.

وبسرعة، بدأ الجميع في مهمة فصل الصينيين عن أموالهم.

كانت إلسي سيفر، والدة ليلي، تشكو لوالد ليلي من الصينيين كل مساء تقريبًا.

- ثاديوس، هل يمكنك أن تخبر الوثنيين بأن يخففوا من ضجيجهم؟ لا أستطيع سماع أفكاري.
- مقابل إيجار بمبلغ أربعة عشر دولارًا في الأسبوع يا إلسي، أظن أنه من حق الصينيين أن يستمعوا لموسيقاهم لبضع ساعات.

كان متجر عائلة سيفر أحد المتاجر التي احترقت قبل بضعة أسابيع. وكان والد ليلي، ثاد سيفر (رغم أنه كان يفضل أن يُدعى جاك)، لا يزال في منتصف عملية إعادة بناء المتجر. كانت إلسي تعرف كما يعرف زوجها أنهم بحاجة إلى مال الصينيين. تنهدت، ووضعت بعض كرات القطن في أذنيها، وأخذت عدة الخياطة إلى المطبخ.

لكن ليلي أحبت موسيقى الصينيين إلى حد ما. كانت بالفعل عالية. وكانت الأجراس القرصية، والصنوج، والمصافق الخشبية، والطبول -تصدر ضجيجًا عاليًا لدرجة أن قلبها أراد أن ينبض وفقًا لإيقاعها. كان صوت الكمان ذي الوترين عاليًا ونقيًّا، لدرجة أن ليلي ظنت أنها تستطيع الطفو في الهواء بمجرد الاستماع إليه. ثم، تحت ضوء الغسق الخافت، كان الصيني الضخم ذو الوجه الأحمر يعزف لحنًا حزينًا وهادئًا على العود ذي الثلاثة أوتار ويغني أغانيه في الشارع، ويجلس رفاقه في دائرة من حوله، هادئين أثناء استماعهم إليه، تتقلب وجوههم بين الابتسامات والشجن. كان طوله أكثر من ستة أقدام،

وغطت لحيته الكثيفة الداكنة صدره. رأت ليلي أن عينيه الطويلتين الضيقتين تشبهان عيني نسر عظيم، عندما كان يلتفت برأسه وينظر إلى أحد رفاقه. بين الحين والآخر، كانوا ينفجرون في ضحكات عالية، ويربتون على ظهر الصيني الضخم ذي الوجه الأحمر وهو مبتسم ومستمر في الغناء.

سألت ليلي والدتها وهي في الشرفة: «ماذا تظنين أنهم يقولون في أغانيهم؟».

- لا شك في أنهم يغنون ببعض الرذائل البشعة التي لا يمكن تصورها في ديارهم البربرية. أماكن الأفيون وفتيات الغناء وما إلى ذلك. عودي إلى الداخل وأغلقي الباب. هل انتهيتِ من خياطتك؟

استمرت ليلي في مشاهدتهم من نافذتها، تمنت لو أنها تستطيع فهم معنى أغانيه. شعرت بالسعادة لأن الموسيقى جعلت والدتها غير قادرة على التفكير. فكان هذا يعني أنها لن تفكر في مزيد من الأعمال المنزلية التي يمكن أن تُكلف ليلي بها.

كان والد ليلي أكثر اهتمامًا بطبخ الصينيين. فحتى طهيهم كان عاليًا، مع صوت الزيت المغلي وفرقعته وسقوطه، وضرب السكين على لوح التقطيع الذي كان يصنع نوعًا آخر من الموسيقى. كما كانت رائحة الطهي قوية؛ كان الدخان يتصاعد من الباب المفتوح حاملًا رائحة الفلفل والتوابل والخضراوات غير المعروفة عبر الشارع، مما كان يجعل معدة ليلي تقرقر.

وجّه والد ليلي سؤاله في الهواء: «ما الذي يطبخونه بحق السماء؟ لا يمكن أن تكون رائحة الخيار هكذا».

رأته ليلي يلعق شفتيه.

اقترحت ليلي: «يمكننا أن نسألهم».

- ها! لا، انسي هذه الأفكار. أنا متأكد أن الصينيين سيحبون تقطيع فتاة مسيحية صغيرة مثلك وقليها في تلك القدور الكبيرة لديهم. ابتعدي عنهم، هل سمعتني؟

لم تعتقد ليلي أن الصينيين سيأكلونها. كانوا يبدون ودودين. وإذا أرادوا أن يضيفوا إلى نظامهم الغذائي فتيات صغيرات، فلما كانوا يقضون وقتهم كل يوم وهم يعملون في حديقة الخضراوات التي زرعوها خلف منازلهم؟

كان الغموض يحيط بالصينيين، وأقلها كيف يعيشون جميعًا داخل تلك المنازل الصغيرة التي استأجروها؟ فقد استأجرت مجموعة من سبعة وعشرين صينيًا خمسة منازل صغيرة ذات أسقف مائلة على طول شارع بلاسر، وكان اثنان منها مملوكين لجاك سيفر، واشتروا ثلاثة منازل أخرى من السيد كينان، الذي قد احترق مصرفه وأراد أن ينتقل بعائلته إلى الشرق. كانت تلك المنازل الصغيرة بسيطة، فهي مكونة من طابق واحد، تحتوي على غرفة معيشة في الأمام تستخدم كمطبخ، وغرفة نوم في الخلف. كانت البناية الصغيرة عمقها اثني عشر قدمًا وعرضها ثلاثين قدمًا، وكانت مصنوعة من ألواح خشبية رقيقة، كما كانت الشرفات الأمامية ضيقة للغاية ومتلاصقة لدرجة أنها شكلت ممرًّا مغطًى.

اعتاد عمال المناجم البيض الذين استأجروا هذه المنازل من جاك سيفر في السابق أن يعيشوا فيها بمفردهم أو يتشاركوا المنزل مع رفيق سكن واحد على الأكثر. أما الصينيون، فعاشوا خمسة أو ستة أفراد في المنزل. هذا البخل قد خيب آمال بعض الناس في مدينة أيداهو، الذين أملوا أن يكون الصينيون أكثر سخاءً في إنفاق أموالهم. وقد فككوا الطاولات والكراسي التي تركها المستأجرون السابقون للمنازل واستخدموا الخشب لبناء أسرة على طول جدران غرف النوم ووضعوا المراتب على الأرض في غرف المعيشة. كما ترك السكان السابقون صورًا للينكولن ولي على الجدران. لكن الصينيين تركوها دون مساس.

قال جاك سيفر أثناء وجبة العشاء: «قال لوجان إنه يحب الصور التي على الجدران».

- من هو لوجان؟
- الصيني الضخم ذو الوجه الأحمر. سألني من هو لي، فأخبرته إنه جنرال عظيم اختار الجانب الخاسر لكنه ما زال يحظى بالاحترام نظير شجاعته وولائه. لقد تأثر بذلك. آه، وأعجب أيضًا بلحية لي.

كانت ليلي قد استمعت للمحادثة التي بين والدها والصيني من خلال اختبائها خلف البيانو. لم تعتقد أن اسم الصيني الكبير بدا كـ «لوجان». لقد استمعت إلى الصينيين الآخرين وهم ينادون عليه، وكان يبدو لها أنهم يقولون «لاو جوان».

قالت إلسي: «شعب غريب، هؤلاء السماويون[1]. إن لوجان هذا يخيفني. هل رأيت حجم يديه! لقد قتل أحدًا. أنا متأكدة من ذلك. أتمنى لو بإمكانك إيجاد مستأجرين آخرين يا ثاديوس».

لم يعتد أحد سوى والدة ليلي على مناداة زوجها بـ«ثاديوس». بالنسبة لجميع الآخرين، كان إما «السيد سيفر» أو «جاك». واعتادت ليلي على حقيقة أن الناس لديهم العديد من الأسماء هنا في الغرب. ففي النهاية، كان الجميع أيضًا ينادون المصرفي بـ«السيد كينان» عندما يكونون في البنك، لكن عندما لا يكون موجودًا، كانوا يدعونه «شايلوك»[2]. وفي حين كانت والدة ليلي تدعوها دائمًا «ليليان»، كان والد ليلي يدعوها «لؤلؤتي». وبدا أن الصيني الضخم قد حصل بالفعل على اسم جديد في هذا المنزل، «لوجان».

كان والد ليلي يقول لها في كل صباح وهو يغادر إلى المتجر: «أنتِ لؤلؤتي الذهبية يا عزيزتي».

وكانت أمها ترد: «ستجعلها متغطرسة للغاية».

كانوا في ذروة موسم التعدين، وبدأ الصينيون بالخروج للبحث عن الذهب بمجرد أن استقروا. غادروا بمجرد أن أشرقت الشمس، مرتدين قمصانهم الواسعة وسراويلهم الفضفاضة، وكانت ضفائرهم تتدلى من تحت قبعاتهم القشية الكبيرة. ظل عدد قليل من الرجال الأكبر سنًّا في المدينة للعمل في حديقة الخضراوات أو لغسل الملابس والطهي.

كانت ليلي تُترك بمفردها إلى حد كبير خلال النهار. فانشغلت والدتها بالذهاب للتسوق أو بالعناية بالأعمال المنزلية، وانشغل والدها بالعمل في المتجر الجديد. فكر جاك في تخصيص قسم في المتجر الجديد لبيع بيض

(1) كلمة المترجمة: «السماويون» (Celestials) هو مصطلح تاريخي استخدم بشكل أساسي في القرن التاسع عشر للإشارة إلى المهاجرين الصينيين، وأيضًا بشكل أوسع للأشخاص الذين من الصين. استمد المصطلح من العبارة الصينية «إمبراطورية السماء» (Celestial Empire)، التي كانت تصف بها الصين نفسها، لتعكس وجهة نظرها بأنها مركز الحضارة.

(2) كلمة المترجمة: «شايلوك» هو شخصية من مسرحية ويليام شكسبير تدعى «تاجر البندقية». في المسرحية، كان شايلوك دائنًا يهوديًّا قد طلب رطلًا من لحم أنطونيو في حالة عدم دفعه القرض. صارت الشخصية مرتبطة بالجشع، والانتقام، وتعقيدات العدالة والرحمة.

البط المخلل، والخضراوات المخللة، والتوفو المجفف، والتوابل، وصوص الصويا، والبطيخ المر المستورد من سان فرانسيسكو لبيعه للعمال الصينيين.

- هؤلاء الصينيون سيحملون الكثير من غبار الذهب قريبًا يا إلسي. سأكون جاهزًا لأخذه منهم عندما يفعلون.

لم تعجب إلسي بتلك الخطة. فكرت في طعام العمال الصينيين الغريب، وكيف سيجعل كل شيء يفوح برائحة غريبة في متجر زوجها، مما جعلها تشعر بالغثيان. لكنها كانت تعرف أنه من غير المجدي الجدال مع ثاد بمجرد أن تترسخ فكرة في ذهنه. ففي النهاية، لقد حزم كل شيء وسحبها هي وليلي إلى هنا من هارتفورد، التي كان يعمل فيها مدرسًا وكانت وظيفته حسنة، فقط لأنه تخيل أنهم سيكونون أسعد بكثير بمفردهم في الغرب، حيث لا يعرفهم أحد ولا يعرفون أحدًا.

حتى والد إلسي لم يستطع إقناع زوجها بتغيير رأيه آنذاك. لقد طلب من ثاد أن يأتي إلى بوسطن ويعمل لديه في مكتب المحاماة. كان العمل مربحًا كما قال، وكان بحاجة إلى مساعدته. أشرق وجه إلسي عندما تخيلت نفسها في جميع المتاجر وأزياء بيكون هيل.

قال ثاد لوالدها: «أقدر العرض، لكنني لا أظن أنني مؤهل لأكون محاميًا».

كان على إلسي استرضاء والدها لساعات بعد ذلك بالشاي وبدفعة جديدة من كعكات الشوفان. وحتى بعد كل ذلك، رفض أن يودع ثاد في اليوم التالي عندما غادر للعودة إلى بوسطن.

تمتم بصوت مرتفع: «اللعنة على اليوم الذي صرت فيه صديقًا لوالده»، كان الصوت أعلى من أن تتجاهل إلسي سماعه.

قال ثاد لها لاحقًا: «لقد سئمت من هذا. نحن لا نعرف أي شخص فعل شيئًا مختلفًا. الجميع في هارتفورد يستمرون فيما بدأه آباؤهم. أليس من المفترض أن نكون أمة يختار كل جيل فيها الذهاب إلى مكان جديد؟ أعتقد أننا يجب أن نرحل ونبدأ حياتنا الخاصة. يمكنك حتى اختيار اسم جديد لنفسك. ألا تعتقدين أن هذا سيكون ممتعًا؟».

كانت إلسي تحب اسمها. لكن ثاد لم يكن كذلك. وهكذا انتهى به الأمر ليصير «جاك».

قال لها: «أردت دائمًا أن أكون جاك». وكأن الأسماء مثل القمصان يمكننا ارتداؤها وخلعها. لكنها رفضت أن تدعوه باسمه الجديد.

ذات مرة عندما كانت ليلي وحدها مع والدتها، قالت لها إن كل هذا بسبب الحرب.

- أطلق عليه المتمردون رصاصة فوقع على ظهره في أقل من يوم من دخوله إلى الميدان. هذا ما يحدث للرجل عندما يضطر إلى الاستلقاء على ظهره لمدة ثمانية أشهر. تتسلل إلى رأسه أنواع غريبة من الأفكار، ولا يمكن لأي معجزة إلهية أن تخرج تلك الأفكار منه.

إذا كان المتمردون هم المسؤولين عن نقل عائلتها إلى أيداهو، فلم تر أنهم أشرار.

لقد تعلمت ليلي بالطريقة الصعبة أنه إذا بقيت في المنزل، فإن والدتها فستجد لها دائمًا شيئًا لتفعله. حتى يبدأ العام الدراسي من جديد، كان أفضل شيء لليلي هو الخروج من المنزل في أول فرصة تتاح لها في الصباح وعدم العودة حتى وقت العشاء.

أحبت ليلي الذهاب إلى التلال التي خارج المدينة. كانت غابة أشجار دوجلاس، وأشجار القيقب الجبلية، وأشجار صنوبر بونديروسا تحميها بظلالها من شمس الظهيرة. كانت تأخذ بعض الخبز والجبن معها لتناول الغداء، وكان هناك العديد من جداول الماء لتشرب منها. قضت بعض الوقت في جمع الأوراق التي أكلتها الديدان وذكرتها أشكالها بحيوانات مختلفة. عندما تشعر بالملل من ذلك، كانت تغمر قدميها في مجرى مائي لتشعر ببعض البرودة. قبل أن تقف في الماء، كانت تمسك طرف فستانها الخلفي، وتسحبه للأمام من بين ساقيها، ثم تلفه بحزام حول خصرها. شعرت بالسعادة لأن والدتها لم تكن موجودة لترى كيف تحولت تنورتها إلى سراويل. لكن كان يسهل بكثير أن تخوض في الوحل والماء دون أن تعيقها تنورتها.

كانت ليلي في الماء على ضفاف الجدول الضحل، عندما بدأ اليوم يزداد حرارة، فرشت بعض الماء على رقبتها وجبهتها. بحثت ليلي عن أعشاش الطيور في الأشجار وآثار خطوات الراكون في الطين. رأت أنها تستطيع أن تعيش هكذا إلى الأبد، وحدها ودون محاولة إنجاز أي شيء معين، قدماها باردتان في الماء، والشمس تدفئ ظهرها، وتعلم أنها تحمل معها غداءً لذيذًا

ومشبعًا تستطيع تناوله في أي وقت تريده، وسيكون هناك عشاءً أفضل في انتظارها لاحقًا.

تسللت إليها أصوات خافتة لرجال يغنون حول منعطف النهر. توقفت ليلي. ربما كان هناك معسكر للمنقبين عن الذهب في أسفل النهر. سيكون من الممتع مشاهدته.

مشت إلى ضفاف النهر ودخلت الغابة. ارتفعت الأصوات الغنائية. ورغم أنها لم تتمكن من فهم أي من الكلمات، فإن اللحن أخبرها إنها ليست أغنية تعرفها. تقدمت بحذر بين الأشجار. انغرست بين ظلال الأشجار، وجفف نسيم خفيف العرق والماء اللذين على وجهها بسرعة. بدأ قلبها ينبض بشكل أسرع.

كان بإمكانها سماع الأصوات الغنائية بوضوح أكبر. سمعت صوت عميق لرجل واحد يغني بكلمات لم تستطع فهمها، وذكرها اللحن الغريب بالموسيقى التي يعزفها الصينيون. ثم سمعت جوقة من الأصوات الذكورية الأخرى، وأوحى لها الإيقاع البطيء والثابت بأنها أغنية للعمال، أتت كلماتها وموسيقاها من دورة التنفس المتعَب ودقات القلب المتسارعة.

وصلت إلى حافة الغابة، وتخفت خلف جذع شجرة القيقب السميك، لتطل على الرجال المغنين بجانب النهر.

لكن النهر لم يكن في أي مكان قريب.

بعد أن وجدوا أن هذا المنعطف مكان جيد للتنقيب، بنى عمال المناجم الصينيون سدًّا لتحويل مجرى النهر. وحيث كان النهر من قبل، صار هناك خمسة أو ستة عمال يستخدمون المعاول والمجارف للحفر حتى يصلوا إلى الصخور الأساسية. وآخرون يحفرون قطعًا من الرمل والحصى المحملة بالذهب من بين الشقوق في المناطق التي حُفرت سابقًا. كان الرجال يرتدون قبعات القش ليحموا رؤوسهم من الشمس. ورأت ليلي المغني المنفرد، الذي أدركت أنه لوجان. لف الصيني ذو الوجه الأحمر منديلًا مطويًّا حول لحيته السميكة وأدخل أطراف المنديل في قميصه ليبقيها بعيدًا عن طريقه أثناء العمل. في كل مرة كان يصرخ فيها ببيت آخر من الأغنية، كان يقف ثابتًا ويتكئ على مجرفته، وتحركت لحيته مع غنائه مثل رقبة الدجاجة. كادت ليلي تضحك بصوت عالٍ.

قطع دوي قوي الضوضاء والنشاط وتردد صداه حول ضفاف مجرى النهر الجاف. توقفت الأغاني وتوقف جميع عمال المناجم في أماكنهم. صار هواء الجبل فجأة هادئًا وساكنًا، ولم يكسر الصمت سوى صوت الطيور المذعورة التي طارت إلى السماء.

تقدم كريك، وهو يلوح ببطء فوق رأسه بالمسدس الذي أطلق منه الطلقة، من الغابة عبر مجرى النهر حيث كانت ليلي مختبئة. جاء أوبي خلفه، وكان يوجه فوهة بندقيته من عامل منجم إلى آخر مع كل خطوة يخطوها.

قال كريك: «أوه، انظر إلى هذا. سيرك غنائي من القردة الصينية».

حدق لوجان فيه.

- ماذا تريدون يا أولاد؟

صرخ كريك: «أولاد؟ أوبي، هل سمعت هذا؟ الصيني يقول علينا أولادًا».

قال أوبي: «لن يتحدث كثيرًا بعد أن أطلق على رأسه الرصاصة».

بدأ لوجان يمشي نحوهما. كانت المجرفة الثقيلة تتدلى من يده الكبيرة وذراعه الطويلة.

أشار كريك إليه بمسدسه: «قف مكانك، أيها القرد الأصفر القذر».

- ماذا تريدان؟

- نريد أن نجمع ما هو لنا، بالطبع. نعلم أنك كنت تحتفظ بذهبنا بأمان، وقد جئنا لنطلبه مرة أخرى.

- ليس لدينا أي ذهب يخصكما.

قال كريك وهو يهز رأسه: «يا إلهي. لطالما سمعت أن الصينيين لصوص وكاذبون، بسبب تربيتهم على أكل الفئران واليرقات، لكنني دائمًا ما كنت أحتفظ بعقل منفتح بشأن هؤلاء السماويين. ولكن الآن أرى ذلك بعيني».

أكد أوبي: «كاذبون قذرون».

- أنا وأوبي وجدنا هذا المكان في الربيع الماضي وأعلنا ملكيتنا له. كنا مشغولين قليلًا في الآونة الأخيرة، لذا اعتقدنا أنه من الجيد أن نأخذ بعين الاعتبار وضعكم ونسمح لكم بالعمل في هذا المكان وندفع لكم أجرًا عادلًا مقابل عملكم. اعتقدنا أننا نؤدي واجبنا المسيحي.

أضاف أوبي: «كنا لطيفين».

وافقه كريك: «كنا كريمين جدًّا. لكن انظروا إلى ما حصلنا عليه مقابل ذلك؟ اللطف لا يجدي نفعًا مع هؤلاء الوثنيين. في طريقنا إلى هنا، كنت لا أزال أميل للسماح لكم بالاحتفاظ ببعض غبار الذهب مقابل عملكم في الأسابيع القليلة الماضية، لكن الآن أعتقد أننا سنأخذ كل شيء».

قال أوبي: «جاحدون».

صرخ شاب صيني -بالكاد ترك مرحلة الطفولة- في غضب، بكلمات بلغة بلده للوجان. لوّح لوجان بيده للشاب ليسكته، ولم تفارق عيناه وجه كريك.

قال لوجان: «لا أعتقد أنك تمتلك الحقائق الصحيحة»، (ورغم أنه لم يكن يصرخ، فإن صوته كان يتردد ويعكس صدًى قويًّا في وادي النهر والغابات بطريقة جعلت ليلي ترتجف من قوته وشدته): «لقد وجدنا هذا الموقع وطالبنا بالحفر فيه. يمكنك الذهاب إلى المحكمة للتحقق من ذلك».

سأل كريك: «هل أنت أصم؟ ما الذي جعلك تعتقد أنني بحاجة للتحقق من المحكمة؟ لقد أخبرتك بالحقائق، وبعد مشاورة القانون»، (لوح بمسدسه بشكل غير صبور): «قيل لي إن الموقع، في الحقيقة، لي وأنتم المعتدون. بموجب القانون، يحق لي أن أقتلكم كالفئران في هذا المكان. لكن بما أنني لا أرغب في إراقة الدماء بلا ضرورة، سأترككم تسلمون الذهب وتنقذون حيواتكم عديمة القيمة. قد أسمح لكم حتى بالاستمرار في العمل في هذا الموقع من أجلي، إذا وافقتم على ألا تقدموا على مثل هذه الحيلة في المستقبل وإنكار حقنا في الذهب».

دون أي تحذير قبل أن يفعلها، أطلق أوبي الرصاص. أصابت الطلقة الصخور التي عند قدمي الصبي الذي صرخ بغضب في وجه لوجان سابقًا. انحنى أوبي وكريك معًا من الضحك وقفز الصبي إلى الوراء وسقط معوله، فصرخ مفزوعًا. جرحت قطعة من الصخور المتناثرة يده، وجلس ببطء على الأرض، محدقًا بعينين ملآنتين بالدهشة وهو يرى الدماء تسيل من الجرح الذي في راحة يده وتغرق كمي قميصه البني. تجمع بعض الصينيين الآخرين حوله ليعتنوا به. بالكاد تمكنت ليلي من كتم صراخها. أرادت أن تدور وتركض عائدة إلى المدينة، لكن ساقيها لم تكن لتحملها إذا لم تعانق الشجرة التي كانت تختبئ خلفها بإحكام.

عاد لوجان بتركيزه إلى كريك. كان وجهه قد تحول إلى درجة أغمق من اللون الأحمر، مما جعل ليلي تخشى أن ينفجر الدم من عينيه.

قال لوجان: «لا تقدم على شيء ستندم عليه».

قال كريك: «سلم الذهب وإلا سأجعله يتوقف عن التنفس بدلًا من أن أجعله يرقص فقط».

ألقى لوجان بكل سهولة المجرفة التي كانت تتدلى من يده خلفه.

- لماذا لا تترك مسدسك، وسنخوض قتالًا عادلًا؟

تردد كريك للحظة. إذا وصل الأمر إلى ذلك، كان يعتقد أنه يستطيع الاعتناء بنفسه في القتال، فقد نجا من نزالات كافية في نيو أورلينز ليعرف تمامًا كيف يشعر المرء عندما تتوقف السكين عند أضلاعه. لكن لوجان كان أطول منه بنحو قدم وأكثر وزنًا بنحو خمسين رطلًا، ورغم أن لحيته جعلته يبدو مسنًا، فلم يكن كريك متأكدًا مما إذا كان لوجان حقًّا كبيرًا في السن بما يكفي ليغلبه في القتال. وفي كل الأحوال، شعر كريك ببعض الخوف من الصيني ذي الوجه الأحمر: فقد بدا غاضبًا بما يكفي ليقاتل كالمجنون، وكان كريك يعرف الكثير عن المعارك ليعلم أنك لا تخرج من قتال مع مجانين دون أن تعاني على الأقل من بعض الكسور.

كان كل شيء يسير بشكل خاطئ! كان كريك وأوبي يعرفان كل شيء عن الصينيين، بعد أن قضوا سنوات في سان فرانسيسكو. كانوا جميعًا نحيفين وقصيرين، مما جعلهم لا يشكلون أي مشكلة تذكر لكريك وأوبي، إذ لم يتسببوا لهما في متاعب أكثر من المتاعب التي قد تسببها النساء، وهو ما لم يكن مفاجئًا بالنظر إلى أن كل ما يفعلونه عبارة من أعمال نسائية: الطهي والغسيل، ولم يخض واحد منهم معركة حقيقية من قبل. كان من المفترض أن يسقط هذا العدد من الصينيين على ركبهم ويتوسلوا طلبًا للرحمة بمجرد أن يخرج كريك وأوبي ببطء من الغابة، ويسلموا كل ذهبهم. لكنَّ العملاق ذي الوجه الأحمر كان يفسد خطتهما!

قال كريك: «أعتقد أن لدينا قتالًا عادلًا في الوقت الحالي»، (ووجه مسدسه نحو لوجان): «لقد خلق الله الرجال، لكن العقيد كولت جعلهم متساوين».

فك لوجان الرباط الذي حول لحيته، ولفّه ثم ربطه حول أعلى رأسه كالعصابات. خلع سترته ورفع كمي قميصه. كانت بشرته الجلدية البنية التي تغطي عضلاته القوية مليئة بالندوب. اتخذ خطوات صغيرة نحو كريك. ورغم

أن وجهه ازداد احمرارًا أكثر من أي وقت مضى، فإن مشيته كانت هادئة، كأنه يتجول في الليل، يغني أغانيه أمام بيت ليلي في مدينة أيداهو.

قال كريك: «لا تظن أنني لن أطلق الرصاص. أولاد ميزوري ليس لديهم الكثير من الصبر».

انحنى لوجان والتقط حجرًا بحجم بيضة. ولف أصابعه حوله بإحكام.

- ارحلوا من هنا. ليس لدينا ذهب لكم.

واتخذ خطوات هادئة أخرى نحو كريك. وفي لحظة أخرى، بدأ يركض، واقتربت ساقاه من المسلحين. رفع ذراعه اليمنى إلى الوراء أثناء الجري، وهو ينظر بثبات إلى وجه كريك.

أطلق أوبي الرصاص. لكن لم يكن لديه الوقت ليثبت نفسه، فألقته قوة الطلقة على ظهره.

انفجر كتف لوجان اليسرى. فتناثرت دماء حمراء زاهية. وفي ضوء الشمس، بدت لليلي كأنها وردة تتفتح.

لم يتحدث أي من الصينيين الآخرين. كانوا ينظرون مذهولين.

كتمت ليلي أنفاسها. بدا الوقت كأنه تجمد بالنسبة لها. بدا ضباب الدم عالقًا في الهواء، رافضًا السقوط أو التبخر.

ثم سحبت ليلي نفسًا عميقًا وصاحت بأعلى صوتها كما لم تفعل من قبل، كان أعلى حتى من تلك المرة التي لسعها فيها دبور مختبئ في كوب عصير الليمون. تردد صدى صرخاتها في الغابة، مما جعل المزيد من الطيور تطير في الهواء. فكرت ليلي: *هل هذا حقًّا صوتي؟* لم يبدو الصوت كصوتها. لم يكن حتى صوتًا بشريًّا.

كان كريك ينظر إلى عينيها مباشرة عبر النهر. كان وجهه مليئًا بالغضب الشديد والكراهية لدرجة أن ليلي شعرت كأن قلبها توقف عن النبض.

يا إلهي، أرجوك، أرجوك، أعدك بأنني سأصلي كل ليلة من الآن فصاعدًا. أعدك أنني لن أعصي أمي مرة أخرى.

حاولت أن تدور وتجري، لكن ساقيها لم تستجيبا لها. تعثرت بجذر بارز، ووقعت بقوة على الأرض. آلمتها السقطة، مما جعل الهواء يخرج من رئتيها

وأوقف صراخها أخيرًا. كافحت لتحاول الجلوس، متوقعة أن ترى مسدس كريك موجهًا نحوها.

كان لوجان ينظر إليها. ومن المدهش أنه كان لا يزال واقفًا. كان نصف جسده مغطًى بالدماء. كان ينظر إليها، ورأت أنه لا يبدو كشخص تعرض لإطلاق الرصاص، كشخص على وشك الموت. رغم أن الدماء قد غطت نصف وجهه، إلا أن النصف الآخر فقد لونه القرمزي العميق. ومع ذلك، اعتقدت ليلي أنه يبدو هادئًا، كما لو لم يشعر بأي ألم، رغم أنه بدا حزينًا إلى حد ما.

شعرت ليلي بسكون يغمرها. لم تعرف سبب ذلك، لكنها عرفت أن كل شيء سيكون على ما يرام.

أشاح لوجان بوجهه بعيدًا عنها. وبدأ يمشي باتجاه كريك مرة أخرى. كانت خطواته بطيئة وثابتة. كانت ذراعه اليسرى تتدلى بلا حراك إلى جانبه.

وجه كريك مسدسه نحو لوجان.

تعثر لوجان. ثم توقف. كانت الدماء قد تسربت إلى لحيته، ومع رفرفة الرياح لها، طارت قطرات الدم في الهواء. أخذ خطوة إلى الوراء وألقى بالصخرة التي في يده. شكلت الصخرة قوسًا أنيقًا في الهواء. وقف كريك متجمدًا في مكانه. اصطدمت الصخرة بوجهه، وكان صوت ارتطامها بجمجمته مدويًّا مثل طلقة أوبي.

ظل جسد كريك واقفًا لعدة ثوانٍ قبل أن ينهار إلى كومة بلا حياة على الأرض. وقف أوبي على قدميه بسرعة ونظر إلى جسد كريك الساكن، ودون أن ينظر إلى الصينيين، بدأ يجري بأقصى سرعة ممكنة باتجاه أعماق الغابة.

سقط لوجان على ركبتيه. وللحظة، تمايل غير مستقر في مكانه وتأرجحت ذراعه اليسرى إلى جانبه، غير قادرة على منع سقوطه. ثم انهار جسده وركض بقية الصينيين نحوه.

بدت كل الأمور غير حقيقية بالنسبة ليلي، كأنها مسرحية على خشبة المسرح. اعتقدت أنه يجب أن تشعر بالرعب. كان ينبغي أن تصرخ، أو ربما حتى أن تفقد الوعي. هذا ما كانت ستفعله والدتها، كما فكرت. لكن كل شيء قد تباطأ في الثواني الأخيرة، وشعرت بالأمان والهدوء، كما لو لم يكن هناك ما يمكن أن يؤذيها.

خرجت من خلف شجرتها وذهبت إلى تجمع الصينيين.

لم تكن ليلي متأكدة مما إذا كانت ستفهم هذه اللعبة يومًا ما.

- ألا أستطيع تحريك البذور على الإطلاق؟ أبدًا؟

كانا يجلسان في حديقة الخضراوات خلف منزل لوجان، حيث لن تتمكن والدتها من رؤيتها إذا نظرت من نافذة غرفة المعيشة بعد انتهائها من الخياطة. كانا يجلسان مع ثني ساقيهما تحتهما، وكانت ليلي تحب شعور التربة الباردة والرطبة تحت ساقيها. («هذه هي الطريقة التي جلس بها بوذا»، كما قال لها لوجان). على الأرض بينهما، رسم لوجان شبكة من تسعة خطوط أفقية تقاطعها تسعة خطوط عمودية باستخدام طرف سكينه.

- لا، لا يمكنك.

حرك لوجان ذراعه اليسرى ليسهل على أه يان، الشاب الصيني الذي كان هدفًا لطلقة أوبي الأولى، تمرير قطعة القماش المبللة في يده على الجرح الذي في كتف لوجان. لمست ليلي الضمادة التي على ساقها برفق. فقد أدى سقوطها على جذر الشجرة إلى خدش جزء كبير من الجلد في مؤخرة ساقها اليسرى. لقد نظف أه يان الجرح لها ولفه بضمادة قطنية عادية مغطاة بمعجون أسود ذي رائحة قوية من الدواء والتوابل. لقد كانت اللصقة الباردة على الجرح تؤلم في البداية، لكن ليلي عضت شفتها ولم تصرخ. كانت لمسة أه يان لطيفة، وسألت ليلي عما إذا كان طبيبًا.

قال الشاب الصيني: «لا»، ثم ابتسم لها وأعطاها قطعة من البرقوق المجفف المغطى بالسكر لتلعقه. فكرت ليلي أنه أحلى شيء تذوقت على الإطلاق.

غسل أه يان القماشة في الحوض الذي بجانب لوجان. كانت المياه مرة أخرى حمراء زاهية، وكان هذا الحوض الثالث من الماء الساخن الذي يغسل فيه القماشة.

لم يولِ لوجان اهتمامًا لرعاية أه يان.

- سنلعب على لوحة أصغر من المعتاد لأنك ما زلت تتعلمين. تُدعى هذه اللعبة وي تشي[1]، وتعني «لعبة المحاصرة». فكري أثناء وضع كل حبة كأنك تدقين عمودًا في الحقل لتبني سياجًا يحيط الأرض التي تملكينها. الأعمدة لا تتحرك، أليس كذلك؟

كانت ليلي تلعب بحبوب اللوتس ولعب لوجان ببذور البطيخ. صنعت القطع البيضاء والسوداء نمطًا جميلًا على الشبكة بينهما.

قالت ليلي: «إذًا، الأمر يشبه الطريقة التي يحصلون بها على الأراضي في كانساس[2]».

قال لوجان: «نعم، أعتقد أنها تشبه ذلك قليلًا، رغم من أنني لم أذهب إلى كانساس. تريدين أن تحيطي بأكبر مساحة ممكنة، وأن تحمي أرضك جيدًا حتى لا تستطيع أعمدتي بناء مزرعة جديدة في أرضك».

أخذ لوجان رشفة طويلة من اليقطينة التي في يده. كانت اليقطينة تبدو مثل رجل الثلج إلى حد ما؛ كانت تتكون من كرة صغيرة فوق كرة أكبر، مع قطعة من الحرير الأحمر مربوطة حول الخصر الضيق لتوفير قبضة جيدة. كان سطح اليقطينة الذهبي لامعًا من الاستخدام المستمر في كف لوجان الخشن القوي. أخبرها لوجان أن اليقطينة تنمو على نبات الكرمة. عندما تنضج اليقطينة، تُقطع من الكرمة ويُقطع الجزء العلوي منها حتى يمكن إخراج البذور من الداخل وتحويل القشرة إلى زجاجة صالحة للنبيذ.

تلذذ لوجان بالطعم وتنهد.

---

(1) كلمة المترجمة: لعبة وي تشي، المعروفة أيضًا باسم (جو Go)، هي لعبة لوحية استراتيجية قديمة نشأت في الصين قبل أكثر من 2500 عام. تُلعب على لوح مكون من شبكة من الخطوط المتقاطعة، عادةً بمساحة 19×19. يهدف اللاعبون إلى السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من اللوح باستخدام الأحجار السوداء والبيضاء، عن طريق تطويق أحجار الخصم وإزالتها. تتطلب اللعبة مهارات استراتيجية وتخطيطًا دقيقًا، وتعتبر تحديًا كبيرًا، مما يجعلها واحدة من أذكى الألعاب في الثقافات الشرقية.

(2) كلمة المترجمة: تشير ليلي في حديثها إلى نظام توزيع الأراضي الذي كان شائعًا في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، حيث كانت الحكومة تقدم أراضي مجانية أو بأسعار منخفضة للمستوطنين لتحفيز الاستقرار والتنمية. كان على المستوطنين تحسين الأرض، مثل بناء منزل أو زراعة المحاصيل، مما يتطلب منهم تطوير الأرض والدفاع عنها من التعديات، وهو ما يتماشى مع فكرة لوجان عن أهمية السيطرة والدفاع عن الأراضي في اللعبة.

- الويسكي، إن مذاقه لذيذ كخمر الذرة.

قدم لليلي رشفة. فصدمت ليلي، وهزت رأسها نفيًا. لا عجب أن والدتها اعتبرت هؤلاء الصينيين بربريين. فشرب الويسكي من اليقطينة كان مشينًا بما يكفي، لكن أن يقدم الكحول لفتاة مسيحية صغيرة، ما هذا؟

- ألا يوجد ويسكي في الصين؟

أخذ لوجان رشفة أخرى ومسح الويسكي من لحيته.

عندما كنت صبيًا، قيل لي إنه لا يوجد سوى خمس نكهات فقط في العالم، وأن جميع أفراح العالم وأحزانه تأتي من خلطات مختلفة من تلك النكهات الخمس. وعرفت بعد ذلك أن هذا ليس صحيحًا. فكل مكان له طعمه الجديد، والويسكي هو طعم أمريكا.

نادى أه يان: «لاو جوان». التفت لوجان نحوه. تحدث أه يان إليه بالصينية، مشيرًا إلى الحوض. بعد أن نظر إلى الماء الذي في الحوض، أومأ لوجان برأسه. نهض أه يان وأفرغ الماء في ركن بعيد من الحقل قبل أن يدخل المنزل.

شرح لها لوجان: «لقد أخرج أكبر قدر ممكن من الدم المسموم والأوساخ والأقمشة الممزقة. حان الوقت ليخيط الجرح».

قالت ليلي: «أبي يظن أن اسمك لوجان. كنت أعلم أنه مخطئ».

ضحك لوجان. كان ضحكه عاليًا وعبثيًّا، مثلما يغني ويحكي قصصه.

- كل أصدقائي ينادونني لاو جوان، ويعني العجوز جوان، جوان هو اسم عائلتي. أعتقد أنه يبدو مثل لوجان بالنسبة لوالدك. أحب وقعه. ربما سأستخدمه كاسمي الأمريكي.

قالت ليلي: «لقد اختار أبي أيضًا اسمًا جديدًا لنفسه عندما جئنا إلى هنا. لكن والدتي لا ترى أنه ينبغي له أن يفعل ذلك».

- لا أعرف لما قد تعارض لذلك. هذه بلاد مليئة بالأسماء الجديدة. ألم تغير اسمها عندما تزوجت والدك؟ الجميع يحصل على اسم جديد عندما يأتون إلى هنا.

فكرت ليلي في هذا. كان كلامه صحيحًا. فوالدها لم يكن يناديها بلؤلؤتي حتى جاءوا إلى هنا.

عاد أه يان بإبرة وخيط. بدأ في خياطة الجرح الذي على كتف لوجان. نظرت ليلي عن كثب إلى وجه لوجان لترى ما إذا كان سيبدو عليه علامات الألم.

قال لوجان: «ما زلت لم تلعبي دورك. سأستولي على جميع بذورك في تلك الزاوية إذا لم تفعلي شيئًا حيال ذلك».

- ألا يؤلمك؟

- هذا؟

الطريقة التي أشار بها إلى كتفه بتلويح لحيته جعلت ليلي تضحك.

- هذا لا شيء مقارنة بالوقت الذي اضطررت فيه لكشط عظامي.

- اضطررت لكشط عظامك؟

- ذات مرة أُصبت بسهم مسموم، وكان طرف السهم مدفونًا في عظام ذراعي. كنت سأموت ما لم أخرج السم. جاء هوا تيو، أبرع طبيب في العالم، لمساعدتي. كان عليه أن يحفر في ذراعي، ويقشر اللحم والجلد، ويكشط قطع العظم المسموم بمبضعه. دعيني أخبرك، كان ذلك مؤلمًا أكثر بكثير من هذا. ما ساعدني على ذلك أن هوا تيو جعلني أشرب أقوى نبيذ أرز يمكن أن يجده، وكنت ألعب وي تشي ضد ملازمي الأول، الذي كان لاعبًا بارعًا جدًّا. لقد شتت ذلك ذهني عن الألم.

- أين كان هذا؟ في الصين؟

- نعم، منذ زمن طويل في الصين.

انتهى أه يان من خياطة الجرح. قال لوجان شيئًا له، فسلمه أه يان حزمة صغيرة من الحرير. كانت ليلي على وشك أن تسأل أه يان عن الحزمة، لكنه ابتسم لها فقط ووضع إصبعه على شفتيه. أشار لها أن تنظر إلى لوجان وتمتم: «شاهدي».

وضع لوجان الحزمة على الأرض وفك الرباط الحريري. بداخله كانت هناك مجموعة من الإبر الفضية الطويلة. التقط لوجان واحدة من الإبر بيده اليمنى، وقبل أن تتمكن ليلي من الصراخ «توقف»، غرز الإبرة في كتفه اليسرى، فوق الجرح مباشرة.

صاحت ليلي: «لماذا فعلت هذا؟». لسبب ما، جعلها منظر الإبرة الطويلة التي برزت من كتف لوجان تشعر بالغثيان أكثر من عندما انفجر كتف لوجان برصاصة أوبي.

قال لوجان: «إنها توقف الألم». ثم أخذ إبرة أخرى وغرزها في كتفه على بعد بوصة تقريبًا فوق الإبرة الأخرى. بعد ذلك، لف طرف الإبرة قليلًا للتأكد من أنها استقرت في المكان الصحيح.

- لا أصدقك.

ضحك لوجان.

- هناك أشياء كثيرة لا تفهمها الفتيات الأمريكيات الصغيرات، والعديد من الأمور التي لا يفهمها المسنون الصينيون. يمكنني أن أريك طريقة عملها. هل ما زالت قدمك تؤلمك؟

- نعم.

- حسنًا، اثبتي.

انحنى لوجان للأمام ومد كفه اليسرى نحو الأرض.

- ضعي قدمك في يدي.

- مهلًا! يمكنك تحريك ذراعك اليسرى مرة أخرى.

- أوه، هذا لا شيء. عندما اضطررت إلى كشط عظامي، كنت في ساحة المعركة بعد ساعتين.

كانت ليلي متأكدة أن لوجان يمزح معها.

- أصيب والدي في ساقه وصدره في الحرب، واستغرق الأمر ثمانية أشهر قبل أن يتمكن من المشي مرة أخرى. وما زال يعرج.

رفعت قدمها، وهي تشعر بالألم. وضع لوجان كفه تحت كاحلها.

كانت راحة لوجان دافئة، بل ساخنة، على كاحل ليلي. أغمض لوجان عينيه وبدأ يتنفس ببطء وهدوء. شعرت ليلي بأن الحرارة على كاحلها تزداد. كانت لطيفة، كأنها منشفة ساخنة جدًا مضغوطة حول ساقها المصابة. بدأت الآلام تذوب تدريجيًّا مع الحرارة. شعرت ليلي بالاسترخاء والراحة لدرجة أن بإمكانها أن تسقط في النوم. أغمضت عينيها.

- حسنًا، أنتِ جاهزة الآن.

ترك لوجان كاحلها برفق ووضع قدمها بلطف على الأرض. فتحت ليلي عينيها ورأت إبرة فضية كبيرة تبرز من ساقها أسفل ركبتيها.

كادت ليلي تصرخ من الألم حتى أدركت أنها لا تشعر بأي ألم. كان هناك تنميل خفيف حول المكان الذي دخلت فيه الإبرة إلى جلدها، وواصلت الحرارة الانبعاث منها، مما منع أي ألم من إصابتها.

قالت ليلي: «هذا شعور غريب». ثم ثنت ساقها عدة مرات.

- كما لو كانت جديدة.

- ستفقد والدتي وعيها عندما ترى هذا.

- سأخرجها قبل أن تذهبي إلى المنزل. جلدك لن يتعافى قبل بضعة أيام أخرى، لكن معظم السم في دمك قد زال مع الدواء الذي وضعه أه يان على الضمادة، وقد أخرج الوخز بالإبر باقي السم. احرصي فقط على تغيير الضمادة إلى واحدة نظيفة غدًا، ولن يبقى لديك حتى ندبة عندما ينتهي هذا.

أرادت ليلي أن تشكره، لكنها شعرت فجأة بالخجل. كان الحديث مع لوجان غريبًا. كان مختلفًا عن أي شخص قابلته من قبل. في لحظة كان يقتل رجلًا بيديه فقط، وفي اللحظة التالية كان يمسك كاحلها بلطف كما لو كانت جروًا. في لحظة كان يغني أغاني بدت كما لو أنها قديمة بقدم الأرض نفسها، وفي اللحظة التالية يضحك معها على لعبة تُلعب ببذور البطيخ وبذور اللوتس. كان مثيرًا للاهتمام ولكنه أيضًا أكثر من مخيف بقليل.

قال لوجان وهو يضع بذورًا أخرى على الشبكة، ملتقطًا مجموعة من بذور ليلي: «أنا أحب اللعب بالبذور السوداء»، (ثم التقطها وابتلع حفنة من بذور اللوتس): «بذور اللوتس أفضل بكثير للأكل».

ضحكت ليلي. كيف يمكنها أن تخاف من رجل مسن يتحدث وفمه ممتلئ؟

- لوجان، تلك القصة عن السهم المسموم والطبيب الذي كان يكشط عظامك، لم تحدث لك حقًا، أليس كذلك؟

أمال لوجان رأسه ونظر إلى ليلي بتفكير. ببطء، مضغ بذور اللوتس في فمه، ثم ابتلعها، وابتسم.

- حدث هذا لجوان يو، إله الحرب الصيني.

- كنت أعلم ذلك! أنت مثل أصدقاء والدي، دائمًا يحكوا لي حكايات زائفة لمجرد أنني طفلة.

ضحك لوجان ضحكته العميقة، الرنانة.

- ليست كل الحكايات زائفة.

لم تسمع ليلي قط عن إله الحرب الصيني، وكانت متأكدة أن والدها لم يسمع به أيضًا. كانت الشمس قد بدأت تغرب، وامتلأت الحديقة بأصوات الرجال الصينين الصاخبة ورائحة طهيهم الدسمة.

قالت ليلي: «يجب أن أعود إلى المنزل»، رغم أنها كانت ترغب بشدة في تجربة بعض الطعام الذي كانت تشمه وسماع المزيد عن جوان يو.

- هل يمكنني أن آتي لزيارتك غدًا، وتحكي لي المزيد من الحكايات عن جوان يو؟

مد لوجان يده ليمسح لحيته. كان وجهه جادًّا.

- سيكون هذا شرفًا لي.

ثم انفرجت على وجهه ابتسامة كبيرة.

- رغم أنه سيتعين علي أكل كل البذور بنفسي الآن.

إله الحرب

قبل أن يصير جوان يو إلهًا، كان مجرد صبي.

في الحقيقة، قبل ذلك، كان تقريبًا مجرد شبح. حملته والدته في بطنها لمدة اثني عشر شهرًا، ومع ذلك رفض أن يُولد. أعطت القابلة لها بعض الأعشاب ثم طلبت من زوجها أن يمسكها وهي تركل وتصرخ. وأخيرًا خرج الطفل ولم يتنفس. كان وجهه أحمر زاهيا. إما بسبب الاختناق وإما بسبب دماء الأب البربرية، كما فكرت القابلة.

كانت الأم نائمة عندما همست القابلة للأب: «سيكون طفلًا ضخمًا. ضخما جدًّا لدرجة أنه لن يعيش طويلًا على أي حال». بدأت بلف جسده كما كان من المفترض بأقمطته.

- هل اخترت له اسمًا؟

- لا.

- من الجيد أنك لم تفعل ذلك. فلا أحد يريد أن يعطي الشياطين اسمًا يتعلقون به في طريقهم إلى الجحيم.

أطلق الطفل صرخة مدوية. كادت القابلة أن تسقطه.

أصرت القابلة وهي تفك أقمطته بغضب لأن الطفل تجرأ على تحدي سلطتها في هذه الأمور: «إنه كبير جدًّا لا يمكن أن يعيش طويلًا. وهذا الوجه. أحمر جدًّا».

- إذًا سأطلق عليه اسم تشانج شينج، أي الحياة الطويلة.

كانت أشعة شمس صيف شانسي الجافة ورياح ربيعها المغبرة قد نحتت خطوطًا ورشت ملحًا على وجوه الصينيين المشققة والمتوردة، أولئك الذين حاولوا كسب عيشهم هنا في قلب شمال الصين. عندما تسلل البربريون عبر السور العظيم واندفعوا من الشمال في غزواتهم على ظهور خيولهم الشاهقة، كان هؤلاء الرجال هم الذين أمسكوا بمعاولهم وصهروا محاريثهم للقتال حتى الموت. وقاتلت النساء إلى جانب الرجال بسكاكين مطابخهن، وعندما فشلن، انتهى بهن الأمر كإماء ثم كزوجات للبربريين، يتعلمن لغتهم وينجبن أطفالهم، حتى بدأ البربريون يعتقدون أنهم صينيون، ومن ثم، قاتلوا بدورهم ضد موجة الهجوم التالي من البربريين.

في حين هرب الرجال الضعفاء والنساء الرقيقات اللاتي كن يخشين الموت إلى الجنوب ليجدوا أنفسهم يجرون قواربهم الزهرية ويغنون أبياتهم السكرى، كان الذين بقوا وراءهم،

ينسجمون مع موسيقى حياتهم على إيقاع الغضب الهائج للصحراء، ازدادت قوتهم وصلابتهم بدمائهم البربرية المختلطة في عروقهم وملأهم الفخر بحياتهم الشاقة.

قال والد تشانج شينج له: «لهذا السبب، جاء جميع أباطرة قين وهان من الشمال الغربي العظيم، أرضنا. فمنا يخرج الجنرالات والشعراء، الوزراء والعلماء في الإمبراطورية. نحن الوحيدون الذين نقِّدر الفخر».

بالإضافة إلى مساعدته لوالده في الحقول، كانت مهمة تشانج شينج هي جمع الحطب والوقود للطبخ. كان الوقت الذي قبل غروب الشمس أو نحو ذلك هو الوقت المفضل لدى تشانج شينج في اليوم. كان ذلك عندما يأخذ الفأس الصدئ والسكين الكبيرة الأكثر صدأ من خلف باب المطبخ ويتسلق الجبل خلف القرية.

صدر صوت انكسار، انقسم جذع الشجرة المتعفن بواسطة الفأس. وصدر صوت قطع النصل للعشب الجاف. كانت مهمة شاقة، لكن تشانج شينج تظاهر بأنه بطل عظيم يقضي على أعدائه كما لو أنهم الأعشاب.

في المنزل، كان العشاء يتكون من بطيخ مُر مقلي وملفوف مخلل، يُقدَّم مع بصل أخضر مغموس في صلصة الصويا وملفوف في فطائر رقيقة مصنوعة من الذرة البيضاء. أحيانًا، عندما يكون والده في مزاج جيد، كان تشانج شينج يحصل على رشفة من نبيذ البرقوق، حلو المذاق عند طرف اللسان، وحارق في الحلق. ازداد وجهه احمرارًا.

قال والده مبتسمًا: «أحسنت، أيها الصغير». ودمعت عينا تشانج شينج من حرارة الكحول بينما امتدت يده لطلب رشفة أخرى.

- حلو، حامض، مُر، حار ومالح، النكهات كلها متوازنة.

كبر تشانج شينج وصار فتى طويل القامة. كانت والدته تخيط له دائمًا أثوابًا جديدة كلما كبر حجمه على الأثواب القديمة. لم تُظهر موجة الجفاف التي استمرت خمس سنوات أي بوادر للانتهاء، ورغم أن الرجال عملوا بجهد أكبر من أي وقت مضى في الحقول، بدا الحصاد أنه يقل سنة تلو أخرى. لم يكن هناك مال لإرساله إلى المدرسة، لذا تولى والده مهمة تعليمه.

كان التاريخ مادته المفضلة، لكن كانت تظهر دائمًا لمحة من الحزن في عيني والده عندما يتحدثان عن التاريخ. تعلم تشانج شينج ألا يطرح الكثير من الأسئلة. وبدلًا من ذلك، قضى وقتًا أطول في قراءة كتب التاريخ. ثم، عندما كان يخرج لجمع الحطب، كان يمثل المعارك العظيمة بفأسه وسكينه ضد جحافل لا نهاية لها من البربريين.

سأله والده ذات يوم: «أتحب القتال؟».

هز رأسه بالإيجاب.

- سأعلمك لعبة وي تشي إذًا.

- هل كان والد تشانج شينج يستخدم بذور اللوتس وبذور البطيخ أيضًا؟

- لا، كان يستخدم أحجارًا حقيقية.

- أنا أفضل طريقتك في لعب وي تشي. استخدام البذور أكثر متعة.

- وأنا كذلك. وأحب الأكل كثيرًا أيضًا. الآن، أين كنا؟

في غضون يوم واحد، استطاع تشانج شينج الفوز في مباراة واحدة من أصل ثلاث ضد والده. وبعد أسبوع، كان يخسر مباراة واحدة فقط من أصل خمس. وبعد شهر، كان يفوز في كل مباراة، حتى عندما يعطي والده الأسبقية بخمسة أحجار.

كانت لعبة وي تشي أفضل حتى من نبيذ البرقوق. فثمة حلاوة في بساطة القواعد، ومرارة في الهزيمة، وفرح حارق في النصر. كانت الأنماط التي تشكلها الأحجار تستحق أن يُتأمل فيها، ويُتذوق جمالها.

أثناء تجوله، انغمس تشانج شينج في تأمل الأنماط التي رسمتها خطوط الطين الأسود التي قذفتها عربات الثيران المارة على جدران البيوت المطلية باللون الأبيض. وبدلًا من تقطيع الحطب، نقش شبكة اللعب ذات مساحة التسعة عشر في تسعة عشر في أرضية المطبخ بفأسه. وخلال العشاء، نسي تشانج شينج تناول طعامه وهو يرسم التشكيلات على الطاولة باستخدام حبات الأرز البري وبذور البطيخ السوداء. أرادت والدته أن توبخه.

قال والده: «دعيه وشأنه. هذا الفتى يملك مقومات قائد عظيم».

قالت والدته: «ربما كذلك. لكن عائلتك لم تخدم الإمبراطور منذ أجيال. من سيقود؟ سرب من الإوز؟».

أصر والده قائلًا: «إنه ما زال ابن ملكات وشعراء، وقادة ووزراء."

- اللعبة لن تضع الأرز في القدر، ولا الحطب في الموقد. سنحتاج لاقتراض المال مجددًا هذا العام.

أرسلت القرى المجاورة أفضل لاعبيها لتحديه، فهزمهم جميعًا. وفي النهاية، سمع هوا شيونج، ابن أغنى رجل في المقاطعة، عن تشانج شينج، المعجزة في لعبة وي تشي.

حققت عائلة هوا شيونج ثروتها من خلال الحصول على رخصة مهمة لبيع الملح. كانت هناك بحيرة كبيرة في المقاطعة، وقد امتلأت مياهها المالحة بدماء تشي يو بعد أن هزمه

الإمبراطور الأصفر وقطعوا جسده ومزقوه تمزيقًا. فرض أباطرة الهان الضرائب على تجارة الملح كمصدر رئيسي لإيراداتهم، وكان الاحتكار الإمبراطوري للملح يُطبق بصرامة. قدم جد هوا شيونج بعض الرشاوى الاستراتيجية، ومنذ ذلك الحين صارت العائلة تنعم بثروتها من تجارة الملح.

كان هوا شيونج في عمر تشانج شينج. كان من ذلك النوع من الفتيان الذين يعذبون القطط ويستمتع بالاندفاع بحصانه عبر حقول مستأجري أراضي والده، مدمرًا محاصيل الذرة البيضاء والقمح لتشكل آثار الحوافر اسمه. وهكذا ظهر عند باب منزل جوان عندما جاء للعب وي تشي مع تشانج شينج، على صهوة حصانه، وخلفه مساحات من الذرة البيضاء المدعوسة.

أحضر هوا شيونج معه لعبته الخاصة: لوح مصنوع من أشجار الصنوبر من جبل تاي، وصُنعت الأحجار السوداء من اليشم الأخضر، بينما صُقلت قطع الأحجار البيضاء من المرجان. جعل تشانج شينج اللعبة تستمر لأطول وقت ممكن ليتمكن من لمس الأحجار الباردة والملساء لوقت أطول.

قال هوا شيونج: «صارت اللعبة مملة. لم أخسر أمام أحد منذ سنوات».

ابتسم والد تشانج شينج وهو يفكر: ألا يعلم أن الأشخاص الذين يضطرون لاقتراض المال من والده سيتأكدون من فوزه في اللعبة؟

كان هوا شيونج في الواقع لاعب وي تشي ماهر، لكنه لم يكن بمستوى تشانج شينج.

قال هوا شيونج لوالد تشانج شينج: «إنه لأمر مدهش. يبدو أن صديقي تشانج شينج لديه موهبة. أنا أشعر بالخجل وأنا أقول إنني لست بمستواه».

تفاجأ والد تشانج شينج. كان فخورًا به جدًّا لدرجة أنه لم يكن ليخبر ابنه بأن يخسر اللعبة لصالح هوا شيونج. لقد توقع أن ينفجر هوا شيونج غضبًا. لكنه لم يتوقع ذلك.

فكر: ليس بهذا السوء. لقد تقبل الهزيمة بإجلال. هذه صفة تنتمي إلى الرجال العظماء.

- **ما المدهش في ذلك؟ أنا لا أغضب أبدًا عندما يهزمني والدي في لعبة الداما. أعلم أن علي أن أتحسن.**
- **تلك كلمات حكيمة. ليس كل شخص يرى الهزيمة كفرصة.**
- **هل هوا شيونج حقًّا رجل صالح؟**
- **إذا لم تقاطعيني، ستكتشفين ذلك قريبًا.**
- **سآخذ المزيد من بذور البطيخ. لن أتمكن من التحدث إذا كان فمي ممتلئًا.**

ساءت المحاصيل بشكل أكبر في السنوات الخمس التالية. اجتاح الجراد المحافظة. وفرض حظرًا بسبب الوباء على المقاطعة المجاورة. انتشرت شائعات عن أكل لحوم البشر. وفرض الإمبراطور مزيدًا من الضرائب.

في الثامنة عشر من عمره، صار هوا شيونج رب الأسرة بعد أن توفي والده مختنقًا بعظمة ساق طائر السمان المطبوخة في نبيذ الأرز. استغل انخفاض أسعار العقارات لشراء أكبر قدر ممكن من الأراضي في المقاطعة. ذهب والد تشانج شينج لرؤيته في ليلة رأس السنة.

قال هوا شيونج وهما يوقعان العقد: «لا تقلق يا سيد جوان. لدي ذكريات جميلة عن الألعاب التي كنت ألعبها مع تشانج شينج عندما كنا أطفالًا. سأعتني بك وبعائلتك».

في مقابل بيع أرضه لهوا شيونج، حصل والد تشانج شينج على ما يكفي من المال لسداد ديون العائلة المتزايدة. وكان من المفترض أن يستأجر الأرض مرة أخرى من هوا شيونج ويدفع له حصة من عائدات المحاصيل كل عام كإيجار.

قال لوالدة تشانج شينج: «لقد قدم لنا صفقة رائعة. كنت أعلم دائمًا أنه سينشأ ليكون رجلًا صالحًا».

في ذلك العام، عملوا بجد في الحقول. وعاد الجراد إلى المقاطعة مرة أخرى، لكنه لم يصب قريتهم. نمت سيقان الذرة البيضاء طويلة ومستقيمة، تتمايل مع رياح الصيف الجافة في أواخر الصيف. كان أفضل حصاد حصلوا عليه بعد عدة سنوات.

في ليلة رأس السنة، جاء هوا شيونج مع مجموعة من خدمه الأقوياء.

- أتمنى أن يجلب لك العام الجديد حظًّا سعيدًا يا سيد جوان.

وانحنى كلا منهما للآخر عند الباب.

دعا والد تشانج شينج هوا شيونج للدخول لتناول بعض الشاي ونبيذ البرقوق. جثوا على حصير القش الجديد والنظيف، أمام بعضهما، وبينهما الطاولة الصغيرة التي تحمل وعاء النبيذ الدافئ.

تمنوا دوام الصحة لبعضهما وتناولا الكؤوس الثلاثة المعتادة. ضحك هوا شيونج بشكل غير مريح إلى حد ما.

- سيد جوان، لقد جئت بشأن أمر الإيجار.

قال والد تشانج شينج: «بالطبع». (واستدعى تشانج شينج ليحضر له خمسة تايلات[1] من الفضة): «ها هي يا سيد هوا. خمسة في المئة من عائداتي لهذا العام».

أطلق هوا شيونج سعالًا خفيفًا.

- بالطبع أفهم مدى صعوبة الأمور المالية عليك وعلى عائلتك في السنوات الأخيرة. إذا كنت بحاجة إلى بعض الوقت لجمع بقية المبلغ، فهذا مقبول تمامًا.

ثم نهض وانحنى بشدة.

- لكنني أحضرت لك كل المال المطلوب هنا. يمكنني أن أريك السجلات. لقد كانت سنة مربحة وقد جمعت ثلاثة وتسعين تايلًا من الفضة في السوق. خمسة في المئة من ذلك هو أربعة تايلات وثمانية قطع نقدية. ولكن نظرًا لأنك كنت كريمًا معي في الصفقة الأصلية، رأيت أنه من الأفضل أن أدفع لك خمسة تايلات كاملة كشكر لك.

انحنى هوا شيونج بشدة أكبر.

- بالتأكيد سيد جوان يمزح مع هوا شيونج المتواضع. لقد قال بعض الأشخاص الأشرار إن سيد جوان سيحاول التملص من دفع مبلغ الإيجار بالكامل هذا العام، لكن هوا شيونج المتواضع لم يصدقهم. كان هوا شيونج المتواضع متأكدًا من أن كل شيء سيتضح بمجرد أن يأتي لرؤية سيد جوان شخصيًّا.

- ما الذي تقصده؟

(1) كلمة المترجمة: التايل هو وحدة قياس للوزن تُستخدم بشكل رئيسي في دول جنوب شرق آسيا. يعادل التايل عادة37. 5 جرام تقريبًا. تُستخدم هذه الوحدة بشكل خاص في تجارة المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة، حيث تُقاس كميات هذه المعادن غالبًا بالتايل.

بدا هوا شيونج وكأنه يشعر بعنكبوت يزحف على عموده الفقري. مد يديه للأمام بشكل يائس كأنه بلا حيلة.

- هل يطلب السيد جوان من هوا شيونج المتواضع أن يُريه السند وعقد الإيجار؟

صار وجه والد تشانج شينج مثل قناع حديدي.

- أرني.

تظاهر هوا شيونج أنه يبذل جهدًا كبيرًا في البحث عن الوثائق. ربت على أكمامه وجيوب ردائه العلوية. وصرخ في خدمه الأقوياء ليفتشوا في العربة. وأخيرًا، جاء أحدهم، رجل ضخم ذو عظام أصابع عملاقة ومشوهة، إلى هوا شيونج وقدم له الوثيقة الملفوفة، مُلقيًا نظرة ساخرة طويلة وقاسية على والد تشانج شينج.

مسح هوا شيونج جبينه بكُمه: وقال: «أخيرًا. كنت أظن أننا فقدناها. لم أظن أنه سنضطر إلى البحث عنها».

جثوا مرة أخرى، وفتح هوا شيونج عقد الإيجار على الطاولة بينهما. قرأ: «يجب أن يكون الإيجار خمسة وثمانين في المئة من عائدات بيع المحاصيل السنوية»، وأشار إلى الأحرف بأصابعه الطويلة والرفيعة. قال والد تشانج شينج بعد فحص عقد الإيجار: «ربما يمكنك أن تشرح لي لما كتبت الثمانين بأحرف صغيرة مقارنة ببقية الوثيقة».

قال هوا شيونج: «الكاتب الذي أعد عقد الإيجار كان كاتبًا ضعيفًا حقًا»، (ثم ابتسم ابتسامة متملقة): «لا شك أن سيد جوان خطه أكثر أناقة بكثير. ولكن بالنسبة لعقد الإيجار، ستوافقني على أن ضعف خطه ليس بهذه الأهمية، أليس كذلك؟».

وقف والد تشانج شينج. كان بإمكان تشانج شينج أن يرى حواف أكمامه ترتعش. «هل تظن أنني كنت سأضع ختمي على عقد إيجار مثل هذا؟ خمسة وثمانين في المئة؟ سيكون من الأفضل أن أنضم إلى مجموعة من اللصوص إذا اضطررت للعيش بهذا الفتات». وتقدم خطوة نحو هوا شيونج.

تراجع هوا شيونج بضع خطوات. وتقدم اثنان من الرجال الضخام وشكلوا حاجزًا بينه وبين الرجل الأكبر سنًّا. قال هوا شيونج وعلى وجهه تظاهر بالأسف: «أرجوك، لا تجعلني أذهب بهذا إلى القاضي».

نظر تشانج شينج إلى الفأس المائل خلف الباب. وبدأ يتجه نحوه.

- أوه لا. لا تفعل هذا!

قال والده: «اذهب إلى المطبخ وتأكد إذا كانت والدتك بحاجة إلى المزيد من الخشب».

تردد تشانج شينج.

قال والده: «اذهب!».

مشى تشانج شينج بعيدًا واسترخى الرجال الضخام.

- عذرًا على المقاطعة.

- لا، لا بأس. كنت تحاول إنقاذ تشانج شينج، كما سيفعل أي أب.

في وقت لاحق، بعد مغادرة هوا شيونج، تناولت الأسرة عشاء ليلة رأس السنة في صمت.

قال والده بسخرية بعد وجبة العشاء: «رجل عظيم بالفعل». ثم ضحك طويلًا وبشدة. ظل تشانج شينج مستيقظًا طوال الليل معه، يشرب آخر كمية من نبيذ البرقوق.

كتب الأب التماسًا طويلًا إلى محكمة القاضي، يوضح فيه خيانة هوا شيونج.

قال لتشانج شينج: «من المحزن أن نشرك البيروقراطيين في الأمر. لكن أحيانًا لا يكون لدينا خيار».

ظهر الجنود في منزلهم بعد أسبوع. كسروا الباب وسحبوا تشانج شينج ووالدته إلى الفناء وبدؤوا في قلب كل قطعة من الأثاث في المنزل وتحطيم كل طبق، وكوب، ووعاء، وصحن.

- ما هي التهمة الموجهة ضدي؟

قال القائد وجنوده يضعون القيد حول عنق وذراعي والد تشانج شينج: «يا لك من فلاح محتال، تتآمر لتشكيل عصابة من اللصوص للانضمام إلى العمامات الصفراء[1]. اعترف الآن بأسماء المتآمرين معك».

تطلب الأمر أربعة جنود لإمساك تشانج شينج، وفي النهاية جروه إلى الأرض وجلسوا عليه وهو يكافح لإطلاق سراحه ويسب الجنود.

قال القائد: «أعتقد أن ابنك أيضًا لديه روح متمردة. أظن أننا سنأخذه معنا أيضًا».

- تشانج شينج، توقف عن القتال. ليس هذا الوقت المناسب. سأذهب لرؤية القاضي. سأوضح له هذا الأمر.

---

(1) كلمة المترجمة: جماعة ثورية ظهرت في الصين خلال فترة سلالة هان الشرقية في القرن الثاني الميلادي. كانت هذه الجماعة جزءًا من ثورة أوسع ضد الفساد الحكومي وسوء الإدارة في الحكومة الهانية.

قاد هذه الحركة مجموعة من القادة الذين ارتدوا العمامات الصفراء، والتي صارت رمزًا لثورتهم. كانت أهدافهم تتضمن إصلاح الحكومة وتخفيف الأعباء عن الفلاحين. ومع ذلك، تسببت ثورتهم في فوضى وصراع واسع النطاق، وأسفرت في النهاية عن تفكك سلالة هان وظهور فترة الانقسام التي عُرفت باسم عصر الممالك الثلاث.

لم يعد والده في اليوم التالي، ولا في اليوم الذي تلاه. بعد ذلك جاء أناس راكضين من المدينة إلى القرية ليخبروا العائلة إنه أُلقي في السجن بقرار من القاضي، في انتظار محاكمته بتهمة التمرد الخائن. غادرت الأم وابنها مرتعبين وذهبا إلى المدينة ليستأنفا الحكم لدى القاضي في مقره الرئيسي في «دار الحاكم».

رفض القاضي رؤيتهما، أو السماح لهما برؤية والد تشانج شينج.

- فلاحون محتالون، اخرجوا، اخرجوا!

ورمى القاضي صخرة العالِم التي كان يستخدمها لتثبيت الورق باتجاه تشانج شينج، لكنها أخطأته بمقدار قدم. وباستخدام عصيهم المصنوعة من البامبو، طرد الحراس تشانج شينج ووالدته من قاعات «دار الحاكم».

جاء الربيع، لكن الأم وابنها تركا الحقول مهجورة. وجاء أتباع هوا شيونج ليأخذوا أي شيء ذي قيمة تبقى في المنزل ولم يُحطم على يد الجنود. أمسكت والدة تشانج شينج به وهو يعض على أسنانه ويصكها معًا حتى شعر بملوحة الدم على لسانه. ازداد وجهه احمرارًا أكثر فأكثر حتى خاف خدم هوا شيونج وغادروا قبل أن يتمكنوا من أخذ كل شيء.

أخذ فأسه وسلاحه وقضى أيامه بين الجبال. أزال جوانب تلال بأكملها بضرباته القوية. صدر صوت انكسار فعاد الأولاد الذين كانوا يلعبون بين الجبال إلى أمهاتهم وتحدثوا عن رؤيتهم لنسر عظيم ينقض على الأشجار، محطمًا الأغصان بمنقاره الحديدي. صدر صوت قطع نصل، فعادت الفتيات اللاتي كن يغسلن الملابس على ضفة النهر إلى القرية وأخبرن الجميع

عن سماعهن لصوت نمر غاضب وهو يندفع عبر الغابة، ممزقًا الأشجار الصغيرة بمخالبه الكبيرة.

قايضوا حزم الحطب وقطع الأخشاب مقابل دقيق الذرة والخضراوات المخللة من الجيران. لم ينطق الابن وابتلعت أمه الطعام في صمت، وهي تضيف إليه نكهة دموعها. بدا أنه يعيش على نبيذ الذرة ونبيذ البرقوق فقط. ومع كل رشفة، كان وجهه يصير أغمق وأكثر احمرارًا. لم تتلاشى صبغة الدم التي رسمتها الذرة والبرقوق من على وجهه.

الوجبة

نادى أه يان، مقاطعًا قصة لوجان: «هيا، هيا».

قال لوجان لليلي وهو يضع وعاء بذور البطيخ جانبًا: «حان وقت العشاء. هل ستنضمين إلينا؟ إن آه يان يحضر طبق مابو توفو على طريقة الزوجة مالا ولحم دوق وي، وهما أفضل أطباقه».

لم ترد ليلي أن يتوقف لوجان عن الحكي. أرادت أن ينال هوا شيونج جزاءه. كانت تتمنى أن ترى تشانج شينج وهو غاضب في الغابة، يتحرك بقوة ورشاقة كالنسر أو النمر. لكن الصينيين كانوا منشغلين حولها، يرتبون الصناديق الفارغة والمقاعد في الحديقة مشكلين دائرة للجلوس، ويتحدثون بصوت عالٍ ويضحكون فيما بينهم.

أدت الرائحة المنبعثة من باب المطبخ المفتوح إلى قرقرة معدة ليلي. كانت مسحورة تمامًا بحكاية لوجان لدرجة أنها لم تدرك حتى أنها جائعة.

قال لوجان: «أعدك بأن نكمل القصة في وقت آخر».

كان عمال المناجم سعداء. أخبرها لوجان أن الموقع الذي كانوا يعملون فيه اتضح أنه يحتوي على رواسب غنية، حيث استخرجوا الذهب بكميات وفيرة مع كل ضربة معول. فحص أه يان ساقها فور عودته مع الصينيين الآخرين وأعرب عن رضاه عن عملية شفائها، بشرط أن تستمر في تناول الطعام الصحي وممارسة التمارين للحفاظ على قوتها.

قال أه يان: «لدي قصة ممتعة لك».

خلال النهار، زار العريف ديفي جاسكنز عمال المناجم الصينيين. كانت الهيئة التشريعية في المنطقة قد أصدرت قانونًا للضرائب على عمال المناجم الأجانب قبل بضع سنوات بمعدل خمسة دولارات للشخص الواحد شهريًّا، وكان العريف يذهب لتحصيلها. هدفت هذه الضريبة إلى طرد الصينيين الذين كانوا يتدفقون إلى المنطقة كأسراب الجراد. لكنهم واجهوا صعوبة كبيرة في تحصيلها في القرى الصغيرة. كان جاسكنز يكره الزيارات الشهرية لمخيمات التعدين الصينية، فقد جعلته يشعر وكأنه سيفقد صوابه.

أولًا، كانت المخيمات بعيدة جدًّا عن بعضها، لدرجة أنه لم يتمكن من زيارة جميعها في يوم واحد. وبطريقة ما، كانوا يعرفون دائمًا الميعاد الذي سيأتي فيه لتحصيل الضريبة. كان يقف في وسط المخيم مع أدوات كافية من المعاول والأواني والمجارف تكفي لعشرين أو ثلاثين رجلًا على الأقل، لكن لا يستقبله سوى خمسة أو ستة صينيين، مصممين على أن سبب وجود الأدوات الإضافية هو أنهم يعملون بجد لدرجة أن الأدوات تتآكل بسرعة.

وما أسوأ من ذلك، أنهم بدوا وكأنهم يتحركون باستمرار.

قال أه يان في ذلك المساء: «مرحبًا، أيها العريف. سررنا برؤيتك مرة أخرى. ”

رد جاسكنز: «ما اسمك مرة ثانية؟» فلم يكن يستطيع تمييز الصينيين عن بعضهم.

قال أه يان: «أنا لو ييب. لقد جئت لتحصيل الضرائب منا يوم الإثنين، هل تذكر؟».

كان جاسكنز متأكدًا من أنه لم يأتِ إلى هذا المخيم يوم الإثنين. كان في الجهة الأخرى من المدينة، يجمع الضرائب من ثلاثة مواقع يُفترض أن يعمل بها خمسة رجال فقط.

- كنت بالقرب من بايونيرفيل يوم الإثنين.
- بالطبع، كنا هناك أيضًا. لقد انتقلنا إلى هنا يوم أمس.

أظهر أه يان للشريف إيصالات الضرائب. وبالفعل، كان هناك اسم «لو ييب» وأربعة آخرون، تليها توقيع جاسكنز.

قال جاسكنز: «آسف لم أتعرف عليك». شعر أنه بالتأكيد يتعرض للخداع، لكن لم يملك دليلًا. كانت الإيصالات موجودة ومكتوبة بخط يده.

قال أه يان وعلى وجهه ابتسامة عريضة: «لا مشكلة، جميع الصينيين يبدون مثل بعضهم. خطأ سهل أن يحدث».

ضحكت ليلي مع عمال المناجم عندما أنهى أه يان قصته. لم تصدق مدى سذاجة العريف جاسكنز. كيف لم يتعرف على أه يان؟ كان الأمر مضحكًا.

في أثناء انشغالهم بإعداد الطاولة والكراسي المؤقتة في حديقة الخضراوات، كان الصينيون يتحدثون ويمزحون مع بعضهم بصوت عالٍ وبراحة. استمتعت ليلي بمحاولة انتقاء الكلمات الإنجليزية في أحاديثهم. بدأت تعتاد على لهجتهم، التي اعتبرتها مثل موسيقاهم: جريئة وإيقاعية، ومميزة بإيقاع دقات قلب مفرح.

فكرت ليلي: *عليّ أن أحكي لأبي عن هذا لاحقًا. كان دائمًا يقول إن لهجة أعمامه وعماته الأيرلندية تذكره بأغانيه المفضلة.*

لم تستطع ليلي الخروج لرؤية عمال المناجم خلال النهار أثناء عملهم. فقد صممت والدتها على إبقائها داخل المنزل بعد الحادث الذي تعرضت له بالأمس.

- لقد تعثرت فقط، هذا كل ما في الأمر. أعدك أن أكون أكثر حذرًا.

رد والدتها كان أن عليها كتابة المزيد من الآيات في دفترها.

كانت ليلي تعلم أن والدتها تشك في أن هناك ما لم تحكه لها عن الحادث. لقد كانت متشوقة لتخبر والدها عن كل ما حدث لها بالأمس، لكن والدتها قلقت للغاية عندما رأت ساقها المضمدة وشمت رائحتها، مما جعلها تصر على أن تغسل ليلي كل سموم الصينيين على الفور. بعد ذلك، كان من المستحيل ببساطة أن تحكي لهما الحقيقة.

ولم تتمكن ليلي من الخروج من المنزل إلا بعد أن عاد جاك سيفر إلى المنزل.

- إلسي، إنها طفلة، ليست نباتًا منزليًا. لا يمكنك إبقاءها في المنزل طوال اليوم. يجب أن تتعرض لبعض الشمس بين الحين والآخر. ربما ستتمكنين يومًا ما أن تلبسيها مشدًّا وتجهزيها من أجل زوجها، لكن

ليس الآن. في الوقت الحالي، تحتاج إلى الخروج للشمس، والركض هنا وهناك.

لم تكن إلسي سيفر سعيدة بذلك، لكنها سمحت لليلي بالخروج. قالت: «سيتأخر العشاء الليلة. أنا ووالدك بحاجة إلى التحدث».

تسللت ليلي خارج المنزل قبل أن تتمكن من تغيير رأيها. كانت الشمس مائلة إلى الأسفل من جهة الغرب، وألقت بظلالها الطويلة على الشارع، حيث حمل نسيم بارد أصوات عمال المناجم العائدين من بعيد بين منازل مدينة أيداهو. أخبرها الرجلان الصينيان عند باب المنزل المقابل أن لوجان في حديقة الخضراوات. ذهبت إلى هناك مباشرة، وعندما خسرت ليلي في لعبة وي تشي، بدأ لوجان يحكي لها قصة جوان يو، إله الحرب، ليواسيها.

انتقل ما يطهوه أه يان من المطبخ إلى الحديقة على أطباق كبيرة، ووُضع على طاولة مؤقتة مصنوعة من صناديق مقلوبة في وسط الدائرة. وتجمع الصينيون حول الطاولة، كل واحد منهم يحمل وعاءً كبيرًا من الأرز الأبيض المطبوخ على البخار، ووضعوا الطعام فوق الأرز. خرج أه يان من الحشد وسلم ليلي وعاءً صغيرًا من الخزف الأزرق مزينًا بطيور وردية وزهور. كان الأرز في الوعاء مغطى بمكعبات صغيرة من التوفو ولحم الخنزير بالصلصة الحمراء وقطع داكنة من اللحم المحمص مع البصل الأخضر وشرائح من البطيخ المر. اشتهت عينا ليلي الطعام من رائحة التوابل الساخنة غير المألوفة وجرى اللعاب في فمها.

ثم سلمها أه يان زوجًا من عيدان الطعام وتوجه عائدًا إلى الحشد ليحصل على حصته. كان صغيرًا ونحيفًا لدرجة أنه كان ينحني ببراعة تحت أكتاف وأذرع الرجال الآخرين مثل أرنب يركض تحت سياج. وبعد فترة، خرج من بين الحشد مع وعاء كبير من الأرز مملوء بالتوفو واللحم. رأى ليلي تراقبه، قلقة من ألا يحصل على حصته العادلة. رفع وعاءه من مقعده عبر الدائرة أمام لوجان، وقال لليلي: «كلي، كلي!».

استوعبت ليلي طريقة استخدام عيدان الطعام إلى حد ما، بعد أن علمها لوجان كيفية فعل ذلك. كان من المدهش لها أن ترى يديه الكبيرتين المتخبطتين تستخدمان عيدان الطعام ببراعة، حتى تمكن من التقاط قطع التوفو الرقيقة ونقلها إلى فمه دون سحق أي من القطع، مما قد يجعلها تقع، كما فعلت هي في المرات القليلة الأولى عندما حاولت تناول التوفو.

أخيرًا تمكنت ليلي من إدخال قطعة من التوفو إلى فمها، وقضمتها بامتنان. ملأت النكهات التي لم تعرفها من قبل فمها. كان لسانها كله سعيدًا بغنى الطعم: الملوحة، ولمحة من الفلفل الحار، ومكونات الصلصة الأصلية ذات الطعم شبه الحلو، وشيء آخر كان يدغدغ لسانها. حاولت مضغ التوفو قليلًا، لإخراج النكهة حتى تتمكن من التعرف على تلك المكونات الجديدة بشكل أوضح. صارت نكهة الفلفل الحار أقوى، وبدأت الدغدغة تتحول إلى وخز غطى لسانها من طرفه إلى قاعدته. مضغت أكثر ...

صاحت ليلي: «أووووه!». فجأة، انفجر الوخز إلى ألف إبرة حارة صغيرة في لسانها. شعرت بأن مؤخرة أنفها ممتلئة بالماء وصارت رؤيتها ضبابية بسبب الدموع. وتجمد الصينيون في صمت بسبب صراخها، ثم انفجروا في الضحك عندما رؤوا سبب ذلك.

قال لها لوجان: «كلي بعض الأرز الأبيض. بسرعة».

ابتلعت ليلي عدة ملاعق من الأرز بأسرع ما يمكن، تاركة الأرز الطري يدلك لسانها ويخفف من الحرارة في مؤخرة حلقها. كان لسانها يشعر بالخدر، وكأنه مشلول، واستمر الوخز، الذي خف بعد ذلك، وصار دغدغة داخل خدها.

قال لوجان لها بفرحة مشاغبة في عينيه: «مرحبًا بك إلى طعم جديد. كان ذلك مالا، الوخز الحار الذي جعل مملكة شو مشهورة في جميع أنحاء الصين. يجب أن تكوني حذرة معه، لأن الطعم يجذبك ثم يضربك كأنه فم ممتلئ بالنار. لكن بمجرد أن تعتادي عليه، سيجعل لسانك يرقص ولن يكفيك شيء آخر».

اتباعًا لنصائح لوجان، جربت ليلي بعض قطع البطيخ المر والبصل الأخضر لتريح لسانها قليلًا بين قطع التوفو. كانت مرارة البطيخ تتناقض بشكل لذيذ مع المالا في التوفو.

قال لوجان: «أراهن أنه لم يعجبك أي شيء مُر من قبل».

أومأت ليلي برأسها، لم تستطع أن تتذكر طبقًا واحدًا صنعته والدتها وكان طعمه مرًّا.

- الأمر كله يتعلق بتوازن النكهات. يعرف الصينيون أنه لا يمكن تجنب وجود الأشياء الحلوة، والحامضة، والمرة، والحارة، والمالا، والعذبة

كالويسكي في الوقت نفسه، في الواقع، الصينيون لا يعرفون الكثير عن الويسكي، لكنك تفهمين وجهة نظري.

- ليلي، حان وقت العشاء.

رفعت ليلي نظرها. كان والدها يقف عند حافة حديقة الخضراوات، وهو يشير إليها لتأتي إليه.

ناداه لوجان: «جاك! لم لا تنضم إلينا لتناول بعض من طعام أه يان؟».

مفاجئًا من الاقتراح، أومأ جاك سيفر برأسه بعد لحظة قصيرة. كان بالكاد يستطيع إخفاء ابتسامته وهو يمشي بين صفوف الخيار والملفوف، ويأتي ليجلس بجوار لوجان.

قال: «شكرًا لك. أردت تجربة هذا منذ أول مرة شممت فيها رائحته عندما انتقلتم إلى هنا». (ثم التفت إلى بقية الدائرة): «كيف تسير أعمال التعدين حتى الآن، يا شباب؟».

- رائعة يا سيد سيفر. الذهب موجود في كل مكان. لوجان لديه حاسة سادسة.

قال جاك: «هذا بالضبط ما أريد سماعه. أنا على وشك تقديم طلب إلى سان فرانسيسكو لأحضر بعض الأغراض لمتجري. أخبروني بما تريدون من الحي الصيني، وسأعمل على أخذ بعض من ذلك الذهب من أياديكم».

في أثناء ضحكهم وصياحهم بالاقتراحات، كتب جاك بعض الأفكار على قطعة من ورق الخردة، متوقفًا أحيانًا حتى يتمكن أحد الصينيين من كتابة الاقتراح بالحروف الصينية لوكيله في سان فرانسيسكو، إذا لم يعرف الرجال الاسم الإنجليزي لشيء ما. هرع أه يان مرة أخرى إلى المطبخ ليجلب وعاءً جديدًا من الأرز لجاك.

حدق جاك في الأطباق التي في وسط الدائرة، وهو يلعق شفتيه بتقدير.

- ماذا سنتناول اليوم؟

ردت ليلي: «توفو الزوجة مالا. يجب أن تكون حذرًا معه. له طعم جديد. ولحم دوق وي».

- ما نوع هذا اللحم؟

قال لوجان: «لحم الكلب المشوي مع البصل الأخضر والبطيخ المر».

ليلي، التي كانت على وشك تناول قطعة من اللحم المشوي، ألقت وعاءها. فانسكب الأرز والتوفو واللحم والصلصة الحمراء في كل مكان. لقد شعرت بالغثيان.

رفعها جاك واحتضنها بقوة وسأله: «كيف يمكنك فعل شيء كهذا؟ أي كلب قتلته؟ ستحدث مشكلات بسبب هذا». (وازداد وجهه تغضنًا): «إلسي ستصاب بهستيريا إذا عرفت هذا».

قال أه يان الذي خرج من المطبخ حاملًا وعاءً جديدًا من الأرز لجاك: « لم يكن كلب أحد. كان كلبًا بريًّا يجري في الغابة. وبدا كأنه تُرك في الغابة منذ أن كان جروًا. قتلته عندما حاول أن يعضني».

قال جاك: «لكن ألا تربون الكلاب كحيوانات أليفة؟ أكل لحم الكلاب يشبه ... إنه مثل أكل لحم طفل».

قال لوجان: «نحن نربي الكلاب كحيوانات أليفة أيضًا. لا نأكلها إذا كانت أليفة. لكن هذا الكلب كان بريًّا، وكان على أه يان أن يقتله للدفاع عن نفسه. لما قد نترك لحم كلب بري يهدر بينما هو لذيذ؟». وقد توقف بقية الصينيين عن الأكل، مركزين على المحادثة.

- سواء كان بريًّا أم لا، أكل لحم الكلاب فعل بربري.

قال لوجان مفكرًا: «أنت لا تأكل الكلاب لأنك تحبها كثيرًا. كنت أظن أنك أيضًا لا تأكل الجرذان».

- بالطبع لا! يا له من أمر مقزز. الجرذان مخلوقات قذرة مليئة بالأمراض.

واقشعر بدن جاك من مجرد الفكرة.

قال لوجان: «نحن لا نأكل الجرذان، كقاعدة عامة. لكن إذا جعنا ولم يكن يوجد لحم آخر، يمكن طهيها لتصير صالحة للأكل».

هل هناك حد للبربرية عند الصينيين؟

- لا أستطيع تخيل وقت آكل فيه جرذًا.

قال لوجان: «أفهم. أنت تأكل الحيوانات التي تحبها قليلًا، لكن ليس كثيرًا».

لم يكن هناك حقًّا ما يمكن قوله ردًا على ذلك. احتضن جاك سيفر ليلي، التي كانت تحاول بأقصى جهدها ألا تتقيأ، ورحلا عن حديقة الخضراوات

عائدين إلى منزلهما. كانت إلسي قد أعدت فطيرة دجاج، لكن لا جاك ولا ليلي كانا في مزاج مناسب لتناول الطعام حينها.

ريشة وسحب طويلة

كانت السماء الشرقية لا تزال رمادية مثل بطن سمكة عندما تسلق تشانج شينج أعلى الجدار. وبحلول الوقت الذي انتهى فيه، لم يكن الديك قد صاح صيحته الأولى بعد. كان المنزل القديم-الذي تعرضت عمدانه وجدرانه للتآكل بفعل النمل الأبيض والجرذان على مر السنين- قابلًا للاشتعال بسهولة. وبحلول الوقت الذي أطلق فيه القرويون إنذار الحريق، كان بالفعل قد ابتعد عنه بمقدار عشرين لي[1].

أحرقت الشمس المشرقة السحاب المعلقة على جبال الأفق الشرقي بشريطة طويلة من اللون الأحمر الذي يماثل لون وجهه. فكر: سحاب طويلة بلون الدم، حتى السماء تحتفل معي. ضحك طويلًا وبصوت عالٍ فرحًا بالانتقام. شعر أنه خفيف كريشة، كما لو بإمكانه الركض إلى الأبد نحو الشرق، حتى يصطدم بالسحب الطويلة أو بالمحيط.

فكر تشانج شينج: سأحتاج إلى اسم جديد الآن. سيعرفونني منذ الآن باسم جوان يو، الريشة، وأيضًا باسم يون تشانج، السحب الطويلة.

قبل شهر، أقيمت محاكمة الخريف. نظرًا لأن عقوبة التمرد كانت الموت، أشرف وكيل الدائرة على المحاكمة بنفسه. واقتيد المسن جوان إلى قاعة دار الحاكم مقيدًا بالسلاسل،

(1) كلمة المترجمة: هو وحدة قياس مسافة في النظام الصيني التقليدي، حيث تعادل تقريبًا 500 متر. تُستخدم هذه الوحدة في السياقات التاريخية والثقافية في الصين.

وأُجبر على الجثو على الأرضية الحجرية الصلبة على مرأى من تشانج شينج ووالدته والحشد الذي تجمع ليشاهد المحاكمة.

وقف هوا شيونج، الذي صار أكثر بدانة من أي وقت مضى مرتجفًا مثل ورقة في مهب الريح أمام الوكيل، وهو قاضٍ شاب من لوو يانج مفعم بغرور من نال حظوة الإمبراطور. قدم هوا عقد الإيجار ليفحصه الوكيل. وسرد ما حدث بدءًا بمساعدته لعائلة جوان في وقت حاجتهم، ودهشته عندما أصر المسن جوان على تحديد الإيجار بنسبة 85 بالمائة.

- سألته: «كيف يمكنك أن تعيش بهذا القدر الضئيل من المال؟» فأجابني: «سيموت الجميع جوعًا إذا ظل هذا الـ ... -وأهان اسم ابن السماء- يحكم البلاد بنصائح خصيانه ومواليه المتملقين الذين يعتبرون أنفسهم علماء في هذه الأيام. سأكون أفضل حالًا إذا أعطيت كل المحصول لك بدلًا من أن أفقده كله في الضرائب. ولا يهم. سأحظى بفرصة أفضل عندما أنضم إلى العمامات الصفراء وأعيش مع العصابة». ثم انحنى برأسه أمام الوكيل واستمر في الارتعاش.

ألقى الوكيل نظرة على جسم المسن جوان الجاثي أسفل المنصة في دار الحاكم، وكانت زوايا فمه مقلوبة إلى الأسفل في استياء.

- «مواليه المتملقون الذين يعتبرون أنفسهم علماء في هذه الأيام»؟ أقلت هذا حقًّا، أيها الفلاح؟ أليس لديك أي احترام للإمبراطور أو لهيبة القانون؟ هل فقدت كل شعور بالتقوى؟ ماذا لديك لتقوله ردًّا على هذه الاتهامات؟

استقام المسن جوان بقدر ما استطاع رغمًا عن قيوده. ونظر إلى وجه الوكيل الشاب الجاد.

- صحيح أنني أعتقد أن مستشاري الإمبراطور الذين بلا ضمير قد ضللوه، وهم ينظرون إلى الناس كأنهم مجرد سمك ولحم يمكنهم الضغط عليهم للحصول على آخر قطرة من ثروتهم دون مراعاة لمعاناتهم. لكنني لم أنسَ واجبي تجاه الإمبراطور أو الخدمات التي قدمتها أجيال عديدة من عائلتي في الجيش الإمبراطوري، ولن أنضم إلى تمرد ضده أبدًا. لقد اختلق مُتهمي هذه الأكاذيب من أجل إفقار عائلتي وإهانتي، وكل ذلك لأن ابني أهانه في لعبة. لقد أودع الإمبراطور في يدك سلطة الحياة والموت، وبلا شك، لديك الحكمة رغم شبابك، وليس لدي أدنى شك في أن حكمتك ستكشف لك حقيقة براءتي.

رغم أنه كان جاثيًا، جعلته الطريقة التي تحدث بها يبدو وكأنه يعلو جميع من في قاعة الحاكم. حتى الوكيل بدا متأثرًا.

بعد أن لاحظ التغير على ملامح الوكيل، سقط هوا شيونج على ركبتيه وسجد ثلاث مرات بسرعة. وقال: «يا عالي المقام، كان علي ألا أجرؤ على اتهام السيد جوان قط، ما لم يكن لدي دليل قوي، إذ إن ابنه صديق طفولتي. أنا مجرد تاجر حقير، بينما السيد جوان ينحدر من عائلة متميزة من القادة والعلماء الذين خدموا الإمبراطور. لكنني تحركت بدافع الحب والولاء الشديد للإمبراطور، الذي دفعني إلى التجرؤ على اتهام رجل مثله. كنت أخشى استغلاله لتاريخ عائلته المجيد كدرع ليخفي كل عيوبه الآثمة. أرجو أن تحافظ على العدالة». واستمر في السجود بعد هذه الخطبة.

قال الوكيل بملل: «توقف عن ذلك. ليس عليك أن تخشى تاريخ عائلته المجيد. يجب تطبيق قانون الإمبراطور بشكل أعمى وغير متحيز. حتى لو كان ابن دوق أو أمير، إذا كان يخطط للتمرد ضد الإمبراطور، فلا ينبغي عليك الخوف من اتهامه».

(وألقى نظرة أخرى على المسن جوان، وتصلبت ملامحه): «لقد عرفت العديد من الرجال الأشرار مثله: منتفخين بالأوسمة التي أُضيفت إلى عائلاتهم من قبل الإمبراطور مقابل خدمات أجدادهم المخلصين، يظنون أنهم فوق القانون. حسنًا، سأحرص على معاقبتهم بشدة أكبر. ما الأدلة الأخرى التي لديك؟».

أومأ هوا شيونج باتجاه ثلاث فتيات صغيرات يرتجفن في الزاوية خلفه: «هؤلاء الفتيات الشابات قد شهدن وسمعن السيد جوان يتدرب على فأسه وبلطته في الغابة. لقد رأينه يقفز وكأنه ... وكأنه ...».

- وكأنه يفعل ماذا؟

- وكأنه يوجه ضرباته نحو ابن السماء.

عاد هوا شيونج إلى سجوده المستمر، مما أدى إلى جرح جبهته.

صرخ تشانج شينج من بين الحشد: «هذا كذب وافتراء!».

كان غاضبًا على الفتيات الشابات لموافقتهن على دعم مثل هذه الكذبة الفاضحة. لكن بعد ذلك أدرك أنهن جميعًا من عائلات تدين بالكثير من المال لهوا شيونج. شعر كما لو أن الأوردة التي في رقبته ستنفجر إذا لم يتحدث.

- أنا الذي ...

صرخ المسن جوان: «تشانج شينج، مهما حدث، لا تتحدث. عليك أن تعتني بوالدتك».

نادى الوكيل جنوده: «تعالوا! اطردوا ذلك الطفل الخارج عن القانون وأمه الفاجرة من دار الحاكم. لن أسمح لهما بعمل فضيحة في محكمتي».

لكي يمنع نفسه من الرد، عض تشانج شينج على لسانه حتى نزف. حاول أن يحمي والدته من ضربات الجنود وهما يتعثران في طريقهم للخروج من القاعة.

حُكم على المسن جوان بالإعدام في ذلك المساء بتهمة التآمر على الخيانة، وسرعان ما عُلق رأسه على سارية العلم خارج دار الحاكم. في تلك الليلة، وضعت والدة تشانج شينج رأسها في حلقة من الحبل مربوطة بالعارضة التي تدلى من منتصف المطبخ، ودفعت الكرسي من تحت قدميها.

ترك تشانج شينج هوا شيونج حيًا للنهاية. وبعد أن تخلص من بقية عائلة هوا (نحو عشرين شخصًا)، أيقظ تشانج شينج هوا شياو من نومه، (متوقفًا أولًا لذبح عنقي جاريتيه اللتين كانتا معه في السرير بحركات سريعة من معصميه). في ضوء المشعل الخافت الذي كان يحمله معه، اعتقد هوا شيونج أن تشانج شينج بدا مثل شيطان ذي وجه أحمر، جندي من الجحيم جاء ليأخذ روحه.

قال متلعثمًا: «أنا آسف، أنا آسف»، وفقد السيطرة على أمعائه.

استخدم تشانج شينج خنجره لقطع الأوتار في كتفي وفخذي هوا شيونج، مما جعله مشلولًا تمامًا. ثم أعاد جسده الثقيل والمتهدل إلى السرير، محاطًا بجثتي الجاريتين.

- لن أمنحك ميتة سهلة. لقد قلت إن والدي كان لصًا. سأريك الآن الطريقة التي يتعامل بها اللصوص مع أمثالك.

ثم بدأ يشعل النار في جميع أنحاء المنزل. سرعان ما صار الدخان كثيفًا لدرجة أن هوا شيونج لم يعد يستطيع الصراخ طلبًا للمساعدة. صار سعاله متقطعًا وحادًّا، كان يختنق بلعابه.

واصل جوان يو الركض نحو الشرق، باتجاه السحب الطويلة الحمراء التي كانت تدعوه. كان قلبه خفيفًا كريشة، وبدا أن حب القتال وفرح الانتقام لن يتركاه أبدًا. شعر كأنه إله.

انطباعات

في منتصف الغابة على جانب التل المقابل للنهر من مخيم التعدين الصيني، كانت هناك فسحة واسعة. وبعد أن حلت أواخر يونيو، صارت شجيرات الليلك في أوج تفتحها في التربة الصخرية التي في حافة الفسحة، تنشر في الهواء عطرًا منعشًا برائحة البرتقال. وكان اللون الأصفر لأزهار عباد الشمس المتفتحة يغطي منتصف الفسحة، مع لمسة هنا وهناك من اللون الأزرق البنفسجي لأزهار الهندباء البرية، لتضفي الحياة على رتابة المشهد.

أحبت ليلي الجلوس في ظل الأشجار على حافة الفسحة، لتراقب الألوان أمامها. إذا ظلت ثابتة بما يكفي، فستشاهد تآمر النسمات اللطيفة وأشعة الشمس المائلة لمزج الأزهار المنفردة في حقل متموج من الأنوار. بدا العالم حينها جديدًا، مليئًا بالآمال والمسرات التي لم تُكتشف بعد، وشعرت أن لا شيء جدير بفعله سوى الغناء.

ارتفعت نفثات من الدخان عند طرف الفسحة، فقاطعت تأملاتها.

مشت ليلي عبر الفسحة باتجاه الدخان. وهناك، رأت ظل رجل مقرفص، يطهو شيئًا برائحة شهية أغرتها، لكنها لاحظت أيضًا نفحة غير محببة في الرائحة، مثل شعر يحترق.

اقتربت ليلي بما يكفي لتلاحظ أن الرجل كان ضخمًا، حتى أضخم من لوجان. وعندما أدركت أن الرجل كان يشوي جثة كلب كبير بلون أحمر كالدم، كان قد استدار نحوها بابتسامة تكشف عن فم مملوء بأسنان حادة كالأنياب.

كان ذلك كريك.

صرخت ليلي.

قال جاك لإلسي أن تعود للنوم.

- لا بأس. سأحضر لها بعض الشاي.

بدد صوت الماء المغلي ودفء أحضان والدها آخر آثار الكابوس من ذهن ليلي. وعندما كانت ترتشف الشاي وتتحدث بصوت خافت حتى لا تسمعها أمها، حكت ليلي لجاك ما رأته من المعركة بين لوجان وكريك.

- ماذا حدث لأوبي؟

- لا أعلم، لقد ركض بعيدًا.

- وماذا فعلوا بجثة كريك؟

لم تكن ليلي متأكدة من ذلك أيضًا.

- وهل أنتِ متأكدة أن أوبي أطلق الرصاص أولًا؟ وأن الرصاصة أصابت لوجان في كتفه؟

أومأت ليلي بقوة. لقد حفرت مشهد انفجار كتف لوجان بعمق في ذاكرتها. وتعجبت مرة أخرى من الهدوء الذي شعرت به عندما نظر إليها لوجان، وكأنه يملك قدرة على تمرير قوته إليها، ليخبرها بأنها ستكون بأمان.

فكر جاك في هذا الأمر. إذا كانت ليلي محقة، فإن الجرح الذي أصيب به لوجان كان خطيرًا، ومع ذلك عاد للعمل مع رفاقه بعد أقل من اثنتي عشرة ساعة. إما أن يكون هذا الرجل الصيني أقوى إنسان عرفه على الإطلاق، وإما أن ليلي كانت تبالغ في وصف ما حدث. لكنه يعرف ابنته. فهي طفلة ذات مخيلة واسعة، لكنها ليست ممن يكذبون.

كان أوبي وكريك من الخارجين عن القانون وسيئي السمعة، واشتبه كثير من الناس في البلدة في أنهما وراء الحريق الذي دمر ممتلكات العديد من الناس وأدى إلى مقتل عائلة كيلي. لكن لم يوجد شهود على الحريق أو جرائم القتل، ولم تُوجه لهما أية تهم رسمية. وإذا قرر أوبي اتهام لوجان بالقتل، فقد تكون لديه فرصة حقيقية في إعدام لوجان، خصوصا أنه وليلي وكل الصينيين كانوا شهودًا على ما حدث بالفعل. كان الصينيون غير محبوبين بين البيض، بسبب استحواذهم على حقوق التعدين التي تخلى عنها عمال المناجم البيض، بغض النظر عن أن معظم هذه الحقوق كانت مهجورة من قبل البيض، بسبب عدم امتلاكهم مهارة وصبر المزارعين الصينيين في إدارة المياه، أو استعدادهم للعيش على الأرز والخضراوات وتكديس أنفسهم بأعداد كبيرة في المنازل الضيقة لتوفير المال. لم يكن بالإمكان التنبؤ بما قد يفعله المحلفون، حتى لو اكتشفوا أن لوجان قتل كريك دفاعًا عن نفسه وعن الآخرين.

- أبي، هل أنت غاضب مني؟

استفاق جاك من تأملاته وجمع أفكاره.

- لا. لما قد أغضب؟

- لأنك قلت إن لوجان يبدو كقاتل، وطلبت مني أن أبقى بعيدًا عن الصينيين، و... وكدت أن آكل كلبًا في الأسبوع الماضي.

ضحك جاك.

- لا أستطيع أن أغضب منك بسبب ذلك. رائحة طبخ الصينيين كانت شهية لدرجة أنني اهتممت بالطعام الذي هو الكلب، بنفسي، وما زلت مهتمًّا بعض الشيء. لم تفعلي أي شيء خاطئ. رغم أن تدخلِك في شجارهم كان خطيرًا، فإن ذلك لم يكن خطأك على الإطلاق. وأظن أن الأمور انتهت بشكل جيد. لم تُصابي بأذى.

- لقد أُصبت إلى حد ما.

- لحسن الحظ، يبدو أن دواء الصينيين قد عالج الأمر. إن لوجان هذا شخصية فريدة حقًّا.

قالت ليلي: «إنه يروي قصصًا ممتعة». كانت ترغب في أن تحكي له عن معارك جوان يو، إله الحرب، أو عن أغاني جي يو، الأميرة التي صارت بربرية. أرادت أن تصف له شعورها وهي تستمع إلى لوجان وهو يروي تلك القصص بنبرة صوته الصاخب المفعم بنكهة الويسكي، حتى بدت لها تلك القصص خيالية ومألوفة في آن واحد، وكيف أن أصابع يديه الطويلة الخشنة أضفت الحياة على حكاياته بحركاتها الفكاهية والمهيبة أيضًا. لكن كل هذا كان جديدًا عليها ومربكًا للغاية، ولم تظن أنها تعرف الكلمات المناسبة بعد لرسم مشهد حقيقي لتلك اللحظات لوالدها.

- أنا واثق أنه يروي قصصًا رائعة. لهذا نحن هنا، حيث لا ينتمي هذا البلد لأحد، والجميع هنا غرباء، كلٌّ يحمل في جعبته قصته الفريدة. الصينيون يملؤون كاليفورنيا وقريبًا مقاطعة أيداهو. سيعرف جميع من هنا قصصهم عاجلًا.

أنهت ليلي شرب شايها. كانت تشعر بالراحة، لكن الإثارة التي خلفها الكابوس ما زالت تمنعها من الشعور بالنعاس.

- أبي، هل يمكنك أن تغني لي أغنية؟ لا أستطيع النوم الآن.

- بالطبع، يا لؤلؤتي. لكن دعينا نخرج ونتنزه قليلًا، وإلا سنوقظ والدتك.

ارتدت ليلي وجاك معطفيهما فوق ملابس النوم وخرجا من المنزل. كانت ليلة صيفية دافئة، والسماء خالية من السحب والقمر، متلألئة بضوء ملايين النجمات.

ظل بعض الصينيين مستيقظين وجالسين في الشرفة، يلعبون النرد تحت ضوء مصباح الزيت الخافت. لوح لهم جاك وليلي أثناء سيرهما في الشارع.

قال جاك: «يبدو أنهم لا يستطيعون النوم أيضًا. لا ألومهم. لا أستطيع تخيل أن يستطيع أحد أن ينام وهو محشور مع خمسة رجال آخرين مثل السردين، كلهم يشخرون وتفوح من أقدامهم رائحة كريهة».

سرعان ما تركوا وراءهم ضوء مصباح الزيت الخافت للصينيين، ثم عبروا حدود البلدة. جلس جاك على صخرة بجانب الطريق المؤدي إلى التلال، ورفع ليلي لتجلس بجانبه، ولف ذراعه حولها.

- أي أغنية تودين سماعها؟

- ماذا عن تلك التي لم تكن أمي تسمح لك بغنائها، أغنية الجنازة؟

- إنها أغنية جميلة.

أخرج جاك غليونه وأشعله ليبعد الحشرات عنهما، ثم بدأ يغني:

في شارع ووكن عاش تيم فينيجان،
أيرلندي طيب وغريب في بعض الأحيان،
لكنته عذبة تطرب لها الآذان،
وفي يده دلو البناء ليرتقي به بين الأكوان.
لكن الكحول لتيم كان إدمان،
وحب الويسكي وُلد مع ابن فينيجان،
يأخذ منه رشفة في كل صباح،
ليساعده على عمله بارتياح.

نظرت ليلي إلى وجه والدها. فرأت على وجهه انعكاس ضوء شعلة الغليون، اكتسب توهجًا أحمر جعلها تشعر بدفعة مفاجئة من الحب والراحة في قلبها. مبتسمين لبعضهما، انطلق الأب وابنته في غناء مقطع الكورال:

صفق بيديك، ارقص مع شريكك،
اضرب الأرض، دع قدمك تترنح،
أرأيت حقيقة ما قلته لك،
في جنازة فينيجان الكثير من المرح!

أكمل جاك بقية الأغنية:

وفي صباح ما، شرب تيم حتى الثمالة،
وثقل رأسه فاهتز جسده،
سقط من السلم وكسر جمجمته،
وحملوه إلى المنزل ليوقظوا جثته.
لفوه في ملاءة نظيفة جميلة،
وعلى السرير وضعوه بلا حيلة.
عند قدميه جالون من الويسكي،
وعند رأسه برميل من الجعة.

وفي جنازته، اجتمع الرفاق
ونادتهم السيدة فينيجان ليأكلوا الغداء،
في البدء كان الشاي والكعك،
ثم الغليونات والويسكي والتبغ.

بدأت بيدي أوبراين في البكاء،
«يا له من جثمان جميل، هل رأيت مثله من قبل في عزاء؟
أوه تيم يا حبيبي، لماذا مت؟»
قال بادي ماكغي: «آه، اسكتي!»

ثم أكملت ماجي أكونور المهمة،
قالت: «يا بيدي أنت مخطئة، أنا متأكدة».
فعلى فمها ضربتها بيدي،
وعلى الأرض تركتها ممددة.
ثم بدأت الحرب في الحال،
فكان القتال بين النساء والرجال،
وقانون الغاب هو السائد،
والشجار والفوضى هما القائد.

ثم انحنى ميكي مالوني برأسه،
عندما طارت نحوه زجاجة من الويسكي،
سقطت على السرير ولم تبطحه،
وعلى جثمان تيم تناثر الويسكي!
صحا الجثمان! انظروا كيف استقام!
ومن السرير تيموثي قد قام،
صاح: «انثر الويسكي أينما ذهبت،
لقد عدت إلى الحياة! أم تظنون أنني مت؟»

- هل تشعرين بالنعاس؟

- لا.

- حسنًا سنغني واحدة أخرى.

ظلا خارجًا تحت النجوم لفترة طويلة، طويلة جدًّا.

التأليه

انتشرت الهمسات بين جنود الممالك الثلاثة عن أن جوان يو لا يمكن قتله. حاول جنرالات تساو تساو[1] المخادع وصن كوان المتعجرف، السخرية من هذه الشائعة وأعدموا من نشرها. ومع ذلك، عندما حان الوقت لمواجهة جوان يو في ساحة المعركة، حتى لو بو الذي لا يُهزم قد تردد.

لكنني تجاوزت العديد من الأحداث. كيف سقطت سلالة هان؟ كيف نشأت الممالك الثلاثة؟ من هم الأبطال الذين عاش بينهم جوان يو؟

اجتاحت العمامات الصفراء الأراضي، انتشرت صرخاتهم الثورية بأن الإمبراطور ليس سوى طفل لم يسبق له أن غادر القصر قط، بينما ترك الخصيان يتغذون على دماء ولحوم الفلاحين. استل المحارب المخيف تساو تساو سلاحه وخاض حربًا ضد المتمردين، واحتجز الإمبراطور رهينة في عاصمته، وحكم باسمه البلدان من السهول والصحاري الشمالية.

---

(1) كلمة المترجمة: تساو تساو (Cao Cao) هو قائد عسكري وسياسي بارز من فترة الممالك الثلاثة في الصين، وُلد عام 155 م وتوفي عام 220 م. عُرف بذكائه العسكري وحنكته السياسية، حيث قاد القوات في معارك ضد منافسيه مثل جوان يو وصن كوان، وتمكن من توحيد العديد من المقاطعات تحت سلطته. أسس مملكة وي بعد وفاته، وتُعتبر شخصيته معقدة، إذ يُصور في بعض الروايات كبطل وفي أخرى كمكار وخائن.

في الجنوب، دفعت حقول الأرز الخصبة والأنهار المتعرجة صن كوان، الطاغية الصغير، للسيطرة على السفن، وأشحذت طموحه للحصول على لقب الإمبراطور.

انتشر المرض والجوع في كل مكان، وسارت الجيوش فوق الحقول الخالية من الزراعة.

ليو باي، الرجل الذي كان يشع جاذبية حتى إن شحمة أذنه كانت تصل إلى كتفيه، لم يكن سوى بائع للأحذية المصنوعة من القش والحصر عندما التقى بجانج فاي، الجزار، وجوان يو، الخارج عن القانون الذي كان لا يزال هاربًا. صارت لحية جوان يو الشهيرة، كثيفة وحيوية مما جعلته يبدو مسنًّا وشابًّا في آن واحد. كانت إضافة جميلة إلى وجهه الوسيم، الذي بدت ملامحه الناعمة وكأنها منحوتة من الحجر الأحمر في منحدرات نهر اليانجتسي الحمراء.

قال ليو باي للغريبين اللذين شاركاه وعاء من نبيذ الذرة في بستان الخوخ: «إذا كان لدي رجال يستطيعون القتال معي كالنمور، فسأعيد مجد سلالة هان».

سأله جانج فاي الذي كان وجهه أسود كالفحم وكانت ذراعاه تتصارعان مع الثيران يوميًّا ليسقطها ومن ثم يذبحها: «وما الفائدة التي ستعود علي من ذلك؟».

هز ليو باي كتفيه: «ربما لا تهتم. لكن إذا صرت إمبراطورًا، سأجعل السلطات تعيد توزيع الأراضي بعدالة، وستُزرع الحقول بالكد والفضيلة، وستُملأ مقاهي الشاي من جديد بأغاني وضحكات العلماء والراقصات». ثم نظر للحظة أطول في وجه جوان يو، الذي كان مألوفًا له بسبب العديد من

الملصقات التي وضعت ثمنًا مقابل رأسه، والتي رآها في جميع أنحاء المدينة.

- يوجد العديد من الرجال الخارجين عن القانون في هذا العصر، ولكن الكثير منهم خارجون عن القانون فقط لأن القوانين لم تُنفذ بالفضيلة. لو كنت إمبراطورًا، لجعلتهم قضاة، وليسوا جناة.

سأل جوان يو: «وما الذي جعلك تعتقد أنك ستنجح؟». وصارت ملامح وجهه داكنة كالدم، لكنه مرر يده على لحيته بلا مبالاة، مثل عالِم يداعب فرشاته قبل أن يكتب قصيدة عن الفتيات اللاتي يجمعن الزهور في شهر مايو.

قال ليو باي: «لا أعرف إذا كنت سأنجح. الحياة كلها تجربة. ولكن عندما أموت سأعلم أنني حاولت يومًا ما أن أطير عاليًا كالتنين».

وفي بستان الخوخ، صاروا إخوة بالدم وأقسموا على الولاء لبعضهم.

- بالرغم من أننا لم نولد في اليوم نفسه من الشهر نفسه من العام نفسه، فإننا نطلب من القدر أن يمنحنا شرف الموت في الثانية نفسها من الدقيقة نفسها من الساعة نفسها.

اتجها غربًا، وهناك، في مقاطعة شو الجبلية، حيث تذوق جوان يو المالا لأول مرة، أسسا مملكة شو هان.

وهكذا، انقسمت الأرض إلى الممالك الثلاثة: مملكة تساو تساو، ومملكة صن كوان، ومملكة ليو باي. من بين الثلاثة، كانت لتساو تساو شجاعة وجرأة سماء الشمال، بينما كان لصن كوان ثراء ومرونة أرض الجنوب، لكن لم يمتلك أحد الفضيلة ومحبة الشعب سوى ليو باي وحده.

كان جوان يو أعظم محاربيه؛ كان يمتلك قوة ألف رجل ومحبة أكثر من ذلك.

تنهد تساو تساو عندما سمع تقريرًا عن قتل جوان يو لستة من أفضل قادته واختراقه لخمسة ممرات ليعود إلى ليو باي في مسيرته الطويلة التي تبلغ ألف لي: "إنه لم يخلق من لحم ودم مثلنا».

- إنه طائر الفينيق بين طيور السنونو والعصافير.

هز صن كوان رأسه غير مصدق عندما سمع أن جوان يو كان يضحك ويلعب الوي تشي أثناء نخر عظامه لتخليصه من السموم. وكيف أنه في اليوم التالي، عاد جوان يو إلى حصانه مؤرجحًا سيفه.

استمرت الحرب بين الممالك الثلاثة لسنوات، لم يستطع أي منها إخضاع الآخرين. لم يفقد وجه جوان يو لونه الأحمر القاني، وازدادت لحيته الداكنة طولًا حتى صار يضعها في كيس حريري، ليحافظ على نظافتها ويزيحها عن طريقه أثناء المعارك.

رغم أن ليو باي كان رجل فضيلة، فإن ولاية السماء لم تكن معه. خاضت جيوشه المعارك وخسرت، خسرت ثم خاضت، معركة تلو الأخرى. أثناء انسحابهم في إحدى حملاتهم إلى الشمال، انفصل جوان يو وجانج فاي عن الجيش الرئيسي، وصار فريقهم المكون من مائة من الكشافة محاطًا بجيش تساو تساو، الذي كان يضم أكثر من عشرة آلاف جندي. طلب تساو تساو إجراء محادثة مع الاثنين.

قال تساو تساو لهما: «استسلما وقدما الولاء لي، وسأجعلكما دوقين لا يضطران للجثو حتى في حضرة ابن السماء». ضحك جوان يو وقال: «أنت لا تفهم سبب قتال الرجال أمثالي. بالطبع

نشعر بفرحة المعركة، لكن ذلك ليس كل شيء». فتح جوان يو عباءته القتالية القديمة الباهتة ليظهر لتساو تساو الثقوب التي في القماش، والحواف المتآكلة، والترقيعات الموجودة فوق مزيد من الترقيعات.

- هذه أعطاني إياها أخي بالدم ليو باي. قبل أن أضع العباءة، كنت لا أحد، مجرد قاتل هارب من القانون. لكن بعد أن ارتديت العباءة، صارت كل ضربة من سيفي باسم الفضيلة. ماذا يمكنك أن تعرض علي أفضل من ذلك؟

استدار تساو تساو وركب خيله عائدًا إلى معسكره.

أمر جيشه ببدء الهجوم على الفور. أعطى الأوامر للقادة، لكن الجنود، الذين تكدسوا في صفوف لا حصر لها، رفضوا أن يتقدموا ويقاتلوا جوان يو وجانج فاي ومجموعتهم الصغيرة المكونة من مائة رجل.

أمر تساو تساو بإعدام الجنود الذين وقفوا في الخلف على الفور. ودفع الجنود المذعورون رفقاءهم إلى المقدمة. اندفعت موجة الرجال ببطء إلى الأمام، مقتربة من جوان يو وجانج فاي.

استمرت المعركة من الصباح حتى الليل، ثم طوال الليل حتى صباح اليوم التالي.

صرخ جوان يو إلى جانج فاي: «تذكر قسم الولاء في بستان الخوخ». كان يمر بين رجال تساو تساو على حصانه الحربي، الحصان العظيم «الحصان الأحمر»، الذي تطابق لون جلده مع لون وجه جوان يو وكان يتصبب عرقًا كأنه دم أثناء دوسه للرجال تحت حوافره العملاقة.

- إذا كان قدرنا أن نُقهر في هذا اليوم، فلنكن على الأقل قد وفينا بقسمنا.

رد جانج فاي أثناء انغماسه في طعن رجلين في وقت واحد برمحه ذي الطرف الحديدي: "لكنْ أخونا ليو باي سيتأخر».

قال جوان يو: «سوف نغفر له». وضحك الأخوان وانفصلا كل في طريقه ليعودا مرة أخرى للمعركة.

أينما كان جوان يو على حصانه، وهو يتأرجح بسيفه على شكل هلال، كان جنود تساو تساو يتعثرون فوق بعضهم للهروب من الفارس وحصانه، متفرقين مثل قطيع من الأغنام أمام نمر أو مجموعة من الدجاج أمام نسر. قاد جوان يو هجومه بلا رحمة، وبدأ لعاب «الحصان الأحمر» يسيل، حيث غلب شغفه بالدم إرهاقه.

قال جانج فاي، وهو يمسح سيل الدم من على وجهه الأسود: «عندما أقاتل بجانبك. لا أعرف ما هو الخوف. يصير عقلي أقوى، وقلبي أكثر صلابة، وروحي أعلى كلما قلت قواتنا».

تدريجيًّا، صار العدد الذي كان مائة رجل مع جوان يو وجانج فاي خمسين رجلًا، ثم خمسة عشر، وأخيرًا، لم يبقَ سوى جوان يو وجانج فاي، وهما يتناوبان في الهجوم بين بحر من سيوف ورماح جيش تساو تساو.

كان المساء قد حل مرة أخرى. أمر تساو تساو بوقف المعركة، وسحب قواته إلى الوراء. كانت أنهار الدم تجري عبر الحقل، وتناثرت الأطراف والرؤوس المقطوعة على الأرض كقواقع البحر على الشاطئ في وقت المد المنخفض. ألقت شمس المساء ظلالًا طويلة حمراء على كل شيء، لدرجة أنه لم يعد بالإمكان التأكد مما إذا كانت الحمرة ناتجة عن النور أم الدم.

صاح تساو تساو من بعيد: «استسلما. لقد أثبتما شجاعتكما وولاءكما لليو باي. لا إله ولا إنسان سيطلب أكثر من ذلك».

قال جوان يو: «أنا أطلب».

رغم أن تساو تساو كان رجلًا ذا قلب بارد وأفق ضيق، فإنه غُمر بالإعجاب تجاه جوان يو.

قال: «هل تشرب معي، قبل أن تموت؟».

قال جوان يو: «بالطبع. أنا لا أقول لا لخمر الذرة».

- لا يوجد خمر الذرة هنا للأسف. لكن لدي بعض البراميل من مشروب جديد أعطاني إياه بربريو الغرب كتحية.

كان المشروب مصنوعًا من العنب، وهي ثمرة جديدة جلبها مبعوثو البربريين من الغرب عبر الصحراء.

- أتقصد النبيذ؟

- نعم، ولكن تلك كانت المرة الأولى التي يرى فيها جوان يو النبيذ.

شرب جوان يو وتساو تساو النبيذ في أكواب من اليشم، كان سطحها البارد الحجري يكمل دفء النبيذ بشكل ممتاز. بدأ الظلام يتسلل، لكن اليشم الذي صنعت منه الأكواب كان له توهج داخلي يضيء وجهي الرجلين. كانت الفتيات البربريات الجميلات، اللواتي كن جزءًا من التحية إلى تساو تساو، يعزفن لحنًا حزينًا على آلاتهن الغريبة التي تشبه الكمثرى، والتي يُطلق عليهن اسم «باي با».

استمع جوان يو إلى الموسيقى، وهو غارق في أفكاره. وفجأة، نهض وبدأ يغني على لحن عود البربريين:

أعطني نبيذ العنب يفيض من أكواب متوهجة في الليل،
أود أن أشربه كله لكن الباي با تناديني لأذهب لحصاني.
إذا سقطت ثملًا في ساحة المعركة، فلا تسخروا مني،
فكم من الناس من الحرب قد عادوا، كم منهم؟

ألقى بالكوب وقال: «سيدي تساو تساو، أشكرك على النبيذ، لكنني أعتقد أنه حان وقت العودة إلى ما علينا فعله».

- إذًا، تلك الآلة التي كنت تعزف عليها، هل هي باي با؟

لم تبرح الأغنية الحزينة التي غناها لوجان ذهن ليلي. أرادت أن تطلب من لوجان أن يعلمها إياها.

- نعم، هي كذلك.

حرك لوجان الباي با على ركبتيه، محتضنًا جسدها الكمثري بشكل حنون، مثلما يحتضن الطفل.

- إنها قديمة جدًا، وتبدو أفضل مع كل عام يمضي.
- لكنها ليست صينية، أليس كذلك؟

توقف لوجان لبرهة وهو يفكر.

- لا أدري. أعتقد أننا يمكن أن نقول إنها ليست صينية حقًا، إذا نظرنا إلى الوراء لآلاف السنين. لكنني لا أفكر بهذه الطريقة. الكثير من الأشياء تبدأ كشيء غير صيني وتنتهي به صينيًا.

قال جاك: «لم يكن هذا ما توقعت أن أسمعه من شخص سماوي». لقد ظل يحاول التعود على طعم خمر الذرة الذي أكد له لوجان أن كل صبي صيني يشربه بجانب حليب أمه. كان بلعه يشبه ابتلاع حفنة من الشفرات. رأت ليلي تجاعيد جبينه وهو يأخذ رشفة أخرى وضحكت.

- لم لا؟

- كنت أعتقد أنكم، أيها السماويون غيورون للغاية على تاريخكم الطويل، وتقولون إن كونفوشيوس كان قبل المسيح وكل هذه الأشياء. لم أظن أنني سأسمع واحدًا منكم يعترف بأنه تعلم شيئًا من البربريين.

ضحك لوجان على هذا.

- في الواقع، يجري في عروقي بعض دماء البربريين الشماليين. من هو الصيني؟ ومن هو البربري؟ هذه الأسئلة لن تضع الأرز في البطون أو الابتسامات على وجوه رفاقي. أنا أفضل بكثير أن أغني عن الفتيات الجميلات ذوات العيون الخضراء من غرب صحراء جوبي وأن أعزف على الباي با.

- لولا أنني أعرف من أين جئت لقلت إنك تبدو كأمريكي صيني يا لوجان.

ضحك جاك ولوجان على هذا. وقالا: «في صحتنا، في صحتنا»، ثم شربا كأسي الويسكي وخمر الذرة دفعة واحدة.

- أريد أن أتعلم «أغنية جنازة فينيجان» منك. لا أستطيع أن أخرجها من رأسي منذ سمعتكما تغنيانها في تلك الليلة.

قالت ليلي: «عليك أن تنهي القصة أولًا!».

- حسنًا. لكن يجب أن أحذرك. لقد رويت هذه القصة مرات عديدة، وفي كل مرة أحكيها، تكون مختلفة. لست متأكدًا من نهايتها الآن.

إلى متى استمرت المعركة؟ هل ما زالت ضد الخائن تساو تساو أم ضد المخادع صن كوان؟ لم يعد جوان يو يتذكر.

لكنه تذكر أنه قال لجانج فاي أن يغادر ويعود إلى ليو باي.

- أنا المسؤول عن الرجال، وبسبب إهمالي قدتهم إلى حتفهم. لا أستطيع أن أواجه أهل تشينج دو، حيث ستسألني زوجات وآباء هؤلاء الرجال لما عدتُ ولم يعد أزواجهن وأبناؤهن. قاتل في طريقك للخروج، يا أخي، وانتقم لي.

توقف جانج فاي بفرسه وأطلق صرخة طويلة. عند الصوت الحاد لتلك الصرخة، الممتلئة بالحزن والندم، ارتجف الجنود العشرة آلاف حولهم وتراجعوا ثلاث خطوات إلى الخلف.

- وداعًا، يا أخي.

دفع جانج فاي فرسه نحو الغرب، وتفرقت الجنود ليفسحوا الطريق لرمحه وحصانه، وتصارعوا فيما بينهم للابتعاد عن طريقه.

صاح تساو تساو بغضب: «هيا، هيا! سيُمنح الرجل الذي يمسك بجوان يو لقب دوق».

تعثر الحصان الأحمر. فقد الكثير من الدماء. قفز جوان يو برشاقة عن ظهر حصانه الحربي في اللحظة الذي سقط فيها على الأرض.

- آسف، يا صديقي المقرب. كنت أتمنى لو استطعت حمايتك.

تقطر الدم والعرق من لحيته، وكانت الدموع تشق مسارات واضحة عبر الدماء والأوساخ الجافة على وجهه.

رمى سيفه ووضع يديه خلفه، وبدا وكأنه شاعر وعالم يستعد لإلقاء بعض الأبيات من «كتاب الشعر»[1] أمام الإمبراطور في قصره. نظر إلى الجنود القادمين باحتقار.

(1) كلمة المترجمة: كتاب الشعر أو Shi Jing هو مجموعة من 305 قصائد صينية قديمة، يُنسب إلى كونفوشيوس جمعها وتحريرها في القرن السادس قبل الميلاد. تشمل القصائد موضوعات متنوعة مثل الحب والطبيعة والشعائر الدينية، وهي جزء من «الكتب الخمسة الكلاسيكية» التي تشكل أساس الفكر الكونفوشيوسي. تعكس هذه النصوص الحياة الاجتماعية والأخلاقية في الصين القديمة، وتعتبر مرجعًا أدبيًا وثقافيًا رئيسيًا في التراث الصيني. لعب الكتاب دورًا في توجيه الفهم الصيني التقليدي للقيم والعلاقات الإنسانية.

قال لوجان: «اقطعوا رأسه عند شروق الشمس».

قالت ليلي: «أوه»، لم تكن هذه النهاية التي أملت في سماعها.

ظل الثلاثة صامتين لبعض الوقت، بينما تصاعد دخان طبخ أه يان من المطبخ متجهًا نحو السماء الصافية. كان صوت الملعقة وهي تضرب المقلاة يُشبه إلى حد ما ضجيج السيف على الدرع في أذني ليلي.

قال لوجان: «ألن تسأليني عما حدث بعد ذلك؟».

قال جاك وليلي في اللحظة نفسها: «ماذا تعني؟».

صرخ تساو تساو: «ماذا تعني؟» ثم وقف بسرعة، مما أدى إلى انقلاب مكتبه. تطاير الحبر والفُرش في كل اتجاه.

- *ماذا تعني أنك لا تستطيع العثور عليه؟*
- *سيدي تساو تساو، أنا أقول لك ما رأيته بعيني. في لحظة، كان رأسه يتدحرج على الأرض، وفي اللحظة التالية لم يكن هناك أي أثر لرأسه أو جسده. لقد ... لقد اختفى في الهواء.*
- *هل تظن أنني أحمق؟ تعالوا!*

وأشار تساو تساو إلى الحراس: «قيدوه ونفذوا فيه حكم الإعدام. سنعلق رأسه خارج خيمتي لأنه أضاع رأس جوان يو».

قال المحارب المخضرم ذو الشعر الرمادي للمجندين الجدد بوجوههم المتوردة: «بالطبع لم يمت. رأيته يوم أُسر اللورد جوان يو. بين مئة ألف رجل من جيش واي، قاتلهم كأنهم محض ذرات غبار. أتظنون أن رجلًا مثل هذا سيرضخ لفأس جلاد؟».

قال ليو باي لجانج فاي: «بالطبع، لم يمت». كان كلاهما يرتديان الدروع البيضاء علامة على الحداد، وقد جمعا جيشًا من الرجال الأقوياء في مملكة شو من أجل الانتقام.

- أخونا لن يموت طالما عليه أن يفي بقسم بستان الخوخ.

قال صن كوان وهو مستلقٍ على فراش الموت: «بالطبع، لم يمت. لم يهب جوان يو الموت، وجل أسفي أنني لن أتمكن من الاستمتاع برفقته حيث أذهب. كنت آمل أن نصير أصدقاء في يوم من الأيام».

قال تساو تساو لليو تشان، ابن ليو باي، وهو يعطي الأمر لكسر ختم مملكة شو، بعدما وحد أخيرًا الممالك الثلاث: «بالطبع، لم يمت. لم أفكر كثيرًا في والدك أو فيك، لكن إذا كان جوان يو مستعدًّا لخدمة والدك، فلا بد أنه رأى فيه شيئًا لم أره. طالما أن اللورد جوان يو قد لا يزال يراقبك، سأثبت له أنني لست بلا فضيلة. لن أؤذيك، وستعيش دائمًا في بيتي كضيف مكرم».

قالت الأم للطفل: «بالطبع، لم يمت. فاللورد جوان يو أعظم رجل أنجبته المملكة الوسطى على الإطلاق. إذا كان لديك حتى جزء من قوته وشجاعته، فلن يلزمني أبدًا الخوف من اللصوص وقطاع الطرق».

قال العالم لطلابه: «دعونا نصلي إلى اللورد جوان يو. فقد كان شاعرًا ومحاربًا، وعاش كل يوم كاختبار لشرفه».

قال الإمبراطور وهو يخصص المعبد لإله الحرب: «دعونا نصلي إلى اللورد جوان يو. ليمنحنا النصر على البربريين».

قال اللاعب الذي يستخدم الحجارة السوداء: دعونا نصلي إلى اللورد جوان يو. نتمنى جميعًا كلاعبين في وي تشي لو أننا نستطيع أن نلعب معه. إذا لعبنا بشكل ماهر اليوم، ربما سيتكرم بالحضور ليعلمنا».

قال التجار وهم يستعدون للإبحار عبر المحيط إلى الموانئ الأسطورية في سيلان وسنغافورة: «دعونا نصلي إلى اللورد جوان يو. ليحرسنا ويقمع القراصنة والأعاصير».

قال العمال وهم يستعدون للصعود إلى السفن الشراعية المتجهة إلى جبال الصندل في هاواي وجبل الذهب القديم في كاليفورنيا: «دعونا نصلي إلى اللورد جوان يو. ليساعدنا على تحمل الرحلة، ويطوّع الجبال أمامنا. ويحمينا حتى نجني ثروتنا، ثم يرشدنا إلى ديارنا».

المطعم الصيني

بحلول أواخر الصيف، جف الجدول الذي كان يغذي أرض الصينيين حتى صار خيطًا رفيعًا. وبالرغم من براعة لوجان ورجاله في إدارة المياه، فقد جعلت بداية موسم الجفاف من المستحيل استخراج الرواسب بشكل فعال. كان عليهم الاستقرار والانتظار حتى الربيع المقبل.

رغم أنهم حققوا النجاح خلال موسم التعدين في الربيع والصيف، فلم يجمع الصينيون ثروة كبيرة بالمعنى الحقيقي. وأثناء استقرارهم في حياتهم في أيداهو وانتظارهم لمرور بقية العام، حاولوا اكتشاف طرق أخرى لتغطية نفقاتهم.

بحث أه يان وبعض الشبان الأصغر سنًّا عن عمل في المدينة وتحدثوا فيما بينهم. ولاحظوا أن هناك الكثير من الرجال العزاب في المدينة الذين يرفضون ببساطة أو لا يستطيعون غسل قمصانهم، ولم يكن هناك ما يكفي من الغسالات لتلبية احتياجات جميع الرجال.

فوجئت إلسي عندما أخبرها جاك بخطة الصينيين: «لكن هذا عمل النساء! ألا يملك هؤلاء الرجال أي إحساس بالكرامة؟».

قال جاك، والضحك والانزعاج ممتزجان في صوته: «وما خطب ذلك؟ لماذا يبدو كأنك تكرهين كل ما يفعله الصينيون؟».

نظرت إلسي إلى زوجها بنظرة صارمة: «ثاديوس سيفر». كانت تعرف أنه لا يجب أن تتوقع من زوجها أن يظهر أي إحساس مناسب بالصدمة من تصرفات هؤلاء الصينيين الفظيعة، خصوصًا وثاد هو من يشجعهم على أن يصيروا أكثر جرأة كل يوم. لكن بعد ذلك توصلت إلى حجة كان يجب على ثاد أن يعترف بصحتها.

قالت: «لماذا؟ فكر في الأمر يا ثاد. لقد رأيت الطريقة التي يعمل بها هؤلاء الصينيون الوثنيون. عندما يفتحون متاجر الغسيل، سيعملون سبعة أيام في الأسبوع، لستة عشر ساعة في اليوم. سيفعلون ذلك لأن قلوبهم ممتلئة بالجشع للذهب ويضخها الأفيون الآثم، لدرجة أنهم لا يتوقفون لحظة واحدة للتفكير في عظمة الله، حتى في أيام الآحاد. ورأيت الطريقة التي يأكلون بها. الصينيون مثل الجراد: يعيشون على الأرز والخضراوات الرخيصة بينما يحتاج الرجال والنساء المسيحيون الأتقياء إلى تناول اللحم للحفاظ على قوتهم. كما أنهم لا ينفقون أموالهم على وسائل الترفيه الشريفة والصحية ولا الصداقة التي تُبقي متاجر المدينة وحاناتها قائمة كما يفعل رجالنا، بل يبددون أمسياتهم في العويل بأغانيهم الصاخبة ورواية قصصهم السرية. وأخيرًا، عندما يحل الليل وتنزوي كل عائلة مسيحية أمام خصوصية المدفأة العائلية»، (وهنا توقفت لتمنح جاك نظرة ذات مغزى): «يكدس الصينيون أكبر عدد ممكن من الأجساد في أقل عدد ممكن من الأسرة لتوفير الإيجار».

ضحك جاك بصوت عالٍ: «يا إلسي. لقد سمعت عن الثناء لأسباب واهية من قبل، لكن أعتقد أن هذه المرة الأولى التي أسمع فيها عن الإدانة لأسباب واهية. بالطريقة التي تتحدثين بها، قد يظن من لا يعرفك أنك تحبين الصينيين. تدعين أنكِ تُظهرين لي عيوبهم، لكن كل ما قلته يُظهر فقط أنهم مجتهدون، واقتصاديون، وأذكياء، وسعداء برفقة بعضهم، ومستعدون لتحمل المصاعب. إذا كان هذا أسوأ ما يمكنك قوله عن الصينيين، فمن المؤكد أن حضارة كونفوشيوس ستنتصر على حضارة المسيح».

قالت إلسي ببرود: «أنت لا تفكر. ما النتيجة الحتمية لعمل هؤلاء الصينيين مقابل أجر زهيد في ظنك؟ هؤلاء الصينيون سيقدمون خدماتهم بأسعار أقل من أسعار السيدة أوسكانلين والسيدة داي وجميع الأرامل الأخريات. هؤلاء النساء لديهن ما يكفي من المتاعب، فهن يعملن ليلًا ونهارًا، وأصابعهن حمراء ومتقرحة من الغسيل المستمر، وهن بالكاد يجنين ما يكفي لإطعام أنفسهن وأطفالهن. وبطبيعة الحال، الرجال الضعفاء في هذه المدينة، الجاهلين بواجباتهم المسيحية، سيوظفون الصينيين، الذين سيتقاضون أجرًا أقل من الأرامل الشرفاء اللاتي يجب أن يحافظن على الله وفضيلتهن في قلوبهن. ماذا ستفعل لهؤلاء الأرامل عندما يُسرق عملهن من قبل الصينيين؟ هل ستدعهن يتوسلن الرحمة من مدام إيزابيل وبيتها المملوء بالشر؟».

لأول مرة، لم يعرف جاك سيفر ما يقوله ردًا على زوجته.

قال جاك لأه يان: «ماذا عن النجارة؟ صناعة الأثاث؟ يمكنني توظيفك للعمل في متجري».

أجاب أه يان: «لا يمكنك تحمل أجري. نحن نتقاضى خمسة وعشرين سنتًا لكل قميص، وهذا يعني تقريبًا عشرة دولارات في اليوم من العزاب فقط. وأنا لم أحسب حتى المال الذي نجنيه من تنظيف بطانيات وأغطية الفنادق. لقد قيل لي إننا نكوي الملابس بشكل أفضل من النساء سابقًا». وابتسم أه يان ابتسامة حزينة ومرر ذراعه الرفيعة ليشاهد الإبهام المنتفخ في نهايتها.

- حتى إبهامي تورم من دفع تلك المكواة طوال اليوم. ستشعر زوجتي في الديار بالسعادة لسماع أنني صرت خبيرًا في الكي الآن».

أثار حديث أه يان عن عائلته مشاعرًا مختلطة في جاك، مذكرًا إياه بأن أه يان، الذي بدا صغيرًا في عيني جاك، لم يكن مجرد شاب ذكي وماهر في الطهي والغسيل، بل كان زوجًا، وأبًا على الأرجح، مضطرًا لتعلم هذه الأشياء لأن زوجته لم تستطع المجيء معه.

قالت ليلي لجاك قبل عدة أيام إن الصينيين يطرحون بعض الأفكار الجديدة التي يريدون استشارته بشأنها. وأخيرًا، في ذاك الصباح، استطاع أن يترك المتجر لبضع ساعات ليذهب مع ليلي، التي جرت إلى الفناء لتكون مع لوجان بمجرد وصولهما. قضى جاك لحظات تأملية وهو يقضم الكعكة المطهوة على البخار التي قدمها له أه يان كوجبة إفطار، انفجرت الكعكة في فمه، وملأت لسانه بعصارة ونكهة اللحم الحلو والخضراوات الساخنة والمالحة.

ابتلع جاك طعامه بسرعة وقال: «انتظر»، (وندم لأنه لم يستطع الاستمتاع بالطعم كما كان يود): «لدي فكرة. قبل أن أتذوق طعامك، لم أكن لأصدق أن الكرنب والفاصوليا يمكن أن يكونا أفضل طعمًا من اللحم البقري والسجق، أو أن المرارة التي تبقى يمكن أن تُستساغ. لكنك استطعت أن تثبت لي العكس. لما لا تطهو للناس الآخرين في مدينة أيداهو؟ يمكنك أنت والآخرون فتح مطعم وجني المزيد من المال».

هز أه يان رأسه آسفًا: «لن ينجح الأمر يا سيد سيفر. حاول أصدقائي في الجبل الذهبي القديم ذلك. معظم الأمريكيين ليسوا مثلك. فهم لا يستطيعون تحمل طعم الطعام الصيني. فهو يجعلهم مرضى».

- سمعت عن المطاعم الصينية التي في سان فرانسيسكو.

- تلك ليست مطاعم صينية. حسنًا، هي كذلك، ولكن ليست من النوع الذي تفكر فيه. يملكها أشخاص صينيون، لكن كل ما يقدمونه هو الطعام الغربي: لحم البقر المشوي، وكعكة الشوكولاتة، والتوست الفرنسي. لا أعرف كيف أعد أي من تلك الأشياء، حتى أنني لا أستطيع إعدادها بشكل جيد بما يكفي لأرغب في أكلها بنفسي.

- لكنني أقول لك إنك بارع جدًّا، حقًّا بارع.

ونظر جاك حوله وأخفض صوته: «أنت تطبخ أفضل بكثير من إلسي، وأنا أعلم أنها تطبخ مثل معظم الزوجات هنا. إذا فتحت مطعمك وأخبرت الرجال بشكل سري، ستمتلئ طاولاتك بالزبائن في كل ليلة».

- سيد سيفر، أنت مبالغ جدًّا في مدحك. أعلم أنه في نظر الزوج، لا يمكن لطعام أي شخص أن يتفوق على طعام زوجته.

توقف لحظة، كما لو كانت أفكاره بعيدة في مكان ما.

- علاوة على ذلك، نحن لسنا طباخين. كل ما أعده هو مجرد طبخ منزلي، النوع الذي لن يطعمه الطباخون الحقيقيون في كانتون حتى لكلابهم. لا يمكن أن يُفتتح مطعم صيني في أمريكا حتى يوجد عدد كافٍ من الصينيين في أمريكا، وحتى يكونوا أثرياء بما يكفي ليرغبوا في تناول الطعام فيه.

قال جاك: «هذا يعني أن على المزيد من الصينيين أن يصيروا أشبه بالأمريكيين».

رد أه يان: «أو على المزيد من الأمريكيين تعلم أن يكونوا أشبه بالصينيين».

تجمع عدد قليل من الصينيين الآخرين للاستماع إلى المحادثة. قدم أحدهم تعليقًا باللغة الصينية في هذه اللحظة، وانفجر الجميع في الضحك. تدفقت الدموع من عيني أه يان.

- ماذا قال؟

رغم أن جاك كان يبذل جهدًا كبيرًا في تعلم اللغة من خلال غناء أغاني الخمر مع لوجان، فإنه لم يبرع فيها بما يكفي ليفهم المحادثة بعد، لكن ليلي بدت أنها قد استوعبتها بسهولة أكبر وغالبًا ما كانت تتحدث مع لوجان باللغتين الصينية إلى حد ما والإنجليزية.

مسح أه يان عينيه.

- قال سان لونج إنه ينبغي علينا تسمية المطعم «الكلب لن يأكل هنا وأنت لن تأكل كلبًا».

- لا أفهم.

- هناك نوع مشهور جدًّا من الخبز المطبوخ على البخار في الصين يُدعى «الكلب لن يأكل هنا»، وأنت تعرف طبيعة الأمريكيين فيما يخص أكل لحم الكلاب.

استسلم أه يان عندما رأى تعبيرات عدم الفهم على وجه جاك.

- لا يهم. هذه النكتة صينية أكثر مما ينبغي بالنسبة لك.

التقط سان لونج بعض الأعواد من الأرض ومثل بها شيئًا ما، وكان يبدو وكأنه يلقي السهام بتهور نحو هدف يقع على بعد بضع بوصات أمام وجهه. ضحك أه يان والآخرون بشدة.

شرح أه يان لجاك: «إنه يقول إن المطاعم الصينية لن تنجح أبدًا في أمريكا لأنه سيتعين على كل زبون أن يتعلم استخدام عيدان الطعام».

- نعم، نعم، مضحك جدًّا. حسنًا، لن تفتح مطعمًا. وبما أننا نتحدث عن الكلاب والمدح الذي لا يبدو كمدح، فقد أثرت فضولي لتناول لحم الكلاب لأول مرة في حياتي في تلك الليلة.

قالت ليلي للوجان: «أبي قلق بشأن غسالات الملابس اللواتي فقدن عملهن».

كانا يمشيان في منتصف ممر الهندباء معًا، جنبًا إلى جنب. كان لوجان يحمل عمودًا من البامبو على كتفيه. عند كل طرف من العمود تدلت سلتان كبيرتان منسوجتان ممتلئتان بالخيار والبصل الأخضر والجزر والقرع والطماطم والفاصوليا الخضراء وبنجر السكر.

- إنه لا يعلم ما يجب فعله. يقول إن أه يان والآخرين يتقاضون أسعارًا قليلة جدًّا مقابل الغسيل والكوي، ولكن إذا لم تتقاضَ النساء أجرًا أقل، فلن يمنحهن الرجال البيض أي عمل.

صرخ لوجان بصوته المدوي الذي ارتد في جميع الاتجاهات حتى اختفى صداه في الأزقة بين المنازل المزدحمة: «دولاران لدزينة من الخيار، دولار لدزينة من البصل الأخضر! جزر طازج، فاصوليا، وبنجر! تعالوا وانظروا بأنفسكم. يا فتيات، الخضراوات الطازجة ستجعل بشرتكن ناعمة وسلسة. يا فتيان، الخضراوات الطازجة ستزيل شفاه البحارة!».

كان يردد أسعاره وعروضه بثبات وبنغم، كما يقود الآخرين في أغاني العمل.

فُتحت الأبواب من جميع الجهات. وخرجت الزوجات والرجال العازبون في فضول إلى الشارع ليروا عما يغني لوجان.

قال أحد الرجال: «يجب أن تأخذ بعضًا من هذا إلى وادي أُويهي، حيث لا يزال طاقم ديفي يعملون في منجمهم بسبب الينبوع الذي ساعدهم الهنود في إيجاده. أعلم أنهم لم يحصلوا على أي خضراوات منذ أسبوع، وسيدفعون لك خمسة دولارات لدزينة الخيار».

- شكرًا على النصيحة.

أرادت إحدى الزوجات أن تعرف: «من أين حصلت على هذه المنتجات. تبدو أكثر نضارة بكثير مما نجده في متجر سيفر، رغم أنني أعلم أنه يشحنها بسرعة قدر الإمكان».

- كلها مزروعة في حديقة منزلنا يا سيدتي. اقتلعت هذا الجزر من الأرض بنفسي هذا الصباح، قبل ساعة فقط.

- في حديقتك؟ كيف نجحت في ذلك؟ لا أستطيع حتى أن أجعل القليل من المريمية وإكليل الجبل ينموان بشكل صحيح.

قال لوجان: «بدأت في الصين كمزارع فقير جدًّا. أعتقد أنني أملك موهبة استخراج الطعام من الأرض، بطريقة أو بأخرى».

قال أحد المنقبينِ الأكبر سنًّا، وهو يتعامل بحب مع الخيار والطماطم من سلة لوجان: «أود حقًّا لو كان لدي هذا البصل الأخضر الطازج والخيار في الربيع الماضي، بدلًا من مضغ البطاطس المنقوعة في الخل كل يومين. أنت

محق، إن مرض الإسقربوط فظيع، والخضراوات الطازجة هي علاجه الوحيد. يا للأسف، لا يؤمن الشباب بذلك حتى فوات الأوان. سأشتري عشرة من هذه».

قالت واحدة من الشابات، مع تصفيق النساء الأخريات: «لا أعتقد أننا سنسمح لك بالمغادرة اليوم دون أن تفرغ سلالك. هل احتفظت بأي شيء لنفسك ولأصدقائك؟».

قال لوجان: «لا تقلقي بشأننا. أعتقد أننا نستطيع حصاد الحديقة خمس أو ست مرات هذا العام. اشتروا ما تريدون. سأعود مرة أخرى في غضون بضعة أسابيع».

وبسرعة باع لوجان كل الخضراوات التي كان يحملها معه. عد عشرين دولارًا وسلم المال إلى ليلي.

- أعطي عشرة دولارات للسيدة أوسكانلين، أعلم أنها لا تملك الكثير من المدخرات، ولديها ولدان ينموان ويحتاجان إلى الطعام. اسألي والدك من بحاجة إلى أخذ الباقي.

توجه الرجل العجوز والفتاة الشابة إلى الوراء وبدأ السير الطويل والهادئ في طريقهما إلى منزل الصيني على الجانب الآخر من المدينة. في الشارع الفارغ المغطى بأشعة الشمس الساطعة المتلألئة في الظهيرة، كانت خطواتهما المتعرجة، مع السلال المتأرجحة ببطء في نهاية عصا البامبو على كتفيه، تجعل الرجل يبدو كأنه خفاش مائي رشيق يتزلق على سطح بركة مشمسة هادئة.

وفي لحظة، اختفى الرجل والفتاة عند زاوية الشارع، وعاد كل شيء إلى السكون مرة أخرى في الشارع.

رأس السنة الصينية

كان الثلج يتساقط بلا توقف لمدة أسبوع كامل. بدت مدينة أيداهو بأكملها كأنها تغط في سبات عميق في منتصف شهر فبراير، مستسلمة لانتظار الربيع الذي كان على بعد عدة أشهر.

حسنًا، تقريبًا كل مدينة أيداهو. فقد كان العمال الصينيون منشغلين بالتحضير لرأس السنة الصينية.

طوال الأسبوع، لم يتحدث العمال الصينيون عن شيء سوى الاحتفال القادم برأس السنة الجديدة. فُرغت حزم من المفرقعات الحمراء اللامعة التي شُحنت من سان فرانسيسكو ووُضعت على الأرفف لتبقى جافة. عُهد إلى عدد من العمال الأكثر مهارة بأصابعهم بمهمة طي وقص الحيوانات الورقية التي ستُقدم مع حزم البخور للأجداد. كان الجميع يعملون على تغليف قطع الحلوى وبذور اللوتس المجففة في ورق أحمر ليوزعوها على الأطفال كبداية حلوة للسنة الجديدة. قبل يومين من ليلة رأس السنة، أرشد أه يان جميع الرجال أثناء تحضير آلاف الزلابيات التي ستُستهلك في يوم رأس السنة. حولوا غرفة الجلوس إلى خط إنتاج لزلابيات رأس السنة، يفرد بعض الرجال العجين في أحد أطراف الغرفة، ويحضر آخرون الحشو المكون من قطع لحم الخنزير والروبيان والخضراوات المفرومة والممزوجة بزيت السمسم، فيما يتولى الباقون لف كميات من الحشوة داخل عجينة الزلابية لتأخذ شكل صدفة المحار. وبعد الانتهاء من تحضير الزلابيات، وضعوها في دلاء تُغطى بأوراق اللوتس المجففة وتُترك بالخارج لتتجمد في الجليد، إلى أن يحين وقت طهيها في الماء المغلي في ليلة رأس السنة.

كانت ليلي تساعد في كل ما تستطيع فعله. ففرزت المفرقعات النارية حسب الحجم إلى أن تشبعت أصابعها برائحة البارود. وتعلمت أن تقص قطع الورق الملون لتشكل دجاجاتٍ وماعزًا وخرافًا، لتُحرق أمام الآلهة والأجداد، فيسمح لهم بمشاركة الناس في الوليمة.

سألت ليلي لوجان: «هل سيكون اللورد جوان يو موجودًا ليرى الخراف الورقية؟».

نظر لوجان مبتسمًا للحظة قبل أن تبدو الجدية على ملامح وجهه، الذي ازدادت حمرته احمرارًا أكثر من المعتاد بسبب البرد: «أنا متأكد أنه سيكون هناك».

وفي النهاية، أثبتت ليلي أنها الأكثر قيمة في المرحلة الأخيرة من خط إنتاج الزلابية. فقد كانت خبيرة في تشكيل حواف الزلابية باستخدام شوكة لخلق نمط قشرة المحار المتموجة التي ترمز إلى خط الازدهار المتواصل.

قال لوجان: «أنتِ حقًّا ماهرة في ذلك. لو لم يكن شعرك أحمر وعيناك خضراوين، لظننت أنكِ فتاة صينية».

ردت ليلي: «الأمر مشابه تمامًا لتشكيل قشرة الفطيرة. أمي علمتني ذلك».

قال أه يان: «عليكِ أن تعلميني كيفية تحضير قشرة الفطيرة بشكل صحيح بعد رأس السنة. لطالما أردت تعلم تلك الخدعة الأمريكية».

لقد أثار نشاط الصينيين جميع أنواع الحماس في بقية مدينة أيداهو.

همس الأطفال لبعضهم: «يحصل الجميع على ظرف أحمر ممتلئ بالمال والحلويات. كل ما عليك فعله هو أن تطرق بابهم وتتمنى لهم الحظ السعيد في العام الجديد».

قالت النساء لبعضهن في المتاجر والشوارع: «ظل جاك سيفر يمدح طعام الصينيين منذ شهور. هذه فرصتنا الوحيدة لتجربته. يقولون إن الصينيين سيقدمون لكل من يزورهم زلابية لحم الخنزير التي تجمع كل النكهات في العالم».

سأل الرجال بعضهم: «هل ستذهب إلى الصينيين عندما يحتفلون برأس سنتهم؟ يقول الناس إن الوثنيين سيقيمون عرضًا احتفاليًّا تكريمًا لأجدادهم، مع الكثير من الموسيقى الصاخبة والأزياء الملونة. وفي النهاية، سيقدمون وليمة لم يُرَ مثلها من قبل في جميع أنحاء منطقة حوض بويزي».

سألت ليلي أه يان وهي تساعده في حمل الجرار الكبيرة لبراعم البامبو الحلوة إلى داخل البيت: «كيف كان لوجان في الصين؟ هل لديه عائلة كبيرة هناك؟». كانت متعبة من كم العمل الذي أنجزته في ذلك اليوم ولم تستطع الانتظار حتى الوليمة غدًا. وللأمانة، شعرت بشيء من الذنب. فلم تكن قط بهذه الحماسة عندما كانت والدتها تطلب منها المساعدة في المنزل. فقررت أن تتحسن في ذلك بعد يوم غد.

قال أه يان: «لا أعلم. لم يكن لوجان من سكان قريتنا. ولم يكن حتى من الجنوب. لقد ظهر في الميناء في اليوم الذي كنا سنغادر فيه إلى سان فرانسيسكو».

- إذًا، كان غريبًا حتى في بلده.
- نعم. عليكِ أن تطلبي منه أن يروي لكِ قصة رحلتنا إلى هنا.

«غالبًا لا يكون المنفى مصير السعداء والأقوياء».

- *أليكسيس دو توكفيل*

في الأيام التي كان فيها القبطان رائق المزاج، كان يسمح لعدد قليل من ركاب سفينته بالصعود إلى سطح السفينة من الطابق السفلي ليتنفسوا قليلًا من الهواء. وفي بقية الأيام، كان كل رجل يكتفي بسرير ضيق يبلغ طوله ستة أقدام، أضيق من التابوت. وفي ظلام مخزن السفينة المظلم والمغلق، كانوا ينامون لتمضي الساعات، وكانت أحلامهم مزيجًا من الآمال الحالمة والمخاطر الغامضة. لم يرافقهم سوى رائحة ستين رجلًا وقيئهم وبرازهم وطعامهم وأجسادهم الوسخة، تكدسوا جميعًا في مكان كان مخصصًا للبالات من القطن وبراميل الرام. كما رافقتهم الحركة المستمرة للسفينة الشراعية أثناء رحلتها التي استغرقت ستة أسابيع عبر المحيط الهادئ.

كانوا يطلبون الماء، ولم يُلب طلبهم إلا في بعض الأحيان. وفي أوقات أخرى، كانوا ينتظرون أن تمطر السماء ويستمعون لصوت تسرب المياه إلى المخزن. تعلموا بسرعة كبيرة أن يمتنعوا عن السمك المملح، لأنه كان يشعرهم بالعطش.

ولكيلا يقودهم الظلام إلى فقدان صوابهم، كانوا يروون القصص، التي يعرفونها جميعًا عن ظهر قلب، لبعضهم.

كانوا يتناوبون على سرد قصة اللورد جوان يو، إله الحرب، والطريقة التي تمكن فيها ذات مرة من اجتياز ستة أحصنة وقتل خمسة من جنرالات القائد الخائن تساو تساو بمساعدة حصانه الحربي، الحصان الأحمر وسيفه القوي، تنين القمر الأخضر.

قال الصيني الذي كان الآخرون يطلقون عليه اسم لاو جوان: «سيسخر منا اللورد جوان يو كما الأطفال إذا سمعنا نتذمر من

العطش والجوع أو من رحلة في قارب». كان طويلًا جدًّا لدرجة أنه كان يضطر للنوم وركبتاه ملتفتان إلى صدره ليتمكن سريره من أن يسعه. وأضاف: «ما الذي نخشاه؟ نحن ذاهبون إلى هناك لكي نبني سكة حديدية وليس للقتال في حرب. أمريكا ليست أرض ذئاب ونمور، إنها أرض رجال. رجال يجب عليهم العمل وتوفير الطعام، تمامًا كما نفعل نحن».

ضحك الآخرون في الظلام. تخيلوا وجه اللورد جوان يو الأحمر، الذي لا يعرف الخوف في أي معركة، والمعبأ بالحيل الذكية للخروج من أي فخ. ما أهمية العطش والجوع والظلام مقارنة بالمخاطر المضاعفة التي واجهها اللورد جوان يو؟

امتصوا ولعقوا قطع اللفت والملفوف التي حملوها معهم من حقول قراهم. كان الرجال يمسكون بها بالقرب من أنوفهم، ويستنشقون بعمق رائحة التربة التي ظلت عالقة بالجذور. كانت هذه آخر مرة يشمون فيها رائحة ديارهم لسنوات.

وفي يوم، أصيب بعض الرجال بالمرض وظلوا يسعلون طوال الليل، وأبقى الضجيج الجميع مستيقظين لساعات. كانت جباههم ساخنة كمكواة تركت لفترة طويلة على الموقد. لم يكن مع الرجال أي دواء، ولا مكعبات من سكر الثلج أو شرائح من كمثرى الإوز. كل ما كان يمكنهم فعله هو الانتظار في الظلام بصمت.

قال لاو جوان: «لنغني الأغاني التي كانت أمهاتنا تغنيها لنا ونحن أطفال». كان طويلًا جدًّا لدرجة أنه كان يضطر إلى الانحناء وهو يتحسس طريقه في المخزن المظلم، ممسكًا بيد كل رفيق، سواء كان مريضًا أو بصحة جيدة. وأضاف: «بما أن عائلاتنا ليست معنا، يجب أن نفعل كما فعل اللورد جوان يو مع اللورد ليو باي واللورد جانج في بستان الخوخ. يجب أن نصير إخوة».

غنى الرجال أغاني الطفولة التي كانت بلا معنى في هواء المخزن الخانق، وكانت أصواتهم تجتاح أجساد المرضى مثل نسيم بارد، يجعلهم يغفون بسلام.

في الصباح، لم يُستأنف السعال. وعُثر على بعض الرجال في أسرتهم الضيقة كالتوابيت، وأرجلهم الهامدة ملتفة بالقرب من أجسادهم الساكنة كالأطفال النائمين.

قال القبطان: «ألقوهم في البحر. الآن، سيتعين على بقيتكم دفع ثمن تذاكرهم».

ازداد احمرار وجه لاو جوان أكثر من وجوه المرضى المحمومين. وانحنى بجانب الجثث وقص خصلات من شعر كل منهم، واضعًا كل خصلة في ظرف بعناية. وقال: «سأعيد هذه إلى قراهم الأصلية لكيلا تتجول أرواحهم في المحيطات دون أن تستطيع العودة إلى الديار».

رُميت الجثث المغلفة بأغطية قذرة إلى جانب السفينة.

وأخيرًا وصلوا إلى سان فرانسيسكو، جبل الذهب القديم. رُغم أن ستين رجلًا قد صعدوا على متن السفينة، فإن خمسين فقط نزلوا إلى الأرصفة. كان الرجال يحدقون في نور الشمس الساطع المنعكس على صفوف المنازل الصغيرة التي تمتد صعودًا وهبوطًا على التلال المنحدرة والمتعرجة. اكتشفوا أن الشوارع لم تكن مفروشة بالذهب، وبدا الجوع والقذارة على بعض الرجال البيض الذين على الأرصفة، تمامًا كما كانوا هم.

اصطحبهم رجل صيني كان يرتدي ملابس مشابهة لملابس الرجال البيض إلى قبو رطب في الحي الصيني. لم يربط شعره كذيل حصان، وكان شعره مقسمًا من المنتصف وممسدًا بالزيت ذي الرائحة الغريبة التي جعلت الصينيين الآخرين يعطسون.

قال الصيني الأبيض: «إليكم عقود العمل الخاصة بكم». ثم أعطاهم قطعًا من الورق ممتلئة بحروف أصغر من الذباب ليوقعوا عليها.

قال لاو جوان: «وفقًا لهذا، ما زلنا مدينين لكم بالفائدة على ثمن تذاكر مجيئنا من الصين. لكن عائلات هؤلاء الرجال قد باعوا كل ما استطاعوا من أجل جمع المال لشراء التذاكر التي جلبتنا إلى هنا».

رد الصيني الأبيض وهو ينظف ما بين أسنانه باستخدام ظفر خنصره الأيمن الطويل والمشذب: «إذا لم يعجبكم ذلك، فيمكنكم أن تحاولوا إيجاد طريقة للعودة بمفردكم. ماذا يمكنني أن أقول؟ شحن الصينيين إلى هنا مكلف».

قال لاو جوان: «لكن سيستغرق منا العمل ثلاث سنوات لسداد المبلغ الذي تقولون إننا مدينون به هنا، وربما أكثر بما أنكم قد جعلتمونا الآن مسؤولين عن ديون الرجال الذين ماتوا في البحر».

رد الصيني الأبيض قائلًا: «إذًا، كان يجب عليكم أن تتأكدوا من أنهم لن يمرضوا». (ثم نظر إلى ساعة جيبه): «أسرعوا ووقعوا العقود. ليس لدي اليوم بأكمله».

في اليوم التالي، وضعوهم في العربات وأخذوهم إلى الداخل. كان المعسكر في الجبال، حيث وصلوا أخيرًا، إلى مدينة من الخيام. وبجانب المعسكر، امتدت سكة حديدية إلى مسافة أبعد من امتداد رؤيتهم. على الجانب الآخر كان هناك جبل يتجه إليه الصينيون وهم يحملون الفؤوس والمعاول ويتسلقونه مثل النمل.

حلَّ الليل، وأُستقبل الصينيون في معسكر الوافدين الجدد بحفل طعام بجوار نيران المعسكر.

قالوا للوافدين الجدد: «كلوا، كلوا. كلوا ما شئتم من الطعام». كان الصينيون يجدون صعوبة في تحديد أيهما ألذ: الطعام الذي دخل إلى بطونهم، أم صوت تلك الكلمات في آذانهم.

مرروا زجاجات من مشروب قيل إنه «ويسكي» حسبما ذكر كبار السن. كان تأثيره قويًّا ويوجد منه ما يكفي للجميع ليشربوا حتى الثمالة. عندما نفد المشروب، سأل كبار السن المجموعة الجديدة إن كانوا يريدون زيارة الخيمة الكبيرة التي عند أطراف المعسكر معهم. كان هناك وشاح حريري أحمر وأحذية نسائية معلقة على عمود خارج الخيمة.

تمتم أحد الرجال الأكبر سنًّا واسمه سان لونج: «أنتم محظوظون يا شباب. لقد أعطيت كل مالي إلى آني يوم الإثنين. سيتعين علي الانتظار أسبوعًا آخر».

قال أحد الآخرين: «يمكنها أن تتقاضى أجرها لاحقًا. لكن ربما عليك أن تكون مع سالي بدلًا منها الليلة».

ابتسم سان لونج ابتسامة عريضة ونهض للانضمام إلى رفاقه.

قال أه يان، الذي بالكاد تخطى مرحلة الطفولة: «يبدو أن هذه هي الجنة. انظروا كم هم أسخياء مع المال! لا بد أنهم يجنون الكثير لدرجة أنهم سددوا ديونهم مبكرًا ويمكنهم الآن توفير ثروة لعائلاتهم بينما يستمتعون بكل هذه المتع».

هز لاو جوان رأسه ومرر يده على لحيته. جلس بجانب جمرات النار المحتضرة وبدأ يدخن غليونه، وهو يحدق في الخيمة الكبيرة التي كانت تحمل الوشاح الحريري والأحذية النسائية. ظلت الأضواء -داخل تلك الخيمة- حتى وقت متأخر من الليل.

كان العمل شاقًّا. كان عليهم حفر مسار عبر الجبل أمامهم لتمديد السكة الحديدية. قاوم الجبل فؤوسهم وأزاميلهم، ولم يرضخ إلا بعد عدة ضربات متكررة آلمت أكتاف الرجال وأذرعهم حتى العظام. كان الجبل كبيرًا بما يكفي حتى بدا كأنهم يحاولون حفر أبواب قصر الإمبراطور الفولاذية بملاعق خشبية. وفي تلك الأثناء، كان المشرفون البيض يصرخون في وجه الصينيين ليتحركوا بشكل أسرع، ويعتدون على أي شخص يحاول الجلوس لدقيقة بالعصي والأيدي.

كانوا يحرزون تقدمًا ضئيلًا يومًا بعد يوم لدرجة أن الرجال كانوا يشعرون بالتعب كل صباح قبل أن يبدؤوا حتى في عملهم. كانت معنوياتهم تتدهور. واحدًا تلو الآخر، وضعوا أدواتهم جانبًا. كان الجبل قد هزمهم. وكان المشرفون البيض يقفزون حولهم ويضربونهم بالسياط ليدفعوهم للعودة إلى العمل، لكن الصينيين كانوا يتهربون ببساطة.

قفز لاو جوان على صخرة بجانب الجبل ليكون أعلى من الجميع. وصرخ بالصينية: «ضاجعوا أمهاتكم!»، (ثم بصق على الجبل وصرخ): «ضاجعوا أمهاتكم!» ونظر إلى المشرفين البيض وابتسم لهم.

امتلأ طريق الجبل بضحكات الصينيين. وواحد تلو الآخر، بدؤوا في ترديد الهتاف: «ضاجعوا أمهاتكم! ضاجعوا أمهاتكم!»، وابتسموا للمشرفين البيض وهم يغنون ويحركون أياديهم بحركات صينية بذيئة لهم. لم يعرف المشرفون البيض ما يقولونه، لذا شاركوا في الهتاف. بدا أن ذلك جعل الصينيين أكثر سعادة. أخذوا أدواتهم وعادوا إلى ضرب الجبل بغضب وانتقام موجهين بواسطة إيقاع هتافهم. أحرزوا تقدمًا أكبر في تلك الظهيرة أكثر مما حققوه طوال الأسبوع.

قال مشرف الموقع: «اللعنة على هؤلاء القردة. هم حقًّا يستطيعون العمل عندما يريدون. ما هذه الأغنية التي يغنونها؟».

هز المشرفون رؤوسهم: «من يدري؟ لا يمكننا أبدًا فهم لغتهم الهجينة. تبدو كأغنية عمل».

قال مشرف الموقع: «قل لهم إننا سنسمي هذا الممر 'ضاجعوا أمهاتكم'. فلعل هؤلاء القردة يعملون بجد أكبر عندما يعلمون أن أغنيتهم ستظل مذكورة هنا إلى الأبد كلما مر قطار».

استمر الصينيون في هتافهم حتى بعد أن انتهوا من عملهم في ذلك اليوم. صرخوا في وجه المشرفين البيض: «ضاجعوا أمهاتكم»، (واتسعت ابتساماتهم كما لم تكن من قبل): «ضاجعوا أمهاتكم!».

في نهاية الأسبوع، تقاضى الصينيون أجورهم.

قال لاو جوان للموظف: «هذا ليس ما وُعدت به. إنه لا يكافئ حتى نصف الأجر الذي يجب أن أتقاضاه».

قال الموظف: «يُخصم ما تأكله من الطعام ومساحة مكانك في الخيام. كنت سأريك الحساب لو كنت تستطيع العد حتى هذا الرقم، (وأشار الموظف إلى لاو جوان ليبتعد عن الطاولة): «التالي!».

سأل لاو جوان سان لونج: «هل يفعلون هذا دائمًا؟».

قال سان لونج: «نعم. كان الأمر هكذا دائمًا. لكن المبلغ الذي يخصمونه للطعام والنوم قد تضاعف ثلاث مرات في هذا العام».

قال لاو جوان: «لكن هذا يعني أننا لن نتمكن أبدًا من سداد ديوننا وتوفير ثروة نأخذها معنا إلى الديار».

أجاب سان لونج وهو يهز كتفيه: «ماذا يمكننا أن نفعل؟ لا يوجد مكان لشراء الطعام لخمسين ميلًا من هنا. لن نتمكن أبدًا من سداد ديوننا على أي حال، لأنهم يرفعون الفائدة كلما شعروا أن شخصًا ما على وشك سداد الدين بالكامل. كل ما يمكننا فعله هو أخذ المال الذي نحصل عليه ونشرب ونراهن وننفقه على آني والفتيات الأخريات. عندما تسكر وتنام، لن تفكر في أي من ذلك».

قال لاو جوان: «إذًا، هم يخدعوننا، هذا فخ».

أجاب سان لونج: «مهلًا، الآن ليس وقت البكاء على ذلك. هذا ما تحصل عليه عندما تصدق القصص التي قيلت عن جبل الذهب القديم. إنه جزاؤنا».

ذهب لاو جوان ليطلب من الرجال أن ينضموا إليه. كان لديه خطة. سيفرون إلى الجبال ويختبئون، ثم يعودون إلى سان فرانسيسكو.

قال لاو جوان: «سوف نحتاج إلى تعلم الإنجليزية وفهم طرق هذه الأرض إذا أردنا أن نصنع ثروتنا. لن يجعلنا البقاء هنا سوى عبيد ليس لدينا ما نملكه سوى الديون المتزايدة في دفاتر الرجال البيض». ونظر لاو جوان في عيني كل رجل، وكان طويلًا ومهيبًا لدرجة أن الرجال الآخرين تجنبوا النظر إليه.

قال أه يان: «لكننا هكذا سنخرق عقودنا ونترك ديوننا غير مدفوعة. وسنحمل عائلاتنا وأسلافنا العار. ليس من طبع الصينيين أن يخلفوا وعودهم». رد لاو جوان: «لقد دفعنا ديوننا لهم بالفعل عشرين مرة وأكثر. لماذا يجب أن نكون مخلصين بينما لم يكونوا صادقين معنا؟ هذه أرض خداع، ويجب علينا أن نتعلم أن نصير ماكرين مثل الأمريكيين».

لم يقتنع الرجال مع ذلك. فقرر لاو جوان أن يقص عليهم قصة جيا يو، الأميرة الحانية التي كان اسمها يعني «مُذيبة الأحزان».

زوَّجها الإمبراطور العسكري لملك بربري في السهوب الغربية، على بُعد ألف لي من الصين، حتى يوافق البربريون على بيعهم الخيول الحربية القوية التي كان الجيش الصيني بحاجة إليها للدفاع عن الإمبراطورية.

كتب لها الإمبراطور العسكري: «سمعت أنك تشتاقين للديار يا ابنتي الغالية، وأنك لا تستطيعين ابتلاع اللحم الخشن النيئ الذي يأكله الأجانب، ولا تجدين الراحة على أسرتهم المصنوعة من الجلود المشعرة لثيران الياك والدببة. سمعت أن العواصف الرملية قد شوهت بشرتك التي كانت ناعمة كالحرير، وأن برودة الشتاء القارس قد أظلمت عينيك اللتين كانتا متلألئتين كالقمر. سمعت أنك تنادين على الديار وتبكين حتى تنامي. إذا كان أي من هذا صحيحًا، فاكتبي لي وسأرسل الجيش بأكمله ليعيدك إلى الديار. لا أستطيع تحمل فكرة أنك تعانين يا طفلتي، فأنت النور في شيخوختي والسلوان في روحي».

كتبت له الأميرة: "يا أبي وإمبراطوري، ما سمعته صحيح. لكنني أعرف واجبي، وأنت تعرف واجبك. الإمبراطورية بحاجة إلى الخيول للدفاع عن حدودها ضد غارات الشيونج نو[1]. كيف يمكن أن تسمح لتعاسة ابنتك أن تعرض حياة شعبك

(1) كلمة المترجمة: الشيونج نو هم قبائل بدوية عاشت في مناطق منغوليا وشمال الصين وجنوب سيبيريا في العصور القديمة. كانوا معروفين بشن غارات متكررة على حدود الإمبراطورية الصينية، مما جعلهم مصدر تهديد مستمر. ولصد غاراتهم، احتاجت الإمبراطورية الصينية إلى خيول قوية وتحصينات، وكان هذا من بين الأسباب التي دفعت الأباطرة الصينيين لإقامة علاقات زواج ودية مع زعماء القبائل البدوية، كما في قصة الأميرة «جيا يو» التي أرسلت للزواج من أحد زعماء البرابرة لتعزيز السلام.

ومعاناتهم لخطر الغزو من قبل جحافل البربريين؟ لقد اختيرت لي اسمي بحكمة، وسأذيب حزني لأتعلم أن أجد السعادة في منزلي الجديد. سأتعلم أن أخلط اللحم الخشن بالحليب، وسأتعلم النوم بملابس نوم. سأتعلم تغطية وجهي بالحجاب، وسأتعلم أن أشعر بالدفء بركوب الخيل مع زوجي. وبما أنني في أرض أجنبية، فسأتعلم عادات الأجانب. من خلال أن أصير واحدة من البربريين، سأصير صينية بحق. ورغم أنني لن أعود إلى الصين أبدًا، فسأجلب لك المجد».

قال لاو جوان: «كيف يمكن أن نكون أقل حكمة أو رجولة من فتاة صغيرة، حتى وإن كانت ابنة الإمبراطور المحارب؟ إذا كنتم تريدون حقًّا جلب المجد لأسلافكم وعائلاتكم، فيجب عليكم أولًا أن تصيروا أمريكيين».

سأل سان لونج: «ماذا ستظن الآلهة بهذا؟ سنصير خارجين عن القانون. ألن نكون كمن يحارب مصيره بهذا؟ بعضنا ليس مقدرًا له أن ينال ثروات عظيمة، بل نصيبه هو العمل والمعاناة، نحن محظوظون بامتلاكنا ما لدينا حتى الآن».

- ألم يكن اللورد جوان يو خارجًا عن القانون في يوم من الأيام؟ ألم يعلمنا أن الآلهة لا تبتسم إلا لأولئك الذين يصنعون مصائرهم بأيديهم؟ لماذا يجب أن نرضى بأن لا نملك شيئًا لبقية حياتنا ونحن نعلم أن لدينا ما يكفي من القوة في أذرعنا لشق طريقنا عبر الجبال، وما يكفي من الذكاء في عقولنا للبقاء على قيد الحياة عبر المحيط بقصصنا وضحكاتنا فقط؟

سأل آه يان: «لكن كيف تعرف أننا سنجد شيئًا أفضل إذا هربنا؟ ماذا لو أمسكوا بنا؟ ماذا لو هاجمنا قطاع الطرق؟ ماذا لو لم نجد سوى المزيد من المعاناة والخطر في الظلام القابع هناك، بعيدًا عن نار هذا المعسكر؟».

قال لاو جوان: «لا أعرف ما سيحدث لنا هناك. كل حياة هي تجربة. ولكن في نهاية حياتنا، سنعرف أن لا أحد بإمكانه أن يتصرف في حياتنا كما يشاء إلا نحن، وأن انتصاراتنا وأخطاؤنا ملك لنا وحدنا».

قال وهو يمد ذراعيه مشيرًا إلى دائرة الأفق من حولهم. حيث تكدست السحب الطويلة في أسفل السماء إلى الغرب: «رغم أن الأرض هنا لا تفوح برائحة الديار، فإن السماء هنا أوسع وأعلى مما عرفت من قبل. كل يوم أتعلم أسماء لأشياء لم أكن أعلم بوجودها وأؤدي أعمالًا لم أكن أعلم أنني قادر على فعلها. لماذا نخاف من أن نرتفع لأقصى ما نستطيع ونبتكر أسماءً جديدة لأنفسنا؟».

في ضوء النار الخافت، بدا لاو جوان للآخرين طويلًا كشجرة، وتلألأت عيناه الطويلتان الضيقتان كالجواهر المرصعة في وجهه المتقد كاللهب. امتلأت قلوب الصينيين فجأة بعزيمة وتوق لشيء لم يعرفوا له اسمًا بعد.

قال لاو جوان: «أتشعرون بما أشعر به؟ أتشعرون بتلك النشوة في قلوبكم؟ تلك الخفة في رؤوسكم؟ هذا هو طعم الويسكي، جوهر أمريكا. لقد أخطأنا حين كنا سكارى وغافلين. فينبغي أن نكون سكارى ومقاتلين».

«مبادلة الملذات النقية والهادئة التي تقدمها أرض الوطن حتى للفقراء، بتلك الملذات العقيمة التي يمنحها الرخاء تحت سماء أجنبية، والهروب من دفء العائلة والحقول التي يرقد فيها الأجداد، وترك الأحياء والأموات للسعي وراء الثروة، لا يوجد شيء يستحق الثناء في أعينهم أكثر من ذلك».

- ***أليكسيس دو توكفيل***

قال لوجان، مُصرًا على طلبه، لفرقة «أيداهو سيتي براس باند» أن تعزف «جنازة فينيجان»: «ليس هناك ما يكفي من الضوضاء هنا. في الصين، كان جميع أطفال القرية يشعلون المفرقعات والألعاب النارية طوال اليوم لطرد الأرواح الشريرة الطامعة. أما هنا، فليس لدينا سوى بعض المفرقعات التي تكفي لبضع ساعات. سنحتاج إلى كل ما يمكنكم تقديمه من مساعدة لإخافة تلك الأرواح الشريرة».

انطلق رجال فرقة براس باند لأداء مهمتهم بحماس، بعد أن امتلأت بطونهم بحلوى الأرز الطرية المحشوة بمعجون الفاصوليا والزلابية الساخنة الحريفة. لم يعزفوا بمثل هذا النشاط حتى في يوم الاستقلال.

كانت جميع الشائعات عن احتفالات رأس السنة الصينية صحيحة. فامتلأت جيوب الأطفال بالحلوى والعملات التي تُصدر صوتًا، وضحك الرجال والنساء وهم يستمتعون بالمأدبة التي أُعدت لهم. اضطروا إلى الصراخ ليسمعوا بعضهم وسط دوي المفرقعات المستمر والموسيقى الصاخبة المنبعثة من فرقة براس باند.

وجد جاك إلسي بين النساء الأخريات في حديقة الخضراوات. أشعلت النار في الهواء الطلق حتى يشعر الضيوف بالدفء وهم يتجولون ويتناولون الطعام.

قال لها جاك: «أنا مندهش منك. أقسم أنني رأيتك تأخذين ثلاث قطع من الزلابية. ظننت أنك قلتِ إنكِ لن تلمسي طعام الصينيين».

قالت إلسي بجدية: «ثاديوس سيفر، لا أعلم من أين تأتيك هذه الأفكار الغريبة. من غير المسيحي إطلاقًا أن أتصرف كما قلت بعد أن فتح جيراننا بيوتهم لنا ودعونا لتناول الطعام معهم في مأدبتهم. إذا لم أكن أعرف لقلت إنك الوثني هنا».

قال جاك: «هذه هي فتاتي. لكن ألم يحن الوقت لتبدأي في مناداتي جاك؟ الجميع يناديني بذلك الآن».

قالت إلسي: «سأفكر في الأمر بعد أن أتناول قطعة من ذاك الزنجبيل الحلو». ثم ضحكت، فأدرك جاك كم كان يفتقد سماع تلك الضحكة منذ أن انتقلوا إلى مدينة أيداهو.

- هل تعلم أن أول فتى أحببته كان اسمه جاك؟

ضحكت النساء الأخريات، وضحك جاك معهن.

فجأة توقفت فرقة براس باند عن العزف. وتوقف الرجال واحدًا تلو الآخر عن الحديث وتحولت أنظارهم نحو باب المنزل. كان يقف أمام الباب العريف جاسكينز، الذي بدا عليه الأسف وبعض الخجل.

قال: «آسف يا جماعة، هذه ليست فكرتي».

رأى أه يان في الزاوية وأشار له بيده وقال: «لا تظن أنني لن أتعرف عليك في المرة القادمة عندما آتي لجمع ضرائبك».

قال أه يان: «هناك وقت كافٍ لذلك لاحقًا، أيها العريف. اليوم هو يوم الولائم والفرح».

رد العريف: «قد ترغب في تأجيل ذلك. أنا هنا في مهمة رسمية».

دخل لوجان الغرفة، وتفقّد الجمع أمامه. كان يقف وجهًا لوجه مع العريف قبل أن يظهر رجل آخر خلف العريف ويختفي بسرعة.

قال العريف: «لقد اتهمك أوبي بجريمة قتل. وأنا هنا لاعتقالك».

قال إيميت هاي ويرث، وهو طفل نشأ في موك تيرتل[1] في بنسلفانيا: «آخر شيء كنت أظن أنني سينتهي المطاف إليه هو أن أكون قاضيًا في قلب جبال روكي».

كان إيميت رجلًا ضخمًا، مثل والده، الذي كان مصرفيًّا تقاعد من فيلادلفيا ليعيش بهدوء في الريف. قبل أن يبلغ العشرين من عمره، كان أكبر إنجاز حققه إيميت هو فوزه بمسابقة أكل الفطائر على مستوى المقاطعة لثلاث سنوات متتالية. كان من المفترض أن إيميت لن يحقق إنجازات كبيرة في حياته، لأنه كان يملك ما يكفي من المال لكيلا يحتاج إلى لعمل بجد، لكنه

(1) كلمة المترجمة: حساء السلحفاة المزيفة Mock Turtle هو اسم مدينة خيالية، وغالبًا ما يُستخدم كمكان فكاهي أو خيالي في القصص. الاسم نفسه يرتبط بشكل شهير بحساء السلحفاة المزيفة، وهو طبق يُصنع من مجموعة من اللحوم، غالبًا ما تشمل لحم البقر أو الضأن، ويُحضر على طريقة الحساء الأصلي المصنوع من السلحفاة.

لم يكن يملك ما يكفي منه ليتصرف بتهور ويقع في المتاعب. كان الجميع يحبونه، لأنه كان دائمًا مستعدًا لشراء مشروب لأي أحد إذا ناداه بـ«سيدي».

ثم جاءت الحرب، وفي ذلك الوقت كان الجميع ما زالوا يعتقدون أن المتمردين سينهارون مثل بيت من ورق في ثلاثة أشهر. قال إيميت لنفسه: «لما لا؟ لعل هذه فرصتي الوحيدة في الحياة لزيارة نيو أورلينز». باستخدام مال والده، جنَّد مجموعة من الأفراد وجمع الموارد اللازمة لتشكيل وحدة عسكرية، وفي ليلة وضحاها صار العقيد إيميت هاي ويرث في جيش الاتحاد.

تأقلم إيميت بشكل مفاجئ مع الحياة العسكرية، ورغم أن جسده صار أنحف بسبب ركوب الخيل وعدم الحصول على ما يكفي من الطعام، إلا أن روحه المعنوية لم تنخفض قط. وبطريقة ما، تمكن فوجه من البقاء بعيدًا عن المعارك الطاحنة التي كانت تشهدها الحروب الكبرى وتتصدر عناوين الصحف، وخسروا عددًا أقل من الرجال مقارنة بمعظم الفصائل الأخرى. كان الجنود ممتنين لحظ إيميت. وغنوا: «أوه، لو كنت امرأة كما أنا رجل، فالعقيد هاي ويرث هو الرجل الذي سأتزوجه. يداه ثابتتان، وكلماته مبهجة دائمًا. سيأخذنا إلى نيو أورلينز». ضحك إيميت عندما سمع الأغنية.

في النهاية، وصلوا إلى نيو أورلينز، لكن بحلول ذلك الوقت، لم تعد المدينة مكانًا مملتئًا بالاحتفالات كما كانت من قبل. قد انتهت الحرب انتهت، ونجح إيميت في النجاة دون أن يصاب بأي رصاصة أو يحصل على أي ميداليات. وقال لنفسه: «هذا ليس أداء سيئًا. يمكنني التعايش مع ذلك».

لكن بعد ذلك، جاءته أوامر بأن الرئيس لينكولن[1] يريد رؤيته في واشنطن العاصمة.

لم يتذكر إيميت الكثير عن الاجتماع، إلا أن لينكولن كان أطول بكثير مما تخيله. تصافحا، وبدأ لينكولن في شرح الوضع في مدينة أيداهو.

---

(1) كلمة المترجمة: أبراهام لينكولن كان الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة، وقد قاد البلاد خلال الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865). اشتهر بإصدار إعلان تحرير العبيد في 1863، الذي ألغى العبودية في الولايات الجنوبية. قاد جهود الحفاظ على الاتحاد خلال الحرب، وعمل على تعزيز الاقتصاد الأمريكي. أُغتيل عام 1865 بعد انتهاء الحرب بفترة قصيرة، ليُخلد كرمز للحرية والوحدة.

- اللاجئون الديمقراطيون الكونفدراليون من ميزوري يملؤون مناجم أيداهو. سأحتاج إلى رجال مثلك هناك، رجال أثبتوا شجاعتهم ونزاهتهم وولاءهم للقضية».

وكان الشيء الوحيد الذي تمكن إيميت من التفكير فيه هو أنهم أخطؤوا في اختيار الشخص المناسب.

اتضح أن المشكلة كانت بسبب تلك الأغنية التي ابتكرها رجاله كنوع من المزاح. وصارت الأغنية شعبية بين الفوج الآخر، وانتشرت في كل مكان سار فيه جيش الاتحاد. كما أضيفت لها أبيات جديدة مع مرورها من رجل إلى آخر، وكان الجنود، الذين لم يعرفوا من هو إيميت هاي ويرث، ينسبون إليه أعمالًا عظيمة من الشجاعة والتضحية. وصار العقيد هاي ويرث مشهورًا، بل واقتربت شهرته من شهرة جون براون[1].

ومع ذلك، جمع إيميت هاي ويرث كل ما يملكه ورحل إلى بويزي، وعندما وصل هناك اكتشف أنه عُيِّن من قبل حاكم الإقليم ليكون قاضيًا في المقاطعة في إقليم أيداهو.

نظر جاك سيفر عبر المكتب إلى شكل القاضي إيميت هايورت الممتلئ. كان القاضي ما زال يأكل طبقًا من الدجاج المقلي الذي كان بمثابة غدائه. ساءت حياته في إقليم أيداهو المزدهر، وكان يظهر ذلك في صدره الذي يشبه البرميل، وبطنه التي تشبه الكيس، وجبينه اللامع المتعرق من جهد لعق شرائح اللحم الطري من عظام الدجاج.

كان من المفترض أن يكون هذا الرجل من أبطال الحرب. كان جاك سيفر يعرف هذا النوع: رجل اعتاد العيش على أموال والده الذي ربما اشترى لنفسه بها رتبة مريحة لإدارة خطوط الإمداد، ثم ضخم كل إنجازاته باسم الاتحاد والمجد حتى تمكن من الحصول على وظيفة مريحة هنا، في حين كان الرجال

(1) كلمة المترجمة: جون براون هو شخصية تاريخية حقيقية من القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة. كان ناشطًا معاديًا للعبودية وشارك في العديد من المظاهرات الراديكالية ضد نظام العبودية. أشهر أعماله كان هجومه على مستودع الأسلحة في هاربرز فيري (Harper›s Ferry) في ولاية فيرجينيا في عام 1859، بهدف إثارة انتفاضة العبيد. قُبض عليه وأُعدم في نفس العام، لكنه صار رمزًا للمقاومة ضد العبودية في أمريكا.

أمثال جاك سيفر يتجنبون الموت بالرصاص في الطين ويموتون من البرد في الشتاء. كزَّ جاك على أسنانه. لم يكن هذا الوقت أو المكان لإظهار ازدرائه. لكنه تأمل في المفارقة، فبالرغم مما قاله لوالد إلسي في الشرق، فإنه كان يتمنى آنذاك لو أنه صار محاميًا.

سأله إيميت: «ما هذا الذي أسمعه عن دماء الدجاج؟».

قال أوبي: «هذا شائن. لن أفعل هذا. لماذا تسمح حتى لهذا الصيني بالكلام؟ لا يُسمح بهذا في كاليفورنيا».

قال القاضي هاي ويرث: «ستضطر إلى ذلك». لم يكن متحمسًا لفكرة مراسم الصينيين في البداية، لكن جاك سيفر كان مقنعًا جدًّا. إذا قرر يومًا أن يصير محاميًا، فسيلتهم بقية المحامين في المدينة بمنتهى السهولة».

- ربما في كاليفورنيا سيكتفون بكلام الرجل الأبيض لأن الصينيين لا يمكنهم الشهادة في المحكمة، لكننا لسنا في كاليفورنيا. للمتهم حق في محاكمة عادلة، وبما أنه وافق على أن يقسم بيده على الكتاب المقدس كما هي عادتنا، فمن العدل أن توافق أنت أيضًا على أن تقسم بالطريقة التي كان شعبه دائمًا يقسم بها أمام الشهود.

- إنه بربري!

- قد يكون ذلك. لكن إذا لم تفعل هذا، فسوف أنصح هيئة المحلفين بإعلان براءته.

تمتم أوبي بكلمات غير مسموعة.

قال: «حسنًا». وحدق في لوجان الذي كان في الجهة المقابلة من المحكمة. كانت عينا أوبي تشعان بالكراهية لدرجة أنه بدا أكثر شبهًا بالفأر من المعتاد.

أُستدعي أه يان، وصعد إلى منصة الشهود. كان في يده اليسرى دجاجة تحاول التملص وهي معلقة من قدميها، في حين أمسك في يده اليمنى وعاء صغيرًا.

وضع أه يان الوعاء أمام أوبي. واستل سكينًا من حزامه وذبح عنق الدجاجة بكفاءة. تقاطر دم الدجاجة في الوعاء حتى توقفت الدجاجة عن الرفرفة في يدي أه يان.

قال أه يان: «اغمس يديك في الدماء وتأكد من تغطيتها ليديك بالكامل». فعل أوبي ذلك على مضض. كانت يداه ترتجفان لدرجة أن الوعاء تخبط على السطح الخشبي الذي وُضع عليه.

- الآن عليك أن تمسك يد لوجان وتنظر في عينيه، وتقسم أنك ستقول الحقيقة.

رافق العريف جاسكنز لوجان إلى منصة الشهود. وبما أن ساقيه وذراعيه كانت مكبلة معًا، استغرق ذلك بعض الوقت.

نظر لوجان إلى أوبي من أعلى، وكان الاحتقار واضحًا في كل تجعيدة من وجهه الأحمر كالدم. غمس يديه المكبلتين في وعاء دم الدجاج، فغمرهما تمامًا. ثم رفع يديه من الوعاء، وهزهما ليزيل الدم الزائد، ومد راحة يده اليمنى نحو أوبي. صار لون يديه مطابقًا للون وجهه.

تردد أوبي.

قال القاضي هاي ويرث بملل: «هيا، انته من الأمر. صافح الرجل».

نظر أوبي إليه: «سيادتك. هذه خدعة. سيحطم يدي إذا قدمتها له».

اهتزت القاعة بالضحكات.

قال القاضي وهو يحاول السيطرة على ابتسامته: «لا، لن يفعل ذلك. وإذا فعلها، فسأعاقبه بنفسي».

مد أوبي يده بحذر نحو يد لوجان. كانت عيناه مركّزتين على المسافة المتقلصة بين كفيهما كما لو أن حياته تعتمد على ذلك. لم يكن يتنفس، وكانت يده ترتعش بعنف.

تقدم لوجان وأمسك بيد أوبي، وزمجر بصوت منخفض.

صرخ أوبي كما لو طُعن بمحراث ساخن. تراجع للخلف بسرعة وهو يجر يده من قبضة لوجان. ظهرت بقعة رطبة بدأت في الانتشار عند منطقة الفخذ في سرواله. وبعد لحظة، شم العريف والقاضي رائحة البراز الكريهة.

قال لوجان وهو يرفع يديه: «لم أتمكن حتى من لمسه». كانت آثار دم الدجاج على راحة يده اليمنى غير متأثرة بطبعة يد أوبي.

طرق القاضي هاي ويرث بمطرقته وصاح: «النظام، النظام!». ثم استسلم وهز رأسه غير مصدق وقال للعريف جاسكنز الذي كان يحاول أن يمنع نفسه

من الابتسام: «أخرجوه من هنا ونظفوه. توقف عن الضحك. هذا لا يليق برجال القانون. وهلا أعطيتني تلك الدجاجة من فضلك؟ لا فائدة من إهدار الدواجن الجيدة».

قالت ليلي للوجان: «كل ما عليك فعله هو أن تقول الحقيقة. هذا ما قاله لي والدي. إنه أمر سهل».

قال لوجان: «القانون غير متوقع. لقد سمعت قصصي».

- لن يكون الأمر هكذا هنا. أعدك.

في وقت سابق من ذلك اليوم، أخبرت ليلي هيئة المحلفين بما شاهدته في ذلك اليوم بجانب مخيم الصينيين.

ابتسمت السيدة أوسكانلين -التي كانت تجلس في الصف الأمامي من قاعة المحكمة- لليلي عندما صعدت لتجلس على منصة الشهود بجانب القاضي. جعلها ذلك تشعر بشجاعة كبيرة.

كانت وجوه الرجال في منصة هيئة المحلفين صارمة وخالية من التعابير، وقد شعرت بالخوف. ولكنها قالت لنفسها إن الأمر مثل سرد قصة، كما كان لوجان يروي لها قصصه. الشيء الوحيد هو أن كل ذلك حقيقي، لذلك لم يكن عليها أن تخترع أي شيء.

بعد ذلك، لم تستطع أن تعرف إن كانوا صدقوا كلامها. لكن السيدة أوسكانلين والآخرين في قاعة المحكمة صفقوا لها بعد شهادتها، مما جعلها سعيدة، حتى بعد أن ضرب القاضي بمطرقته عدة مرات ليطلب من الجمهور الهدوء.

لكن لم يكن ذلك الوقت المناسب لتخبر لوجان بذلك. قالت له: «بالطبع سيصدقونك. لديك كل هؤلاء الناس الذين شاهدوا ما حدث».

- لكن باستثنائك، هم جميعًا مجرد صينيين عديمي القيمة.

غضبت ليلي: «لماذا تقول هذا؟ أنا أفضل أن أكون صينية على أن أكون شخصًا يصدق أكاذيب أوبي».

ضحك لوجان، لكنه عاد جادًّا سريعًا: «أنا آسف يا ليلي. الرجال الذين عاشوا مثلي أحيانًا يصيرون ساخرين».

صمتا للحظة؛ كل منهما غارق في أفكاره الخاصة.

كسرت ليلي الصمت بعد فترة: «عندما يُفرج عنك، هل ستبقى هنا بدلًا من العودة إلى الصين؟».

- سأعود إلى الديار.

قالت ليلي: «أوه».

- لكنني أود أن يكون لي منزلي الخاص بدلًا من أن الاستئجار. لعل والدك سيوافق على مساعدتي في بناء واحد؟ أليس كذلك؟

نظرت ليلي إليه دون أن تفهم ما يعنيه.

قال لوجان مبتسمًا لها: «الديار هنا. هنا، حيث وجدت أخيرًا كل نكهات العالم، كل الحلاوة والمرارة، كل الويسكي وخمر الذرة، كل الإثارة والاضطراب في صحراء من الرجال والنساء الساحرين بجمالهم المتوحش، كل السلام والعزلة في أرض ما زالت قيد التطور، ما أقصده هو، الشعور بالحرية والإلهام وتحفيز الروح الذي هو طعم أمريكا».

أرادت ليلي أن تصرخ فرحًا، لكنها لم ترغب في رفع آمالها بعد، ليس بعد. كان لا يزال على لوجان أن يروي قصته للجنة المحلفين غدًا. ولكن آنذاك، كان في انتظارهم ليلة من سرد القصص.

سألت ليلي: «هل يمكنك أن تحكي لي قصة أخرى؟».

- بالطبع، ولكن أعتقد أنه من الآن فصاعدًا لن أحكي لك المزيد من القصص عن حياتي كصيني. سأحكي لكِ قصة كيف صرت أمريكيًّا.

عندما ظهرت مجموعة من الصينيين المتعبين والنحيفين بعد بضعة أسابيع، حاملين أعمدة البامبو المضحكة على أكتافهم ...

خاتمة

كان الصينيون يشكلون نسبة كبيرة من سكان منطقة أيداهو في أواخر القرن التاسع عشر[1]. شكلوا مجتمعًا حيويًّا من عمال المناجم والطهاة وعمال الغسيل والبستانيين الذين اندمجوا جيدًا مع المجتمعات البيضاء في بلدات

(1) المؤلف: كان الصينيون يشكلون 28. 5٪ من سكان ولاية أيداهو في عام 1870.

التعدين. وكان معظم الصينيين من الرجال الذين يسعون لتحقيق ثروتهم في أمريكا[1].

بحلول الوقت الذي قرر فيه العديد منهم الاستقرار في أمريكا وأن يصيروا أمريكيين، كان الشعور المعادي للصينيين قد اجتاح النصف الغربي من الولايات المتحدة. بدءًا من إصدار قانون استبعاد الصينيين في عام 1882، كانت هناك سلسلة من القوانين الوطنية وقوانين الولايات وقرارات المحاكم التي منعت هؤلاء الرجال من جلب زوجاتهم من الصين إلى أمريكا، وقللت من مجيء أي صينيين آخرين، سواء من الرجال أو النساء، إلى أمريكا. لم يكن الزواج بين البيض والصينيين مسموحًا به بموجب القانون. ونتيجة لذلك، تضاءلت المجتمعات الصينية المكونة من العزاب في مدن التعدين في ولاية أيداهو تدريجيًّا حتى توفي جميع الصينيين قبل إلغاء قوانين الاستبعاد خلال الحرب العالمية الثانية.

وإلى اليوم، ما زالت بعض مدن التعدين في أيداهو تحتفل برأس السنة الصينية تخليدًا لذكرى وجود الصينيين بينهم.

(1) المؤلف: لمزيد من المعلومات عن تاريخ الصينيين في أيداهو خلال فترة اكتشاف الذهب، يمكن الرجوع إلى كتاب A Chinaman's Chance: The Chinese on the Rocky Mountain Mining Frontier. من تأليف جو لي بينج، المنشور من قبل جامعة كولورادو في عام 1997.

تاريخ موجز لنفق عبر المحيط الهادي

في مطعم النودلز الصغير، لوحت للنادلة الأخرى لتبتعد؛ فقد كنت أنتظر مجيء المرأة الأمريكية. كانت بشرتها شاحبة ومرقطة كالقمر، وصدرها ممتلئ في فستانها الأنيق، فيما تدلت خصلات شعرها الكستنائي الطويل فوق كتفيها، من المنديل المزهر الذي ربطته حول رأسها. كان في عينيها الخضراوين بريق يشبه لون أوراق الشاي الطازجة، وابتسامة جريئة قلما تُرى بين الآسيويين، وأحببت التجاعيد الصغيرة حول عينيها، فقد أضافت لها لمسة ناضجة تناسب امرأة ثلاثينية.

- نعم؟

وأخيرًا، كانت تقف أمام طاولتي. زمّت شفتيها وبنفاد صبر قالت لي باليابانية: «هوكا نو أوكياكوسان جا إيماسو يو. ناني وُو تشومون شيماسو كا؟». *هناك زبائن آخرون ينتظرون، ماذا تريد أن تطلب؟* كانت لغتها اليابانية جيدة، بل وربما لفظت الكلمات بدقة أكثر مني، بالرغم من أنها لم تلتزم بالألقاب الرسمية كما في الثقافة اليابانية. فإنه لا تزال رؤية الأمريكيين هنا في الحي الياباني في مدينة ميدبوينت شيئًا نادرًا، لكن الأمور تتغير فقد صرنا في العام السادس والثلاثين من عهد شوا (أو كما ستسميه هي بما أنها أمريكية، عام 1961).

أجبتها بكلمات أغلبها بالإنجليزية: «وعاء كبير من تونكوتسو رامن». ثم أدركت أن صوتي كان صاخبًا وفظًّا. فغالبًا ما ينسى الحفارون القدامى مثلي، أنه ليس الجميع بصُم. أضفت بهمس: «من فضلك».

اتسعت عيناها عندما تعرفت عليّ أخيرًا. فقد قصصت شعري وارتديت قميصًا نظيفًا، ولم تعتد أن تراني بهذا المظهر في المرات السابقة التي جئت

فيها إلى هنا. لقد مضى وقت طويل منذ أن اكترثتُ لمظهري، لم أكن بحاجة إلى ذلك، فقد اعتدت أن أقضي معظم وقتي وحيدًا في المنزل. لكن رؤيتها جعلت قلبي يخفق بطريقة لم أشعر بها منذ سنوات، وأردت أن أبذل جهدًا.

ابتسمت وقالت لي: «الطلب نفسه دائمًا».

أحببت سماع لكنتها الإنجليزية. فقد بدا صوتها طبيعيًّا أكثر هكذا، وليس حادًّا أكثر من اللازم.

أحضرت لي الرامن وقالت: «أنت لا تحب النودلز حقًّا». لم يكن هذا سؤالًا.

ضحكت، لكنني لم أنكر ذلك. فمذاق الرامن في هذا المكان سيئ. لو كان صاحب المطعم طاهيًا بارعًا لما ترك اليابان ليؤسس مطعمه هنا في ميدبوينت، حيث لا يعرف السياح الذين يتوقفون لأخذ استراحة في رحلتهم عبر نفق المحيط الهادئ -طعمًا أفضل من هذا. لكنني واصلت المجيء، فقط لأراها.

- أنت لست يابانيًّا.

أجبتها: «لا، أنا فوروموزي[1]. يمكنك أن تناديني تشارلي. عندما كنت أعمل مع الطاقم الأمريكي أثناء بناء مدينة ميدبوينت، كانوا ينادونني تشارلي لأنهم لم يتمكنوا من نطق اسمي الهُكياني بشكل صحيح. وأحببت وقعه، لذا واصلت استخدامه».

قالت وهي تهم بالمغادرة: «حسنًا يا تشارلي. أنا بيتي».

قلت لها: «انتظري». (ولا أعلم من أين جاءتني هذه الجرأة المفاجئة. كان أجرأ شيء فعلته منذ زمن طويل وأضفت): «هل يمكنني مقابلتك عندما يسمح وقتك؟».

قالت بعد أن عضت على شفتيها وهي تفكر في الأمر: «عُد بعد ساعتين».

***

(1) كلمة المترجمة: فورموزي هو مصطلح يشير إلى الأشخاص أو الثقافة التي تنتمي إلى جزيرة فورموزا (التي تعرف حاليًا بتايوان). يُستخدم هذا المصطلح بشكل رئيسي للإشارة إلى الأفراد الذين يتحدثون باللهجات المحلية لتايوان، مثل الهُكياني أو الميناني.

من دليل المسافر المبتدئ عبر نفق المحيط الهادئ، الصادر عن هيئة النقل لنفق المحيط الهادئ عام 1963:

مرحبًا، أيها المسافر! يصادف هذا العام الذكرى الخامسة والعشرين لاكتمال نفق المحيط الهادئ. ونحن متحمسون لرؤيتك وأنت تزور النفق للمرة الأولى.

يتبع نفق المحيط الهادئ مسار دائرة عظمى تحت قاع البحر ليربط آسيا بأمريكا الشمالية، مع ثلاث محطات نهائية على سطح البحر لشنجهاي وطوكيو وسياتل. ويسلك النفق أقصر مسار ممكن بين هذه المدن، حيث ينحني شمالًا ليتبع سلاسل جبال حافة المحيط الهادئ. ورغم أن هذا المسار تسبب في زيادة تكاليف بناء النفق، بسبب الحاجة إلى تأمينه لمقاومة الزلازل، فإنه سمح للنفق أيضًا بالاستفادة من الفتحات الحرارية الجوفية والبقع الساخنة التي في طريقه، والتي تولد الطاقة الكهربائية اللازمة لتشغيل النفق وبنيته التحتية الداعمة، مثل محطات ضغط الهواء، ومولدات الأكسجين، ومحطات الصيانة تحت قاع البحر.

هذا النفق في الأساس نسخة أكبر -ضخمة- من الأنابيب الهوائية أو خطوط الكبسولات المألوفة لنا جميعًا التي توصل البريد من وإلى المكاتب في المباني الحديثة. يحتوي النفق على أنبوبتين معدنيتين متوازيتين، ومغلفتين بالخرسانة ومصنوعتين من الفولاذإحداهما لحركة المرور المتجهة غربًا والأخرى لحركة المرور المتجهة شرقًا، ويبلغ قطر كل منهما 60 قدمًا. وتُقسم هذه الأنابيب إلى عدة أقسام ذاتية الإغلاق وأقصر طولًا، وكل قسم يحتوي على عدة محطات لضغط الهواء. وتُدفع الكبسولات الأسطوانية، التي تحتوي على الركاب والبضائع، عبر الأنابيب باستخدام فراغ جزئي من الأمام وهواء

مضغوط من الخلف، وتسير الكبسولات على سكك حديدية أحادية لتقليل الاحتكاك. وتبلغ السرعة القصوى الحالية نحو 120 ميلًا في الساعة، وتستغرق الرحلة من شنجهاي إلى سياتل أكثر من يومين كاملين بقليل. ونحن نعمل على بعض الخطط المستقبلية لزيادة السرعة القصوى إلى 200 ميل في الساعة.

يتميز النفق بتركيبته التي تجمع بين السعة والسرعة والأمان، مما يجعله يتفوق على المناطيد والطائرات والشحن البحري لتلبية احتياجات النقل عبر المحيط الهادئ. فهو محصن ضد العواصف والجبال الجليدية والأعاصير، كما أن تكلفة تشغيله زهيدة جدًّا؛ يستمد طاقته من حرارة الأرض اللامحدودة. وفي يومنا الحالي، يُعد الوسيلة الرئيسية لنقل الركاب والبضائع المصنعة بين آسيا وأمريكا، حيث يمر من خلاله أكثر من 30% من شحن الحاويات العالمية سنويًّا.

نأمل بأن تستمتع برحلتك عبر نفق المحيط الهادئ، ونتمنى لك رحلة آمنة إلى وجهتك النهائية.

***

لقد وُلدتُ في السنة الثانية من عهد تايشو عام 1913، في قرية صغيرة في محافظة شينشيكو، في فورموزا. وكانت عائلتي من الفلاحين البسطاء الذين لم يشاركوا قط في أي من الثورات ضد اليابان. فبالنسبة لوالدي، لم يكن يهمه كثيرًا إن كان الحكم بيد المانشو في البر الرئيسي أو اليابانيين، ما دام أنهم يتركوننا وشأننا، إلا بالطبع عندما يحين وقت الضرائب، لم تكن الأمور في أفضل حال. فقد كان قدر الفلاحين من شعب الهوكلو أن يكافحوا ويعانوا في صمت.

كان الاهتمام بالسياسة رفاهية أولئك الذين يملكون الطعام الوفير. وبغض النظر عن ذلك، كنت أحب العمال اليابانيين الذين يعملون في شركة الأخشاب، فقد كانوا يقدمون لي الحلوى أثناء استراحتهم للغداء. اتسمت عائلات المستعمرين اليابانيين الذين رأيناهم بالتهذيب، كما أنهم كانوا

متعلمين ويرتدون ملابس أنيقة. قال لي والدي ذات مرة: «لو كان لي الخيار، لصرت يابانيًّا في حياتي التالية».

خلال فترة صباي، أعلن رئيس وزراء جديد في اليابان عن قوانين سياسية جديدة: يجب تحويل سكان المستعمرات إلى رعايا صالحين للإمبراطور. فأنشأ الحاكم العام الياباني مدارس في القرى، وفُرض على الجميع الالتحاق بها. وكان بإمكان الأولاد الأذكياء أن يلتحقوا بالمدارس الثانوية التي كانت مخصصة لليابانيين فقط في السابق، ومن ثم يكملوا دراستهم في اليابان، لينتظرهم مستقبل مشرق.

لكنني لم أكن طالبًا متفوقًا، ولم أتعلم اليابانية بشكل جيد. وكنت راضيًا بقدرتي على قراءة بعض الحروف ثم أعود للعمل في الحقول، كما فعل والدي وجدي من قبلي.

إلا أن ذلك كله تغير في السنة التي بلغت فيها السابعة عشرة من عمري، أي السنة الخامسة من عهد شوا، أو عام 1930، عندما جاء رجل ياباني يرتدي بدلة غريبة إلى قريتنا، وهو يعد بالثروات لأسر الشباب الذين يعملون بجد دون تذمر.

كنا نتجول أنا وبيتي في ساحة الصداقة، في قلب مدينة ميدبوينت. وتوقف عدد قليل من المارة، من الأمريكيين واليابانيين، ليحدقوا بنا ويهمسوا لبعضهم عندما رأونا معًا. لكن بيتي لم تبال بهم، وانتقلت عدوى لا مبالاتها إلي.

هناك، على عمق كيلومترات تحت المحيط الهادئ وقاع البحر، أشار توقيت مدينة ميدبوينت إلى فترة ما بعد الظهيرة، وأضيئت المصابيح القوسية حولنا بأقصى سطوع ممكن.

قالت بيتي: «دائمًا أشعر كأنني في مباراة بيسبول ليلية عندما أمر من هنا. عندما كان زوجي حيًّا، كنا نذهب مرارًا إلى مباريات البيسبول معًا كعائلة. ”

أومأت لها برأسي. عادة ما تبقي بيتي ذكرياتها عن زوجها بسيطة. ذكرت مرة إنه كان محاميًا، وإنه غادر منزلهم في كاليفورنيا ليعمل في جنوب إفريقيا، حيث قُتل لأن بعض الناس لم يعجبهم أولئك الذين كان يدافع عنهم. قالت حينها: «لقد وصفوه بالخائن العنصري»، ولم أسألها عن مزيد من التفاصيل.

وبعدما صار أبناؤها كبارًا بما يكفي ليعيشوا بمفردهم، قررت أن تسافر حول العالم بحثًا عن التنوير والحكمة. وتوقف قطارها الكبسولي المتجه إلى اليابان في محطة ميدبوينت لمدة ساعة اعتيادية كي ينزل الركاب لالتقاط الصور، لكنها تجولت كثيرًا في المدينة وفاتها القطار. ورأت الأمر كإشارة، وظلت في المدينة، في انتظار أن ترى ما يمكن أن تعلمها إياه الحياة.

لا يمكن لأحد أن يعيش حياة كهذه إلا الأمريكيون. وبين الأمريكيين، هناك العديد من الأرواح الحرة مثلها.

لقد ظللنا نلتقي لأربعة أسابيع، وغالبًا في أيام عطلة بيتي. فكنا نسير معًا في أنحاء مدينة ميدبوينت، ونتحدث. كنت أفضل التحدث بالإنجليزية، ربما لأنني لم أكن بحاجة للإسراف في التفكير في الرسميات أو التهذيب.

أشرت إلى لوحة برونزية في منتصف الساحة، وأريتها اسمي المكتوب عليها بأسلوب ياباني: «تاكومي هاياشي». لقد ساعدني معلمي الياباني في مدرسة قريتي على اختيار الاسم الأول، وأعجبني معناه: «افتح، أيها البحر». وتبين لاحقًا أن ذلك الاختيار كان نبوءة.

قالت مبدية إعجابها: «لا بد أن ذلك كان مميزًا. عليك أن تخبرني المزيد عن عملك في بناء النفق».

لم يتبق الكثير من عمال الحفر القدامى. فالسنوات التي قضيناها في العمل الشاق، نتنفس الغبار الساخن والرطب الذي حرق رئاتنا، قد تسببت في أضرار غير مرئية داخل أجسادنا ومفاصلنا. وفي سن الثامنة والأربعين، ودعت جميع أصدقائي الذين خسروا معاركهم مع الأمراض. وظللت أنا آخر من يحتفظ بذكريات ما أنجزناه معًا.

عندما فجَّرنا أخيرًا الجدار الصخري الرفيع الذي كان يفصل جانبنا عن الجانب الأمريكي وأكملنا النفق في السنة الثالثة عشرة من عهد شوا (1938)، كنت من المحظوظين الذين دعوهم لحضور مراسم الإنجاز بصفتي أحد مشرفي العمل. شرحت لبيتي أن موقع التفجير كان في النفق الرئيسي شمال المكان الذي كنا نقف فيه، خلف محطة ميدبوينت مباشرة.

وفي النهاية وصلنا إلى المبنى الذي يحوي شقتي، ويقع على حافة المنطقة التي يعيش فيها معظم سكان فورموزا. ودعوتها للصعود معي. وقبلت دعوتي.

كانت شقتي عبارة عن غرفة واحدة بمساحة ثماني حصائر، لكنها كانت تحتوي على نافذة. عندما اشتريتها، كانت مكانًا فاخرًا للغاية في مدينة ميدبوينت، حيث كانت وما زالت الشقق المتاحة هناك محدودة وباهظة. لقد رهنت معظم معاشي التقاعدي لشرائها، فلم يكن لدي رغبة في الانتقال. كان معظم الرجال يكتفون بغرف ضيقة بحجم حصيرة واحدة. ولكن لعلها بدت صغيرة وبالية في نظرها كأمريكية. فالأمريكيون يحبون المساحات الواسعة.

أعددت لها الشاي وتناولناه معًا. لقد كان التحدث معها مريحًا للغاية. فهي لم تهتم بأنني لست يابانيًّا، ولم تفترض أي شيء عني. أخرجت سيجارة ماريجوانا، كعادة الأمريكيين، وتشاركناها.

خُففت الأضواء القوسية خارج النافذة، حل الليل في مدينة ميدبوينت. ولحسن حظي لم تنهض بيتي وتقول إن عليها الذهاب. توقفنا عن التحدث وصار الجو مشحونًا، لكن بطريقة عذبة ممتلئة بالتوقعات. مددت يدي وأمسكت بيدها، وسمحت لي بذلك. أسرت اللمسة الحرارة في جسدي.

من «أمريكا الرائعة»، إصدار وكالة الأنباء أسوشيتد عام 1995:

في عام 1929، من أجل استرضاء اليابان، وقعت جمهورية الصين الناشئة والضعيفة، على معاهدة التعاون المشترك الصينية اليابانية، بهدف التركيز على قمع التمرد الشيوعي الداخلي. حيث تنازلت بموجب هذه المعاهدة رسميًّا عن جميع الأراضي الصينية في منشوريا لصالح اليابان، مما حال دون اندلاع حرب شاملة بين الصين واليابان وأوقف طموحات الاتحاد السوفيتي في منشوريا. كانت هذه المعاهدة تتويجًا لمساعي اليابان الإمبريالية على مدار خمسة وثلاثين عامًا. ومع انضمام فورموزا وكوريا ومنشوريا إلى الإمبراطورية ووجود الصين المتعاونة ضمن مجال نفوذها، حصلت اليابان على موارد طبيعية ضخمة، وعمالة رخيصة، وأسواق محتملة تضم مئات الملايين لبيع منتجاتها المصنعة.

ودوليًّا، أعلنت اليابان أنها ستواصل صعودها كقوة عظمى من حينها فصاعدًا بوسائل سلمية. ومع ذلك، كانت القوى الغربية، بقيادة بريطانيا والولايات المتحدة، متشككة في نوايا اليابان. وكانوا يشعرون بقلق شديد من أيديولوجية اليابان الاستعمارية المسماة مجال الازدهار المشترك لشرق آسيا الكبرى، والتي بدت كنسخة يابانية من مبدأ مونرو[1]، وأشارت إلى رغبتها في طرد النفوذ الأوروبي والأمريكي من آسيا.

وقبل أن تتمكن القوى الغربية من التوصل إلى خطة لاحتواء وتطويق الصعود السلمي لليابان، ضرب الكساد العظيم العالم. واغتنم الإمبراطور هيروهيتو تلك الفرصة بذكاء واقترح رؤيته على الرئيس الأمريكي هربرت هوفر بإنشاء نفق المحيط الهادئ كحل للأزمة الاقتصادية العالمية.

كان العمل شاقًّا وخطيرًا. وكل يوم كان يتعرض الرجال للإصابات وأحيانًا للموت. كما أن الجو كان شديد الحرارة. في الأقسام المكتملة، ركبوا آلات لتبريد الهواء. ولكن في أكثر أجزاء النفق تقدمًا، حيث كانت تحدث عمليات الحفر الفعلية، كنا معرضين لحرارة الأرض، ونعمل ونحن نرتدي ملابسنا الداخلية فقط، ونتعرق بلا توقف. كانت فرق العمل مقسمة حسب العرق، فكان هناك كوريون وفورموزيون وأوكيناويون وفلبينيون وصينيون مقسمون مرة أخرى حسب اللهجات المحلية، لكن بعد فترة، بدونا جميعًا متشابهين، مكتسين بالعرق والغبار والطين، ودوائر بيضاء صغيرة من الجلد حول أعيننا.

(1) كلمة المترجمة: مبدأ مونرو هو سياسة أعلنها الرئيس الأمريكي جيمس مونرو في عام 1823، وكان يهدف إلى منع التدخل الأوروبي في شؤون الأمريكتين. نص المبدأ على أن أي محاولات من قبل القوى الأوروبية للتدخل أو استعمار أراضٍ في نصف الكرة الغربي ستعتبر تهديدًا للأمن الأمريكي، وأن الولايات المتحدة ستبقى محايدة في الصراعات الأوروبية. كان المبدأ جزءًا من سياسة العزلة الأمريكية التي سعت إلى تجنب الانخراط في الحروب والصراعات الخارجية في أوروبا، وتركيز اهتمامها على القارة الأمريكية.

لم أستغرق وقتًا طويلًا لأعتد العيش تحت الأرض، وضجيج الديناميت المستمر، والمثاقب الهيدروليكية، ومضخات الهواء البارد التي تعمل بشكل دوري، والضوء الأصفر الخافت الوامض للمصابيح القوسية. حتى عندما كان يحين وقت النوم، تكون الوردية التالية قد بدأت العمل بالفعل. وصار الجميع يعانون من ضعف السمع بعد فترة، وتوقفنا عن التحدث مع بعضنا البعض. فلم يكن هناك ما يُقال على أي حال، لم نفعل سوى المزيد من الحفر.

لكن أجورنا كانت مناسبة، وادخرت المال وأرسلت منه إلى أهلي في الديار. ومع ذلك، لم أكن أتحمل تكلفة زيارتهم. ففي الوقت الذي بدأت العمل فيه، كانت مقدمة النفق قد صارت بالفعل في منتصف الطريق بين شنجهاي وطوكيو. وكانوا يتقاضون منا أجر شهر كامل إذا أردنا ركوب القطار البخاري الذي ينقل مخلفات الحفر إلى شنجهاي ومن ثم إلى سطح البحر. لم أستطع تحمل تكلفة مثل هذه الرفاهيات. ومع تقدمنا، صارت رحلة العودة أطول مسافة وأكبر تكلفة.

كان من الأفضل ألا نسرف في التفكير فيما كنا نفعل، في أميال الماء التي فوق رؤوسنا، وفي حقيقة أننا كنا نحفر نفقًا عبر قشرة الأرض للوصول إلى أمريكا. وقد أصيب بالفعل بعض الرجال بالجنون تحت وطأة هذه الظروف، وكان يجب تقييدهم كي لا يؤذون أنفسهم أو الآخرين.

من «تاريخ موجز لنفق عبر المحيط الهادئ»، منشور بواسطة هيئة نقل النفق عبر المحيط الهادئ عام 1960:

ادعى أوساكي هاماجوتشي، رئيس وزراء اليابان خلال الكساد العظيم، أن الإمبراطور هيروهيتو استلهم فكرة النفق عبر المحيط الهادئ من الجهود الأمريكية في بناء قناة بنما. وأُفترض أن الإمبراطور قال: «لقد ربطت أمريكا محيطين، والآن دعونا نربط قارتين». وقد دعم الرئيس هوفر، الذي تدرب على الهندسة، المشروع وسانده بحماس كعلاج للكساد الاقتصادي العالمي.

إن النفق، بلا شك، هو أعظم مشروع هندسي ابتكره الإنسان. إن حجمه الهائل يجعل من الأهرامات الكبرى وسور

الصين العظيم تبدو كألعاب بسيطة، وقد وصفه العديد من النقاد في ذلك الوقت بأنه جنون متعجرف، مشابه لقصة برج بابل الحديث[1] في الكتاب المقدس.

ورغم أن الأنابيب والهواء المضغوط يستخدمان لنقل الوثائق والطرود الصغيرة منذ العصر الفيكتوري، لم يُجرب نقل البضائع الثقيلة والركاب عبر أنابيب هوائية قبل النفق إلا في بعض البرامج التجريبية لمترو الأنفاق داخل المدن. وبالتالي، فقد تسببت المتطلبات الهندسية الاستثنائية للنفق في العديد من التقدمات التكنولوجية، وغالبًا ما كانت تتجاوز التقنيات الأساسية المعنية، مثل المتفجرات الموجهة لحفر الأنفاق بسرعة. فعلى سبيل المثال، وظفوا الآلاف من الشابات المحاسبات لإجراء الحسابات الهندسية في بداية المشروع، ولكن بحلول نهاية المشروع، حلت أجهزة الكمبيوتر محلهن.

وبشكل عام، استغرق بناء النفق الذي يبلغ طوله 5,880 ميل عشر سنوات بين عامي 1929 و1938. عمل نحو سبعة ملايين رجل على المشروع، حيث قدمت اليابان والولايات المتحدة الجزء الأكبر من العمال. وإجمالًا، بلغت نسبة الرجال الذين يعملون في بناء النفق واحد من كل عشرة عمال في الولايات المتحدة الأمريكية. واسُتخرجت أكثر من ثلاثة عشر مليار ياردة مكعبة من المواد المزالة من الحفر، وهو ما يعادل خمسين ضعف الكمية التي أُزيلت خلال بناء قناة بنما، واستخدمت هذه المواد المزالة لتوسيع السواحل في الصين وجزر اليابان الأصلية وخليج بوجيت ساوند.

(1) كلمة المترجمة: في القصة، كان برج بابل مشروعًا خياليًا فشل في النهاية، حيث حاول الناس بناء برج يصل إلى السماء متحدين القدرة الإلهية. كان المشروع عملًا من الغطرسة البشرية والغرور، مما أدى إلى الفوضى والفشل.

بعد ذلك، استلقينا على السرير المنخفض وتشابكت أيدينا وأرجلنا. في الظلام، استطعت سماع دقات قلبها، وشممت رائحة أجسادنا المحمومة وعرقنا، والتي كانت غريبة في تلك الشقة، ولكنها مريحة.

حكت لي عن ابنها الذي كان لا يزال يذهب إلى الجامعة في أمريكا. وإنه سافر مع أصدقائه في الولايات الجنوبية من أمريكا، واستقلوا الحافلات معًا.

قالت: «بعض أصدقائه من الزنوج».

لقد عرفت في حياتي بعض الزنوج. كان لديهم منطقتهم الخاصة في القسم الأمريكي من المدينة، حيث يبقون أغلب الوقت منعزلين. وكانت بعض العائلات اليابانية توظف نساءهم للطهي وتحضير الوجبات الغربية.

قلت لها: «أتمنى أن يستمتع بوقته».

فوجئت بردة فعلي. واستدارت لتنظر لي، وقالت وهي تضحك: «أحيانًا أنسى أنك لا تستطيع فهم هذه الأمور».

قالت بعد أن اعتدلت في جلستها في السرير الأرضي: «في أمريكا، الزنوج والبيض منقسمون: في مكان معيشتهم، وفي مكان عملهم، وأيضًا في المدارس التي يذهبون إليها».

أومأت برأسي متفهمًا ما قالته. بدا ذلك مألوفًا. فهناك، في القسم الياباني من المدينة، تظل الأعراق أيضًا منقسمة. هناك أعراق عليا وأخرى دنيا. على سبيل المثال، هناك العديد من المطاعم والنوادي المخصصة فقط لليابانيين.

قالت: «القانون يقول إن البيض والزنوج يمكنهم ركوب الحافلة معًا، لكن سر أمريكا هو أن هذا القانون لا يُحترم في مناطق كثيرة من البلاد. يريد ابني وأصدقاؤه تغيير ذلك. فيركبون الحافلات معًا ليعلنوا موقفهم، ليجعلوا الناس يلاحظون هذا السر. ويستقلون وسائل نقل لا يرغب الناس فيها برؤية الزنوج جالسين في مقاعد مخصصة فقط للبيض. قد تصل الأمور إلى العنف وتصير خطيرة عندما يغضب الناس ويتشكل حشد غاضب».

يبدو هذا أحمق للغاية: أن تعلن عن آراء لا يرغب أحد في سماعها، أن تتحدث عندما يكون الصمت أفضل. ما الفرق الذي سيحدثه بضعة أولاد يركبون حافلة؟

قالت وصوتها ممتلئ بالفخر، وكم بدت جميلة وهي فخورة: «لا أعلم إذا كان ذلك سيحدث فرقًا أو سيغير آراء الناس. لكن لا يهم. يكفيني أنه يتحدث، وأنه لا يلتزم الصمت. إنه يُصعِّب إخفاء السر، وهذا شيء مهم».

ظللت أفكر في كلمات بيتي. إن الأمريكيين مغرمون بالكلام، بالتعبير عن آرائهم حتى عن الأشياء التي لا يعرفونها حق المعرفة. ولديهم إيمان بأن عليهم أن يُظهروا كل ما قد يُفضل البعض تركه في الظل، ليُنسى أو يُغض الطرف عنه.

لكنني لم أستطع تجاهل الصورة التي نسجتها بيتي في مخيلتي: فتى يقف في الظلام والصمت، وينطق بكلمات تطفو مثل فقاعة، وتنفجر فتجعل العالم أكثر سطوعًا، وأقل اختناقًا بالصمت.

قرأت في الصحف أن اليابان تناقش إمكانية منح سكان جزيرة فورموزا ومانشوريا مقاعد في البرلمان الإمبراطوري. وبالرغم من مواصلة بريطانيا القتال ضد الثوار في مستعمراتها بأفريقيا والهند، قد تُجبر قريبًا على منحهم الاستقلال. يبدو أن العالم يتغير فعلًا.

سألتني بيتي وهي تمسح العرق عن جبيني: «ماذا بك؟»، وابتعدت قليلًا لتسمح بوصول بعض الهواء البارد من المكيف إلي، فارتجفت. كان الليل قد حل، وكانت أضواء المصابيح القوسية في الخارج لا تزال مطفأة. أضافت بيتي بهمس: «هل أزعجك كابوس آخر؟».

لقد قضينا العديد من الليالي معًا بعد تلك الليلة الأولى. لقد قلبت بيتي روتيني اليومي رأسًا على عقب، لكنني لم أمانع على الإطلاق. فقد كان ذلك روتين رجل على وشك الموت. جعلتني بيتي أشعر بأنني حي بعد كل تلك السنوات التي قضيتها تحت المحيط، وحيدًا في الظلام والصمت.

لكن وجودها بجانبي حرر بداخلي شيئًا ظل مكبوتًا لسنوات، وتساقطت الذكريات من عقلي، واحدة تلو الأخرى.

حين كنا في النفق، كانت هناك نساء للمتعة من كوريا، لمن لم يستطع كبح شهواته من العمال. كن يأخذن أجر يوم عمل بأكمله مقابل اللقاء.

لقد جربت ذلك مرة واحدة فقط. وكان الأمر قذرًا للغاية، كانت الفتاة مثل جثة هامدة، ساكنة بلا حراك، ولم أعد بعدها لتكرار تلك التجربة.

سمعت من أحد أصدقائي لاحقًا إن بعض تلك الفتيات لم يأتين إلى هناك طواعية، بل اشتراهن الجيش الإمبراطوري. لعل تلك الفتاة التي قابلتها واحدة منهن. لم أشعر بالشفقة تجاهها، ربما لأنني كنت مثقلًا بالتعب.

من «دليل الجاهل لتاريخ أمريكا» عام 1995:

حين كان الجميع يفقدون وظائفهم ويصطفون للحصول على الحساء والخبز، جاءت اليابان وقالت: «مرحبًا، أمريكا، لماذا لا نبني نفقًا ضخمًا ونتكلف الكثير من المال ونوظف الكثير من العمال ونُعيد الاقتصاد إلى مساره؟ ما رأيكم؟». وقد نجحت الفكرة بشكل كبير، فكان الجميع يصيحون: «دومو أريجاتو، يا يابان!». شكرًا جزيلًا يا يابان.

عندما تأتي بفكرة ذكية كهذه، فإنك تحصل على بعض المميزات التي يمكنك استغلالها. وهذا ما فعلته اليابان في العام التالي، عام 1930. في مؤتمر لندن البحري، حيث حدد المتنمرون الكبار، يا إلهي، أقصد القوى العظمى، عدد البوارج وحاملات الطائرات التي يسمح لكل دولة ببنائها، طالبت اليابان بأن يُسمح لها ببناء عدد السفن نفسه مثل الولايات المتحدة وبريطانيا. ووافقت الولايات المتحدة وبريطانيا[1]*.*

هذا التنازل الذي قدمته اليابان كان له أثر كبير. تذكروا هاماجوتشي، رئيس وزراء اليابان، وكيف كان يتحدث باستمرار عن صعود اليابان «بسلام» من حينها فصاعدًا؟ لقد أغضب هذا الأمر العسكريين والقوميين في اليابان، حيث كانوا يعتقدون أن هاماجوتشي يبيع البلاد. ولكن عندما عاد هاماجوتشي إلى بلاده بتحقيق نصر دبلوماسي مثير للإعجاب، رحبوا به كبطل، وبدأ الناس يصدقون أن سياسة الصعود السلمي التي يتبناها

(1) معاهدة واشنطن البحرية لعام 1922 حددت نسبة السفن الحربية الرئيسية بين الولايات المتحدة وبريطانيا واليابان بنسبة 5:5:3. عدلوا هذه النسبة لليابان في عام 1930.

ستجعل اليابان قوية. وبدؤوا يعتقدون أنه ربما يستطيع حقًّا أن يجعل القوى الغربية تعامل اليابان كندٍ لها دون أن يحولوا اليابان إلى معسكر عسكري ضخم. ونتيجة لذلك، حصل العسكريون والقوميون على دعم أقل بعد ذلك.

في هذا المؤتمر الهزلي، مؤتمر لندن البحري، ألغى المتنمرون الكبار أيضًا جميع البنود المُهينة في معاهدة فرساي التي جعلت ألمانيا بلا قوة. وكان لكل من بريطانيا واليابان أسبابها الخاصة لدعم ذلك: فقد اعتقدتا أن ألمانيا تفضل إحداهما على الأخرى وستنضم كحليف إذا اندلع صراع عالمي على المستعمرات الآسيوية في يوم من الأيام. وكان الجميع حذرين من السوفييت أيضًا، وأرادوا استخدام ألمانيا كدرع واقية ضد الاتحاد السوفييتي.[1]

أشياء للتفكير فيها أثناء الاستحمام:

1. يصف العديد من الاقتصاديين النفق بأنه أول مشروع حقيقي للتحفيز الاقتصادي على الطريقة الكينزية[2]، حيث ساهم في تقصير مدة الكساد الكبير.

---

(1) السماح لألمانيا بإعادة التسلح جعل الحكومة الألمانية تتنفس الصعداء. فقد أثارت معاهدة فرساي القاسية، وخاصة البنود المتعلقة بتجريد ألمانيا من أسلحتها، غضب الكثير من الألمان، مما دفع بعض الأفراد للانضمام إلى عصابة من النازيين الذين يمشون بخطوات مستقيمة ويرفعون أرجلهم بشكل موازٍ للأرض ويثيرون الرعب في الجميع، بما في ذلك الحكومة، ويسمون أنفسهم الحزب الاشتراكي الوطني الألماني. وبعد إلغاء تلك البنود من المعاهدة، لم يحصل أفراد العصابة على أي دعم انتخابي في الانتخابات التالية في عام 1930، وتلاشوا. بل في الواقع، صاروا الآن مجرد هامش تاريخي، مثل هذا تمامًا.

(2) كلمة المترجمة: الطريقة الكينزية هي نظرية اقتصادية تعود إلى الاقتصادي البريطاني جون ماينارد كينز، ظهرت خلال فترة الكساد الكبير في ثلاثينيات القرن العشرين. تدعو هذه النظرية إلى تدخل الدولة في الاقتصاد من خلال زيادة الإنفاق الحكومي والاستثمار لتحفيز الطلب الكلي وتحقيق النمو الاقتصادي، خاصة خلال فترات الركود. كينز اعتقد أن السوق وحده قد لا يتمكن دائمًا من تحقيق التوازن اللازم للاقتصاد، لذلك يقترح زيادة الإنفاق الحكومي كوسيلة لدعم التوظيف والإنتاج والاستقرار الاقتصادي.

2. *ربما كان المعجب الأكبر بالنفق هو الرئيس هوفر: لقد فاز بأربع فترات رئاسية غير مسبوقة بسبب نجاح هذا المشروع.*
3. *نحن الآن نعلم أن الجيش الياباني انتهك حقوق الكثير من العمال أثناء بناء النفق، لكن استغرق الأمر عقودًا لتظهر الحقائق. تشير المراجع إلى وجود بعض الكتب التي تتناول هذا الموضوع.*
4. *أدى النفق في النهاية إلى سحب الكثير من العمال بعيدًا عن الشحن عبر السفن البحرية، كما أفلست العديد من الموانئ في المحيط الهادئ. وكان المثال الأكثر شهرة لذلك قد حدث في عام 1949، عندما باعت بريطانيا هونج كونج لليابان لأن المدينة الساحلية لم تعد ذات أهمية كبيرة.*
5. *تبين أن الحرب العظمى من عام 1914 إلى عام 1918، كانت آخر حرب ساخنة عالمية في القرن العشرين (حتى الآن). هل نصير جبناء؟ من يريد أن يبدأ حربًا عالمية جديدة؟*

بعد الانتهاء من العمل الرئيسي على النفق في العام الثالث عشر من عهد شوا، عام 1938، عدت إلى دياري لأول وآخر مرة بعد أن غادرتها قبل ثماني سنوات. اشتريت مقعدًا بجانب النافذة في القطار الكبسولي المتجه غربًا من محطة ميدبوينت، في الدرجة الاقتصادية. كانت الرحلة سلسة ومريحة، والكبسولة هادئة باستثناء همسات الركاب الآخرين وصوت الهواء الخافت أثناء دفعنا للأمام. كانت المضيفات الشابات يدفعن عربات المشروبات والطعام في الممرات.

اشترت بعض الشركات الذكية مساحة إعلانية على طول الجدران الداخلية للأنبوب ورسمت صورًا على النوافذ. ومع تحرك الكبسولة، تداخلت الصور

التي تتحرك بسرعة كبيرة جدًّا عبر النوافذ بمقدار بضعة سنتيمترات في كل مرة، مثل فيلم صامت. كانت أعيننا مسحورة بهذا التأثير المبتكر.

وشعرت بالرهبة وأنا أستقل المصعد إلى سطح البحر في شنجهاي، وتألمت أذناي من تغييرات الضغط. ثم كان علي ركوب قارب لأتجه إلى فورموزا.

وعندما وصلت كدت لا أتعرف على دياري. أما أموالي التي كنت أرسلها لعائلتي، فبنى بها والداي منزلًا جديدًا واشتروا المزيد من الأراضي. وصارت عائلتي غنية، وقريتي مدينة مزدهرة. وجدت صعوبة في التحدث مع إخوتي ووالدي. فقد ابتعدت عنهم جدًّا لدرجة أنني لم أفهم الكثير عن حياتهم، ولم أستطع أن أشرح لهم شعوري. فأنا لم أكن أدرك مدى التصلب والخدر الذي أصابني بسبب تجربتي، والأشياء التي رأيتها لم أستطع التحدث عنها. فبشكل ما، شعرت أنني صرت سلحفاة، مع قوقعة حولي تمنعني من الشعور بأي شيء.

لقد كتب لي والدي ليطلب مني العودة إلى المنزل، فقد حان الوقت البحث عن زوجة منذ زمن. وبما أنني عملت بجد، وحافظت على صحتي، ولزمت الصمت -قد ساعدني أيضًا أنني فورموزي، لذا فقد كنت أُعتبر أعلى مرتبة من بقية الأجناس ما عدا اليابانيين والكوريين- فقد رقوني تدريجيًّا حتى صرت قائد طاقم ثم مشرفًا على إحدى الورديات. وكان لدي المال، وإذا استقريت في مسقط رأسي، فسأوفر لعائلتي المحتملة حياة كريمة.

لكنني لم أعد أستطيع تخيل الحياة فوق الأرض. فقد مضى وقت طويل منذ رأيت ضوء الشمس الساطع لدرجة أنني شعرت كأنني مولود جديد عندما خرجت للهواء الطلق. كان كل شيء هادئًا للغاية. وكان الجميع يفاجؤون عندما أتحدث لأنني اعتدت الصراخ. وكانت السماء والمباني العالية تصيبني بالدوار، فقد ألفت البقاء تحت الأرض، تحت البحر، وفي الأماكن الضيقة والمغلقة، لدرجة أنني كنت أشعر بالاختناق إذا نظرت للأعلى.

عبرت عن رغبتي في البقاء تحت الأرض والعمل في إحدى مدن المحطات المنتشرة كخواتم اللؤلؤ على طول النفق. اكفهرت وجوه آباء الفتيات عند سماع هذه الفكرة. لم ألمهم: فمن يريد لابنته أن تقضي بقية حياتها تحت الأرض، وألا ترى ضوء النهار أبدًا؟ كان الآباء يهمسون لبعضهم بأنني فقدت عقلي.

ودعت عائلتي للمرة الأخيرة، ولم أشعر أنني عدت إلى دياري إلا عندما عدت مجددًا لمحطة ميديوينت، حيث الدفء وضجيج قلب الأرض من حولي، حيث قوقعتي الآمنة. وعندما رأيت الجنود على رصيف المحطة، علمت أن العالم عاد أخيرًا إلى طبيعته. ظل هناك مزيد من العمل لإتمامه لتوسيع الأنفاق الجانبية إلى مدينة ميدبوينت.

قالت بيتي: «جنود، لماذا كان هناك جنود في مدينة ميدبوينت؟».

وقفت في الظلام والصمت. لا أستطيع أن أسمع أو أرى. تدافعت الكلمات في حلقي، مثل فيضان يوشك على اختراق السد. لقد كبت كلماتي لفترة طويلة، طويلة جدًا.

قلت لها: «كانوا هناك لمنع الصحفيين من التطفل في المكان».

أخبرت بيتي عن سري، عن سر كوابيسي، عن شيء لم أتحدث عنه طوال سنوات.

مع انتعاش الاقتصاد، ارتفعت تكاليف العمالة. وقل عدد الشبان اليائسين شيئًا فشيئًا الذين يقبلون بالعمل حفارين في النفق. وتباطأ التقدم في الجانب الأمريكي لعدة سنوات، ولم تكن اليابان أفضل حالًا. حتى الصين بدا كأنها نفد منها عدد الفلاحين الفقراء الذين كانوا يرغبون في هذا العمل.

حتى اقترح هيديكي توجو، وزير الجيش حلًّا. فقد أدت جهود الجيش الإمبراطوري إلى قمع المتمردين الشيوعيين المدعومين من الاتحاد السوفيتي في منشوريا والصين إلى وجود العديد من الأسرى. لذا قرروا استخدامهم للعمل مجانًا.

جلبوا الأسرى إلى النفق ليحلوا محل فرق العمل العادية. وكمشرف وردية، كنت أتحكم بهم بمساعدة مجموعة من الجنود. لقد كان الأسرى في حالة يرثى لها، مكبلين معًا، وعراة، ونحيفين مثل الفزاعات. لم يبد أنهم لصوصًا شيوعيين خطرين وماكرين. كنت أتعجب أحيانًا من كثرة عدد الأسرى؛ استمرت الأخبار في قول إن السيطرة على الشيوعيين تسير بشكل جيد وإن الشيوعيين لم يشكلوا تهديدًا كبيرًا.

عادة كانوا لا يصمدون لوقت طويل. وعندما كان يُكتشف أن أحد الأسرى قد توفي نتيجة العمل، كانوا يحررون جثته من القيود ويطلق أحد الجنود الرصاص عدة مرات. وكنا نبلغ عن الوفاة كحادثة محاولة هرب.

وللتستر على مشاركة العمال العبيد، أبقينا الصحفيين الزائرين بعيدًا عن العمل في النفق الرئيسي. وكانوا يوجهونهم إلى مواقع الحفر الجانبية، مثل محطات القطار ومحطات الطاقة، والتي كانت تعتبر مناطق عمل أقل استقرارًا وأكثر عرضة للمخاطر.

ذات مرة، وأثناء حفرنا لنفق جانبي لمحطة طاقة، اخترقت فرق العمل منطقة معزولة غير مكتشفة من الوحل والماء، وبدأ النفق الجانبي في الغرق. كان علينا سد الفجوة بسرعة قبل أن يغرق النفق الرئيسي. لذا أيقظت أطقم العمل من الورديات الأخرى وأرسلت طاقمًا آخر من الأسرى المكبلين إلى النفق الجانبي مع أكياس الرمل للمساعدة في سد الفجوة.

سألني العريف المسؤول عن فرقة الجنود التي تحرس الأسرى: «ماذا لو لم يتمكنوا من سده؟».

كان مغزى سؤاله واضحًا. لقد كان علينا التأكد من أن المياه لن تصل إلى النفق الرئيسي، حتى لو فشلت فرق الإصلاح التي أرسلناها. ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة للتأكد، ومع تدفق المياه في النفق الجانبي، كان الوقت ينفد.

أمرت الفريق الاحتياطي الذي تركته خلفي ببدء وضع الديناميت حول النفق الجانبي، خلف الرجال الذين أرسلناهم في وقت سابق. لم يرق لي ذلك، لكنني قلت لنفسي إنهم إرهابيون شيوعيون متطرفون، وعلى الأرجح أن مصيرهم الإعدام لا محالة.

تردد الأسرى. وفهموا ما كنا نحاول فعله ولم يرغبوا في تنفيذه. عمل بعضهم ببطء، فيما وقف آخرون في أماكنهم.

أمر العريف بإطلاق الرصاص على أحد الأسرى لتحفيز البقية، وذلك ما دفعهم للإسراع.

فجرت العبوات الناسفة، وانهار النفق الجانبي، وامتلأ مدخل النفق بالحطام والصخور المتساقطة، لكن بقي هناك بعض المساحة في الأعلى. أمرت بعض الأسرى المتبقين بتسلق الحطام وسد الفجوة. حتى أنا تسلقتها معهم لمساعدتهم.

أدرك الأسرى الذين أرسلناهم في البداية ما كان يحدث عند سماعهم صوت الانفجار. وحاول الأسرى المقيدون العودة، وهم يتخبطون في المياه

المتصاعدة والظلام، متوسلين إلينا لنسمح لهم بالمرور. كانوا يسحبون الجثث الميتة معهم بسلاسلهم، ويتسلقون كومة الأنقاض باتجاهنا.

كان الرجل الذي في مقدمة السلسلة على بعد بضعة أمتار منا، لقد رأيت وجهه متشنجًا من الخوف في مخروط الضوء الضيق التي ألقته الفتحة الصغيرة المتبقية.

قال لي: «أرجوك، أرجوك دعني أمر. لقد سرقت بعض المال فقط. لا أستحق أن أموت».

تحدث إلي بلكنة هوكنية، لغتي الأم. وقد دهشت من ذلك. هل كان مجرد مجرم عادي من دياري في فورموزا وليس شيوعيًّا صينيًّا من منشوريا؟

وصل إلى الفتحة وبدأ بإبعاد الصخور، ليُوسع الفجوة ويحاول العبور. صاح العريف بي لأمنعه. فقد بدأ مستوى المياه يرتفع. خلف الرجل، كان الأسرى الآخرون المسلسلون يصعدون لمساعدته.

رفعت صخرة ثقيلة كانت بجانبي وضربت بها يد الرجل المتعلق بالفجوة. صرخ وسقط، ساحبًا بقية الأسرى معه. وسمعت صوت ارتطامهم بالمياه.

أمرت الأسرى الذين كانوا على جانبنا من النفق المنهار: «أسرعوا، أسرعوا!». أغلقنا الفجوة، ثم تراجعنا لنضع المزيد من الديناميت ونفجر المزيد من الصخور لتثبيت السد.

وعندما انتهى العمل أخيرًا، أمر العريف بإطلاق الرصاص على جميع الأسرى المتبقين، ودفنًّا جثثهم تحت المزيد من الأنقاض المتفجرة.

كان هناك انتفاضة مهولة بين الأسرى. الذين حاولوا تخريب المشروع، لكنهم فشلوا وانتهى بهم الأمر إلى قتل أنفسهم.

كان هذا هو تقرير العريف عن الحادثة، ووقعت عليه باسمي أيضًا. وكان الجميع يعلمون أن هذا هو الأسلوب المتبع في كتابة هذه التقارير.

أتذكر جيدًا وجه الرجل الذي توسل إلي لأتوقف وأساعده، ذلك هو الوجه الذي رأيته في كابوس الليلة الماضية.

كان الميدان مهجورًا قبيل الفجر. وتتدلت فوقنا لافتات إعلانات نيونية من سقف المدينة، على ارتفاع بضع مئات من الأمتار. حلت محل القمر والكوكبات المنسية منذ زمن بعيد.

أبقت بيتي عينيها مراقبة لأي مارة غير محتملين بينما كنت أطرق المطرقة على الإزميل. البرونز مادة صلبة بالتأكيد، لكنني لم أفقد المهارات القديمة التي تعلمتها كعامل حفر. وبالفعل نجحت في أن أمحي حروف اسمي من اللوحة، تاركة وراءها مستطيلًا ناعمًا.

استخدمت إزميلا أصغر وبدأت في النحت. نحت تصميمًا بسيطًا: ثلاثة أشكال بيضاوية متشابكة، كالسلسلة. هذه هي الروابط التي ربطت قارتين وثلاث مدن عظيمة معًا، وهي أيضًا الأغلال التي قيدت رجالًا أسكتت أصواتهم إلى الأبد، ونُسيت أسماؤهم. هنا يوجد الجمال والدهشة، وكذلك الرعب والموت.

ومع كل ضربة من المطرقة، كنت أشعر وكأنني أكسر القوقعة التي حولي، وحالة الخدر، والصمت.

صعِّب إخفاء السر. هذا شيء مهم.

قالت بيتي: «أسرع».

صارت الرؤية ضبابية في عيني. وفجأة أضيئت الأنوار التي حول الميدان. لقد جاء الصباح تحت المحيط الهادئ.

سيد التقاضي وملك القردة

كان هناك كوخ الصغير يقع في أطراف قرية سانلي، بعيدًا عن بيوت القرويين الصاخبة ومعابد العشائر المزدحمة، ومجاورًا للبركة الباردة الممتلئة بأوراق الزنابق وأزهار اللوتس الوردية وأسماك الشبوط المرحة، وكان يصلح أن يكون ملاذًا صيفيًّا رومانسيًّا مثاليًّا لشاعر فاسق وعشيقته الملتفة بالحرير من مدينة يانج جو القريبة المكتظة.

في الواقع، كان امتلاك منزل ريفي كهذا موضة بين طبقة الأدباء المثقفين في منطقة نهر اليانجتسي السفلى في العقد الثاني من الحُكم المجيد للإمبراطور تشيان لونج. واتفق الجميع -في أثناء زيارتهم لبعضهم في منازلهم الصيفية وشربهم الشاي- على أنه أفضل إمبراطور في عهد سلالة تشينج: فهو حكيم جدًّا، ونشيط جدًّا، ومهتم جدًّا بسلامة رعاياه! وبما أن سلالة تشينج، التي أسسها حكماء المانشو، كانت بلا شك أفضل سلالة حكمت الصين، فقد تنافس الأدباء في تأليف القصائد التي تُظهر امتنانهم لحظهم الذي أتاح لهم أن يكونوا شهودًا على هذا العصر الذهبي، وهدية أعظم إمبراطور على مدار العصور.

للأسف، سيشعر أي أديب مهتم بهذا الكوخ بخيبة أمل، فقد كان مهترئًا للغاية. وقد تُرك بستان البامبو المحيط به دون تشذيب أو اعتناء، كما كانت جدرانه الخشبية ملتوية، ومتعفنة، وممتلئة بالثقوب، وتآكل القش الذي فوق سقفه وصار غير متساوٍ، وبرزت الطبقات القديمة من خلال الثقوب التي في الطبقات الأحدث ...

... ولم يكن ذلك مختلفًا كثيرًا عن صاحب الكوخ وساكنه الوحيد، تيان هاولي. فقد كان تيان في الخمسينيات من عمره، لكن مظهره أوحى أنه أكبر

من ذلك بعشر سنوات. وكان نحيلًا، وشاحب البشرة، وذيل جديلته رفيعًا مثل ذيل الخنزير، وغالبًا ما فاحت رائحة أنفاسه بأرخص أنواع نبيذ الأرز وحتى أرخص أنواع الشاي. إضافة إلى الحادث الذي أدى لإصابته بعرج في ساقه اليمنى عندما كان شابًّا، لكنه كان يفضل أن يجر رجله ببطء بدلًا من استخدام عصا. كما كان رداؤه مرقعًا بالكامل، ورغم ذلك ظل ثوبه الداخلي يظهر من خلال ثقوب ثوبه التي لا تعد ولا تحصى.

وعلى عكس معظم سكان القرية، كان تيان يعرف القراءة والكتابة، لكن بحسب ما يعرفه الناس، فهو لم يجتز أي مستوى في الامتحانات الإمبراطورية. ولكن من حين لآخر، كان يكتب رسالة لإحدى العائلات أو يقرأ إشعارًا رسميًّا في مقهى الشاي مقابل نصف دجاجة أو وعاء من الزلابية.

لكن لم يكن هذا مصدر رزقه الحقيقي.

بدأ الصباح كأي صباح آخر. ومع شروق الشمس ببطء، تلاشى الضباب الذي كان يحوم فوق البركة كحبر يذوب. وشيئًا فشيئًا، ظهرت أزهار اللوتس الوردية، وسيقان البامبو الخضراء الكهرمانية، وسقف الكوخ الذهبي من بين الضباب.

طُرق الباب.

تحرك تيان لكنه لم يستيقظ. فقد أقام ملك القردة وليمة، وكان تيان على وشك أن يأكل حتى يشبع.

منذ كان صغيرًا، كان تيان مفتونًا بمغامرات ملك القردة، الشيطان المحتال الذي امتلك قدرة التحول إلى اثنين وسبعين شكلًا مختلفًا وقاتل مئات الوحوش، وهز عرش حاكم السماوات إمبراطور اليشم بجنوده القردة. وكان ملك القردة يحب الطعام اللذيذ ويعشق النبيذ الفاخر، وهي أشياء ضرورية لدى أي مضيف لائق.

طُرق الباب.

تجاهل تيان الطرق على الباب. فقد كان على وشك أن يقضم قطعة من دجاج مُخمر جمع بين النكهة الحلوة والمرة والمالحة وغُمس في أربع صلصات شهية مختلفة.

سأله قرد: «ألن ترى من الطارق؟».

عندما كبر تيان، صار ملك القردة يزوره في أحلامه، وحتى إذا كان مستيقظًا، ظل يتحدث إليه في رأسه. وفي حين كان الآخرون يُصلُّون إلى إلهة الرحمة أو بوذا، كان تيان يستمتع بالتحدث إلى ملك القردة، الذي شعر بأنه شيطان يشبهه في الروح.

قال تيان: «أيًّا كان الزائر، يمكنه الانتظار».

قال قرد: «أظن أن لديك زبونًا».

طُرق الباب مرارًا.

أدى الطرق المُلِّح إلى اختفاء دجاجة تيان فجأة وانتهاء حلمه. وسمع صوت قرقرة بطنه، فألقى السباب وهو يفرك عينيه.

قال تيان: «لحظة واحدة!»، وتعثر وهو ينزل من السرير ويحاول بصعوبة ارتداء ردائه، تمتم لنفسه: «لماذا لا يستطيعون الانتظار حتى أفيق تمامًا وأتبول وأتناول طعامي؟ هؤلاء الحمقى الجهلاء يزدادون غباء. يجب أن أطالب بدجاجة كاملة في المرة المقبلة ... لقد كان حلمًا جميلًا ...».

قال قرد: «سأحتفظ لك ببعض نبيذ البرقوق».

- من الأفضل أن تفعل ذلك.

فتح تيان الباب. كانت لي شياوي، وهي امرأة خجولة جدًّا لدرجة أنها هي من يعتذر إذا اصطدم بها طفل شقي، كانت تقف مرتدية ثوبًا أخضر داكنًا، وشعرها مرفوع بطريقة مألوفة لدى الأرامل. كانت قبضتها مرفوعة وكادت أن تصطدم بأنف تيان.

قال تيان: «يا إلهي! أنتِ تدينين لي بأفضل دجاجة مخمرة في يانج جو!». ولكن تعابير وجه لي، التي كانت مزيجًا من اليأس والخوف، غيرت نبرته فقال لها: «تفضلي بالدخول».

أغلق تيان الباب خلف المرأة وصب لها كوبًا من الشاي.

كان الرجال والنساء يذهبون إلى تيان كملاذ أخير، لأنه كان يساعدهم عندما لا يجدون مكانًا آخر يلجؤون إليه، وعندما يواجهون المشكلات مع القانون.

قد يكون الإمبراطور تشيان لونج حكيمًا وعليمًا بكل شيء، لكنه ما زال بحاجة إلى آلاف محاكم دار الحاكم لتسيير شؤون الحكم. وكانت محكمة

دار الحاكم التي يرأسها قاضٍ إداري -له مطلق السلطة على حياة وموت المواطنين الذين تحت ولايته -مكانًا غامضًا ومخيفًا لعامة الناس.

من يعرف أسرار قانون تشينج العظيم؟ من يفهم قوانين الاستئناف وأدلة الإثبات والدفاع وخبايا المرافعات؟ عندما يقضي القاضي أمسياته في حفلات يقيمها النبلاء المحليون، من يمكنه أن يتوقع مجرى قضية يرفعها فقير ضد غني؟ من يستطيع أن يستشف الموظف المناسب لرشوته لتجنب التعذيب؟ من يمكنه أن يستوعب الحجة الصحيحة للحصول على إذن زيارة لأحد السجناء؟

لا أحد، لم يكن أحد يقترب من محاكم دار الحاكم إلا إذا لم يملك خيارًا آخر. فعندما تبحث عن العدالة، فإنك تجازف بكل شيء.

وستحتاج إلى مساعدة رجل مثل تيان هاولي.

بعد أن هدأها الشاي الدافئ، بدأت لي شياوي تحكي قصتها لتيان بجمل متقطعة.

قالت إنها كانت تعاني كي تستطيع إطعام نفسها وابنتيها من ربح قطعة أرض صغيرة. وليتمكنَّ من العيش بعد موسم حصاد سيئ، رهنت أرضها لجاي، ابن عم زوجها المتوفي الثري، الذي وعدها بأنها تستطيع استرداد أرضها في أي وقت، دون فوائد. وبما أن لي لم تكن تعرف القراءة، فقد بصمت بإبهامها على العقد الذي قدمه لها ابن عمها بامتنان.

قالت لي: «قال إن هذا لكي يكون الأمر رسميًّا أمام محصل الضرائب».

قال ملك القردة: «آه، قصة مألوفة».

تنهد تيان وأومأ برأسه.

أكملت لي: «لقد سددت له المال في بداية هذا العام، لكن البارحة جاء جاي إلى بيتي مع مُحضرين من محكمة دار الحاكم. وقال إن علي أنا وابنتيَّ مغادرة المنزل فورًا لأنني لم أسدد أقساط القرض. صُدمت، لكنه أخرج العقد وقال إنني وعدت بسداد المبلغ مضاعفًا في غضون سنة وإلا ستصير الأرض ملكه إلى الأبد. وقال وهو يلوح بالعقد أمام وجهي: 'كل شيء مكتوب هنا بالأحرف السوداء على الورق الأبيض'، وقال موظف تنفيذ الأحكام إنني إذا لم أغادر بحلول الغد، فسيعتقلونني ويبيعونني أنا وابنتيَّ إلى إحدى بيوت

الدعارة لسداد الدين». (ثم قبضت على يديها وأضافت): «لا أعرف كيف أتصرف!».

قال تيان وهو يملأ لها كوب الشاي مجددًا: «علينا أن نذهب إلى المحكمة ونغلبه».

قال ملك القردة: «هل أنت متأكد من هذا؟ أنت لم ترَ العقد حتى».

- اهتم أنت بالولائم، وسأهتم أنا بالقانون.

سألتني لي: «كيف؟ ربما ما يقوله بشأن العقد صحيح حقًّا».

قال تيان: «أنا واثق أنه كذلك. لكن لا تقلقي، سأفكر في حل».

بالنسبة لأولئك الذين لجؤوا إلى تيان للحصول على المساعدة، كان لهم سونجشي، أي سيد التقاضي. أما بالنسبة لقاضي محكمة دار الحاكم والنبلاء المحليين، وللرجال الذين يمتلكون المال والسلطة، كان تيان سونججون، أي محتال التقاضي.

كان العلماء الذين يشربون الشاي والتجار الذين يتحسسون قطع نقودهم الفضية يزدرون تيان لأنه تجرأ على مساعدة الفلاحين الأميين في صياغة الشكاوى، ووضع استراتيجيات قانونية، والاستعداد للشهادة والاستجواب. فوفقًا لكونفوشيوس، لا ينبغي للجيران أن يقاضوا بعضهم. فقد كانت النزاعات مجرد سوء فهم يحتاج إلى تسوية بواسطة رجل كونفوشيوسي متعلم. لكن رجالًا مثل تيان هاولي تجرؤوا على إيهام الفلاحين الماكرين بأن في استطاعتهم جر علية القوم إلى المحكمة، بل وانتهاك التسلسل الهرمي الصحيح للاحترام! فقد نص قانون تشينج العظيم على أن التقاضي بالواسطة، والتحريض على الدعاوى القضائية، والتحايل على القانون، والتلاعب بالقوانين -أو مهما اختلفت التسميات لما يفعله تيان- كانت جرائم.

لكن تيان كان يدرك أن محاكم دار الحاكم هي مجرد جزء من آلة معقدة. مثل طواحين الماء التي تنتشر على نهر اليانجتسي، كانت الآلات المعقدة تحتوي على أنماط، وتروس، ورافعات. يمكن تحريكها ودفعها لتؤدي أغراضًا معينة، بشرط أن تكون ذكيًّا. ورغم كراهية الأدباء والتجار لتيان، فإنهم أحيانًا كانوا يلجؤون إليه أيضًا ويدفعون له المال بسخاء مقابل مساعدته.

قالت لي شياوي: «لا أستطيع أن أدفع لك الكثير من المال».

ضحك تيان وقال: «الأثرياء يدفعون لي أتعابي عندما يستفيدون من خدماتي، لكنهم يحتقرونني بسببها. وفي حالتك، يكفيني أن أرى خسارة ابن عمك الثري هذا».

رافق تيان لي إلى محكمة دار الحاكم. وفي الطريق، مرا بساحة البلدة، حيث كان عدد من الجنود يعلقون ملصقات للرجال المطلوبين للقبض عليهم.

نظرت لي إلى الملصقات وأبطأت خطواتها وقالت: «انتظر، أعتقد أنني قد أعرف ...».

سحبها تيان من يدها وقال لها: «ششش! هل جننتِ؟ هؤلاء ليسوا حراس القاضي، بل هم جنود إمبراطوريون حقيقيون. كيف يمكنك أن تتعرفي على رجل مطلوب القبض عليه من قبل الإمبراطور؟».

قالت لي: «لكن ...».

قاطعها تيان: «أنا متأكد أنك مخطئة. إذا سمعوك، فلن يستطيع أحد مساعدتك ولو كان أفضل سيد تقاضٍ في الصين. لديك ما يكفي من المشكلات. عندما يتعلق الأمر بالسياسة، من الأفضل ألا تريِ أي شر، وألا تسمعي أي شر، وألا تتكلمي بأي شر».

قال ملك القردة: «هذا المبدأ يتبعه الكثير من قردتي، لكنني لا أوافق عليه».

فكر تيان هاولي: «بالطبع لا توافق عليه، أيها المتمرد الأبدي. لكن بإمكانك أن تُنبت رأسًا جديدًا إذا قُطع، وهي رفاهية لا نتمتع بها نحن».

عندما وصلوا أخيرًا إلى محكمة دار الحاكم، التقط تيان العصا وبدأ يقرع طبلة العدالة، ليقدم طلبًا للمحكمة لتستمع إلى شكواه.

وبعد نصف ساعة، وقف القاضي الغاضب يي يحدق في غضب إلى الراكعين على الأرض المرصوفة بالحجارة أسفل المنصة: الأرملة المرتجفة من الخوف، وذلك المشاغب تيان الذي وقف منتصبًا وعلى وجهه تعابير احترام زائفة. كان القاضي يي يأمل في أخذ اليوم عطلة ليستمتع بصحبة فتاة جميلة في أحد بيوت الدعارة، ولكنه وجد نفسه مجبرًا على العمل. وكان يفكر جديًا في إصدار أمر بجلدهما على الفور، لكنه اضطر لضبط نفسه، كي يحافظ على مظهر القاضي المهتم بشؤون الناس، خشية أن يقدم أحد مساعديه الخونة بلاغًا بذلك إلى المفتش القضائي.

قال القاضي، وهو يجز على أسنانه: «ما هي شكواك، أيها الفلاح الماكر؟».

زحف تيان على ركبتيه وانحنى وبدأ يتحدث: «أيها القاضي المبجل» (وتساءل القاضي يي عن كيفية استطاعة تيان أن يجعل العبارة تبدو كإهانة تقريبًا): «الأرملة لي تطلب العدالة، العدالة، العدالة!».

فسأله القاضي: «ولماذا أنت هنا؟».

أجاب تيان: «أنا ابن عم لي شياوي، وأنا هنا لمساعدتها لتخبرك بما حدث لها، لأنها مضطربة بسبب ما تعرضت له».

كان القاضي يي غاضبًا. وهذا المدعو تيان هاولي يدَّعي دائمًا أنه أحد أقارب المدعين لتبرير وجوده في المحكمة وتجنب اتهامه بأنه محتال تقاضي. ضرب القاضي مسطرته من الخشب الصلب، أي رمز سلطته، على الطاولة: «أنت تكذب! كم عدد أبناء عمومتك؟».

قال تيان: «أنا لا أكذب».

فأجابه القاضي: «أنا أحذرك، إذا لم تستطع إثبات هذه القرابة في سجلات معبد عشيرة لي، فسآمر بجلدك أربعين جلدة». كان القاضي يي مسرورًا بنفسه، فقد ظن أنه توصل أخيرًا إلى طريقة للتغلب على سيد التقاضي الماكر هذا. وألقى نظرة ذات مغزى على الحراس الواقفين على جانبي المحكمة، فبدؤوا ينقرون عصيهم على الأرض بإيقاع ثابت، ليؤكدوا على التهديد.

لكن تيان لم يبد قلقًا على الإطلاق.

- أيها القاضي الحكيم، قال كونفوشيوس: «بداخل حدود البحار الأربعة، جميع الناس إخوة». إذا كان جميع الناس إخوة في زمن كونفوشيوس، فمن المنطقي أنني ولي شياوي أقرباء من سلالة أولئك الناس. ومع كل الاحترام، بالتأكيد حضرة القاضي لا يقترح أن سجلات معبد عشيرة لي الجينية أكثر مصداقية من كلمات الحكيم العظيم؟

احمر وجه القاضي يي غضبًا، لكنه لم يستطع التفكير في رد. ليت بإمكانه العثور على أي ذريعة لمعاقبة هذا المحتال ذي اللسان اللاذع، الذي بدا قادرًا دائمًا على تحويل الأسود إلى أبيض والصواب إلى خطأ. لقد كان الإمبراطور بحاجة إلى قوانين أكثر فاعلية للتعامل مع رجال مثله.

- فلنستأنف إذًا.

أخذ القاضي نفسًا عميقًا ليهدئ نفسه وقال: «ما هذا الظلم الذي تدعيه المدعوة؟ لقد قرأ ابن عمها جاي العقد لي. وما حدث واضح تمامًا».

قال تيان: «أخشى أن هناك خطأ. أنا أطالب بإحضار العقد لإعادة فحصه».

أرسل القاضي يي أحد الحراس لإحضار ابن العم الثري والعقد. وكان الجميع في المحكمة، بمن فيهم الأرملة لي، ينظرون إلى تيان في حيرة، غير متأكدين مما يخطط له. لكن تيان كان ببساطة يمسد لحيته، ويبدو غير قلق على الإطلاق.

قال ملك القردة: «لديك خطة، أليس كذلك؟».

- ليس حقًّا. أنا أماطل فقط لكسب بعض الوقت.

قال ملك القردة: «في الواقع، أنا أحب دائمًا استخدام أسلحة أعدائي ضدهم. هل حكيت لك عن الوقت الذي أحرقت فيه نيجا بعجلاته النارية؟».

أدخل تيان يده داخل ثوبه، حيث كان يحتفظ بأدوات الكتابة.

أحضر الحارس جاي، الذي بدا مرتبكًا وتصبب عرقًا، بعد أن قوطع أثناء تناوله لوجبة فاخرة من حساء أعشاش طيور الهدال. ولم يكن لديه حتى فرصة لمسح وجهه الدهني. ركع جاي أمام القاضي بجانب تيان ولي ورفع العقد فوق رأسه للحارس.

أمر القاضي: «اعرضه على تيان».

استلم تيان العقد وبدأ في قراءته. كان يهز رأسه من حين لآخر، كما لو كان العقد قصيدة رائعة.

ورغم طول وتعقيد اللغة القانونية، فإن العبارة الأساسية كانت قصيرة:

بيع محاصيل الأرض وبيع الأرض.

كان الرهن مُصممًا كعملية بيع مع حق الاسترداد، ونص هذا الجزء على أن الأرملة قد باعت لابن عمها محاصيل أرضها والأرض نفسها.

قال تيان وهو يمسك بالعقد ويستمر في تحريك رأسه بشكل متكرر: «هذا مثير للاهتمام، مثير جدًّا للاهتمام».

عرف القاضي يي أنه يستفزه، لكنه لم يستطع منع نفسه من السؤال: «ما المثير للاهتمام؟».

قال تيان: «أيها القاضي العظيم والمجيد، أنت الذي تعكس الحقيقة كمرآة مثالية، يجب عليك قراءة العقد بنفسك».

شعر القاضي بارتباك، وطلب من الحارس إحضار العقد إليه. وبعد لحظات، اتسعت عيناه. هناك، بوضوح وبالأحرف السوداء، كانت العبارة الأساسية التي تصف البيع:

بيع محاصيل الأرض وعدم بيع الأرض نفسها.

تمتم القاضي: «بيع المحاصيل التي في الأرض، لكن ليس الأرض نفسها».

لقد كانت القضية واضحة. لم ينص العقد على ما زعمه جاي، فلم يكن لديه حق سوى في المحاصيل، وليس الأرض نفسها.

لم يكن لدى القاضي يي أي فكرة عن كيفية حدوث ذلك، لكن غضبه المُحرج احتاج إلى منفذ. وقد كان جاي بوجهه المتعرق والمدهن، أول ما وقعت عليه عيناه.

صرخ يي، ضاربًا المسطرة على الطاولة: «كيف تجرؤ على الكذب علي؟ هل تحاول أن تجعلني أبدو كأحمق؟».

والآن، جاء دور جاي ليرتجف كأوراق الشجر في مهب الريح، غير قادر على الكلام.

تابع القاضي: «أوه، الآن ليس لديك ما تقوله؟ أنت مدان بعرقلة العدالة، والكذب على مسؤول إمبراطوري، ومحاولة الاحتيال على ممتلكات شخص آخر. أحكم عليك بمئة وعشرين جلدة ومصادرة نصف ممتلكاتك».

صرخ جاي: «الرحمة، الرحمة! لا أعرف ما حدث» وتلاشت صرخات جاي البائسة والحراس يجرونه خارج المحكمة إلى السجن.

بدا وجه تيان، سيد التقاضي، خاليًا من التعابير، لكنه كان يبتسم في داخله وشكر ملك القردة. وبهدوء، مسح طرف إصبعه على ردائه للتخلص من أثر حيلته.

وبعد أسبوع، استيقظ تيان هاولي من حلم وليمة أخرى مع ملك القردة على طرق مستمر على الباب. وفتح الباب ليجد لي شياوي واقفة هناك، ووجهها شاحبًا خاليًا من أي لون.

سألها تيان: «ما الأمر؟ هل فعل ابن عمك شيئًا آخر؟».

قالت لي شياوي بصوت كاد يبدو كهمس: «سيد تيان، أنا أحتاج لمساعدتك. الأمر يتعلق بأخي».

قال تيان: «هل يتعلق بدين قمار؟ أم شجار مع رجل ثري؟ أم صفقة سيئة؟ هل كان ...».

قاطعته قائلة: «أرجوك! يجب أن تأتي معي!».

كان تيان هاولي سيقول لا، لأن سيد التقاضي الذكي لا يتورط في قضايا لا يفهمها، فهذا طريق سريع لإنهاء مسيرته المهنية. لكن النظرة التي كانت على وجه لي أضعفت عزيمته وقال لها: «حسنًا. قودي الطريق».

تأكد تيان من عدم وجود أحد يشاهده قبل أن يدخل بهدوء إلى كوخ لي شياوي. فرغم أن سمعته لم تكن تهمه كثيرًا، فإن شياوي لم تكن بحاجة إلى لغط القرويين وثرثرتهم.

وفي الداخل، رأى آثارًا حمراء ممتدة على الأرض من المدخل إلى السرير عند الجدار البعيد. وكان هناك رجل يرقد على السرير، وتحيط بساقيه وكتفه اليسرى ضمادات ممتلئة بالدماء. وقفت طفلتان، ابنتا شياوي، في زاوية مظلمة من الكوخ، وعيناهما الحذرتان تراقبان تيان.

كانت نظرة واحدة على وجه الرجل كافية لتخبر تيان بكل ما يحتاج إلى معرفته: فقد كان هو الوجه نفسه الموجود على الملصقات التي علقها الجنود.

تنهد تيان هاولي وقال: «شياوي، أي نوع من المشكلات أوقعتني فيها الآن؟».

وبلطف، أيقظت شياوي أخاها شياوجينج من النوم. استعاد وعيه على الفور تقريبًا، كرجل معتاد على النوم الخفيف والخطر على الطريق.

نظر إليه شياوجينج بحدة وقال: «أخبرتني شياوي أنك تستطيع مساعدتي».

قال تيان وهو يفرك ذقنه ويتفحص شياوجينج: «لست متأكدًا».

- أستطيع أن أدفع لك المال.

حاول شياوجينج الالتفاف على جانبه، ورفع طرف حزمة القماش، كي يرى تيان بريق الفضة تحتها.

قال تيان: «لا يمكنني أن أعدك بشيء. ليس لكل مرض علاج، ولا يمكن لكل هارب أن يجد ثغرة في القانون. يعتمد الأمر على من يلاحقك ولماذا». واقترب تيان ثم انحنى ليفحص المال الموعود، لكن الوشوم التي على وجه شياوجينج الممتلئ بالندوب، وهي علامات تدل على أنه مجرم مدان، لفتت انتباهه فقال له: «لقد حُكم عليك بالنفي».

أجاب: «نعم، منذ عشر سنوات، بعد زواج شياوي مباشرة».

قال تيان: «إذا كان لديك ما يكفي من المال، فهناك أطباء يمكنهم إزالة هذه الوشوم بشكل ما، رغم أنك لن تبدو وسيمًا بعدها».

قال شياوجينج: «لا يهمني المظهر كثيرًا الآن».

سأل تيان: «بماذا اتهمت؟».

ضحك شياوجينج وأومأ نحو الطاولة بجانب النافذة، حيث كان يوجد كتاب رفيع مفتوح. قلبت الريح صفحاته وقال: «إذا كنت جيدًا كما تقول شقيقتي، فيمكنك على الأرجح اكتشاف الأمر».

نظر تيان إلى الكتاب، ثم عاد بنظره إلى شياوجينج.

قال لنفسه وهو يحاول فك رموز الوشوم: «لقد نفيت إلى الحدود التي بالقرب من فيتنام. منذ أحد عشر عامًا...»، (قلبت الريح الصفحات): «... آه، لا بد أنك كنت خادمًا لدى شو جان، الأديب الذي في أكاديمية هانلين».

قبل أحد عشر عامًا، وخلال عهد الإمبراطور يونج جينج، همس شخص ما في أذن الإمبراطور بأن الأديب الكبير شو جان كان يتآمر ضد حكام المانشو. لكن عندما داهم الحرس الإمبراطوري بيت شو وفتشوه، لم يعثروا على أي شيء يدينه.

ومع ذلك، لا يمكن أن يكون الإمبراطور مخطئًا، ولذلك كان على مستشاريه القانونيين أن يجدوا طريقة لإدانة شو. وكان الحل هو الإشارة إلى واحدة من قصائده التي بدت عادية:

清風不識字，何故亂翻書

«أيها النسيم العليل، أنت لا تعرف القراءة،

فلماذا تعبث بكتابي؟».

كان الحرف الأول في كلمة «نسيم» (تشينج) هو نفسه اسم السلالة الحاكمة. وقد فسره القانونيون الماكرون الذين يخدمون الإمبراطور -والذين كان تيان يكن لهم إعجابًا مهنيًّا بمهارتهم على مضض- على أنه نص تحريضي يسخر من حكام المانشو بوصفهم غير مثقفين وأميين. وبناء على ذلك حُكم على شو وعائلته بالإعدام، وعلى خدمه بالنفي خارج البلاد.

قال تيان وهو يسير بجانب السرير: «جريمة شو كانت عظيمة، لكن مر عليها أكثر من عشر سنوات، إذا كنت انتهكت شروط نفيك فقط، فقد لا يكون من الصعب رشوة المسؤولين والقادة المناسبين لتجاهل الأمر».

قال شياوجينج: «الرجال الذين يلاحقونني لا يقبلون الرشوة».

قال تيان بعد أن نظر إلى الجروح المغطاة بالضمادات التي تغطي جسد الرجل: «آه؟ أتعني ... قطرات الدماء؟».

أومأ شياوجينج برأسه.

كان جنود قطرات الدماء هم عيون الإمبراطور ومخالبة. فهم يتحركون في أزقة المدن المظلمة كالأشباح ويختفون بين القوافل المتدفقة على الطرق والقنوات، ويبحثون عن أي علامات على الخيانة. وهم السبب وراء وضع المقاهي تلك اللافتات التي تحذر الزبائن من التحدث في السياسة، وإلى الجيران الذين ينظرون حولهم ويهمسون عندما يشتكون من الضرائب. فهم يستمعون إلى كل شيء ويراقبون كل شخص، وأحيانًا يطرقون أبواب الناس عند منتصف الليل، وأولئك الذين يزورونهم لا يُرَون مرة أخرى.

لوح تيان ذراعيه بنفاد صبر وقال: «أنت وشياوي تضيعان وقتي. إذا كانت قطرات الدماء تطاردك، فلا أستطيع فعل شيء. ليس إن أردت الحفاظ على رأسي ملتصقًا بعنقي». وتوجه نحو باب الكوخ.

قال شياوجينج: «أنا لا أطلب منك إنقاذي».

توقف تيان.

أكمل شياوجينج: «قبل أحد عشر عامًا، عندما أتوا لاعتقال السيد شو، أعطاني كتابًا وأخبرني إنه أكثر أهمية من حياته، ومن عائلته. لذا أبقيت الكتاب مخفيًّا وأخذته معي إلى المنفى.

وقبل شهر، جاء رجلان إلى منزلي، وطلبا مني تسليم كل شيء أملكه من مقتنيات سيدي الراحل. وفهمت من لكنتهما أنهما من بكين، ورأيت

في أعينهما نظرات صقور الإمبراطور القاسية. لذا سمحت لهما بالدخول وأخبرتهما إن يفتشا المكان، ولكن في أثناء انشغالهما بصناديقي وأدراجي، هربت ومعي الكتاب.

لقد ظللت أهرب منذ ذلك الحين، وكادوا يمسكون بي في بعض الأحيان، تاركين لي هذه الندبات. والكتاب الذي يلاحقونه موجود هناك على الطاولة. هذا ما أريدك أن تنقذه».

تردد تيان وظل واقفًا عند الباب. فهو اعتاد رشوة موظفي دار الحاكم وحراس السجون ومجادلة القاضي يي. وأحب اللعب بالكلمات وشرب الخمر الرخيص والشاي المر. ما شأن سيد تقاضي حقيرًا مثله بالإمبراطور ومكائد البلاط؟

قال ملك القردة: «لقد كنت سعيدًا في جبل الفاكهة والزهور، أقضي كل يوم في اللعب مع القرود الأخرى، أحيانًا أتمنى لو لم أكن فضوليًّا بشأن ما يكمن في هذا العالم الواسع».

لكن الفضول تغلب على تيان، فتوجه إلى الطاولة والتقط الكتاب. كان العنوان يقول: «مذكرات عشرة أيام في يانج جو» بقلم وانج شيوتشو.

قبل مئة عام، في عام 1645، وبعد أن استولت جيوش المانشو على بكين، عاصمة الصين التي تحكمها سلالة مينج، عزمت قوات المانشو على إتمام غزوها للصين.

ووصل الأمير دودو وقواته إلى يانج جو، المدينة الغنية بتجار الملح والقصور المزينة، عند نقطة التقاء نهر اليانجتسي بالقناة الكبرى. وتعهد القائد الصيني، السكرتير العام شي كيفا، بالمقاومة حتى النهاية. وحشد سكان المدينة لتعزيز الأسوار وحاول توحيد أمراء الحرب والميليشيات المتبقية من سلالة مينج.

ولكن جهوده باءت بالفشل في 20 مايو 1645، عندما اخترقت قوات المانشو جدران المدينة بعد حصار دام سبعة أيام. أُعدم شي كيفا بعد رفضه الاستسلام. ولمعاقبة سكان يانج جو وتعليم بقية الصين درسًا عن عاقبة مقاومة جيش المانشو، أصدر الأمير دودو أمرًا بقتل كل سكان المدينة.

نجا أحد سكان يانج جو، واسمه وانج شيوتشو، عن طريق التنقل بين أماكن الاختباء ودفع الرشاوى للجنود بما يملكه. وقد دوَّن ما شاهده:

كان هناك جندي مانشو يحمل سيفًا في مقدمة المسيرة، وآخر يحمل رمحًا في الخلف، وثالث يتجول في الوسط لمنع الأسرى من الهروب. وكان الثلاثة يقودون عشرات الأسرى كأنهم كلاب أو أغنام. وإذا تباطأ أحدهم في السير، كانوا يضربونه فورًا أو يقتلونه في الحال.

وكانت النساء مربوطات معًا بالحبال كخيط من حبات اللؤلؤ. تعثرن أثناء سيرهن في الوحل، وغطت الأوساخ أجسادهن وملابسهن. وكان الأطفال ملقين في كل مكان على الأرض، ومع مرور الناس والخيل عليهم اختلطت أدمغتهم وأعضاؤهم بالأرض، وانتشر عويل المحتضرين في كل مكان.

كل مجرى مائي أو بركة مررنا بها كانت ملآنة بالجثث، وقد تشابكت أذرعهم وأرجلهم. وتحول منظر الدم الذي امتزج بالماء الأخضر إلى لوحة بوهيمية لفنان. وامتلأت القناة بالجثث حتى صارت أرضًا مستوية.

استمرت المجزرة الجماعية والاغتصاب والنهب وحرق المدينة لمدة ستة أيام.

وفي اليوم الثاني من الشهر القمري، أمرت الحكومة الجديدة جميع المعابد بحرق الجثث. كانت المعابد قد آوت العديد من النساء، رُغم أن العديد منهن قد توفين جراء الجوع أو الخوف. وشملت السجلات النهائية للجثث المحروقة مئات الآلاف من الجثث، لكن هذا الرقم لا يشمل جميع من انتحروا بالقفز في الآبار أو القنوات أو بحرق أو شنق أنفسهم تجنبًا لمصير أسوأ ...

وفي اليوم الرابع من الشهر القمري، صار الجو مشمسًا أخيرًا. كانت الجثث المكدسة على جانب الطريق قد انتفخت بعد أن امتصت مياه الأمطار، وتحول لون جلودها إلى الأسود المزرق وكان مشدودًا كأنه سطح طبلة. وقد تعفن اللحم الذي بداخلها وانتشرت الرائحة بشكل لا يطاق. ومع تعرض الجثث لأشعة الشمس، ازدادت الرائحة سوءًا. في كل أنحاء يانج جو، كان الناجون يحرقون الجثث، وانتشر الدخان في جميع المنازل وكوّن غمامة قاتلة. كان بإمكاننا شم رائحة الجثث المتعفنة من على بعد مئة لي.

ارتعشت يدا تيان وهو يقلب الصفحة الأخيرة.

قال شياوجينج بصوت متعب: «أنت الآن تعلم سبب مطاردتي من قبل قطرات الدماء، إن المانشو يصرون على أن مذبحة يانج جو مجرد أسطورة، وأن أي شخص يتحدث عنها خائن. لكن هنا يوجد شاهد عيان، وكلماته تكشف أن عرشهم مبني على الدماء والجثث».

أغمض تيان عينيه وتخيل يانج جو، بمقاهي الشاي التي تمتلئ بالأدباء الكسالى الذين يجادلون المغنيات عن قواعد الشعر، وبقصور التجار المترفين الذين يحتفلون بموسم تجارة ناجح آخر، وبمئات الآلاف من السكان الذين يصلون بسعادة من أجل صحة إمبراطور المانشو. هل يعلمون أنهم في كل يوم، وهم يتوجهون إلى الأسواق ويضحكون ويغنون ويمتدحون العصر الذهبي الذي يعيشون فيه، يخطون على عظام الموتى، ويسخرون من عويل المحتضرين، وينكرون ذكريات الأرواح الراحلة؟ هو نفسه لم يصدق القصص التي كانت تُهمَس في طفولته عن ماضي يانج جو، وكان متأكدًا أن معظم الشباب في يانج جو اليوم لم يسمعوا بها قط.

والآن بعد أن عرف الحقيقة، هل يستطيع أن يسمح للأرواح بأن تظل صامتة الصمت؟

ولكن بعد ذلك، فكر أيضًا في السجون الخاصة التي تديرها قطرات الدماء، وفي وسائل التعذيب الشنيعة المصممة لإطالة رحلة العبور من الحياة إلى الموت، وفي الطريقة التي دائمًا ما يحصل بها أباطرة المانشو على ما يريدونه في النهاية. فلقد نجحوا في إجبار جميع الصينيين على حلق رؤوسهم وترك جديلة واحدة مربوطة كذيل خنزير علامة على خضوعهم للمانشو، وأرغموهم على التخلي عن زيهم التقليدي الهانفو وارتداء ملابس المانشو تحت تهديد الموت. لقد فصلوهم عن ماضيهم، وجعلوهم شعبًا تائهًا دون ذكريات تربطه بأرضه. كانوا أكثر قوة من إمبراطور اليشم وجنوده السماويين العشرة آلاف.

سيسهل عليهم محو هذا الكتاب، ومحو وجود محتال التقاضي الوضيع ذلك من العالم، مثل موجة عابرة على سطح بركة هادئة.

دع الآخرين يتشبعون بالأفعال الجريئة، فليكن هو ناجيًا.

قال تيان بصوت منخفض وخشن وهو ينظر إلى شياوجينج: «أنا آسف، لا أستطيع مساعدتك».

جلس تيان هاولي على طاولته ليأكل وعاء من النودلز. كان قد أضاف لها بذور اللوتس الطازجة وقطع من براعم البامبو، وكانت رائحتها منعشة كالعادة فهي وجبة غداء مثالية.

ظهر ملك القردة في المقعد المقابل له: بعينين شرستين، وفم واسع، وعباءة أرجوانية تعلنه حكيمًا كالآلهة، ومتمردًا على إمبراطور اليشم.

لم يحدث هذا كثيرًا. عادة ما كان ملك القردة يتحدث مع تيان في رأسه فقط.

قال ملك القردة: «أنت تظن أنك لست بطلًا».

أجاب تيان وهو يحاول ألا يبدو صوته دفاعيًا: «هذا صحيح، أنا مجرد رجل عادي يكسب رزقه بالتنقل بين ثغرات القانون، سعيد بوجود ما يكفي ليأكله وبعض القطع النقدية المتبقية ليشرب. جل ما أريده هو العيش».

قال ملك القردة: «أنا أيضًا لست بطلًا، لقد أديت واجبي فقط عندما دعت الحاجة لذلك».

ضحك تيان وقال: «هاه! أعلم ما تحاول فعله، لكنه لن ينجح. كان واجبك حماية الراهب المقدس في رحلة خطرة، وكانت مؤهلاتك تتكون من قوة خارقة وسحر لا حدود له. وكان بإمكانك طلب المساعدة من بوذا وجوانيين، إلهة الرحمة، متى احتجت ذلك. لا تقارن نفسك بي».

قال ملك القردة: «حسنًا. هل تعرف أي أبطال؟».

تناول تيان بعض النودلز وفكر في السؤال. كان ما قرأه في الصباح حاضرًا في ذهنه.

قال: «أعتقد أن السكرتير العام شي كيفا كان بطلًا».

قال ملك القردة: «كيف؟ لقد وعد سكان يانج جو بأنه طالما هو حي، لن يصيبهم أي ضرر، ومع ذلك عندما سقطت المدينة، حاول الهرب بمفرده. يبدو لي أقرب إلى جبان منه إلى بطل».

وضع تيان وعاءه وقال: «هذا ليس منصفًا. لقد صمد في دفاعه عن المدينة وهو لا يملك أي تعزيزات أو دعم. وهدأ أمراء الحرب الذين كانوا يُضايقون سكان يانج جو وجمعهم للدفاع عن مدينتهم. وفي النهاية، رغم لحظة ضعفه، فقد ضحى بحياته طواعية من أجل المدينة، ولا يمكنك أن تطلب أكثر من ذلك».

نخر ملك القردة بازدراء: «بالتأكيد يمكنني. كان ينبغي عليه أن يدرك أن المقاومة بلا جدوى. لو لم يقاوم غزاة المانشو واستسلم، فلربما ما كانت لتحدث تلك المجزرة. لو لم يرفض الانحناء للمانشو، فربما ما كان ليقتل». ثم ابتسم ملك القردة بسخرية وأضاف: «لعله لم يكن ذكيًّا ولم يعرف كيف ينجو».

اندفع الدم إلى وجه تيان. وقف وأشار بإصبعه إلى ملك القردة: «لا تتحدث عنه بهذه الطريقة. من يمكنه أن يجزم بأنه لو استسلم، لما قتل المانشو سكان المدينة؟ أتظن أن الاستسلام أمام جيش غازٍ عازم على النهب والسلب هو الفعل الصحيح؟ ولقلب حجتك، فإن المقاومة العنيفة في يانج جو ربما أبطأت جيش المانشو ومنحت العديد من الناس فرصة للهروب إلى الجنوب، وقد تكون مقاومة المدينة هي ما جعلت المانشو أكثر ميلًا لتقديم شروط أفضل للذين استسلموا لاحقًا. لقد كان السكرتير العام شي بطلًا حقيقيًّا!».

ضحك ملك القردة وقال: «هل تسمع نفسك، إنك تجادل وكأنك في محكمة الحاكم يي. يبدو أنك متأثر جدًّا برجل مات منذ مئة عام».

قال تيان: «لن أسمح لك بتشويه ذكراه بهذه الطريقة، حتى لو كنت الحكيم القوي كالآلهة».

قال ملك القردة وقد تغيرت تعبيرات وجهه لتصير جادة: «أنت تتحدث عن ذكرى. ما رأيك في وانج شوتشو، الذي كتب الكتاب الذي قرأته؟».

أجاب تيان: «لقد كان مجرد رجل عادي مثلي، يحاول النجاة من خلال الرشاوى والاختباء من المخاطر».

قال ملك القردة: «ومع ذلك، سجل ما رآه، حتى لا يُنسى الرجال والنساء الذين ماتوا في تلك الأيام العشرة بعد مئة عام. كانت كتابة ذلك الكتاب فعلًا شجاعًا، انظر إلى مطاردة المانشو لشخص لمجرد قراءته اليوم. أعتقد أنه كان بطلًا أيضًا».

بعد لحظة من التفكير، هز تيان رأسه وقال: «لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة، لكنك محق».

قال ملك القردة: «ليس هناك أبطال يا تيان هاولي. السكرتير العام شي كان شجاعًا وجبانًا في آن واحد، قادرًا وأحمق في الوقت نفسه. وكان وانج شوتشو ناجيًا انتهازيًّا، لكنه رجل عظيم أيضًا. أنا في الغالب أناني ومغرور، ولكن أحيانًا أفاجئ نفسي. كلنا مجرد رجال عاديين -حسنًا، أنا شيطان عادي- نواجه خيارات استثنائية. وفي تلك اللحظات، تتطلب منا تلك المثل البطولية أن نجسدها».

جلس تيان وأغمض عينيه وقال: «أنا مجرد رجل عجوز وخائف، يا ملك القردة. لا أعرف ما يجب عليه أن أفعله».

قال ملك القردة: «بالتأكيد تعرف. جل ما عليك هو قبول ذلك».

قال تيان: «لماذا أنا؟ ماذا لو لم أرغب في ذلك؟».

اكتسى وجه ملك القردة بالكآبة، وبدأ صوته يتلاشى وهو يقول: «لقد مات رجال ونساء يانج جو منذ مئة عام، يا تيان هاولي، ولا يمكن فعل شيء لتغيير ذلك. لكن يمكن للماضي أن يستمر كذكريات، وأولئك الذين في السلطة سيحاولون دائمًا محو وإسكات الماضي، لدفن الأرواح الراحلة. لكنك الآن، بعد أن عرفت عن ذلك الماضي، لم تعد مجرد مشاهد بريء. وإذا لم تتصرف، فستصير متواطئًا مع الإمبراطور وقطرات الدماء في هذا العنف الجديد، في هذه الإبادة. لقد صرت شاهدًا مثل وانج شوتشو. ومثله، عليك أن تختار ما تفعله. يجب أن تقرر ما إذا كنت، في اليوم الذي ستموت فيه، فستكون نادمًا على اختيارك».

تلاشت صورة ملك القردة، وظل تيان وحده في كوخه، يتذكر.

قال تيان: «لقد كتبت رسالة إلى صديق قديم في نينجبو. خذها معك واذهب إلى العنوان الموجود على الظرف. إنه جراح بارع وسيزيل هذه الوشوم من وجهك كخدمة لي».

قال لي شياوجينج: «شكرًا لك. سأمزق الرسالة فورًا، فأنا أدرك مدى الخطر الذي قد تجلبه عليك. أرجو قبول هذا المبلغ كدفعة». ثم اتجه إلى حقيبته واستخرج خمس عملات من الفضة.

رفع تيان يده وقال: «لا، ستحتاج إلى كل المال الذي لديك»، (وناوله حزمة صغيرة): «ليس هذا بالكثير، لكنه كل ما ادخرت».

نظر لي شياوجينج ولي شياوي إلى سيد التقاضي بعدم فهم.

أكمل تيان: «لا يمكن أن تبقى شياوي والأطفال هنا في سانلي لأن أحدهم بالتأكيد سيبلغ عن أنها آوت هاربًا عندما تبدأ قطرات الدماء بطرح الأسئلة. كلا، يجب عليكم جميعًا أن تغادروا فورًا وتذهبوا إلى نينجبو، حيث ستستأجرون سفينة تأخذكم إلى اليابان. وبما أن المانشو أغلقوا السواحل، ستحتاجون لدفع مبلغ كبير أحد المهربين».

قال شياوجينج بدهشة: «إلى اليابان؟!».

أجاب تيان: «طالما أن هذا الكتاب معك، فلا يوجد مكان في الصين ستكون فيه آمنًا. ومن بين جميع الدول المحيطة، فإن اليابان وحدها من تجرؤ على تحدي إمبراطور المانشو. وهناك فقط ستكون أنت والكتاب بأمان».

أومأ شياوجينج وشياوي وقالا: «ستأتي معنا إذًا؟».

لوح تيان بيده نحو ساقه العرجاء وضحك: «وجودي معكم لن يجلب سوى البطء. لا، سأبقى هنا وأواجه حظي».

قال شياوجينج: «لن تتركك قطرات الدماء وشأنك إذا اشتبهوا في أنك ساعدتنا».

ابتسم تيان وقال: «سأفكر في حل ما، كما أفعل دائمًا».

وبعد بضعة أيام، عندما أوشك تيان هاولي على الجلوس لتناول غدائه، طرق جنود من حامية المدينة بابه. وقبضوا عليه دون إبداء أي أسباب وأحضروه إلى قاعة دار الحاكم.

وعندما وصلوا رأى تيان أن القاضي يي لم يكن الوحيد الذي يجلس خلف طاولة الحكم تلك المرة. فقد كان معه مسؤول آخر، وأشارت قبعته أنه جاء مباشرة من بكين. كانت عيناه القاسيتان وبنيته النحيلة تذكران تيان بالصقر.

تمتم تيان في رأسه إلى ملك القردة: «أرجو أن يحميني ذكائي مرة أخرى».

ضرب القاضي يي المسطرة على الطاولة وقال: «يا تيان هاولي المخادع، أنت متهم بمساعدة فارين خطيرين على الهروب والتآمر على أفعال خيانة ضد مملكة تشينج العظيمة. اعترف بجرائمك فورًا كي تموت سريعًا».

أومأ تيان برأسه عندما أنهى القاضي خطابه. وقال: «يا أيها القاضي الرحيم وبعيد النظر، ليس لدي أدنى فكرة عما تتحدث عنه».

صاح القاضي: «أيها الجاهل المتغطرس! لن تنجح حيلك المعتادة هذه المرة. لدي أدلة دامغة على أنك قدمت المساعدة للـخائن لي شياوجينج وقرأت نصًا محظورًا وخائنًا وزائفًا».

قال تيان: «لقد قرأت بالفعل كتابًا مؤخرًا، لكن لم يكن فيه شيء خائن».

قال القاضي: «ماذا؟».

رد تيان ببراءة: «كان كتابًا عن رعي الأغنام وتزيين اللآلئ. بالإضافة إلى بعض النقاشات حول ملء البرك وإشعال النيران».

ضاقت عينا الرجل الآخر خلف الطاولة، لكن تيان تابع كما لو لم يكن لديه ما يخفيه: «لقد كان تقنيًا جدًّا ومملًا جدًّا».

صرخ القاضي يي بغضب، وبدا أن أوردة عنقه على وشك الانفجار: «أنت تكذب!».

رد تيان بابتسامة خبيثة: «أيها القاضي الذكي والعقلاني، كيف يمكنك أن تقول إنني أكذب؟ هل يمكنك إخباري بمحتويات هذا الكتاب المحظور، حتى أتحقق مما إذا كنت قد قرأته؟».

قال القاضي بفم يغلق ويفتح مثل شفتي سمكة: «أنت ... أنت ...».

بالطبع لم يكن من الممكن أن يُقال للقاضي يي ما هو محتوى الكتاب، هذا هو هدف حظره أصلًا، ولكن تيان اعتمد أيضًا على حقيقة أن الرجل من جماعة قطرات الدماء لن يتمكن من قول أي شيء أيضًا. فاتهام تيان بالكذب بشأن محتويات الكتاب يعني الاعتراف بأن المُتهم قد قرأ الكتاب، وتيان كان يعلم أن أي عضو من قطرات الدماء لن يعترف بهذه الجريمة أمام إمبراطور المانشو المُتشكك.

قال تيان: «يبدو أن هناك سوء تفاهم. الكتاب الذي قرأته لم يحتو على أي شيء كاذب، وهذا يعني أنه لا يمكن أن يكون الكتاب المحظور. وبالتأكيد، يستطيع حضرة القاضي أن يرى منطق هذه الحقيقة الواضحة والبسيطة». وابتسم تيان بثقة، فقد ظن أنه وجد الثغرة التي ستسمح له بالهروب.

قال الرجل من جماعة قطرات الدماء ببرود: «كف عن هذا التلاعب. لا داعي للتمسك بالقانون مع خونة مثلك. وبتفويض من الإمبراطور، أعلن أنك مذنب دون استئناف، وأحكم عليك بالموت. إذا كنت لا ترغب في المعاناة لفترة أطول، فاعترف فورًا بمكان الكتاب والهاربين».

شعر تيان بأن ساقيه ترتجفان، وللحظة، رأى ظلامًا ولم يسمع إلا صدى نطق الرجل من جماعة قطرات الدماء: «الحكم عليك بالموت».

فكر تيان: «يبدو أنني قد استنفدت حِيَلي أخيرًا».

قال ملك القردة: «لقد اتخذت قرارك بالفعل، والآن جل ما عليك هو قبوله».

إلى جانب كونهم جواسيس وقتلة ماهرين، كانت جماعة قطرات الدماء أيضًا خبراء في فن التعذيب.

صرخ تيان حين غمروا أطرافه في الماء المغلي.

قال تيان لملك القردة: «احك لي قصة. لتشتت ذهني حتى لا أستسلم».

قال ملك القردة: «دعني أخبرك عن المرة التي حاولوا فيها طهيي في فرن الكيمياء الخاص بإمبراطور اليشم. لقد نجوت من ذلك بالاختباء بين الدخان والرماد».

حكى تيان لمعذبيه حكاية عن مساعدته للي شياوجينج في حرق كتابه عديم الفائدة، وكيف تحول الكتاب إلى دخان ورماد. لكنه نسي أين أُشعلت النار. ربما يمكن لقطرات الدماء أن يبحثوا بدقة في التلال القريبة؟

أحرقوه بقضبان حديدية قد سخنوها حتى توهجت باللون الأبيض.

صرخ تيان وهو يستنشق رائحة اللحم المحترق: «احك لي قصة!».

فقال ملك القردة: «دعني أحكي لك عن المرة التي قاتلت فيها أميرة المروحة الحديدية في جبال النار. لقد خدعتها بالتظاهر بالهرب خوفًا».

وشرع تيان بإخبار معذبيه حكاية عن أنه أخبر لي شياوجينج بالهرب إلى سوتشو، المشهورة بأزقتها وقنواتها العديدة، وكذلك مراوحها المطلية بالألوان الراقية.

قطعوا أصابعه واحدًا تلو الآخر.

همس تيان بصوت ضعيف بعد فقدان كل تلك الدماء: «احكِ لي قصة».

قال ملك القردة: «دعني أحكي لك عن المرة التي وضعوا فيها العصابة السحرية على رأسي. كدت أفقد الوعي من شدة الألم، لكنني لم أتوقف عن السباب».

وبصق تيان في وجوه معذبيه.

استيقظ تيان في الزنزانة المظلمة. كانت تفوح برائحة العفن والبراز والبول. وكانت الفئران تصدر صريرها في الزوايا.

كانوا سينفذون فيه حكم الإعدام في الغد أخيرًا، بعد أن استسلم معذبوه. سيعدمونه بألف جرح سكين. وكان الجلاد الماهر يستطيع جعل الضحية يعاني لساعات قبل أن يأخذ أنفاسه الأخيرة.

سأل تيان ملك القردة: «لم أستسلم، أليس كذلك؟ لا أستطيع تذكر كل ما أخبرتهم به».

لقد أخبرتهم بالعديد من الحكايات، ولم تكن أي منها صادقة.

فكر تيان أنه ينبغي أن يكون راضيًا. فالموت راحة. لكنه كان قلقًا من أنه لم يفعل ما يكفي. ماذا لو لم يتمكن لي شياوجينج من الوصول إلى اليابان؟ ماذا لو ضاع الكتاب أو دُمر في البحر؟ ماذا لو هناك طريقة أخرى لحفظ الكتاب حتى لا يُفقد أبدًا.

قال ملك القردة: «هل حكيت لك عن الوقت الذي حاربت فيه اللورد إيرلانج وأربكته بتحولاتي العديدة؟ لقد تحولت إلى عصفور، ثم سمكة، ثم أفعى، وأخيرًا إلى معبد. كان فمي هو الباب، وعيناي نوافذ، ولساني هو بوذا، وذيلي علم يرفرف. آه، لقد كان ذلك ممتعًا. لم يستطع أي من شياطين اللورد إيرلانج كشف خدعي».

فكر تيان: أنا ماهر بالكلمات، فأنا في النهاية سيد تقاضي متمرس.

وصلت إلى أذنيه أصوات الأطفال وهم يغنون خارج زنزانته، فزحف نحو الجدار حيث كانت هناك نافذة صغيرة ذات قضبان في الأعلى، ونادى: «هل يمكنكم سماعي؟».

توقف الغناء فجأة، وبعد فترة، قال صوت متردد: «لقد أُمرنا بعدم التحدث إلى المحكوم عليهم. تقول أمي إنك خطير ومجنون».

ضحك تيان: «نعم، أنا مجنون. لكنني أعرف بعض الأغاني الجميلة. هل ترغبون في تعلمها؟ إنها تتحدث عن الخراف واللؤلؤ وأشياء ممتعة أخرى».

تشاور الأطفال فيما بينهم، ثم قال أحدهم: «لمَ لا؟ لا بد أن لدى المجنون بعض الأغاني الجميلة».

جمع تيان هاولي كل ما تبقى لديه من قوة وتركيز. وتذكر الكلمات من الكتاب:

«ثلاث رجال قادوا عشرات الأسرى كالأغنام والكلاب. إذا تباطأ أحد الأسرى في سيره، ضربوه فورًا أو قتلوه في الحال. والنساء كن يُربطن معًا بالحبال، مثل عقدٍ من اللؤلؤ».

فكر تيان في الأقنعة والخدع، وفكر في كيفية اختلاف النغمات بين اللغة الماندرينية واللهجة المحلية، وكيفية صنع التلاعبات اللفظية والتلميحات والقوافي، وكيف يمكنه تغيير الكلمات وتحويلها حتى تصير غير قابلة للتعرف. ثم بدأ يغني:

صيد القبعات والشوارب لم يكن بالأمر العسير
كمثل كلاب أو خراف في قطيع تسير
إن أبطأ الشارب السير في الصفوف
كان الويل مصيره والموت بلا نذير
والقبعات بحبال القهر مغلولة
كعِقد لؤلؤٍ في مهب شر خطير
ينتظرهن بلا مفر نفس المصير

التقط الأطفال كلمات الأغنية بسرعة وساروا يدندنون كلماتها.

في اليوم التالي ربط جماعة قطرات الدماء تيان بعمود على منصة الإعدام وجردوه من ملابسه.

تأمل تيان في الحشد. ورأى في عيون البعض، الشفقة، وفي عيون آخرين، رأى الخوف، وفي عيون البعض مثل ابن عم لي شياوي، جاي، رأى السعادة لرؤية المحتال المتشرد يلقى هذا المصير. ولكن معظمهم كانوا مترقبين. هذا الإعدام، وهذا الرعب، كان ترفيهًا لهم.

قال فرد من جماعة قطرات الدماء: «لديك فرصة أخيرة، إذا اعترفت بالحقيقة الآن، فسنشق عنقك بسرعة. وإلا، يمكنك الاستمتاع بالساعات القليلة المقبلة».

تناقلت الهمسات عبر الحشد. وضحك بعضه. نظر تيان إلى شهوة الدماء في عيون بعض الرجال. وفكر: *لقد صرتم شعبًا عبيدًا، لقد نسيتم الماضي وصرتم أسرى مطيعين للإمبراطور. لقد تعلمتم أن تجدوا المتعة في همجيته، وصدقتكم أنكم تعيشون في عصر ذهبي، دون أن تهتموا بالنظر إلى ما تحت المظهر الذهبي للإمبراطورية من أساس فاسد ودموي. أنتم تدنسون ذكرى أولئك الذين ماتوا ليحافظوا على حريتكم.*

لقد كان قلبه مملتئًا باليأس. *هل تحملت كل هذا وأضعت حياتي دون فائدة؟*

بدأ بعض الأطفال في الحشد يغنون:

صيد القبعات والشوارب لم يكن بالأمر العسير
كمثل كلاب أو خراف في قطيع تسير
إن أبطأ الشارب السير في الصفوف
كان الويل مصيره والموت بلا نذير
والقبعات بحبال القهر مغلولة
كعِقد لؤلؤٍ في مهب شر خطير
ينتظرهن بلا مفر نفس المصير

لم تتغير تعبيرات قطرات الدماء. فهو لم يسمع شيئًا سوى هراء الأطفال. وهذا صحيح، بهذه الطريقة، لن يتعرض الأطفال للخطر بسبب معرفتهم بالأغنية. لكن تيان تساءل أيضًا إذا كان سيكتشف أحدهم الحقيقة يومًا ما. هل أخفى الحقيقة بعمق شديد؟

قال أحد قطرات الدماء وهو يلتفت إلى الجلاد الذي كان يشحذ سكاكينه على حجر الطحن: «عنيد حتى النهاية، أليس كذلك؟ اجعله يعاني لأطول وقت ممكن».

فكر تيان: *ماذا فعلت؟ إنهم يضحكون على الطريقة التي سأموت بها، على الطريقة التي كنت بها أحمق. أنا لم أفعل شيئًا سوى القتال من أجل قضية ميؤوس منها.*

قال ملك القردة: «هذا ليس صحيحًا على الإطلاق، لي شياوجينج في أمان في اليابان، وأغاني الأطفال ستنتقل حتى يملأ صداها المدينة، وربما حتى البلد بأسره. ويومًا ما، ربما ليس الآن، ربما ليس بعد مئة عام، لكن يومًا ما سيعود الكتاب من اليابان، أو سيكتشف أديب ذكي التلاعب في أغانيك كما اكتشف لورد إيرلانج خداعي. ثم ستشعل شرارة الحقيقة هذا البلد، ويستيقظ هذا الشعب من سباته. لقد حافظت على ذكريات رجال ونساء يانج جو».

بدأ الجلاد بشق جرح غائر عبر فخذي تيان، مزيلًا قطعًا من اللحم. كان صراخ تيان مثل صراخ حيوان، خشنًا وبائسًا ومتقطعًا.

فكر تيان: *لست بطلًا بحق، أليس كذلك؟ أتمنى لو كنت شجاعًا حقًا.*

قال ملك القردة: «أنت رجل عادي مُنح خيارًا استثنائيًا، هل تندم على اختيارك؟».

فكر تيان: «لا». (ومع أن تفاقم الألم جعله يهذي وبدأ العقل يهرب منه، فإنه هز رأسه بعزم): «لا، على الإطلاق».

قال ملك القردة: «لا يمكنك أن تطلب أكثر من ذلك». ثم انحنى أمام تيان هاولي، ليس بالطريقة التي تنحني بها ذلًّا أمام إمبراطور، بل بالطريقة التي تنحني بها تقديرًا أمام بطل عظيم.

***

ملاحظات المؤلف: لمزيد من المعلومات عن مهنة التقاضي (أو السونججون) التاريخية، يرجى التواصل مع الكاتب للحصول على ورقة غير منشورة.

بعض من مغامرات تيان هاولي مستوحاة من الحكايات الشعبية عن كبير المحامين شياي فانجتسون التي جمعها الباحث في علم الإنسان بينج هنج في كتابه «جونج جو دا تشوانج شي» (أسياد التقاضي في الصين)، الذي نُشر عام 1922.

على مدار أكثر من 250 عامًا، حُظرت «مذكرات عشرة أيام في يانج جو» في الصين من قبل أباطرة المانشو، ونُسيت مذبحة يانج جو، جنبًا إلى جنب مع العديد من الفظائع الأخرى خلال غزو المانشو، حتى العقد الذي سبق ثورة 1911، عندما جُلبت نسخ من الكتاب من اليابان وأعيد نشرها في الصين. ولعب النص دورًا صغيرًا ولكنه مهم في سقوط أسرة تشينج ونهاية الحكم الإمبراطوري في الصين. لقد ترجمت المقاطع المستخدمة في هذه القصة.

ونظرًا للقمع الطويل الذي استمر إلى حد ما حتى اليوم، قد لا يُعرف العدد الحقيقي للضحايا الذين لقوا حتفهم في يانج جو أبدًا. لذا كرست هذه القصة لذكراهم.

الرجل الذي أنهى التاريخ: وثائقي

أكيمي كيرينو، مشرفة قسم العلوم والأبحاث، مختبرات فاينمان:

[الدكتورة كيرينو في أوائل الأربعينيات من عمرها، جمالها طبيعي لا يحتاج إلى الكثير من المكياج. إذا دققت النظر، فستلاحظ خصلات بيضاء في شعرها الأسود].

كل ليلة، عندما تقف في الخارج وتتأمل النجوم، فإنك تغتسل بالزمن كما بالضوء.

على سبيل المثال، عندما تنظر إلى هذا نجم جليزا 581 الذي في كوكبة الميزان، فإنك في الواقع تراه كما كان قبل أكثر من عقدين من الزمن، لأنه يبعد عنا نحو عشرين سنة ضوئية.

وبالعكس، إذا كان هناك شخص قرب جليزا 581 يمتلك تلسكوبًا قويًّا بما يكفي وموجهًا نحونا هنا في هذه اللحظة، فسيتمكن من رؤيتي أنا وإيفان نتجول في ساحة هارفارد، عندما كنا طلاب دراسات عليا.

[تشير بيدها إلى ولاية ماساتشوستس على مجسم الكرة الأرضية الذي على مكتبها، بينما تتحرك الكاميرا لتقترب منها وتُركز عليها. تتوقف لوهلة، تفكر في كلماتها. ثم تبدأ الكاميرا بالتراجع، مبتعدة شيئًا فشيئًا عن الكرة الأرضية، وكأننا نحلق بعيدًا عنها].

أفضل التلسكوبات التي لدينا اليوم يمكنها رؤية ما يصل إلى نحو ثلاثة عشر مليار سنة مضت. إذا وضعت أحد هذه التلسكوبات على صاروخ يتحرك مبتعدًا عن الأرض بسرعة تفوق سرعة الضوء – وهي تفصيلة سأوضحها بعد قليل – ووجهت التلسكوب نحو الأرض، فستشاهد تاريخ البشرية ينكشف أمامك عكسيًّا.

كل ما حدث على الأرض يُصدر إشعاعات كهرومغناطيسية على شكل كرة من الضوء تتسع باستمرار. وما عليك سوى التحكم في مدى المسافة التي تسافرها في الفضاء لتحدد مدى المسافة التي ستعود فيها بالزمن إلى الماضي.

[تستمر الكاميرا في التراجع، وتمر بباب مكتبها، ثم عبر الممر، بينما يصغر مجسم الكرة الأرضية والدكتورة كيرينو أكثر فأكثر في مجال رؤيتنا. الممر الطويل الذي نتراجع فيه مظلم، وفي هذا البحر من الظلام، يتحول باب المكتب المفتوح إلى مستطيل من الضوء الساطع، يحيط بمجسم الكرة الأرضية والمرأة].

في مكان ما هنا، ستشهد وجه الأمير تشارلز الحزين عندما عادت هونج كونج إلى الصين أخيرًا. في مكان ما هنا، سترى استسلام اليابان على متن السفينة الحربية الأمريكية ميزوري. في مكان ما هنا، سترى أقدام قوات هيديوشي تطأ أرض كوريا لأول مرة. وفي مكان ما هنا، سترى السيدة موراساكي تُكمل قراءة الفصل الأول من «قصة جينجي» (Tale of Ginji.) إذا استمررت في التقدم، فيمكنك العودة إلى بداية الحضارة وما بعدها.

لكن الماضي يزول في الوقت نفسه الذي يُرى فيه. تدخل الفوتونات عبر العدسة، ثم تصطدم بسطح يُسجل الصورة، سواء كان شبكية عينك أو شريحة فيلم أو مستشعرًا رقميًّا، وبعدها تختفي، لتتوقف تمامًا في مسارها. إذا نظرت دون أن تنتبه وفاتتك لحظة ما، فلن تستطيع أن تلتقطها مجددًا. تلك اللحظة تُمحى من الكون، إلى الأبد، دون أي فرصة ثانية لاستعادتها.

[من الظلال بجانب باب المكتب، يخرج ذراع ليدفع الباب بقوة ويغلقه. تبتلع الظلمة الدكتورة كيرينو، ومجسم الكرة الأرضية، ومستطيل الضوء الساطع. تبقى الشاشة سوداء لبضع ثوانٍ قبل أن تبدأ تترات الافتتاح].

شركة أفلام الذكريات هونج كونج المحدودة

بالتعاون مع

استوديوهات يوروشي

تقدم

إنتاج هيراقليطس مرتين[1]

الرجل الذي أنهى التاريخ

حُظر هذا الفيلم من قبل وزارة الثقافة في جمهورية الصين الشعبية ويُعرض تحت احتجاج قوي من حكومة اليابان.

أكيمي كيرينو:

[عدنا إلى الإضاءة الدافئة في مكتبها].

بما أننا لم نتمكن بعد من حل مشكلة السفر أسرع من الضوء، فلا يوجد لدينا وسيلة حقيقية لإرسال تلسكوب إلى هناك لرؤية الماضي. لكننا اكتشفنا طريقة للتحايل على ذلك.

لطالما افترض العلماء أن العالم من حولنا ينفجر في كل لحظة بجزيئات تحت ذرية من نوع خاص، والتي تعرف الآن بجزيئات بوم-كيرينو. وكان اكتشافي المتواضع في مجال الفيزياء هو تأكيد وجود هذه الجزيئات واكتشاف أنها دائمًا ما تكون في أزواج. ينطلق أحد عضوي الزوج بعيدًا عن

(1) كلمة المترجمة: إشارة فلسفية مستوحاة من مقولة الفيلسوف الإغريقي هيراقليطس: "لا يمكنك أن تخوض النهر نفسه مرتين»، التي تعبر عن طبيعة الحياة المتغيرة باستمرار. مكتبة سُر مَن قرأ

الأرض، راكبًا الفوتون الذي أوجده، ويسافر بسرعة الضوء. بينما يبقى العضو الآخر في المكان الذي نشأ فيه، متذبذبًا في محيطه.

تخضع أزواج جسيمات بوم-كيرينو للتشابك الكمي، مما يعني أن خصائصها مرتبطة ببعضها بشكل غير قابل للفصل، بغض النظر عن المسافة الفاصلة بينهما. حتى وإن كانت الجزيئات متباعدة جدًّا عن بعضها ، مثل أن يكون أحدهما على بُعد سنوات ضوئية، فإن معرفة حالة أحد الجزيئات تعني أنك ستعرف فورًا حالة الجسيم الآخر.

بما أن مستويات الطاقة لجزيئات بوم-كيرينو تتناقص بمعدل ثابت ومعروف، يمكننا ضبط حساسية جهاز الكشف وتعديلها لقياس جسيمات بوم-كيرينو التي مرت بفترة زمنية محددة ونشأت في مكان معين.

عندما نأخذ قياسات جسيم بوم-كيرينو الموجود في زوج متشابك (مثل موقعه أو سرعته أو خصائصه الفيزيائية الأخرى)، فإن ذلك يعطينا معلومات عن الجسيم الآخر في الزوج، حتى لو كان بعيدًا جدًّا عنا وفي الماضي. باستخدام بعض الحسابات الرياضية المتقدمة، يمكننا استنتاج حالة الفوتون المرتبط بالجسيم. لكن القياس يمكن أن يحدث مرة واحدة فقط، وبعدها تختفي المعلومات إلى الأبد.

بعبارة أخرى، يبدو وكأننا قد وجدنا طريقة لوضع تلسكوب بعيدًا عن الأرض، وفي الماضي البعيد كما نشاء. إذا أردت، يمكنك النظر إلى يوم زفافك، أو أول قبلة لك، أو لحظة ولادتك. لكل لحظة في الماضي، ليس لديك سوى فرصة واحدة لتنظر إليها.

لقطات أرشيفية: 18 سبتمبر، في سنة غير محددة في المستقبل برعاية شركة أخبار منطقة آسيا والمحيط الهادئ

[تُظهر الكاميرا مصنعًا مهجورًا على أطراف مدينة هاربين في مقاطعة هيلونج جيانج بالصين. يبدو هذا المصنع مشابهًا لأي مصنع آخر في المنطقة الصناعية بالصين؛ يعاني من ركود جديد في ظل الدورة الاقتصادية القاسية التي تتكرر في البلاد: متداع، وصامت، ومغبر، نوافذه وأبوابه مغلقة بإحكام. ترتدي سامانثا باين، المراسلة، قبعة صوفية ووشاحا. وجنتاها حمراوان

لشدة البرد، وعيناها متعبتان. وبينما تتحدث بصوت هادئ، تنفث أنفاسها ضبابًا يحوم أمام وجهها].

سامانثا:

في مثل هذا اليوم من عام 1931، أُطلقت أولى الطلقات في الحرب الصينية اليابانية الثانية بالقرب من مدينة شنيانج في منشوريا. بالنسبة للصينيين، كانت تلك بداية الحرب العالمية الثانية، أي قبل أكثر من عشرة أعوام من دخول الولايات المتحدة في الحرب.

نحن في منطقة بينجفانج، الواقعة على أطراف مدينة هاربين. ورغم أن منطقة «بينجفانج» قد لا تكون معروفة لمعظم الناس في الغرب، فقد وصفها البعض بأنها «أوشفيتز الآسيوي»[1]. في هذا المكان، كانت وحدة 731 التابعة للجيش الإمبراطوري الياباني تجري تجارب مروعة على آلاف الأسرى الصينيين وحلفائهم طوال فترة الحرب، وذلك في إطار جهود اليابان لتطوير الأسلحة البيولوجية ودراسة حدود قدرة الإنسان على التحمل.

كان الجنود اليابانيون في وحدة 731 يجرون تجارب مروعة على آلاف الأسرى الصينيين وحلفائهم، من خلال التجارب الطبية، وتجارب الأسلحة، وتشريح الأحياء، وبتر الأطراف، ووسائل تعذيب منهجية أخرى. في نهاية الحرب، قتل الجيش الياباني جميع الأسرى المتبقين وأحرقوا المجمع بالكامل، تاركين وراءهم هيكل المبنى الإداري فقط وبعض الحفر التي كانت تُستخدم لتربية الفئران الحاملة للأمراض. لم ينجُ أحد.

يقدِّر المؤرخون أن ما بين مئتي ألف إلى نصف مليون شخص صيني، معظمهم من المدنيين، قُتلوا نتيجة الأسلحة البيولوجية والكيميائية التي طُورت في هذا المكان وفي مختبرات أخرى تابعة، مثل الجمرة الخبيثة، والكوليرا، والطاعون الدبلي. في نهاية الحرب، منح الجنرال دوجلاس ماك

(1) كلمة المترجمة: "أوشفيتس الآسيوي» هو تعبير يستخدم للإشارة إلى معسكرات التعذيب والتجارب البشرية التي أجراها الجيش الياباني خلال الحرب العالمية الثانية، خاصة في وحدة 731 في منطقة بينجفانج في منشوريا. هذه الوحدة كانت مسؤولة عن إجراء تجارب مروعة على الأسرى الصينيين وحلفائهم، بما في ذلك تجارب بيولوجية وكيميائية. يشير المصطلح إلى مقارنة بين هذا المعسكر ومعسكر أوشفيتز في بولندا، حيث كان النازيون يرتكبون فظائع مماثلة ضد اليهود وغيرهم من الأسرى خلال الحرب.

آرثر-القائد الأعلى لقوات الحلفاء- جميع أفراد وحدة 731 حصانة من المحاكمة بتهم جرائم الحرب مقابل الحصول على بيانات تجاربهم ولمنع وصول تلك البيانات إلى الاتحاد السوفيتي.

اليوم، لا يوجد سوى القليل من الأدلة على تلك الفظائع، باستثناء متحف صغير قريب يزوره عدد قليل من الأشخاص. هناك، عند حافة حقل فارغ، توجد كومة من الأنقاض التي كانت محرقة لحرق جثث الضحايا في يوم ما. وقد بُني المصنع ورائي على أساس مستودع كانت تستخدمه وحدة 731 لتخزين المواد اللازمة لتربية الجراثيم. كان المصنع يصنع محركات الدراجات النارية لشركة صينية يابانية مشتركة في هاربين، قبل أن يغلقه الركود الاقتصادي الأخير. وبين أصداء الماضي المروعة، استقرت عدة شركات دوائية حول موقع مقر وحدة 731 السابق.

لعل الصينيون يفضلون ترك هذا الجزء من ماضيهم وراءهم والمضي قدمًا. وإذا فعلوا ذلك، من المحتمل أن يتحرك بقية العالم في الاتجاه نفسه.

لكن ذلك لن يحدث إذا كان لإيفان وي رأي في الموضوع.

[تتحدث سامانثا بينما تظهر مجموعة من الصور لإيفان وي وهو يلقي محاضرة أمام فصل دراسي ويتنقل أمام آلات معقدة بجانب الدكتورة كيرينو. في الصور، يبدو أنهما في العشرينيات من عمرهما].

الدكتور إيفان وي، المؤرخ الصيني-الأمريكي المتخصص في تاريخ اليابان الكلاسيكي، عازم على جعل العالم يركز على معاناة ضحايا وحدة 731. هو وزوجته، الدكتورة أكيمي كيرينو، الفيزيائية التجريبية اليابانية-الأمريكية الشهيرة، قد طورا تقنية مثيرة للجدل، يزعمان أنها ستسمح للناس بالسفر عبر الزمن وعيش التاريخ كما وقع. واليوم، سيعرض الدكتور إيفان تقنيته علنًا من خلال السفر إلى عام 1940، في ذروة نشاطات وحدة 731، ليكون شاهدًا بنفسه على فظائع تلك الوحدة.

تدعي الحكومة اليابانية أن الصين تشترك في عرض دعائي، وقد قدمت احتجاجًا شديد اللهجة إلى بكين بسبب السماح بهذا العرض. مستشهدة بمبادئ القانون الدولي، تقول اليابان إن الصين ليس لها الحق في تنظيم رحلة استكشافية إلى هاربين في فترة الحرب العالمية الثانية، لأن المدينة كانت

تحت سيطرة مانشوكو، وهو نظام خاضع لسيطرة الإمبراطورية اليابانية. من جهتها، رفضت الصين هذا الادعاء، وردت بتوصيف عرض الدكتور وي كـ»تنقيب عن التراث الوطني»، معلنة حقوق ملكيتها لأي تسجيلات بصرية أو صوتية لرحلة الدكتور وي المقترحة إلى الماضي بموجب قوانين تصدير الآثار في الصين.

أصر الدكتور وي وزوجته على أنهما يجريان هذه التجربة بصفتهما مواطنين أمريكيين فرديين، دون أي ارتباط بأي حكومة. لقد طلبا من القنصل الأمريكي العام في شنيانج المجاورة، إضافة إلى ممثلين عن الأمم المتحدة، التدخل لحماية جهودهما من أي تدخل حكومي. لم تتضح بعد حلول لهذه الفوضى القانونية.

في هذه الأثناء، تجمع العديد من الأفراد من الصين ومن الخارج، لتنظيم احتجاجات بعضها يدعم الدكتور وي والبعض الآخر يعارضه. وقد نشرت الصين الآلاف من جنود شرطة مكافحة الشغب لمنع المتظاهرين من الاقتراب من بينجفانج. تابعونا وسنوافيكم بأحدث التقارير محدثة عن هذه المناسبة التاريخية. معكم سامانثا باين، من شركة أخبار منطقة آسيا والمحيط الهادئ.

أكيمي كيرينو:

لكي نسافر عبر الزمن حقًّا، كان لا بد لنا من تخطي عقبة إضافية.

تتيح لنا جسيمات بوم-كيرينو إعادة بناء المعلومات المتعلقة بلحظة خلقها بالتفصيل: كالرؤية، والصوت، والموجات الدقيقة، والموجات فوق الصوتية، ورائحة المطهرات والدم، ولذعة البارود الخانقة في مؤخرة الأنف.

لكن هذه كمية هائلة من المعلومات، حتى لو لثانية واحدة فقط. لم يكن لدينا وسيلة واقعية لتخزينها، فضلًا عن معالجتها في الوقت الفعلي. فكمية البيانات التي تُجمع لدقائق قليلة كانت ستتجاوز قدرة جميع خوادم التخزين في جامعة هارفارد. كنا نستطيع فتح باب إلى الماضي، لكننا لن نتمكن من رؤية شيء وسط هذا الطوفان من البيانات المتدفقة.

[خلف الدكتورة كيرينو توجد آلة تشبه جهاز الرنين المغناطيسي الطبي الكبير. تبتعد جانبًا حتى تتمكن الكاميرا من التحرك ببطء داخل أنبوب

الجهاز حيث سيدخل جسم المتطوع أثناء العملية. ومع تحرك الكاميرا عبر الأنبوب، متجهة نحو الضوء الذي في نهاية الممر، يستمر صوتها في الحديث من خارج الكاميرا].

ربما كان بإمكاننا إيجاد حل يسمح بتسجيل البيانات إذا كان لدينا الوقت الكافي. ولكن إيفان رأى أنه لا يمكننا الانتظار. فأقارب الضحايا الناجون كانوا يتقدمون في السن ويموتون، وكانت الحرب على وشك أن تختفي من الذاكرة الحية. وشعر أننا ملزمون بتقديم أي إجابات نستطيع الحصول عليها للأقارب الذين ما زالوا على قيد الحياة.

لذا فكرت في استخدام الدماغ البشري لمعالجة المعلومات التي تجمعها كواشف بوم-كيرينو. لقد أثبتت قدرات الدماغ الهائلة في المعالجة المتوازية، التي تشكل أساس الوعي، أنها فعالة جدًّا في تصفية البيانات وفهمها من سيل البيانات الآتي من الكواشف. يمكن للدماغ أن يستقبل الإشارات الكهربائية الخام، ويطرح 99. 999 في المئة منها، ثم يحول الباقي إلى رؤية وصوت ورائحة، ويفهمها جميعًا ويسجلها كذكريات.

في الواقع، لا يجب أن يفاجئنا هذا. فهذا هو ما يفعله دماغنا في كل ثانية من حياتنا. إن الإشارات الخام التي تطلقها أعيننا وآذاننا وجلدنا ولساننا بإمكانها أن تتجاوز قدرة أي حاسوب فائق، لكن دماغنا يتمكن من بناء وعي وجودنا من كل هذا الضجيج، ثانية تلو أخرى.

كتبت في مجلة الطبيعة: «بالنسبة للمتطوعين، تخلق هذه العملية وهم تجربة الماضي، كما لو كانوا في ذلك المكان، في تلك اللحظة».

كم أندم الآن على استخدام كلمة «وهم». فقد أدى اختياري السيئ للكلمة لنتائج غير متوقعة قد حملت وزرها. هكذا هو التاريخ: فالقرارات المهمة حقًّا لا تبدو أهميتها في وقتها. نعم، فالدماغ يأخذ الإشارات ويحولها إلى قصة، لكن ليس أي وهم في ذلك، سواء في الماضي أو الآن.

أرتشيبالد إيزاري، أستاذ رادهابينود بال[1] للقانون، ومدير مشارك لدراسات شرق آسيا في كلية الحقوق بجامعة هارفارد.

[لدى إيزاري وجه هادئ يتناقض مع حدة نظرته. إنه يستمتع بإلقاء المحاضرات، ليس لأنه يحب سماع نفسه يتحدث، ولكن لأنه يرى أنه يتعلم شيئًا جديدًا في كل مرة يحاول فيها شرح شيء ما].

كان النقاش القانوني بين الصين واليابان بشأن عمل وي، الذي حدث قبل ما يقرب من عشرين عامًا، ليس جديدًا حقًّا. مسألة من يحق له السيطرة على الماضي شغلتنا جميعًا، بصور مختلفة، ولسنوات عديدة. لكن اختراع عملية كيرينو جعل هذا الصراع للسيطرة على الماضي قضية حقيقية، وليس مجرد مسألة مجازية.

الدولة لها بُعد زمني فضلًا عن البُعد المكاني. فهي تتوسع وتتقلص عبر الزمن، تستعمر شعوبًا جديدة وأحيانًا تطلق سراح أحفادهم. قد تُعتبر اليابان اليوم مجرد الجزر الرئيسية، لكن في عام 1942، في ذروة قوتها، كانت الإمبراطورية اليابانية تحكم كوريا، ومعظم الصين، وتايوان، وساخالين، والفلبين، وفيتنام، وتايلاند، ولاوس، وبورما، وماليزيا، وجزءًا كبيرًا من إندونيسيا، إضافة إلى العديد من الجزر في المحيط الهادئ. لا شك أن إرث تلك الفترة له تأثير كبير على تشكيل آسيا حتى يومنا الحالي.

أحد أكثر المشكلات إرباكًا التي تنشأ نتيجة للعملية العنيفة وغير المستقرة التي تمر بها الدول أثناء توسعها وانكماشها عبر الزمن هو السؤال التالي: مع تغيُّر السيادة على الأراضي بين الدول بمرور الوقت، أي دولة يجب أن يكون لها الحق في الولاية القضائية على ماضي تلك الأراضي؟

قبل تجربة إيفان وي، كان الجدل المتعلق بالولاية على الماضي يقتصر على مسائل مثل ما إذا كان من حق إسبانيا أو أمريكا الحصول على نصيب السيادة من الكنوز التي تم استردادها من السفن الإسبانية الغارقة في المياه

(1) رادهابينود بال (Radhabinod Pal) هو اسم قاضٍ هندي شهير، وكان أحد القضاة في محكمة طوكيو الدولية لجرائم الحرب بعد الحرب العالمية الثانية. اشتهر بموقفه المعارض لإدانة القادة اليابانيين في محكمة طوكيو لجرائم الحرب، حيث كان يعارض محاكمة المتهمين بتهمة ارتكاب جرائم حرب واعتبرها غير عادلة.

الأمريكية من القرن السادس عشر، أو ما إذا كان يجب أن تبقى تماثيل الإلغين مع اليونان أو إنجلترا. لكن الآن المخاطر أكبر بكثير.

فهل يمكن اعتبار مدينة هاربين في الفترة بين عامي 1931 و1945 جزءًا من الأراضي اليابانية كما تدعي الحكومة اليابانية؟ أم أنها صينية كما تقول جمهورية الصين الشعبية؟ أو ربما ينبغي علينا أن نعامل الماضي كشيء محفوظ للبشرية جمعاء تحت إشراف الأمم المتحدة؟

كان من الممكن أن تحظى وجهة النظر الصينية بدعم غالبية العالم الغربي، لأن الموقف الياباني يشبه حجة ألمانيا التي تفترض أن أي محاولات للسفر إلى أوشفيتز-بيركيناو بين عامي 1939 و1945 يجب ألا تحدث إلا بموافقتها. ولكن، بما أن جمهورية الصين الشعبية، التي ينظر إليها الغرب كمنبوذة، هي من يطرح هذا الادعاء الآن، فهذا يظهر جليًّا كيف يمكن للحاضر والماضي أن يتصارعا حتى الموت.

علاوة على ذلك، يكمن خلف الموقفين الياباني والصيني افتراض غير قابل للنقاش، وهو أنه إذا تمكنا من حسم مسألة السيادة على مدينة هاربين في حقبة الحرب العالمية الثانية بين الصين واليابان، فسيكون من حق جمهورية الصين الشعبية أو الحكومة اليابانية الحالية ممارسة تلك السيادة. ومع ذلك، فإن هذا الافتراض بعيد عن الوضوح، إذ يواجه الطرفان صعوبات في تقديم حجج قانونية قوية لدعم موقفهما.

أولًا، تؤكد اليابان باستمرار، فيما يتعلق بالمطالبات الصينية بالتعويض عن الفظائع التي وقعت خلال الحرب، أن اليابان الحالية، التي تأسست على الدستور الذي وضعته الولايات المتحدة، ليست مسؤولة عن تلك الأحداث. وترى أن هذه المطالبات يجب أن تُوجه إلى حكومتها السابقة، إمبراطورية اليابان، وأن جميع هذه القضايا قد سُويت بموجب معاهدة سان فرانسيسكو والمعاهدات الثنائية الأخرى. ومع ذلك، فإن إصرار اليابان الآن على المطالبة بالسيادة على تلك الفترة في منشوريا، بعد أن تخلت عن أي مسؤولية عنها، يعكس تناقضًا واضحًا في موقفها.

لكن جمهورية الصين الشعبية ليست في وضع يسمح لها بالسيادة بسهولة أيضًا. فعندما سيطرت القوات اليابانية على منشوريا عام 1932، كانت تلك المنطقة تخضع لسيطرة اسمية فقط لجمهورية الصين، الكيان الذي يُعتبر الصين الرسمية خلال الحرب العالمية الثانية، في حين أن جمهورية الصين

الشعبية لم تكن قد وُجدت بعد. ورغم أن المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الياباني في منشوريا أثناء الحرب جاءت بالكامل تقريبًا من مقاتلين من الهان والمانشو والكوريين بقيادة شيوعيين صينيين وكوريين، فإن هذه المقاومة لم تكن تحت القيادة المباشرة للحزب الشيوعي الصيني بزعامة ماو تسي تونج، وبالتالي لم يكن لها صلة كبيرة بتأسيس جمهورية الصين الشعبية في وقت لاحق.

إذًا، ما الذي يجعلنا نعتقد أن للحكومة الحالية في اليابان أو الصين أي حق في المطالبة بهاربين خلال تلك الفترة؟ أليس من المنطقي أن تكون جمهورية الصين، التي تتخذ من تايبيه مقرًّا لها وتُعرف الآن باسم تايوان، هي الأحق بهذا الادعاء؟ أو ربما ينبغي التفكير في ابتكار «سلطة تاريخية مؤقتة لمنشوريا» لتتولى السلطة الدولية عنها؟

مبادئنا المتعلقة بخلافة الدول، التي تطورت ضمن إطار نظام ويستفاليا[1]، ببساطة لا تستطيع التعامل مع هذه الأسئلة التي أثارتها تجارب الدكتور وي.

إذا كانت هذه النقاشات تحمل طابعًا سريريًّا ومتملصًا، فذلك عن عمد. فكلمات مثل السيادة والسلطة الدولية والكلمات المشابهة لم تكن سوى تسهيلات تسمح للناس بالتهرب من المسؤولية أو بقطع الروابط غير المريحة. كأن يُعلن عن الاستقلال، وفجأة يُنسى الماضي، وتحدث ثورة، وفجأة تُمحى الذكريات والديون الدموية، وتُوقع معاهدة، وفجأة يُدفن الماضي ويختفي. الحياة الواقعية لا تعمل على هذا النحو.

مهما كان تفسيرك لمنطق السارق الذي نكرمه تحت مسمى القانون الدولي، تبقى حقيقة أن الأشخاص الذين يسمون أنفسهم يابانيين اليوم مرتبطون بأولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم يابانيين في منشوريا عام 1937، وكذلك الأشخاص الذين يسمون أنفسهم صينيين اليوم مرتبطون

(1) كلمة المترجمة: إطار نظام ويستفاليا يشير إلى مجموعة من المبادئ والقواعد التي نشأت بعد معاهدة ويستفاليا عام 1648، والتي أنهت الحروب الدينية في أوروبا وأكدت سيادة الدول واستقلالها. النظام أعطى الأولوية لسيادة الدول وحقها في تحديد شؤونها الداخلية دون تدخل خارجي، مما وضع أساسًا للنظام الدولي المعاصر في العلاقات بين الدول.

بأولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم صينيين هناك وفي تلك الفترة. هذه هي الحقائق المعقدة، وعلينا أن نتعامل مع ما هو موجود.

طوال الوقت، استطعنا أن ننجح القانون الدولي بناءً على افتراض أن الماضي سيظل صامتًا. لكن الدكتور وي منح الماضي صوتًا وأعاد إحياء الذكريات الميتة. والدور الذي نود أن نمنحه لأصوات الماضي في الحاضر، إن كان هناك دور، يعود إلينا.

أكيمي كيرينو:

كان إيفان دائمًا يناديني بتونج مي، أو ببساطة مينج مي، وهو النطق الماندريني للكانجي[1] الذي يُستخدم لكتابة اسمي (桐野明美) رغم أن هذا هو النطق المعتاد للأسماء اليابانية باللغة الصينية، هو الشخص الصيني الوحيد الذي سمحت له بهذه الحرية.

قال لي إنه عندما ينطق اسمي بهذه الطريقة، فإنه يتمكن من تخيله باستخدام تلك الرموز القديمة التي هي جزء من التراث المشترك بين الصين واليابان، وبالتالي يظل يحتفظ بمعناه. ومن وجهة نظره، «صوت الاسم لا يخبرك شيئًا عن الشخص، بل الرموز هي التي تفعل ذلك».

كان اسمي أول ما أحبه في.

- شجرة بولونيا وحيدة في الحقل، مشرقة وجميلة.

قال لي ذلك في أول لقاء بيننا في فعالية تعريفية في كلية الدراسات العليا للآداب والعلوم.

كان هذا أيضًا هو التفسير الذي قدمه لي جدي منذ سنوات، عندما علمني كيف أكتب رموز اسمي وأنا طفلة صغيرة. شجرة البولونيا هي شجرة جميلة ذات أوراق متساقطة، وفي اليابان القديمة كان من المعتاد زرع واحدة منها عندما تولد فتاة، ثم يصنعون منها خزانة لملابس زفافها عندما تتزوج. أتذكر

---

(1) كلمة المترجمة: الكانجي هو أحد أنظمة الكتابة في اللغة اليابانية ويعتمد على الرموز الصينية التقليدية لتمثيل الكلمات والمفاهيم. رغم أن اللغة اليابانية تستخدم ثلاثة أنظمة كتابة رئيسية (الكانجي، الهيراجانا، والكاتاكانا)، فإن الكانجي يُستخدم بشكل رئيسي لكتابة الأسماء، والأماكن، والكلمات ذات المعاني المعقدة. يتكون كل كانجي من رموز تمثل فكرة أو كلمة، ويمكن أن يكون له أكثر من نطق حسب السياق.

أول مرة أظهر لي جدي شجرة البولونيا التي زرعها من أجلي في يوم ولادتي، وأخبرته أنني لا أعتقد أنها تبدو مميزة جدًّا.

قال لي جدي حينها، وهو يداعب شعري بتلك الطريقة البطيئة واللطيفة التي أحبها: «لكن شجرة البولونيا هي الشجرة الوحيدة التي يمكن أن يحط عليها طائر الفينيق ليستريح». أومأت برأسي، وشعرت بالسعادة لأنني أملك شجرة مميزة كهذه في اسمي.

لم أفكر في ذلك اليوم مع جدي منذ سنوات إلى أن تحدث إيفان معي.

سألني إيفان: «هل وجدتِ طائرك الفينيق؟» ثم طلب مني الخروج معه في موعد غرامي.

لم يكن إيفان خجولًا، ليس مثل معظم الرجال الصينيين الذين كنت أعرفهم. شعرت بالراحة وأنا أستمع إليه، وكان يبدو سعيدًا حقًّا بحياته، وهو أمر نادر بين طلاب الدراسات العليا، مما جعل الوجود معه ممتعًا.

بطريقة ما، كان من الطبيعي أن ننجذب إلى بعضنا. كنا قد جئنا إلى أمريكا ونحن صغار، وكنا نعرف معنى أن نكبر كغرباء يسعون جاهدين ليصيروا أمريكيين.

لذا كان سهلًا علينا أن نقدر عيوب بعضنا، تلك الجوانب الصغيرة في شخصياتنا التي ظلت متمسكة بلمسة الوافد الجديد.

لم يتأثر إيفان ببراعتي في الأرقام والإحصائيات، والجوانب العملية في الحياة. كان بعض من شركائي السابقين يخبرونني أن تركيزي على القياسات ومنطق الرياضيات جعلني أبدو باردة وغير أنثوية. ولم تساعدني حقيقة أنني أعرف كيفية التعامل مع الأدوات الكهربائية أفضل من معظمهم، وهي مهارة ضرورية لعالمة فيزياء في المختبرات. إيفان كان الرجل الوحيد السعيد تمامًا والواثق بي عندما أخبره أنني أستطيع فعل شيء يتطلب مهارات ميكانيكية بشكل أفضل منه.

لقد صارت ذكريات تعارفنا ضبابية مع مرور الوقت، ومغطاة بتوهج ذهبي ناعم من العاطفة، لكنها تظل كل ما تبقى لي. إذا سنحت لي الفرصة يومًا لإعادة تشغيل آلتي، أرغب في العودة إلى تلك الأوقات.

أحببت الذهاب معه إلى النزل الصغير في نيو هامبشير في الخريف لقطف التفاح. واستمتعت بتحضير أطباق بسيطة من كتاب الوصفات ورؤية

تلك الابتسامة السخيفة على وجهه. أحببت الاستيقاظ بجانبه في الصباح والشعور بالسعادة لأنني امرأة. وأحببت قدرته على النقاش بحماسة، وإثباته لرأيه عندما يكون محقًا، وتراجعه برقي عندما يخطئ. أحببت وقوفه بجانبي دائمًا في أي خلاف مع الآخرين وأنه كان يدعمني حتى النهاية، حتى إذا رأى أنني على خطأ.

لكن أكثر ما أحببته هو حكاياته عن تاريخ اليابان.

في الواقع، ألهمني اهتمامه باليابان بطريقة لم أشعر بها من قبل. عندما كنت صغيرة، كان الناس عندما يكتشفون أنني يابانية، يفترضون أنني مهتمة بالأنمي، وأحب الكاريوكي، وأضحك بيدين مضمومتين، وكان الفتيان، بشكل خاص، يعتقدون أنني سأتقمص خيالاتهم الجنسية الشرقية. كان هذا مرهقًا. في مرحلة المراهقة، تمردت على ذلك برفضي فعل أي شيء يبدو يابانيًا، حتى أنني امتنعت عن التحدث باليابانية في المنزل. تخيل شعور والديَّ المسكينين.

روى لي إيفان تاريخ اليابان ليس كسرد للتواريخ أو الأساطير، بل كعرض للمبادئ العلمية المتجذرة في الإنسانية. أراني أن تاريخ اليابان ليس قصة عن الأباطرة والقادة العسكريين، والشعراء والرهبان. بل نموذج يوضح الطريقة التي تنمو بها جميع المجتمعات البشرية وتتكيف مع العالم الطبيعي، بينما تتكيف البيئة بدورها مع وجوده.

كصيادين وجامعي ثمار، كان اليابانيون القدماء من شعب جومون هم أعلى المفترسين في بيئتهم، وفي فترات نارا وهيان، بدأ اليابانيون الزراعيون في تشكيل بيئة اليابان لتكون منظومة متكاملة تركز على الإنسان، وهي عملية لم تكتمل إلا مع الزراعة المكثفة ونمو السكان في فترة اليابان الإقطاعية. وأخيرًا، كصناعيين ورواد أعمال، بدأ شعب اليابان الإمبراطوري في استغلال ليس فقط الكائنات الحية، بل أيضًا الكائنات الميتة من الماضي. فقد صار السعي وراء مصادر موثوقة للوقود الأحفوري العامل الرئيسي في تاريخ اليابان الحديث، كما هو الحال في بقية العالم الحديث. نحن جميعًا الآن مستغلون للموتى.

إذا خلصنا التاريخ من تفاصيل فترة حكم الأباطرة وتواريخ المعارك، فسنكتشف إيقاعًا أعمق يتدفق عبر الزمن، ليس كإنجازات رجال عظماء، بل كقصص لحياة عاشها الناس العاديون وهم يسبحون ضد تيارات العالم

الطبيعي من حولهم: كالأرض التي يسيرون عليها، والفصول التي تتبدل، والمناخ الذي يحيط بهم، وموارد الحياة التي تزداد أو تندر. كان هذا هو التاريخ الذي قد يستهوي عالمًا فيزيائيًّا.

جمعت اليابان بين العولمة والفرادة في آن واحد. جعلني إيفان أدرك الرابط العميق بيني وبين أولئك الذين حملوا هوية اليابانيين على مدى آلاف السنين.

لكن التاريخ لم يكن مجرد أنماط عميقة تمتد عبر الزمن. كان وقتًا ومكانًا تمكن فيه الأفراد من أن يتركوا أثرًا استثنائيًا. قال لي إيفان إنه تخصص في فترة هيان، لأنها الفترة التي ولدت فيها اليابان كما هي اليوم. فقد حولت نخبة البلاط، التي لم تتجاوز بضعة آلاف من الأشخاص، تأثيرات القارات الأخرى إلى جمالية يابانية فريدة ومثالية، ستظل تتردد عبر العصور وتحدد معيار ما يعنيه أن تكون يابانيًّا في العصر الحالي. وكان ما يميز المستوى العالي من الثقافة والفنون في فترة هيان، وهو أمر نادر بين ثقافات العالم القديمة، هو أن النساء كان لهن دور كبير في تشكيلها جنبًا إلى جنب مع الرجال. كانت تلك فترة ذهبية، معبأة بالجمال والروعة، لكنها غير قابلة للتكرار. كان هذا النوع من المفاجآت هو ما جعل إيفان يعشق التاريخ.

ملهَمة بما سمعته، قررت الالتحاق بدورة دراسية عن تاريخ اليابان وطلبت من والديَ أن يعلمني فن الخط الياباني. بدأت أكتسب اهتمامًا جديدًا بدروس اللغة اليابانية المتقدمة، وتعلمت كتابة تانكا، وهي قصائد يابانية بسيطة وأنيقة تتبع قواعد شعرية دقيقة تعتمد على الرياضيات. عندما شعرت بالرضا عن محاولتي الأولى، غمرتني السعادة، وأنا متأكدة أنه في تلك اللحظة، شعرت بما شعرت به «مُراسكي شيكيبو» عندما أنجزت أول تانك لها. كان يفصل بيننا أكثر من ألف عام، ومسافة أكثر من عشرة آلاف ميل، لكن في تلك اللحظة، كنا بلا شك سنشعر بالشعور نفسه ونفهم بعضنا.

جعلني إيفان أفتخر بأنني يابانية، وبالتالي أحب نفسي. وهكذا عرفت أنني كنت حقًا أحبه.

لي جيانجيان، مدير في متجر سوني في تيانجين:

لقد انتهت الحرب منذ وقت طويل، وفي مرحلة ما علينا أن نواصل حياتنا. ما فائدة نبش ذكريات مثل هذه الآن؟ كانت الاستثمارات اليابانية في الصين

مهمة للغاية لتوفير الوظائف للشعب، وجميع الشباب في الصين يحبون الثقافة اليابانية. لا أحب فكرة أن اليابان لا ترغب في الاعتذار، لكن ما الذي يمكننا فعله؟ إذا استمررنا في التفكير في ذلك، فنحن من سنظل غاضبين وحزانى.

سونج يوانوو، نادلة:

قرأت عن ذلك في الصحف. الدكتور وي ليس صينيًّا، بل هو أمريكي. جميع من في الصين يعرفون بأمر وحدة 731، لذلك هذا ليس شيئًا جديدًا بالنسبة لنا. لا أريد الإفراط في التفكير في الأمر. بعض الشباب الأغبياء يصرخون بضرورة مقاطعة المنتجات اليابانية، لكنهم لا يترددون في شراء العدد التالي من المانجا. لماذا أستمع إليهم؟ كل ما يفعله هذا هو إثارة غضب الناس دون تحقيق أي نتيجة.

اسم مجهول، في منصب تنفيذي:

الحقيقة هي أن معظم الناس الذين قُتلوا هناك في هاربين كانوا فلاحين، وقد ماتوا كما يموت الجميع في ذلك الوقت في جميع أنحاء الصين. في الحروب تحدث أشياء سيئة، وهذا هو الحال.

ما سأقوله سيدفع الجميع لكراهيتي، لكن العديد من الناس ماتوا أيضًا خلال سنوات الكوارث الطبيعية الثلاث في عهد الرئيس، ثم خلال الثورة الثقافية. الحرب محزنة، لكنها مجرد حزن واحد من بين العديد من الأحزان التي يعاني منها الشعب الصيني. والأحزان الكبرى في الصين لا يُحزن عليها. ذلك الدكتور وي ليس إلا مُثيرًا للفوضى. فلا يمكننا أن نأكل أو نشرب أو نرتدي الذكريات.

ني ليانج وفانج روي، طلاب جامعيون:

ني: أنا سعيدة لأن وي فعل ذلك. فاليابان لم تواجه عواقب تاريخها المروع قط. وكل صيني يعلم أن هذه الأحداث قد وقعت بالفعل، لكن الغرب لا يعرفون ذلك ولا يهتمون. ربما الآن بعد أن عرفوا الحقيقة، سيضغطون على اليابان للاعتذار.

فانج: احترسي يا ني. عندما يرى الغرب هذا، سيقولون إنك فينتشينج[1] وقومية مغسولة الدماغ. هم يحبون اليابان في الغرب، لكن لا يحبون الصين. الغرب لا يريدون فهم الصين، ولعلهم لا يستطيعون ذلك. ليس لدينا ما نقوله لهؤلاء الصحفيين. لن يصدقوننا على أي حال.

سان مايينج، موظفة:

لا أعرف من هو وي، ولا أهتم.

أكيمي كيرينو:

أردنا أنا وإيفان الذهاب لمشاهدة فيلم في تلك الليلة. قد نفدت تذاكر الفيلم الكوميدي الرومانسي الذي أردناه، لذا اخترنا الفيلم الذي سيبدأ في أقرب وقت بعده. كان اسمه «فلسفة السكين». لم نسمع عن الفيلم من قبل. وكنا نريد فقط قضاء بعض الوقت معًا.

تتحكم في حياتنا هذه اللحظات الصغيرة، التي تبدو عادية، ولكنها تثبت في النهاية أن لها تأثيرات كبيرة غير متوقعة. هذه العشوائية أكثر شيوعًا في شؤون البشر منها في الطبيعة، ولم يكن هناك أي طريقة تمكنني كفيزيائية من التنبؤ بما حدث بعد ذلك.

تُعرض مشاهد من فيلم «فلسفة السكين» لأندريه إيسكانوف بينما تتحدث الدكتورة كيرينو.

كان الفيلم عرضًا تصويريًا لما فعلته وحدة 731، مع إعادة تمثيل العديد من تجاربها. وكان شعاره «الله خلق السماء، والناس خلقوا الجحيم».

لم نتمكن نحن الاثنين من النهوض بعد نهايته. همس إيفان لي قائلًا: «أنا آسف. لم أكن أعرف».

---

(1) كلمة المترجمة: فينتشينج (Fenqing) هو مصطلح صيني يستخدم للإشارة إلى الشباب الصينيين الذين يُظهرون حماسة وطنية مفرطة، خاصة تجاه القضايا المتعلقة بالصين والعلاقات الدولية. غالبًا ما يُستخدم لوصف الأفراد الذين يظهرون مواقف متشددة أو متعصبة في الدفاع عن الصين، وقد يُنظر إليهم أحيانًا على أنهم متطرفون في آرائهم أو متأثرون بشكل مبالغ فيه بالدعاية الوطنية.

لم يعتذر لأنه اصطحبني إلى الفيلم، بل بسبب ثقل شعوره بالذنب لأنه لم يكن يعرف الفظائع التي ارتكبتها وحدة 731. لم يسبق له أن صادفها في دراساته أو أبحاثه. وبما أن جديه لجآ إلى شنجهاي خلال الحرب، لم يتأثر أحد من عائلته بشكل مباشر بتلك الأحداث.

لكن بسبب عمل جديه مع الحكومة الخاضعة لسيطرة اليابان في شنجهاي التي كانت تحت الاحتلال الياباني، صُنفوا لاحقًا كمتعاونين بعد الحرب. وقد أدت معاملتهم القاسية على يد حكومة جمهورية الصين الشعبية إلى فرار عائلته في النهاية إلى الولايات المتحدة. وهكذا، شكلت الحرب حياة إيفان، كما شكلت حياة جميع الصينيين، حتى وإن لم يكن مدركًا لجميع تبعاتها.

بالنسبة لإيفان، كان الجهل بالتاريخ، ذلك التاريخ الذي شكل هويته بطرق عديدة، خطيئة في حد ذاته.

قال له أصدقاؤه: «إنه مجرد فيلم. خيال».

لكن في تلك اللحظة، انتهى التاريخ كما كان يراه إيفان. المسافة التي كان يضعها بينه وبين الأحداث، والتصورات الكبرى للتاريخ التي كانت تثيره سابقًا، فقدت كل معانيها أمام المشاهد الدموية التي عرضتها الشاشة.

بدأ إيفان في البحث عن الحقيقة التي وراء الفيلم، وسرعان ما سيطرت تلك الفكرة على يقظته. صار مهووسًا بأفعال وحدة 731، وتحولت إلى حياته اليومية وكابوسه في الوقت نفسه. بالنسبة له، كان جهله بتلك الفظائع بمثابة توبيخ ودعوة للتحرك في آن واحد. لم يستطع السماح لمعاناة الضحايا بأن تُنسى، ولم يكن ليقبل أن ينجو الجلادون من العقاب.

حينها، شرحت له الإمكانيات التي تقدمها جسيمات بوم-كيرينو.

رأى إيفان أن السفر عبر الزمن سيجعل الناس يهتمون.

عندما كانت دارفور مجرد اسم على قارة بعيدة، كان من الممكن تجاهل الوفيات والانتهاكات. لكن ماذا لو جاء جيرانك ليحكوا لك عما شاهدوه خلال سفرهم إلى دارفور؟ ماذا لو ظهر أقارب الضحايا عند بابك ليحكوا لك ذكرياتهم عن تلك الأرض؟ هل ستظل قادرًا على تجاهل ذلك؟

كان إيفان يعتقد أن شيئًا مشابهًا سيحدث مع السفر عبر الزمن. إذا كان الناس يستطيعون رؤية الماضي وسماعه، فسيصير من المستحيل أن يظلوا غير مبالين.

مقتطفات من الجلسة المتلفزة أمام اللجنة الفرعية لشؤون آسيا والمحيط الهادئ والبيئة العالمية التابعة للجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب، الكونجرس الحادي عشر، برعاية محطة سي-سبان.

شهادة لليليان سي. تشانج-وايث، الشاهدة:

أشكر السيد الرئيس وأعضاء اللجنة الفرعية على منحنا هذه الفرصة للإدلاء بشهادتي اليوم. كما أود أن أعرب عن امتناني للدكتور وي والدكتورة كيرينو، اللذين ساهمت جهودهما في وجودي هنا اليوم ممكنًا.

وُلدت في 5 يناير 1962 في هونج كونج. جاء والدي، جايي «جيمي» تشانج، إلى هونج كونج من البر الرئيسي للصين بعد الحرب العالمية الثانية. وهناك، صار تاجرًا ناجحًا لقمصان الرجال وتزوج من والدتي. كنا نحتفل بعيد ميلادي كل عام في اليوم الذي قبله. عندما سألته والدتي عن سبب ذلك، قال إن الأمر يتعلق بالحرب.

كفتاة صغيرة، لم أكن أعرف الكثير عن حياة والدي قبل أن أولد. كنت أعلم أنه نشأ في منشوريا التي كانت تحت الاحتلال الياباني، وأن عائلته بأكملها قُتلت على يد اليابانيين، وأن المقاومين الشيوعيين هم من أنقذوه. لكن لم يخبرني بتفاصيل أكثر.

في مرة واحدة فقط، تحدث والدي معي بصراحة عن حياته أثناء الحرب. كان ذلك في الصيف الذي سبق التحاقي بالجامعة، في عام 1980. كأب تقليدي، أقام لي احتفالًا يُعرف بـ«جيجيلي»، كان علي اختيار «بياوزي»، أي اسم التكريم. وهو الاسم الذي كان يختاره الشباب الصينيون لأنفسهم عند بلوغ سن الرشد ليُعرفوا به بين أقرانهم. لم يعد معظم الصينيين-حتى أولئك الذين في هونج كونج- يمارسون هذا التقليد بعد الآن.

صلينا معًا، وركعنا أمام المذبح المخصص لأجدادنا، ثم أشعلت عصي البخور ووضعتها في مبخرة البرونز الموجودة في الفناء. ولأول مرة في حياتي، بدلًا من أن أسكب له الشاي، سكبه لي والدي. رفعنا أكوابنا معًا وتناولنا الشاي، ثم أخبرني والدي بمدى فخره بي.

وضعت كوب الشاي جانبًا وسألته عن أكثر من يقدرها من قريباتي الأكبر سنًا، لكي أختار اسمًا يكرم ذكراها. عندها أراني الصورة الوحيدة التي كانت لديه لعائلته. جلبتها هنا اليوم وأود أن أضعها في السجل.

التقطت هذه الصورة في عام 1940 بمناسبة عيد ميلاد والدي العاشر. كانت العائلة تعيش في سانجيابياو، وهي قرية تبعد نحو عشرين كيلومترًا عن هاربين، حيث ذهبوا لالتقاط هذه الصورة في استوديو. في هذه الصورة، يمكنكم رؤية جدي وجدتي يجلسان معًا في المنتصف. ويقف والدي بجانب جدي، وبجانب جدتي، توجد عمتي تشانج يي (暢怡) والتي يعني اسمها «السعادة الهانئة». لم أعرف أن لي عمة حتى أراني والدي هذه الصورة.

لم تكن عمتي فتاة جميلة. يمكنكم أن تروا أنها وُلدت بوحمة كبيرة وداكنة على شكل خفاش على وجهها مما شوه ملامحها. مثل معظم الفتيات في قريتها؛ لم تذهب إلى المدرسة وكانت أمية. لكنها كانت طيبة القلب، ورقيقة، وذكية، وكانت تهتم بكل أعمال الطبخ والتنظيف في المنزل منذ أن كانت في الثامنة. كان جدي وجدتي يعملان في الحقول طوال اليوم، وكأخت أكبر، كانت تشانج يي بمثابة أم لوالدي. كانت تحممه وتطعمه، وتغير له ملابسه، وتلعب معه، وتحميه من الأطفال الآخرين في القرية. وعندما التقطت هذه الصورة، كانت في السادسة عشرة من عمرها.

سألت والدي: «ماذا حدث لها؟».

قال: «أخذوها. جاء الجنود اليابانيون إلى قريتنا في 5 يناير 1941 لأنهم أرادوا أن يجعلوا منها عبرة كي لا تجرؤ القرى الأخرى على دعم المقاومة. كنت في الحادية عشرة من عمري وكانت تشانج يي في السابعة عشرة. أمرني والداي بالاختباء في الحفرة التي تحت الصومعة. وبعد أن طعنوهما بالحراب، رأيتهم يجرون تشانج يي إلى شاحنة ويأخذونها بعيدًا».

- إلى أين أخذوها؟

قال: «قالوا إنهم سيأخذونها إلى مكان يدعى بينجفانج، جنوب هاربين».

- ما نوع المكان؟

- لم يكن أحد يعرف. قيل في ذلك الوقت إن المكان كان مجرد مطحنة خشب، لكن القطارات التي تمر بالقرب منه كانت تُجبر على إسدال ستائرها، وأخلى اليابانيون القرى المحيطة وحراسة المنطقة بشدة.

وظن المقاومون الذين أنقذوني أنه ربما كان مستودعًا للأسلحة أو مقرًّا رئيسيًّا لجنرالات يابانيين. أظن أنها ربما أُخذت لتكون جارية جنسية للجنود اليابانيين، ولكنني لا أعلم ما إذا كانت نجت.

وهكذا اخترت أن يكون اسمي البياوزي تشانج يي تكريمًا لعمتي التي كانت بمثابة أم لوالدي. اسمي يشبه اسمها في النطق لكنه يُكتب بحروف مختلفة، وبدلًا من أن يعني «السعادة الهانئة»، فإنه يعني «الذكرى الخالدة». صلينا معًا ودعونا لأن تكون نجت من الحرب وما زالت على قيد الحياة في منشوريا.

في العام التالي، عام 1981، نشر الكاتب الياباني موريمورا سيئيشي كتابه «شراهة الشيطان» (Devil's Gluttony)، الذي كان أول إصدار ياباني يتناول تاريخ الوحدة 731. قرأت الترجمة الصينية للكتاب، واكتسب اسم بينجفانج فجأة معنى مختلفًا تمامًا. ولسنوات، طاردتني كوابيس عما حدث لعمتي.

توفي والدي في عام 2002. قبل وفاته، طلب مني أنه إذا اكتشفت يومًا حقيقة ما حدث لعمتي، أن أخبره بذلك أثناء زيارتي السنوية لقبره. وعدته بأن أفي بهذا الطلب.

لهذا السبب، وبعد مرور عقد من الزمن، تطوعت للذهاب في هذه الرحلة عندما عرض الدكتور وي هذه الفرصة. كنت أرغب بشدة في معرفة مصير عمتي. كنت آمل-رغم كل شيء- أن تكون قد نجت وهربت، رغم معرفتي بعدم وجود ناجين من الوحدة 731.

تشونج-نيان شيه، مدير قسم علم الآثار في الجامعة الوطنية المستقلة في تايوان:

كنتُ من أوائل المشككين في قرار إيفان بإعطاء الأولوية لأقارب ضحايا الوحدة 731 وإرسالهم كمتطوعين بدلًا من المؤرخين المحترفين أو الصحفيين وبالرغم من تفهمي لرغبته في جلب السلام لأسر الضحايا، فإن هذا القرار أدى إلى طمس أجزاء كبيرة من التاريخ داخل دائرة الحزن الشخصي، مما جعلها تضيع إلى الأبد على البشرية. وكما تعلمون، إن تقنيته لا رجعة فيها، فبمجرد أن يُرسل مراقبًا إلى زمان ومكان محددين، تختفي جزيئات بوم-كيرينو. مما يمنع أي محاولة للعودة إلى ذلك الموقع مجددًا. هناك حجج

أخلاقية تؤيد وتعارض قراره: هل يُعتبر ألم الضحايا قضية خاصة بمعاناة الأسر المعنية فقط؟ أم يجب أن يُنظر إليه على أنه جزء أساسي من تاريخنا الإنساني المشترك؟

إحدى التناقضات الجوهرية في علم الآثار هي أنه لكي نتمكن من التنقيب في موقع لدراسته، يجب علينا أن ندمره ونستهلكه تمامًا أثناء العملية. بداخل مجالنا المهني، هناك نقاش دائم عما إذا كان من الأفضل التنقيب في الموقع الآن أو الحفاظ عليه كما هو في مكانه إلى أن نطور تقنيات أقل تدميرًا. ولكن من دون هذه التنقيبات التدميرية، كيف يمكننا تطوير تقنيات جديدة؟

ربما كان ينبغي على إيفان أن ينتظر حتى تتطور طريقة لتسجيل الماضي دون محوه أثناء العملية. ولكن في ذلك الوقت، سيكون الأوان قد فات بالنسبة لعائلات الضحايا الذين هم أكثر من سيستفيد من تلك الذكريات. ظل إيفان يكافح دائمًا لكي يوازن بين مطالب الماضي ومتطلبات الحاضر.

لليليان سي. تشانج-وايث:

ذهبت في رحلتي الأولى قبل خمس سنوات، في الوقت الذي بدأ فيه الدكتور وي بإرسال الأشخاص إلى الماضي.

توجهت إلى يوم 6 يناير 1941، اليوم الذي تلى اختطاف عمتي.

وجدت نفسي في أرض محاطة بمجموعة من المباني الطوبية. كان البرد قارسًا. لا أستطيع تحديد درجة البرودة بدقة، لكن عادة ما تكون درجات الحرارة في هاربين في شهر يناير تحت الصفر بفارق كبير. علمني الدكتور وي إلى كيفية التحرك باستخدام عقلي فقط، لكن كان من المدهش أن أجد نفسي فجأة في مكان لا وجود مادي فيه، كأنني شبح، أشعر بكل شيء من حولي. كنت ما زلت أتعلم كيفية التنقل عندما سمعت عندما سمعت صوتًا قويًا يشق الهواء، صوت ضربات متكررة خلفي.

استدرت ورأيت صفًا من السجناء الصينيين يقفون في الحقل، مُكبلين بالأصفاد في أرجلهم ويرتدون ثيابًا بالية لا يمكنها أن تحميهم من البرد. ما أثار دهشتي هو أن أذرعهم كانت مكشوفة، وهم يمدونها في الريح الباردة.

مشى ضابط ياباني أمامهم، وضربهم بقوة شديدة بعصا قصيرة على أذرعهم المتجمدة.

مقابلة مع شيرو ياماجاتا، عضو سابق في وحدة 731، برعاية شركة نيبون للبث الإذاعي

[يجلس ياماجاتا وزوجته على كراسي خلف طاولة طويلة قابلة للطي. هو في التسعينيات من عمره. يداه مرفوعتان أمامه على الطاولة، وكذلك يدا زوجته. يبقي وجهه هادئًا ولا يظهر أي تعابير عاطفية. صوته ضعيف لكنه واضح خلف صوت المترجم].

كنا نأخذ الأسرى إلى الخارج وأذرعهم عارية لكي تتجمد بسرعة أكبر في هواء منشوريا البارد. كان البرد قارسًا، ولم أحب تلك اللحظات التي كنت مكلفًا فيها بمهمة إخراجهم. كنا نرشهم بالماء لزيادة سرعة تجمد أذرعهم. وللتأكد من أن أذرعهم قد تجمدت بالكامل، كنا نضربها بعصا قصيرة. إذا سمعنا صوت ضربة حادة، عنى ذلك أن الأذرع قد تجمدت تمامًا وصارت جاهزة للتجارب. كان الصوت يشبه الضرب على قطعة خشب.

اعتقدت أن هذا سبب إطلاقنا على الأسرى اسم «ماروتا»، أي جذوع الأشجار. كنا نمزح مع بعضنا: «كم جذعًا قطعت اليوم؟»، فيرد أحدنا: ليس كثيرًا، ثلاثة جذوع صغيرة فقط».

كنا نجري تلك التجارب لدراسة تأثيرات تجمد الأطراف والظروف المناخية القاسية على جسم الإنسان. كانت ذات قيمة كبيرة. وقد تعلمنا أن أفضل طريقة لعلاج تجمد الأطراف هي غمرها في الماء الدافئ، وليس فركها. ربما أنقذت هذه الطريقة حياة العديد من الجنود اليابانيين. كما لاحظنا تأثيرات الغرغرينا والأمراض عندما كانت تموت أطراف الأسرى المتجمدة.

سمعت عن تجارب كانوا يزيدون فيها ضغط الهواء في غرفة محكمة الإغلاق حتى ينفجر الشخص الذي بداخلها، لكنني لم أشهدها شخصيًا.

كنت أحد المساعدين الطبيين الذين وصلوا في يناير 1941. من أجل ممارسة تقنياتنا الجراحة، أجرينا عمليات بتر الأطراف وعمليات جراحية أخرى على السجناء. استخدمنا كلًّا من السجناء الأصحاء وسجناء تجارب التجمد. عندما بُترت جميع الأطراف، استخدموا الناجين لاختبار الأسلحة البيولوجية. في إحدى المرات، أقدم اثنان من أصدقائي على بتر ذراعي رجل

وإعادة ربطهما على جانبي جسده المعاكسين. كنت أراقب ولكنني لم أشارك. لم أعتقد أن تلك التجربة كانت مفيدة.

ليليان سي. تشانج-وايث:

مشيت خلف صف السجناء حتى المجمع. تجولت في المكان لأبحث عن عمتي.

كنت محظوظة للغاية، فبعد نحو نصف ساعة فقط، وجدت المكان الذي كانت تُحتجز فيه السجينات. ولكن عندما نظرت عبر جميع الزنازين، لم أرَ أي امرأة تشبه عمتي. ثم تابعت السير بشكل عشوائي، أبحث في جميع الغرف. رأيت العديد من الجرار التي تحتوي على أجزاء أجسام محفوظة. أتذكر أنه في إحدى الغرف، رأيت جرة طويلة جدًّا تحتوي على نصف جسم شخص، مقطوعًا عموديًا إلى نصفين، يطفو داخل الجرة.

في النهاية، وصلت إلى غرفة عمليات مملتئة بأطباء يابانيين شباب. سمعت صراخ امرأة فدخلت إلى الغرفة. كان أحد الأطباء يغتصب امرأة على طاولة العمليات. كان هناك العديد من النساء الصينيات في الغرفة، جميعهن عرايا وقد أمسكن بالمرأة التي على الطاولة بإحكام حتى يتمكن الطبيب الياباني من التركيز على اغتصابها.

كان الأطباء الآخرون ينظرون ويشاهدون وهم يتحدثون مع بعضهم بشكل ودي. قال أحدهم شيئًا، وضحك الجميع، بمن فيهم الطبيب الذي كان يغتصب المرأة التي على الطاولة. نظرت إلى النساء اللاتي كن يمسكن بها ورأيت على وجه إحداهن وحمة على شكل خفاش تغطي نصف وجهها. كانت تتحدث مع المرأة التي على الطاولة، محاولة أن تهدئها.

ما صدمني حقًّا لم يكن حقيقة أنها كانت عارية، أو ما كان يحدث. بل أنها بدت صغيرة جدًا. كانت في السابعة عشرة من عمرها، أي أصغر مني بسنة واحدة عندما ذهبت إلى الجامعة. وباستثناء الوحمة، بدت مثلي تمامًا في ذلك الوقت، ومثل ابنتي أيضًا.

[توقفت]

النائبة كوتلر: سيدة تشانج، هل تودين أخذ استراحة؟ أنا متأكدة من أن اللجنة الفرعية ستتفهم ...

ليليان سي. تشانج-وايث: لا، شكرًا. أنا آسفة. من فضلك دعيني أواصل.

بعد أن انتهى الطبيب الأول، سحبوا المرأة عن الطاولة. ضحك الأطباء وتبادلوا النكات فيما بينهم. بعد دقائق، عاد جنديان مع رجل صيني عارٍ يسير بينهما. أشار الطبيب الأول إلى عمتي، ودفعتها النساء الأخريات إلى الطاولة دون أن يتحدثن. لم تقاوم.

ثم أشار الطبيب للرجل الصيني ولوح بيده نحو عمتي. في البداية، لم يفهم الرجل المطلوب منه. فقال الطبيب شيئًا، فنكز الجنديان الرجل باستخدام خناجرهما مما جعله يقفز. نظرت عمتي إليه.

قالت: «يريدونك أن تمارس معي الجنس».

شيرو ياماجاتا:

أحيانًا كنا نتناوب على اغتصاب النساء والفتيات. كثير منا لم يكن مع امرأة من قبل أو شاهد أعضاء امرأة حية. كان نوعًا من التعليم الجنسي.

من المشكلات التي واجهها الجيش كانت الأمراض التناسلية. كان الأطباء العسكريون يفحصون نساء الراحة أسبوعيًّا ويعطونهن حقنًا، لكن الجنود كانوا يغتصبون الصينيات والروسيات فيصابون بالعدوى طوال الوقت. كنا بحاجة لفهم تطور مرض الزهري بشكل أفضل، وخصوصا، اكتشاف علاج له.

لكي نفعل ذلك، كنا نحقن بعض السجناء بمرض الزهري ثم نجعلهم يمارسون الجنس مع بعضهم لكي يتمكنوا من الإصابة به بالطريقة الطبيعية. بالطبع، لم نكن لنلمس هؤلاء النساء المصابات بعد ذلك. كان بإمكاننا دراسة تأثيرات المرض على أعضاء الجسم. كانت كل هذه الأبحاث غير مسبوقة.

ليليان سي. تشانج-وايث:

عدت للمرة الثانية بعد عام، وهذه المرة عدت إلى تاريخ 8 يونيو 1941، أي بعد نحو خمسة أشهر من اختطاف عمتي. ظننت أنني إذا اخترت تاريخًا أبعد من ذلك فقد تكون عمتي قد قُتلت بالفعل. كان الدكتور وي يواجه معارضة كبيرة، وكان قلقًا من تدمير الرحلات المتكررة إلى تلك الحقبة لكثير من الأدلة. وقال لي إن هذه رحلتي الأخيرة.

وجدت عمتي في زنزانة بمفردها. كانت نحيفة جدًّا، ولاحظت أن راحتي يديها مغطاة بطفح جلدي، وكان هناك تورمات حول عنقها بسبب الغدد اللمفاوية الملتهبة. كما استطعت أن أتبين أنها كانت حبلى. لا بد أنها كانت مريضة جدًّا لأن طوال الوقت الذي ظللت فيه معها، كانت مستلقية على الأرض، وعيناها مفتوحتان وتصدر أنينًا خفيفًا: «آي. آي ...».

ظللت معها طوال اليوم، أراقبها. حاولت أن أهدئها، لكنها بالطبع لم تكن تستطيع سماعي أو الشعور بلمستي. كانت الكلمات من أجل راحتي، لا من أجلها. غنيت لها أغنية، أغنية كان والدي يغنيها لي عندما كنت صغيرة:

萬里長城萬里長，長城外面是故鄉

高粱肥，大豆香，遍地黃金少災殃

جدار الصين العظيم طوله عشرة آلاف لي، وفي الجهة الأخرى مسقط رأسي

الذرة الرفيعة غنية، وفول الصويا حلو، والسعادة تنتشر كالذهب على الأرض.

كنت أتعرف عليها وأودعها في الوقت نفسه.

شيرو ياماجاتا:

لدراسة تطور مرض الزهري والأمراض التناسلية الأخرى، كنا نشرح النساء في فترات زمنية مختلفة بعد إصابتهن بالعدوى. كان من المهم فهم تأثيرات المرض على الأعضاء الحية، وكان التشريح أيضًا يوفر خبرة جراحية قيمة. كنا نشرِّحهم أحيانًا باستخدام مخدر الكلوروفورم وأحيانًا من دونه. لكننا عادةً كنا نشرِّح السجناء دون تخدير في تجارب الجمرة الخبيثة والكوليرا لأنه قد يؤثر على النتائج، وأن الأمر نفسه ينطبق على النساء المصابات بالزهري.

لا أتذكر عدد النساء اللاتي شرَّحتهن.

بعض النساء كنّ شجاعات للغاية، فُكن يستلقين على الطاولة دون أن يُجبرن. تعلمت أن أقول «بوتونج، بوتونج» أي «لن يؤلمكِ» باللغة الصينية لتهدئتهن. ثم نربطهن على الطاولة.

عادة، كان أول شق، من الصدر إلى المعدة، يتسبب في صراخ مروع للنساء. بعضهن كن يستمررن في الصراخ لفترة طويلة أثناء عملية التشريح الحي. استخدمنا الكمامات لاحقًا لأن الصراخ كان يتداخل مع المناقشة أثناء عمليات التشريح الحي. بشكل عام، كانت النساء يبقين على قيد الحياة حتى نصل إلى فتح القلب، لذلك كنا نؤخر ذلك إلى النهاية.

أتذكر مرة واحدة كنت أجري تشريحًا على امرأة حبلى وحية. لم نستخدم الكلوروفورم في البداية، لكنها توسلت إلينا قائلة: «من فضلك اقتلوني، لكن لا تقتلوا طفلي». ثم استخدمنا الكلوروفورم لتخديرها قبل الانتهاء منها.

لم يكن أي منا قد رأى ما بداخل امرأة حبلى من قبل، وكان ذلك مفيدًا للغاية. فكرت في الاحتفاظ بالجنين لإجراء بعض التجارب، لكنه كان ضعيفًا جدًّا ومات بعد إزالته بفترة قصيرة.

حاولنا أن نخمن ما إذا كان الجنين من بذرة طبيب ياباني أو أحد السجناء الصينيين، وأعتقد أن معظمنا اتفق في النهاية على أنه كان على الأرجح أحد السجناء بسبب قبح الجنين.

كنت أرى أن العمل الذي أجريناه على النساء ذو قيمة كبيرة وأدى إلى اكتسابنا العديد من المعلومات.

لم أكن أعتقد أن العمل الذي أجريناه في الوحدة 731 غريب بشكل كبير. بعد عام 1941، كُلفت بالذهاب إلى شمال الصين، أولًا في محافظة خبي ثم في محافظة شانشي. في مستشفيات الجيش، كنا نحن الأطباء العسكريون من نحدد بانتظام جلسات تدريب على العمليات الجراحية باستخدام أفراد صينيين أحياء. كان الجيش يزودنا بهم في الأيام المحددة. كنا نمارس بتر الأطراف، وقطع أجزاء من الأمعاء ونسج الأجزاء المتبقية معًا، وإزالة مختلف الأعضاء الداخلية.

غالبًا ما كانت العمليات التدريبية تُجرى بدون تخدير لمحاكاة ظروف ساحة المعركة. أحيانًا كان أحد الأطباء يطلق النار على سجين في بطنه لمحاكاة جروح الحرب لنتدرب عليها. بعد العمليات، كان أحد الضباط يقطع

رأس الفرد الصيني أو يخنقه. وأحيانًا كان التشريح الحي يُستخدم أيضًا كدروس تشريح للمتدربين الأصغر سنًا ولتحميسهم. كان من المهم للجيش أن يُنتج جراحين ماهرين بسرعة، حتى نتمكن من مساعدة الجنود.

«جون»، اللقب محجوب، معلم في مدرسة ثانوية، في بيرث بأستراليا:

أنت تعلم أن كبار السن يشعرون بالوحدة الشديدة، لذلك عندما يرغبون في الاهتمام، سيقولون أي شيء. يعترفون بتلك القصص السخيفة المختلقة عما فعلوه. الأمر حقًّا محزن. أنا متأكد من أنه يمكنني العثور على بعض الجنود الأستراليين المسنين الذين سيعترفون بتقطيع جسد امرأة من السكان الأصليين إذا وضعت إعلانًا تسأل فيه عن ذلك. ما يريده الأشخاص الذين يروون هذه القصص هو الاهتمام فقط، مثل أولئك النساء الكوريات العاهرات اللاتي يدعين أنهن اختطفن من قبل الجيش الياباني أثناء الحرب.

باتي آشبي، ربة منزل، ميلووكي، ويسكونسن:

أعتقد أنه من الصعب الحكم على شخص إذا لم تكن حاضرًا في ذلك الوقت. كانت الحرب مستمرة، والشرور تحدث في الحروب. ما يجب فعله من منظور مسيحي هو النسيان والمغفرة. إعادة إحياء مثل هذه الأمور ليس عملًا رحيمًا. ومن الخطأ التدخل في الزمن بهذه الطريقة. لا يمكن أن يترتب على ذلك شيء جيد.

شارون، ممثلة، نيويورك، نيويورك:

أتعلم؟ المشكلة هي أن الصينيين كانوا قاسيين جدًّا مع الكلاب، وحتى أنهم يأكلون الكلاب. كما كانوا قاسيين جدًّا مع التبتيين. لذلك يجعلك هذا تتساءل، هل كان ذلك كارما (عاقبة أخلاقية)؟

شيرو ياماجاتا:

في 15 أغسطس 1945، سمعنا أن الإمبراطور قد استسلم لأمريكا. مثل العديد من اليابانيين في الصين في تلك الفترة، قررت وحدتي أن الاستسلام للقوميين الصينيين أسهل. أُعيد تنظيم وحدتي وجندونا في وحدة من جيش

القوميين تحت قيادة تشيانج كاي-شيك، وواصلت العمل كطبيب عسكري لدعم القوميين في مواجهتهم للشيوعيين خلال الحرب الأهلية الصينية. وبما أن الصينيين كانوا يفتقرون إلى الجراحين المؤهلين، كان عملي مطلوبًا جدًّا، وعوملت بشكل لائق.

لكن القوميين لم يتمكنوا من مواجهة الشيوعيين، وفي يناير 1949، استولى الشيوعيون على المستشفى الميداني العسكري الذي كنت أعمل فيه وأسروني. في الشهر الأول، لم يُسمح لنا بمغادرة زنزاناتنا. حاولت أن أصادق الحراس. كان جنود الشيوعيين صغارًا وضعفاء، لكنهم كانوا يتمتعون بروح معنوية أفضل بكثير من نظرائهم القوميين.

بعد شهر، قدموا محاضرات يومية لنا، مع الحراس، عن الماركسية والمائوية[1].

قيل لي إن الحرب لم تكن خطئي وأنني لا أتحمل اللوم، فقد كنت مجرد جندي، خدعني الإمبراطور شووا وهيديكي توجو للقتال في حرب عدوانية وظالمة ضد الصينيين. من خلال دراسة الماركسية، قيل لي إنني سأفهم أن جميع الناس، سواء الصينيين أو اليابانيين، إخوة. كان من المتوقع منا أن نتفكر فيما فعلناه بالشعب الصيني وأن نكتب اعترافات عن الجرائم التي ارتكبناها خلال الحرب. قيل لنا إن عقابنا سيخفف إذا كانت اعترافاتنا صادقة. كتبت اعترافات، لكنها كانت تُرفض دائمًا لكونها غير صادقة بما يكفي.

ومع ذلك، بما أنني كنت طبيبًا، سُمح لي بالعمل في المستشفى الإقليمي لعلاج المرضى. كنت أكبر جراح في المستشفى ولدي طاقمي الخاص.

سمعنا شائعات عن حرب جديدة على وشك أن تبدأ بين الولايات المتحدة والصين في كوريا. فكرت: *كيف يمكن للصين أن تنتصر على الولايات المتحدة؟* فحتى الجيش الياباني العظيم لم يتمكن من الصمود أمام أمريكا. ربما سأُسَلم للأمريكيين في المرة المقبلة. أظن أنني لم أكن بارعًا قط في التنبؤ بنتائج الحروب.

---

(1) كلمة المترجمة: المائوية هي فكر ومبادئ الحزب الشيوعي الصيني التي طورها الزعيم الصيني ماو تسي تونج. وتعتمد على تفسير خاص للماركسية، حيث ركزت على دور الفلاحين في الثورة بدلًا من الطبقات العمالية كما في الماركسية التقليدية. كما شملت أفكار ماو عن القيادة الثورية، والثورات الثقافية، وأهمية الحفاظ على استمرار الثورة لضمان عدم انحرافها عن مسارها الصحيح.

صار الطعام شحيحًا بعد بداية الحرب الكورية. وكان الحراس يتناولون الأرز مع البصل الأخضر والأعشاب البرية، أما السجناء مثلي فكانوا يتناولون الأرز مع السمك.

سألت: «لماذا يحدث هذا؟».

قال لي سجاني، الذي كان في السادسة عشرة من عمره: «أنتم سجناء من اليابان. واليابان دولة غنية، ويجب أن نعاملكم بطريقة تتناسب بأكبر قدر ممكن مع ظروف بلدكم».

عرضت على الحارس سمكتي، لكنه رفض.

مازحته: «ألا تريد أن تلمس الطعام الذي لمسه شيطان ياباني؟». كنت أيضًا أعلمه القراءة، وكان يسرق لي السجائر.

كنت جراحًا ماهرًا، وكنت فخورًا بعملي. وأحيانًا شعرت أنني كنت أقدم الكثير للصين رغم الحرب، وكنت أساعد العديد من المرضى بمهاراتي.

في يوم من الأيام، جاءت امرأة لزيارتي في المستشفى. كانت قد كسرت ساقها، وبسبب بعد المسافة عن المستشفى، بحلول الوقت الذي أحضرتها عائلتها إلي، كانت قد أصيبت بالغنغرينا، ولا بد من بتر الساق.

كانت على الطاولة، وكنت أستعد لوضعها تحت التخدير. نظرت في عينيها، محاولًا تهدئتها.

- بُتونج، بُتونج.

اتسعت عيناها بشكل كبير، وصرخت. صرخت وصرخت، ثم حاولت الهرب من الطاولة، وهي تجر ساقها الميتة معها حتى ابتعدت عني بقدر ما استطاعت.

عندها تعرفت عليها. كانت واحدة من السجينات الصينيات اللواتي دربناهن لمساعدتنا كممرضات في المستشفى العسكري أثناء الحرب مع الصين. كانت قد ساعدتني في بعض جلسات الجراحة التدريبية. لقد مارست الجنس معها عدة مرات. لم أكن أعرف اسمها. كانت مجرد «رقم 4» بالنسبة لي، وكان بعض الأطباء الأصغر سنًا يمزحون ويقولون إننا سنشقها هي أيضًا إذا خسرت اليابان واضطررنا للانسحاب.

[المُحاور (بعد إيقاف تشغيل الكاميرا): سيد ياماجاتا، لا يمكنك البكاء. أنت تعلم ذلك. لا يمكننا إظهارك عاطفيًا في الفيلم. علينا التوقف إذا لم تتمكن من التحكم في نفسك].

غرقت في حزن لا يوصف. فحينها فقط فهمت نوع الحياة والمهنة التي عشتها. لأنني رغبت في أن أكون طبيبًا ناجحًا، فعلت أشياء لا ينبغي لأي إنسان أن يفعلها. كتبت اعترافي حينها، وعندما قرأ حارسي اعترافي، لم يتحدث معي.

قضيت عقوبتي ثم أطلقوا سراحي وسمحوا لي بالعودة إلى اليابان في عام 1956.

شعرت بالضياع. كان الجميع يعملون بجد في اليابان، لكنني لم أكن أعرف ما علي فعله.

قال لي أحد أصدقائي، الذي كان في الوحدة معي: «ما كان عليك أن تعترف بأي شيء. أنا لم أعترف، وقد أطلقوا سراحي منذ سنوات. أعمل في وظيفة مناسبة الآن. وسيصير ابني طبيبًا. لا تتحدث عما حدث أثناء الحرب».

انتقلت إلى هوكايدو هنا لأصير مزارعًا، مبتعدًا عن قلب اليابان قدر الإمكان. طوال هذه السنوات، ظللت صامتًا لأحمي صديقي. واعتقدت أنني سأموت قبله وأخذ سري إلى القبر.

لكن صديقي قد مات، ولذلك، رغم أنني لم أتحدث عما فعلته طوال هذه السنوات، فلن أتوقف عن الحديث الآن.

ليليان سي. تشانج-وايث:

أنا أتحدث فقط عن نفسي، وربما عن عمتي. أنا آخر صلة بينها وبين عالم الأحياء. وأنا أيضًا أتحول إلى امرأة مسنة.

لا أعرف الكثير عن السياسة، ولا أهتم بها كثيرًا. لقد رويت لكم ما رأيت، وسأتذكر الطريقة التي بكت بها عمتي في تلك الزنزانة حتى أموت.

تسألني عما أريد. لا أعرف كيف أجيب على ذلك.

قال بعض الناس إن علي أن أطالب بمحاكمة الأعضاء الناجين من وحدة 731. لكن ماذا يعني ذلك؟ أنا لم أعد طفلة. لا أريد أن أرى محاكمات أو استعراضات أو عروضًا. القانون لا يمنحك العدالة الحقيقية.

ما أريده حقًّا هو ألا يحدث ما رأيته، ألا يكون حقيقيًّا. لكن لا أحد يمكنه أن يعطيني ذلك. لذلك، أجد نفسي أرغب في أن تُتذكر قصة عمتي، وأن تُكشف ذنوب قاتليها ومعذبيها أمام عيون العالم، كما كشفوها أمام إبرهم ومشارطهم.

لا أعرف كيف أصف تلك الأفعال سوى أنها جرائم ضد الإنسانية. كانت إنكارًا لفكرة الحياة نفسها.

لم تعترف الحكومة اليابانية قط بأفعال وحدة 731، ولم تعتذر عنها. وعلى مر السنين، ظهرت المزيد والمزيد من الأدلة على الفظائع التي ارتكبت خلال تلك السنوات، ولكن كان دائمًا يوجد الجواب نفسه: لا يوجد دليل كافٍ لمعرفة ما حدث.

حسنًا، الآن توجد أدلة. لقد رأيت ما حدث بعيني. وسأتحدث عما حدث، وسأقف في وجه كل من أنكر الحقائق. سأروي قصتي كلما استطعت.

لقد ارتكب رجال ونساء وحدة 731 تلك الأفعال باسم اليابان والشعب الياباني. وأنا أطالب الحكومة اليابانية بالاعتراف بهذه الجرائم ضد الإنسانية، وأن تعتذر عنها، وأن تلتزم بالحفاظ على ذكرى الضحايا وإدانة أولئك المجرمين ما دام أن كلمة العدالة ما زالت تعني شيئًا.

وأنا أيضًا آسفة لأن أقول، يا سيدي الرئيس وأعضاء اللجنة الفرعية، إن حكومة الولايات المتحدة لم تعترف أو تعتذر قط عن دورها في حماية أولئك المجرمين من العدالة بعد الحرب أو في الاستفادة من المعلومات التي حُصل عليها على حساب التعذيب والاغتصاب والموت. أطالب حكومة الولايات المتحدة بالاعتراف بهذه الأفعال والاعتذار عنها.

هذا كل شيء.

النائب هوجارت:

أود أن أُذكر أعضاء الجمهور مرة أخرى أنه يجب عليهم الحفاظ على النظام والاحترام خلال هذه الجلسة، وإلا فإنهم قد يتعرضون للطرد بالقوة من هذه القاعة.

السيدة تشانج-وايت، أنا آسف على أي شيء تعتقدين أنكِ مررتِ به. ليس لدي شك في أنه قد أثر فيكِ بعمق. أشكر الشهود الآخرين أيضًا على مشاركة قصصهم.

سيدي الرئيس، وأعضاء اللجنة الفرعية، يجب أن أبدي اعتراضي في السجل مرة أخرى على هذه الجلسة وعلى الحل الذي اقترحه زميلي، النائب كوتلر.

كانت الحرب العالمية الثانية فترة استثنائية، لم تكن القواعد المعتادة للسلوك البشري سارية، ومن المؤكد أن أحداثًا مروعة قد وقعت وأسفرت عن معاناة كبيرة. لكن أيًّا كان ما حدث -ورغم أننا لا نملك دليلًا قاطعًا سوى نتائج بعض التجارب الفيزيائية عالية الطاقة التي لا يفهمها أحد هنا سوى الدكتورة كيرينو نفسها- فإننا سنرتكب خطأً إذا صرنا أسرى للتاريخ، وإذا أخضعنا الحاضر لسيطرة الماضي.

اليابان في يومنا الحالي هي الحليف الأهم للولايات المتحدة في منطقة المحيط الهادئ، إن لم يكن في العالم بأسره، وبينما تتخذ جمهورية الصين الشعبية خطوات يومية لتحدي مصالحنا في المنطقة. تمثل اليابان ركيزة أساسية في جهودنا لاحتواء التهديد الصيني ومواجهته.

من الرعونة، بل وقد يكون ضارًّا، أن يقدم النائب كوتلر هذا القرار في هذا التوقيت. فالقرار سيؤدي بلا شك إلى إحراج حليفنا وإحباطه، وسيمنح خصومنا الدعم والتشجيع في وقت نحن بأمس الحاجة فيه إلى التركيز على مصالحنا الاستراتيجية. لا يمكننا السماح لأنفسنا بالانجرار وراء مشاعر استعراضية مبنية على روايات شهود قد يكون ما مروا به محض أوهام، وفقًا لكلمات الدكتورة كيرينو، مبتكرة التكنولوجيا المعنية.

أدعو اللجنة الفرعية مرة أخرى إلى إنهاء هذه العملية المدمرة والمضرة.

النائب كوتلر:

السيد الرئيس وأعضاء اللجنة الفرعية، أشكركم على منحي الفرصة للرد على النائب هوجارت.

من السهل الاختباء وراء عبارات غامضة وغير مباشرة مثل «وقعت أحداث مروعة» و«نتجت **معاناة**». ومن المؤسف أن أسمع زميلي المحترم، وهو

عضو في الكونجرس الأمريكي، يستخدم نفس الأساليب المخزية من الإنكار والمراوغة التي استخدمها من أنكروا حقيقة الهولوكوست.

كل الحكومات اليابانية المتوالية، بتشجيع وتواطؤ من الإدارات الأمريكية المتوالية، رفضت الاعتذار، فضلًا عن الاعتراف، عن أفعال الوحدة 731. في الواقع، ظلت الوحدة لفترة طويلة غير معترف بوجودها أصلًا. وهذا النمط من الإنكار ورفض مواجهة الفظائع اليابانية التي ارتُكبت خلال الحرب العالمية الثانية يتكرر باستمرار، سواء كنا نتحدث عما يُعرف بـ«نساء الراحة»، أو مذبحة نانجنج، أو العمالة القسرية المستعبدة في كوريا والصين. وقد ألحق هذا النمط ضررًا بالعلاقات بين اليابان وجيرانها الآسيويين.

تُشكل قضية الوحدة 731 تحديات خاصة. فالولايات المتحدة ليست طرفًا محايدًا في هذا الموضوع. بما أنها حليف وصديق مقرب لليابان، يقع على عاتقها واجب الإشارة إلى أخطاء حليفها. لكن القضية أعمق من ذلك؛ فقد لعبت الولايات المتحدة دورًا مباشرًا في مساعدة مرتكبي جرائم الوحدة 731 على الإفلات من العقاب. إذ منح الجنرال ماك آرثر حصانة لأفراد الوحدة مقابل الحصول على بيانات تجاربهم. بذلك، نحن شركاء في مسؤولية الإنكار والتعتيم، لأننا فضَّلنا الاستفادة من النتائج الملوثة لتلك الجرائم عن الحفاظ على نزاهتنا وقيمنا الأخلاقية. نحن أيضًا ارتكبنا إثمًا.

ما أود التأكيد عليه هو أن النائب هوجارت قد أساء فهم الحل. ما نطلبه نحن والشهود، سيدي الرئيس، ليس اعترافًا بالذنب من الحكومة اليابانية الحالية أو شعبها. ما نطلبه هو إعلان من هذه الهيئة بأن الكونجرس الأمريكي يرى أنه يجب تكريم ضحايا وحدة 731 وتذكرهم، وأن مرتكبي هذه الجرائم الوحشية يجب أن يُدانوا. نحن لا نطالب بمعاقبة الأجيال الحالية من الشعب الياباني بسبب أفعال أسلافهم، ولا نريد تطبيق قانون إدانة[1]، ولا فساد الدم

(1) كلمة المترجمة: قانون الإدانة (Bill of Attainder) هو قانون يصدر من قبل السلطة التشريعية يحدد شخصًا معينًا أو مجموعة من الأشخاص كأعداء للدولة ويعاقبهم، عادة بالإعدام أو مصادرة ممتلكاتهم، دون محاكمة قانونية. هذا النوع من القوانين محظور في العديد من الأنظمة القانونية الحديثة لأنه يعد انتهاكًا للحقوق الأساسية.

وعدم أهلية الإرث[1]. ولا نطالب اليابان بدفع تعويضات. كل ما نطلبه هو التزام بالحقيقة، والتزام بالتذكر.

مثل النصب التذكارية للهولوكوست، فإن قيمة مثل هذا الإعلان ببساطة هي تأكيد علني على رابطنا المشترك كإنسانية مع الضحايا ووحدتنا في الوقوف ضد أيديولوجية الشر والوحشية التي تمثلها مجزرة وحدة 731 والمجتمع العسكري الياباني الذي سمح بارتكاب هذه الشرور وشجعها.

أريد أن أوضح أن اليابان ليست كيانًا واحدًا، ولا تقتصر على الحكومة اليابانية فقط. فقد أقدم المواطنون اليابانيون على عمل بطولي في كشف هذه الفظائع على مر السنين، وغالبًا ضد مقاومة الحكومة وضد رغبة الجمهور في نسيان الأحداث والمضي قدمًا. وأنا أقدم لهم شكري من أعماق قلبي.

لا يمكن طمس الحقيقة، ولا ينبغي أن يُقال لأسر الضحايا وشعب الصين إن العدالة ليست ممكنة، وإنه يجب إخفاء هذه المظالم العظيمة وسترها عن نظر العالم، بسبب حكومة الصين الحالية التي تثير اشمئزاز حكومة الولايات المتحدة. هل هناك شك في أن هذا الحل غير الملزِم، أو حتى النسخ الأكثر صرامة منه، كان سينجح بسهولة إذا كان الضحايا ينتمون لشعب حكومة تحظى بتأييد الولايات المتحدة؟ إذا كنا، لأسباب استراتيجية، نضحي بالحقيقة من أجل الحصول على شيء ذي قيمة لمصلحة قصيرة المدى، فإننا ببساطة نكرر أخطاء أسلافنا في نهاية الحرب.

ليس هذا ما نؤمن به. لقد قدمت لنا الدكتورة وي طريقة للتحدث عن حقيقة ما حدث بالماضي، ويجب أن نطلب من حكومة اليابان وحكومتنا التحلي بالشجاعة وتحمل مسؤوليتنا المشتركة تجاه التاريخ.

---

(1) كلمة المترجمة: فساد الدم (Corruption of Blood) يعني أن الشخص الذي يرتكب جريمة يُحرم من حقوقه القانونية، مثل حقوق الميراث أو الحقوق السياسية، ويُعاقب أيضًا أي أفراد من عائلته أو ذريته بسبب فعل ارتكبه الشخص نفسه. هذا المفهوم كان موجودًا في العصور الوسطى.

لي رامنج، مدير قسم التاريخ، جامعة تشجيانج، جمهورية الصين الشعبية:

عندما كنت في مرحلة إنهاء شهادة الدكتوراه في بوسطن، كان إيفان وأكيمي يدعوانني وزوجتي كثيرًا إلى منزلهما. كانا ودودين للغاية ومتعاونين، وجعلانا نشعر بالحماسة والدفء اللذين تشتهر بهما أمريكا بحق. على عكس العديد من الأمريكيين الصينيين الذين قابلتهم، لم يظهر إيفان أي شعور بالفوقية على الصينيين الذين من البر الرئيسي. كان من الرائع أن أحظى بصداقة إيفان وأكيمي مدى الحياة، وألا تتشوه كل تفاعلاتنا بتأثير السياسة بين بلدينا، كما هو الحال غالبًا بين العلماء الصينيين والأمريكيين.

بما أنني صديقه كما أنني صيني، فإن من الصعب علي التحدث عن عمل إيفان بموضوعية، لكنني سأبذل قصارى جهدي.

عندما أعلن إيفان لأول مرة عن نيته في الذهاب إلى هاربن ومحاولة السفر عبر الزمن، كانت الحكومة الصينية تدعمه بحذر. فلم يجرب أحد أي شيء من هذا القبيل من قبل، ولم تتضح بعد الآثار الكاملة للعملية المدمرة التي يجريها إيفان للسفر عبر الزمن. وبسبب تدمير الأدلة في نهاية الحرب، واستمرار التعتيم من قبل الحكومة اليابانية، فإننا لم نملك أي طريقة لنصل إلى أرشيفات الأدلة الوثائقية والتحف المتعلقة بوحدة 731. وكان يُعتقد أن عمل إيفان سيساعد في سد هذه الفجوة من خلال تقديم شهادات مباشرة عما حدث. منحت الحكومة الصينية إيفان وأكيمي تأشيرات تحت افتراض أن عملهما سيساعد في تعزيز الفهم الغربي للنزاعات التاريخية للصين مع اليابان.

لكنهم أرادوا مراقبة عمله. فما زالت الحرب العالمية الثانية تنكئ جرحًا عميقًا بالنسبة لمواطني بلدي، وقد زادت جروحها غير الملتئمة بسبب سنوات من نزاعات ما بعد الحرب مع اليابان. ومن ثم، لم يكن من الممكن سياسيًا ألا تكون الحكومة مشاركة في ذلك. الحرب العالمية الثانية لم تكن ماضيًا بعيدًا، يتعلق بشعوب قديمة، ولم يكن بإمكان الصين السماح لاثنين من الأجانب بالتعامل مع تاريخ الحرب العالمية الثانية باستخفاف كأنهما في مغامرة تاريخية في قبور قديمة.

لكن من وجهة نظر إيفان -وأعتقد أنه كان مبررًا في اعتقاده- أي دعم أو مراقبة أو ارتباط بالحكومة الصينية كان من شأنه أن يدمر مصداقية عمله في أعين الغرب.

لذا، رفض جميع العروض التي قدمتها له الصين ولم يقبل حتى طلب الدبلوماسيين الأمريكيين للتدخل. مما أغضب الكثير من الصينيين وأدى إلى عزله عنهم. وفي وقت لاحق، عندما أوقفت الحكومة الصينية عمله بعد العاصفة الإعلامية السلبية، لم يدافع عنه سوى قليل من الصينيين لأنهم اعتقدوا أنه وأكيمي قد تسببا -ربما عن قصد- في إلحاق أضرار إضافية بتاريخ الصين وشعبها. كانت هذه الاتهامات غير عادلة، وأشعر بالأسف لأنني لم أفعل ما يكفي للدفاع عن سمعته.

تمحور تركيز إيفان في مشروعه حول رؤية تجمع بين الشمولية والتفصيل مقارنة بشعب الصين. فمن ناحية، كان يتمسك بفكرة الفردية بقناعة أمريكية، ركز بشكل أساسي على صوت وذاكرة كل ضحية على حدة. ومن ناحية أخرى، سعى لتجاوز حدود الدول، بهدف إثارة تعاطف الناس في جميع أنحاء العالم مع هؤلاء الضحايا، وإدانة معذبيهم، والتأكيد على إنسانيتنا المشتركة.

لكن خلال ذلك، اضطر إيفان إلى الابتعاد عن الشعب الصيني لضمان المصداقية السياسية لمشروعه في الغرب. قدم حسن نيتهم كقربان في سبيل جذب اهتمام الغرب. حاول إيفان استرضاء الغرب ومجاراة تحيزاته ضد الصين. هل كان ذلك تصرفًا جبانًا؟ هل كان عليه أن يكون أكثر تحديًا؟ لا أعلم.

التاريخ ليس مجرد شأن فردي. حتى عائلات الضحايا يدركون أن للتاريخ جانبًا جماعيًا. فحرب المقاومة ضد الغزو الياباني تمثل القصة التأسيسية للصين الحديثة، تمامًا كما تمثل المحرقة القصة التأسيسية لإسرائيل، والثورة والحرب الأهلية القصتين التأسيسيتين لأمريكا. قد يصعب على الغرب استيعاب هذا، لكن بالنسبة للعديد من الصينيين، كان إيفان، بخوفه ورفضه لمشاركتهم، كأنه يسرق ويمحو تاريخهم. لقد ضحى بتاريخ الشعب الصيني، دون موافقتهم، لتجسيد فكرة يراها الغرب مثالية. أفهم دوافعه، لكنني لا أستطيع أن أوافق على أن خياره كان صائبًا.

بصفتي صينيًّا، لا أشارك إيفان تفانيه المطلق في فكرة التاريخ الشخصي. فلا يمكن سرد قصص جميع الضحايا بشكل فردي كما كان يسعى إيفان، وبكل الأحوال، لن يحل هذا جميع المشكلات.

نظرًا لقدرتنا المحدودة على التعاطف مع المعاناة الجماعية، أعتقد أن ثمة خطرًا من أن يؤدي نهج إيفان إلى العاطفية والذاكرة الانتقائية فقط. فقد لقي أكثر من ستة عشر مليون مدني حتفهم في الصين نتيجة الغزو الياباني. ولم تحدث غالبية هذه المعاناة في مصانع الموت مثل بينجفانج أو حقول القتل مثل نانجينج، التي تجذب العناوين وتلفت انتباهنا، بل وقعت في العديد من القرى الصغيرة والبلدات النائية حيث قتلوا الرجال والنساء واغتصبوهم، وتلاشت صرخاتهم بين الرياح الباردة، حتى صارت أسماؤهم مجرد فراغات منسية. لكنهم يستحقون أيضًا أن يُتذكروا.

ليس بإمكان كل فظاعة أن تجد من يعبِّر عنها ببلاغة مثلما فعلت آن فرانك، ولا أظن أنه ينبغي لنا تقليص التاريخ إلى مجموعة من هذه السرديات فقط.

لكن إيفان كان دائمًا يقول لي إن الأمريكي يفضل التركيز على المشكلة التي يمكنه حلها بدلًا من أن يندب حظه بسبب المشكلات التي لا يستطيع حلها.

لم يكن اختياره سهلًا، ولم أكن لأختر الطريق نفسه. لكن إيفان كان دائمًا مخلصًا للمثُل الأمريكية التي يؤمن بها.

بيل باسر، أستاذ اللغة والثقافة الصينية الحديثة، جامعة هاواي في مانوا:

كثيرًا ما قيل إنه بما أن الجميع في الصين يعرفون ما حدث من الوحدة 731، فإن الدكتور وي لم يكن لديه ما يقدمه للصينيين وكان مجرد ناشط يشوه صورة اليابان. لكن هذا ليس دقيقًا تمامًا. فأحد الجوانب الأكثر مأساوية في النزاع بين الصين واليابان بشأن التاريخ هو مدى تشابه ردود فعلهما. كان هدف وي هو إنقاذ التاريخ من الطرفين.

في بدايات جمهورية الصين الشعبية، بين عامي 1945 و1956، كان النهج الفكري العام للشيوعيين هو اعتبار الغزو الياباني مجرد مرحلة

تاريخية أخرى في مسيرة البشرية غير المتوقفة نحو الاشتراكية. وفي حين أن العسكرية اليابانية قد أُدينت واُحتفي بالمقاومة، سعى الشيوعيون أيضًا إلى مسامحة اليابانيين فرديًّا إذا أبدوا ندمهم، وهو نهج مفاجئ ذو طابع مسيحي/كونفوشيوسي لنظام ملحد. في هذه الأجواء من الحماسة الثورية، تعاملوا مع الأسرى اليابانيين بإنسانية إلى حد كبير. أعطوهم دروسًا ماركسية وطلبوا منهم أن يكتبوا اعترافاتهم بالجرائم التي ارتكبوها. (وصارت هذه الدروس أساسًا للاعتقاد العام في اليابان بأن أي رجل يعترف بجرائم فظيعة خلال الحرب لا بد أن الشيوعيين قد غسلوا دماغه). وبمجرد أن رأوا أنهم خضعوا لإصلاح كافٍ من خلال إعادة التعليم، أطلقوا سراحهم وأعادوهم إلى اليابان. بعد ذلك، قُمعت ذكريات الحرب في الصين أثناء العمل الجاد لبناء يوتوبيا اشتراكية، مع نتائج كارثية معروفة.

ومع ذلك، لم تتوافق هذه المعاملة الرحيمة التي أبدوها لليابانيين مع المعاملة القاسية الستالينية تجاه الملاك العقاريين، ورجال الأعمال، والمثقفين، والصينيين الذين تعاونوا مع اليابانيين. فقد قتلوا مئات الآلاف من الأشخاص، وغالبًا بناءً على أدلة ضئيلة ودون أي جهد للاحتكام إلى الإجراءات القانونية المعتادة.

في وقت لاحق، خلال التسعينيات، بدأت حكومة جمهورية الصين الشعبية في استحضار ذكريات الحرب في سياق الوطنية لتبرير شرعيتها بعد انهيار الشيوعية. ومن المفارقات أن هذه الخطة الواضحة منعت قطاعات كبيرة من الشعب من مواجهة ما حدث في الحرب بشكل صادق أو نزيه بسبب التأثيرات السياسية التي كانت تحرف هذه الذكريات، تسللت مشاعر عدم الثقة في الحكومة إلى كل ما تلامسه.

وهكذا، أدى نهج جمهورية الصين الشعبية في التعامل مع الذاكرة التاريخية إلى سلسلة من المشكلات المترابطة. أولًا، صار التساهل الذي أبدوه للأسرى أساسًا للمكذبين الذين بدؤوا يشككون لاحقًا في صحة اعترافات الجنود اليابانيين. ثانيًا، ربط الوطنية بذكرى الحرب دعا إلى اتهامات بأن أي محاولة للتذكر كانت مدفوعة بأهداف سياسية. وأخيرًا، صار ضحايا الفظائع مجرد رموز، جُردوا من هوياتهم لتلبية احتياجات الدولة.

ومع ذلك، نادرًا ما أُعترف بأن الدوافع التي تكمن خلف صمت اليابان ما بعد الحرب بشأن الفظائع الحربية هي نفسها الدوافع التي قادت ردود الفعل

الصينية. على اليسار، نسبت حركة السلام كل المعاناة التي حدثت خلال الحرب إلى مفهوم الحرب نفسها، ودعت إلى التسامح والسلام الشامل بين جميع الأمم دون إلقاء اللوم على أي طرف. في الوسط، ركزوا على التطور الاقتصادي كوسيلة لتجاوز آثار الحرب. على اليمين، اشتبك الشعور بالذنب المرتبط بالحرب مع الوطنية تشابكًا وثيقًا. وعلى عكس ألمانيا، التي تمكنت من الاعتماد على النازية -المرتبطة بالأنظمة الفاشية وليس بالشعب الألماني نفسه- لتحمل اللوم، كان من المستحيل لليابان الاعتراف بالفظائع التي ارتكبتها خلال الحرب دون أن يشعر الناس أن اليابان كأمة كانت مهددة أو متهمة.

وهكذا، عبر بحر ضيق، اتفقت الصين واليابان بشكل غير مقصود على نفس الاستجابة تجاه وحشية الحرب العالمية الثانية: النسيان باسم المُثل العالمية مثل السلام والاشتراكية، ودمج ذكريات الحرب بمفهوم الوطنية، وتحويل الضحايا والجناة معًا إلى رموز تخدم مصالح. ومن هذه الزاوية، يمكن اعتبار الذكريات غير الكاملة والمجزأة، والمنقوصة في الصين، والصمت والتعتيم في اليابان وجهين لعملة واحدة.

جوهر معتقد وي هو أنه لا يمكن تحقيق المصالحة الحقيقية دون ذاكرة حقيقية. فبدون هذه الذاكرة، لا يستطيع أفراد أي أمة أن يتعاطفوا مع معاناة الضحايا أو يتذكروا آلامهم أو يختبروها. من الضروري أن نملك قصة فردية يمكن لكل منا أن يرويها عما حدث، قبل أن نتمكن من تجاوز فخ التاريخ. وكان هذا هو الهدف الأساسي لمشروع وي طوال الوقت.

برنامج مناقشة حية، 21 يناير في سنة غير محددة في المستقبل، برعاية محطة إف إكس إن إن

إيمي رو: شكرًا يا سعادة السفير يوشيدا والدكتور وي، على موافقتكما على المشاركة في برنامج مناقشة حية الليلة. يرغب مشاهدونا في الحصول على إجابات لأسئلتهم، وأريد أن أرى بعض الإثارة!

لنبدأ بك يا سيادة السفير يوشيدا. لماذا لا تعتذر اليابان؟

يوشيدا: اليابان قد اعتذرت يا إيمي. هذه هي النقطة الأساسية. اليابان قد اعتذرت مرات عديدة عن الحرب العالمية الثانية. كل بضع سنوات علينا أن نمر بهذه المسرحية ويقولون إن اليابان بحاجة للاعتذار عن أفعالها خلال

الحرب العالمية الثانية. لكن اليابان قد فعلت ذلك، مرارًا وتكرارًا. دعيني أقرأ لك بعض الاقتباسات.

هذا مقتطف من بيان رئيس الوزراء توميتشي موراياما في 31 أغسطس عام 1994: «إن أفعال اليابان في فترة معينة من الماضي لم تقتصر فقط على إلحاق الضرر بعديد من الضحايا هنا في اليابان، بل تسببت أيضًا في جروح مؤلمة لشعوب آسيا المجاورة وأماكن أخرى حتى يومنا الحالي. وبالتالي، بناءً على ندمي العميق تجاه هذه الأعمال العدوانية، والاستعمارية، وما شابهها، التي تسببت في معاناة وألم لا يُحتمل للكثيرين، فإنني أغتنم هذه الفرصة لأعلن عن إيماني بأن طريق اليابان في المستقبل يجب أن يكون السعي بكل جهد لتحقيق السلام العالمي بما يتماشى مع التزامي بعدم خوض الحروب. من الضروري أن ينظر اليابانيون بصدق إلى تاريخهم مع شعوب آسيا المجاورة وغيرها».

ومرة أخرى، من بيان البرلمان الياباني في 9 يونيو عام 1995: «بمناسبة الذكرى الخمسين لنهاية الحرب العالمية الثانية، يقدم هذا المجلس أحر التعازي لأولئك الذين سقطوا أثناء القتال ولضحايا الحروب والأعمال المماثلة في مختلف أنحاء العالم. ونحن نتفكر بجدية في العديد من حالات الاستعمار وأعمال العدوان في تاريخ العالم الحديث، ونقر بأن اليابان قد ارتكبت هذه الأفعال في الماضي، مما ألحق الألم والمعاناة بشعوب الدول الأخرى، وخصوصا في آسيا، ويعبر أعضاء هذا المجلس عن شعورهم بالندم العميق».

يمكنني أن أستمر في قراءة العديد من الاقتباسات الأخرى. لقد اعتذرت اليابان بالفعل يا إيمي.

ومع ذلك، كل بضع سنوات، تحاول وسائل الإعلام التابعة لأنظمة معادية لليابان الحرة والمزدهرة إعادة إثارة أحداث تاريخية قد حُسم أمرها مسبقًا بهدف خلق جدل مفتعل. متى سينتهي هذا؟ وبعض الأشخاص الذين من المفترض أنهم أذكياء صاروا أدوات للدعاية. أتمنى أن يستفيقوا ويدركوا أنهم يتعرضون للاستغلال.

رو: دكتور وي، علي أن أقول إن هذه تبدو لي كاعتذارات.

وي: إيمي. ليس هدفي أو غايتي إهانة اليابان. التزامي هو تجاه الضحايا وذكراهم، وليس من أجل الاستعراضات. ما أطلبه هو أن تعترف اليابان

بحقيقة ما حدث في بينجفانج. أريد التركيز على التفاصيل، والاعتراف بتلك التفاصيل، وليس الأقوال الفارغة.

ولكن بما أن السفير يوشيدا قد قرر طرح قضية الاعتذارات، فلنلقي نظرة أقرب عليها، هيا بنا؟

التصريحات التي اقتبسها السفير الياباني ما هي إلا اعتذارات عامة، تفتقر إلى التفاصيل الدقيقة عن الجرائم التي ارتكبت خلال الحرب. إنها اعتذارات سطحية ومموهة. ما يفتقر إليه السفير هو الإشارة إلى رفض الحكومة اليابانية المستمر للاعتراف بالجرائم الحربية المحددة أو تكريم الضحايا بشكل مناسب.

علاوة على ذلك، في كل مرة يصدر فيها أحد هذه التصريحات التي قالها السفير، يصدر تصريح آخر بعد فترة وجيزة من سياسي ياباني بارز يزعم فيه التشكيك فيما حدث خلال الحرب العالمية الثانية. سنة بعد سنة، نتعرض لهذه المسرحية التي تُظهر أن الحكومة اليابانية بوجهين.

يوشيدا: من المألوف أن تكون هناك اختلافات في الرأي عندما يتعلق الأمر بقضايا التاريخ يا دكتور وي. في الديمقراطية، هذا ما تتوقعه.

وي: في الواقع يا سيادة السفير، لقد تبنت الحكومة اليابانية موقفًا ثابتًا تجاه الوحدة 731: فعلى مدى أكثر من خمسين عامًا، كان موقفها الرسمي بشأن الوحدة 731 يتسم بالصمت التام، رغم تراكم الأدلة المادية من أفعال هذه الوحدة بما في ذلك البقايا البشرية. لم يُعترف بوجود الوحدة إلا في التسعينيات، وظلت الحكومة تنفي طوال الوقت أنها أجرت أبحاثًا أو استخدمت أسلحة بيولوجية أثناء الحرب.

لم يعترف القضاء الياباني باستخدام اليابان للأسلحة البيولوجية خلال الحرب العالمية الثانية إلا في عام 2005، وذلك ردًا على دعوى قضائية رفعها بعض أقارب ضحايا وحدة 731 للمطالبة بالتعويضات. وكان هذا أول اعتراف رسمي من الحكومة اليابانية بهذا الواقع. ستلاحظين يا إيمي أن هذا الاعتراف جاء بعد عقد كامل من تلك التصريحات الكبيرة التي قرأها السفير يوشيدا. ومع ذلك، رفضت المحكمة منح التعويضات.

منذ ذلك الحين، استمرت الحكومة اليابانية في التأكيد على أن الأدلة غير كافية لتأكيد تفاصيل التجارب التي أجرتها الوحدة 731 أو تفاصيل سير تلك

الأفعال. ما زال الإنكار الرسمي والصمت مستمرين، رغم الجهود المخلصة التي يبذلها بعض العلماء اليابانيين لكشف الحقيقة.

ومع ذلك، خرج العديد من الأعضاء السابقين في الوحدة 731 منذ الثمانينيات للإدلاء بشهاداتهم والاعتراف بالأفعال الوحشية التي ارتكبوها. وقد وثقنا ووسعنا تلك الحسابات من خلال شهادات جديدة من شهود عيان، من متطوعين سافروا إلى بينجفانج. ويوميًّا، نكتشف المزيد عن جرائم الوحدة 731. وسنواصل سرد قصص الضحايا إلى العالم.

يوشيدا: لا أظن أن سرد القصص هو ما يجب على المؤرخين فعله. إذا كنت ترغب في اختلاق القصص، فلتفعل ذلك، لكن لا تقل للناس إنها تاريخ. الادعاءات الاستثنائية تتطلب أدلة استثنائية. ولا توجد أدلة كافية للتهم الموجهة ضد اليابان حاليًا.

وي: سيادة السفير يوشيدا، هل موقفك حقًا هو أنه لم يحدث شيء في بينجفانج؟ هل تقول إن هذه التقارير التي أعدتها السلطات الأمريكية المستعمرة بعد الحرب هي محض أكاذيب؟ هل تقول إن هذه المذكرات التي كتبها ضباط وحدة 731 هي أكاذيب؟ هل تنكر كل هذا حقًّا؟

هناك حل بسيط لهذه القضية. هل تقبل بالذهاب إلى بينجفانج في عام 1941؟ هل ستصدق ما تراه عيناك عندئذ؟

يوشيدا: أنا ... أنا لا ... أنا أفرق بين ... كانت تلك فترة حرب يا دكتور وي، وربما قد وقعت بعض الحوادث المؤسفة. لكن القصص ليست دليلًا.

وي: هل تقبل بالسفر عبر الزمن يا سيادة السفير؟

يوشيدا: لن أفعل ذلك. لا أرى سببًا منطقيًّا لأخضع لعمليتك. لا أرى سببًا لأن أخضع لهلوسات السفر عبر الزمن التي تدعيها.

رو: ها قد بدأت الإثارة!

وي: سيادة السفير يوشيدا، دعني أكون واضحًا. أولئك الذين ينكرون الحقائق يرتكبون جريمة جديدة ضد ضحايا تلك الفظائع: ليس فقط بأنهم يقفون في صف الجناة والقتلة، بل هم أيضًا يشاركون في محو أصوات الضحايا من التاريخ، وكأنهم يقتلونهم مرة أخرى.

في الماضي، كان هذا الأمر أسهل بالنسبة لهم. فما دام لم يُقاوم الإنكار بشكل فعال، فإن الذكريات تتلاشى مع مرور الزمن وتموت، وتختفي أصوات

الماضي، وينتصر المنكرون. وبالتالي، يستفيد الناس في الحاضر من معاناة الموتى، وهذه الطريقة التي يُكتب بها التاريخ دائمًا.

لكننا الآن وصلنا إلى نهاية التاريخ. ما فعلناه أنا وزوجتي هو أننا توقفنا عن استخدام السرد التاريخي التقليدي الذي قد يكون مشوهًا أو منحازًا، ومنحنا الجميع الفرصة ليروا الماضي بأعيننا. وبدلًا من الذكريات، صار لدينا الآن أدلة لا يمكن دحضها. وبدلًا من استغلال الموتى، صار علينا أن ننظر في وجوه المحتضرين. لقد شهدت هذه الجرائم بعيني. لا يمكن إنكار ذلك.

مقاطع أرشيفية للدكتور إيفان وي وهو يلقي الكلمة الرئيسية في المؤتمر الخامس لدراسات جرائم الحرب الدولية في سان فرانسيسكو، في 20 نوفمبر في سنة غير محددة في المستقبل، برعاية أرشيفات جامعة ستانفورد.

التاريخ ليس محض مجموعة من الحقائق الجافة أو الوقائع المجردة، بل هو عملية سردية تُبنى على الأحداث والوقائع. وسرد القصص الحقيقية، التي تؤكد وتشرح سبب وجودنا، هو المهمة الأساسية للمؤرخ. لكن الحقيقة هشة، وأعداؤها كثيرون. ولعل لهذا السبب، على الرغم من أننا أكاديميون من المفترض أن نسعى وراء الحقيقة، فنادرًا ما تُذكر كلمة الحقيقة دون تحفظات أو إضافات أو توضيحات.

كلما روينا قصة عن فظاعة مهولة، مثل الهولوكوست أو بينجفانج، تكون القوى المنكرة مستعدة دائمًا للهجوم، للطمس والصمت والنسيان. لطالما كان التاريخ صعبًا بسبب هشاشة الحقيقة، ودائمًا ما كان المنكرون قادرين على تصنيف الحقيقة على أنها خيال.

يجب أن نحذر كلما روينا قصة عن ظلم مهول. نحن كائنات تحب السرد، لكننا تعلمنا أيضًا ألا نثق بسردية الفرد.

صحيح أنه لا يمكن لأي أمة أو مؤرخ أن يروي قصة تشمل كل جوانب الحقيقة. لكن رغم أن جميع السرديات هي نتاج تفكير بشري وليست حقائق ثابتة أو مطلقة، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أن كل السرديات بعيدة عن الحقيقة بالمقدار نفسه. بعض السرديات قد تكون أقرب إلى الحقيقة من

غيرها بناءً على الأدلة والمصادر المتاحة. الأرض ليست كرة مثالية ولا قرصًا مسطحًا، ولكن نموذج الكرة أقرب بكثير إلى الحقيقة. وبالمثل، هناك بعض السرديات أقرب إلى الحقيقة من غيرها، ويجب علينا دائمًا أن نسعى لسرد قصة تقترب من الحقيقة قدر الإمكان.

إن حقيقة أننا لا يمكننا الحصول على معرفة كاملة أو مثالية لا يعفينا من الواجب الأخلاقي في الحكم واتخاذ موقف ضد الشر.

فيكتور بي. لوينسون، أستاذ تاريخ شرق آسيا، ومدير معهد دراسات شرق آسيا، جامعة كاليفورنيا بيركلي.

لقد وُصفت بأنني منكِر للحقيقة، وقد وُصفت بأسوأ من هذا. لكنني لست من اليمينيين اليابانيين الذين يظنون أن الوحدة 731 محض خرافة. أنا لا أقول إن شيئًا لم يحدث هناك. ما أقوله هو أنه، للأسف، ليس لدينا أدلة كافية لنتمكن من وصف كل ما حدث هناك بكل يقين. أنا أكن احترامًا كبيرًا لإيفان وي، وهو يبقى وسيبقى أحد أفضل طلابي. لكن من وجهة نظري، فقد تنازل عن مسؤولية المؤرخ لضمان ألا تكون الحقيقة محاصرة بين الشكوك. وقد تجاوز الخط الذي يفصل بين المؤرخ والناشط.

من وجهة نظري، المعركة هنا ليست أيديولوجية، بل منهجية. ما نختلف عليه هو ماهية الذي يشكل الدليل. لطالما اعتمد المؤرخون المدربون على التقاليد الغربية والآسيوية على السجلات الوثائقية، لكن الدكتور وي يرفع الآن من أهمية شهادات الشهود، وليس حتى شهادات الشهود المعاصرين، إذا لاحظتم، بل شهادات شهود من خارج سياق الزمن.

هناك العديد من المشكلات في منهج الدكتور وي. ولدينا الكثير من الخبرة في علم النفس والقانون لنشكك في موثوقية شهادات الشهود. كما أن لدينا مخاوف جدية بشأن الطبيعة الأحادية الاستخدام لعملية كيرينو، التي تبدو وكأنها تدمر الشيء الذي تدرسه، وتمحو التاريخ في الوقت الذي تدعي فيه أنها تسمح برؤيته. لا يمكنك فعليًا العودة إلى لحظة زمنية قد جُربت بالفعل، وبالتالي استهلكها شاهد آخر. وعندما تكون شهادة كل الشهود غير قابلة للتحقق بشكل مستقل عن تلك الشهادة، كيف يمكننا الاعتماد على مثل هذه العملية لتحديد الحقيقة بشأن ما حدث؟

أفهم أنه من منظور مؤيدي الدكتور وي، فإن تجربة رؤية التاريخ وهو ينكشف أمام أعينك يجعل من المستحيل الشك في الأدلة التي تظل ثابتة في ذاكرتك. لكن هذا ببساطة ليس كافيًا للبقية. عملية كيرينو تتطلب قفزة إيمانية: أولئك الذين شهدوا ما لا يمكن وصفه لا يشككون في وجوده، لكن ذلك الوضوح لا يمكن تكراره لأي شخص آخر. وبالتالي، نحن عالقون هنا في الحاضر، نحاول أن نفهم الماضي.

لقد أنهى الدكتور وي الأسلوب التقليدي والمنهجي للتحقيق في التاريخ، الذي يعتمد على جمع الأدلة وتحليلها بشكل منطقي وموضوعي. وحولها إلى شيء يشبه الإيمان الشخصي أو العقيدة. ما رآه شاهد واحد، لا يمكن لأي شخص آخر أن يراه. هذا جنون.

ناوكي، اسم العائلة محجوب، موظف:

لقد شاهدت مقاطع فيديو الجنود القدامى الذين من المفترض أنهم اعترفوا بتلك الأفعال الفظيعة. لكنني لا أصدقهم. إنهم يبكون ويتصرفون بعاطفة مفرطة، كما لو كانوا مجانين. الشيوعيون كانوا خبراء في غسيل الأدمغة، ومن المؤكد أن هذا نتيجة لمؤامرتهم.

أتذكر أحد هؤلاء الرجال المسنين وهو يصف لطف حراسه الشيوعيين. حراس شيوعيون لطفاء! إذا لم يكن هذا دليلًا على غسيل الدماغ، فماذا إذًا؟

كازوي ساتو، ربة منزل:

الصينيون من أعظم ناسجي الأكاذيب. لقد أنتجوا طعامًا مزيفًا، وأولمبيادًا مزيفًا، وإحصاءات مزيفة. تاريخهم أيضًا مزيف. وي هذا أمريكي، ولكنه أيضًا صيني، لذا لا يمكننا أن نثق في أي شيء يفعله.

هيروشي آبي، جندي متقاعد:

الجنود الذين اعترفوا جلبوا عارًا كبيرًا على بلادهم.

المحاور: بسبب ما فعلوه؟

- بسبب ما قالوه.

إيناجا إيتو، أستاذ تاريخ الشرق، جامعة كيوتو:

نحن نعيش في عصر يقدر الأصالة والسرديات الشخصية، كما يتجسد في المذكرات. شهادات الشهود حقيقية للغاية ومؤثرة ما يجبرنا على الإيمان بصحتها، ونعتقد أنها تنقل حقيقة أكبر من أي خيال. ورغم أننا نميل إلى تصديق السرديات الشخصية والشهادات الحية، فإننا في الوقت نفسه نسرع في البحث عن أي اختلافات أو تناقضات صغيرة في هذه السرديات وندعي بناءً على ذلك أن كل شيء فيها ليس سوى خيال. هناك سوداوية شديدة في هذه الديناميكية. ولكن كان يجب أن نعترف منذ البداية أن السرديات لا يمكن اختزالها إلى موضوعية كاملة، رغم أن ذلك لا يعني أنها لا تنقل الحقيقة أيضًا.

إيفان كان أكثر راديكالية مما أدرك معظم الناس. كان يسعى لتحرير الماضي من الحاضر حتى يستحيل تجاهله أو نسيانه أو استغلاله لخدمة احتياجات الحاضر. إن إمكانية مشاهدة التاريخ الحقيقي كما حدث وتجربة ذلك الماضي من قبلنا جميعًا تعني أن الماضي ليس ماضيًا، بل هو حي في هذه اللحظة نفسها.

ما فعله إيفان هو إعادة صياغة الطريقة التي نحقق بها في التاريخ وحولها إلى نوع من أنواع كتابة المذكرات. هذا النوع من التجارب العاطفية مهم في الطريقة التي نفكر بها في التاريخ ونتخذ بها القرارات. فالثقافة ليست مجرد نتاج للعقل والتفكير المنطقي، بل هي أيضًا نتاج التعاطف الحقيقي والمشاعر العميقة. وأخشى أن التعاطف هو العنصر الأساسي الذي كان مفقودًا في ردود الفعل اليابانية بعد الحرب تجاه تاريخها.

حاول إيفان إدخال المزيد من التعاطف والمشاعر في تحقيقاته التاريخية. ومن أجل ذلك، انتُقد بشدة من قبل الأوساط الأكاديمية. لكن إضافة التعاطف والبعد الشخصي الذي لا يمكن التغاضي عنه إلى التاريخ لا يقلل من الحقيقة. بل يعززها. إن قبولنا لضعفنا وذاتيتنا لا يعفينا من المسؤولية الأخلاقية في قول الحقيقة، حتى وإن كانت الحقيقة ليست واحدة، بل مجموعة من التجارب والفهم المشترك التي معًا تشكل إنسانيتنا.

بالطبع، إن لفت الانتباه إلى أهمية وأولوية شهادات الشهود العيان أطلق خطرًا جديدًا. فبمساعدة القليل من المال والمعدات المناسبة، يمكن لأي شخص أن يحذف جزيئات بوهم-كيرينو من فترة زمنية معينة في مكان

محدد، وبالتالي يمحو تلك الأحداث من التجربة المباشرة. وبذلك، ودون أن يقصد، اخترع إيفان تقنية قد تنهي التاريخ إلى الأبد، بحرماننا نحن والأجيال القادمة من تلك التجربة العاطفية في الماضي والتي كان يقدرها بشدة.

أكيمي كيرينو:

كان الوضع صعبًا خلال السنوات التي تلت توقيع مرسوم حظر السفر عبر الزمن. ورفضوا منح إيفان التثبيت الأكاديمي بعد أن كانت نتيجة التصويت متقاربة جدًّا بين المؤيدين والمعارضين. كما صدر المقال الافتتاحي في صحيفة «وول ستريت» بقلم صديقه القديم وأستاذه فيكتور لوينسون، الذي وصفه فيه بأنه أداة للدعاية، مما جرحه وأثر فيه بشدة. ثم تلت ذلك تهديدات بالقتل ومكالمات مزعجة كل يوم.

لكنني أعتقد أن ما فعلوه بي هو ما أثر فيه حقًّا. ففي ذروة الهجمات من منكري الحقائق، سألتني إدارة تكنولوجيا المعلومات في المعهد إذا كنت أمانع أن يشطبوا اسمي من دليل أعضاء هيئة التدريس العام. فكلما أدرجوني على الموقع، كان الموقع يُخترق في غضون ساعات، ويستبدل المنكرون صفحة سيرتي الذاتية بصور يظهر فيها هؤلاء الرجال الشجعان والفصيحين وهم يستعرضون شجاعتهم وذكائهم من خلال توضيح ما سيفعلونه بي إذا تمكنوا مني. ولعلك ستتذكر التقارير الإخبارية عن تلك الليلة التي عدت فيها إلى المنزل وحدي بعد العمل.

لا أريد حقًّا أن أتعمق في تفاصيل تلك الفترة، إذا كان ذلك مقبولًا. انتقلنا إلى بويزي، حيث حاولنا الاختباء من أسوأ ما مررنا به. تجنبنا جذب الانتباه، فحصلنا على رقم هاتف جديد غير مدرج في الدليل، وبقينا بعيدين عن الأنظار. بدأ إيفان في تناول الأدوية لعلاج اكتئابه. وفي عطلات نهاية الأسبوع، كنا نذهب في رحلات مشي في جبال ساوتوث، وبدأ إيفان في رسم خرائط للمناطق التعدينية المهجورة والمدن المهجورة من فترة حمى الذهب. كانت تلك فترة سعيدة بالنسبة لنا، وظننت أنه شعر بتحسن. فالإقامة في أيداهو تذكره أن العالم في بعض الأحيان يمكن أن يكون مكانًا طيبًا، وأنه ليس كل شيء ظلام وإنكار.

لكنه كان يشعر بالضياع، وكأنه يهرب من الحقيقة. كنت أعلم أنه ممزق بين إحساسه بالواجب تجاه الماضي وولائه للحاضر، لي أنا.

لم أستطع تحمل رؤيته يعاني من هذا الصراع الداخلي، لذلك سألته إن كان يرغب في العودة إلى المعركة.

عدنا إلى بوسطن، وكان الوضع قد ازداد سوءًا. لقد حاول أن ينهي التاريخ بألا يكون محض تاريخ، وأن يعيد تعريف دوره، فلا يكون سجلًّا لأحداث الماضي، وأن يمنح الماضي أصواتًا حية تتحدث إلى الحاضر. ولكن الأمور لم تسر كما خطط لها. لقد عاد الماضي إلى الحياة، لكن عندما واجهه الحاضر، قرر الحاضر أن يعيد تشكيل التاريخ كمعتقد ديني.

كلما فعل إيفان المزيد، شعر بأنه يجب أن يفعل أكثر. لم يكن ينام في السرير، بل يغفو على مكتبه. كان يكتب باستمرار، بلا توقف. كان يؤمن بأنه يتوجب عليه وحده دحض كل الأكاذيب ومواجهة جميع أعدائه. لكن ذلك لم يكن كافيًا قط بالنسبة له، مهما فعل. ووقفت بجانبه عاجزة.

كان يقول لي: «علي أن أتحدث نيابة عنهم، لأنهم لا يملكون أحدًا غيري».

بحلول ذلك الوقت، لعل إيفان كان يعيش في الماضي أكثر مما يعيش في الحاضر. رغم أنه لم يعد يستطيع الوصول إلى جهازنا، كان يعيد في ذهنه تلك الرحلات التي ذهب إليها مرارًا وتكرارًا. ظن أنه خذل الضحايا.

لقد شعر بأن مسؤولية عظيمة ألقيت على عاتقه، لكنه فشل في الإيفاء بها. كان يحاول أن يكشف الستار عن ظلم كبير ليريه للعالم، ولكن بدلًا من ذلك، بدا وكأن ما فعله هو إثارة قوى الإنكار والكراهية والصمت.

مقتطفات من مجلة «الاقتصادي»، 26 نوفمبر، في سنة غير محددة في المستقبل

[صوت امرأة هادئ ورزين يتلو نص المقال بصوت مسموع بينما تتحرك الكاميرا فوق المحيط، والشواطئ، ثم الغابات والتلال في منشوريا. من ظل طائرة صغيرة تجري على الأرض تحتنا، يمكننا أن نعرف أن الكاميرا تصور من باب الطائرة المفتوح. يدخل ذراع إلى الإطار من خارج المشهد، واليد مضمومة بإحكام على شكل قبضة. تنفتح الأصابع، ويتبعثر رماد داكن تحت الطائرة].

إننا نقترب من الذكرى التسعين لـحادثة موكدين، التي كانت بداية الغزو الياباني للصين. وحتى يومنا هذا، ما زالت تلك الحرب تمثل البداية والنهاية للعلاقة بين البلدين.

[تُعرض سلسلة من الصور لقادة الوحدة 731. يتلاشى صوت القارئ ثم يعود تدريجيًا].

بعد الحرب، حصل رجال وحدة 731 على مسيرات مهنية بارزة في اليابان. أسس ثلاثة منهم بنك الدم الياباني (الذي صار لاحقًا «جرين كروس»، أكبر شركة أدوية في اليابان) واستخدموا معرفتهم بأساليب تجميد وتجفيف الدم التي اكتسبوها من التجارب البشرية خلال الحرب لإنتاج منتجات دم مجفف لبيعها للجيش الأمريكي لتحقيق أرباح ضخمة. من الممكن أن الجنرال شيرو إيشي، قائد وحدة 731، قضى بعض الوقت بعد الحرب في ولاية ماريلاند، حيث كان يدرس الأسلحة البيولوجية. نُشرت أوراق بحثية تعتمد على بيانات جمعوها من تجارب على البشر، بما في ذلك الأطفال (وكانت كلمة «قرد» تُستخدم أحيانًا كتغطية لهذا الأمر). ومن المحتمل أن بعض الأوراق الطبية الحديثة ما زالت تحتوي على اقتباسات أو مراجع يمكن تتبعها إلى هذه النتائج، مما يجعلنا جميعًا مستفيدين دون علم من هذه الفظائع.

[يتلاشى صوت القارئ بينما يتداخل صوت محرك الطائرة. تنتقل الكاميرا إلى صور لمتظاهرين متناحرين يلوحون بالأعلام اليابانية والصينية، وبعض الأعلام مشتعلة.

ثم يعود الصوت تدريجيًا].

اعترض العديد داخل اليابان وخارجها على شهادات الأحياء من أعضاء وحدة 731، حيث أشاروا إلى أن هؤلاء الرجال كبار في السن وذاكرتهم ضعيفة، وربما يسعون للحصول على الاهتمام، أو قد يكونوا مصابين بأمراض عقلية، أو أن الشيوعيين الصينيين قد غسلوا أدمغتهم. إن الاعتماد على الشهادات الشفوية وحدها طريقة غير موثوقة لبناء قضية تاريخية قوية.

بالنسبة للصينيين، بدا هذا كأعذار أخرى مشابهة لتلك التي يطلقها منكرو مذبحة نانجينج وغيرها من الفظائع اليابانية.

عامًا بعد عام، صار التاريخ جدارًا عازلًا يزداد قوة بين الشعبين.

[تتحول الكاميرا إلى مجموعة من الصور لإيفان وي وأكيمي كيرينو عبر مراحل حياتهما. في الصور الأولى، يبتسمان للكاميرا. في الصور اللاحقة، يظهر وجه كيرينو متعبًا، مستسلمًا، خاليًا من التعابير. أما وجه وي، فيظهر متحديًا، غاضبًا، ثم مملتئًا باليأس].

إيفان وي، الشاب المتخصص في تاريخ اليابان في عهد هيان كيو من أصل صيني-أمريكي، وأكيمي كيرينو، الفيزيائية التجريبية من أصل ياباني-أمريكي، لم يبدوا كالشخصيات الثورية التي يمكن أن تدفع العالم إلى حافة الحرب. لكن التاريخ له طريقته في السخرية من توقعاتنا.

إذا كانت مسألة نقص الأدلة هي المشكلة، فكان لديهما وسيلة لتوفير أدلة لا يمكن دحضها: يمكنك مشاهدة التاريخ وهو يحدث، كما لو أنك تشاهد مسرحية.

دخلت حكومات العالم في حالة من الهياج. ففي حين كان وي يرسل أقارب ضحايا وحدة 731 إلى الماضي ليكونوا شهودًا على الفظائع التي ارتكبت في غرف العمليات والزنازين في بينجفانج، كانت الصين واليابان تخوضان حربًا مريرة في المحاكم وأمام الكاميرات، حيث تبادلت الحكومتان الاتهامات والمطالبات بشأن المسؤولية عن تلك الجرائم، وحاول كل طرف توجيه الأنظار إلى التاريخ كما يراه هو. وجُرت الولايات المتحدة، بشكل غير طوعي، إلى هذا الصراع، وبسبب اعتبارات الأمن القومي، أوقفت آلة وي عندما كُشف عن خطط للتحقيق في صحة استخدام أمريكا للأسلحة البيولوجية (التي ربما كانت مستمدة من أبحاث وحدة 731) خلال الحرب الكورية.

اصطف الأرمن واليهود والتبتيون والأمريكيون الأصليون والهنود والكيكويو وأحفاد العبيد السود في العالم الجديد وكل مجموعات الضحايا حول العالم، مطالبين بالوصول إلى الجهاز، بعضهم خوفًا من أن يُمحى تاريخهم من قبل القوى المسيطرة، وآخرون رغبة في استخدام تاريخهم لتحقيق مكاسب سياسية في الحاضر. كما أن الدول التي قد دعمت في البداية الجهاز بدأت

تتردد عندما صارت تداعيات هذا الأمر واضحة: هل كان الفرنسيون يرغبون في استعادة فظائع شعبهم والعودة إلى فترة حكم حكومة فيشي أثناء الحرب العالمية الثانية؟ هل أراد الصينيون إعادة خلق الرعب الذي أوجدته ثورتهم الثقافية تحت حكم ماو تسي تونج؟ هل كان البريطانيون يرغبون في رؤية المجازر التي ارتكبتها الإمبراطورية البريطانية في مستعمراتها؟

بسرعة ملحوظة، وقعت الحكومات الديمقراطية والديكتاتورية حول العالم على مرسوم حظر السفر عبر الزمن عندما كانوا يناقشون تفاصيل قواعد تقسيم مسؤولية ما حدث في الماضي. بدا أن الجميع يفضلون تأجيل مواجهة الماضي في الوقت الحالي.

كتب وي: «الهدف المشترك لجميع الكتب التاريخية هو تقديم سرد مترابط لمجموعة من الحقائق التاريخية. لقد كنا عالقين لفترة طويلة في الجدل بشأن الحقائق. السفر عبر الزمن سيجعل الحقيقة في متناول اليد كما لو أننا ننظر من النافذة».

لكن وي لم يساعد قضيته عندما أرسل عددًا كبير من أقارب ضحايا وحدة 731 الصينية عبر آلته، بدلًا من المؤرخين المحترفين، (رغم أنه من العدل أيضًا التساؤل عما إذا كان الوضع سيختلف حقًّا لو كان قد أرسل مؤرخين محترفين. لعل الاتهامات كانت ستظل تُوجه بأن الإفادات كانت مجرد اختراعات للآلة أو أن المؤرخين منحازين لقضيته). على أي حال، فبما أن الإقارب كانوا مراقبين غير مدربين، لم يكونوا شهودًا موثوقين. فشلوا في الإجابة بشكل صحيح على الأسئلة الاستدلالية التي طرحها المشككون. (مثل: «هل كان الأطباء اليابانيون يرتدون زيًّا موحدًا بجيوب على الصدر؟»، أو «كم عدد السجناء في المجمع في ذلك الوقت؟»)، كما أنهم لم يفهموا اللغة اليابانية التي سمعوها أثناء رحلاتهم. كان خطابهم للأسف يعكس في كثير من الأحيان خطاب حكومتهم التي لا يثق فيها الناس. كانت رواياتهم تحتوي على تناقضات بسيطة بين سرد وآخر. علاوة على ذلك، عندما انهاروا عاطفيًّا أمام الكاميرا، أضافت شهاداتهم العاطفية ببساطة إلى الاتهام الموجه من المشككين بأن وي كان أكثر اهتمامًا بالتخلص من المشاعر المكبوتة والمؤلمة من خلال التعبير عنها أو مواجهتها، بدلًا من البحث التاريخي.

أثارت الانتقادات غضب وي. فقد وقعت أفعال وحشية مهولة في بينجفانج، وكان العالم يتناساها عمدًا من خلال التعتيم عليها. وبسبب كراهية

حكومة الصين، كان العالم يتسامح مع إنكار اليابان. أما بالنسبة للجدالات الدائرة بشأن ما إذا كان الأطباء قد شرَّحوا جميع الضحايا أو بعضهم فقط دون استخدام التخدير، وما إذا كان معظم الضحايا من السجناء السياسيين أو القرويين الأبرياء الذين قُبض عليهم أثناء الغارات، أو مجرمين عاديين، وما إذا كان شيرو إشي قائد وحدة 731 على علم باستخدام الأطفال والرضع في التجارب، وما إلى ذلك، بدت له غير مهمة. فلم يرَ أن تركيز السائلين على التفاصيل التافهة مثل زي الأطباء اليابانيين كطريقة لتشويه مصداقية شهوده يستحق الرد عليه.

وأثناء استمراره في الرحلات إلى الماضي، اعترض مؤرخون آخرون رأوا إمكانات واعدة في التكنولوجيا. تبين أن التاريخ كان موردًا محدودًا، وأن كل رحلة من رحلات وي كانت تقتطع جزءًا من الماضي لا يمكن استعادته. كان يثقب الماضي كما لو كان جبنًا سويسريًا. مثلما كان علماء الآثار الأوائل يدمرون مواقع بأكملها أثناء بحثهم عن بعض القطع الأثرية الثمينة، مما أدى إلى ضياع معلومات قيمة عن الماضي، كان وي يدمر التاريخ ذاته الذي كان يحاول إنقاذه.

عندما قفز وي إلى القضبان أمام قطار المترو في بوسطن يوم الجمعة الماضي، كان بلا شك مطاردًا بالماضي. وربما كان يشعر بالإحباط بسبب التأثير غير المقصود الذي أحدثه عمله في دعم قوى الإنكار. فقد حاول إنهاء الجدل التاريخي، لكنه انتهى بإثارة المزيد منه. وعوضًا عن إعطاء صوت لضحايا الظلم المهول، نجح فقط في إسكات بعضهم إلى الأبد.

[تتحدث إلينا الدكتورة كيرينو من أمام قبر إيفان وي. في ضوء شمس مايو الساطع في نيو إنجلاند، جعلتها الظلال الداكنة تحت عينيها تبدو أكبر سنًّا وأكثر ضعفًا].

أكيمي كيرينو:

لقد أخفيت سرًّا واحدًا فقط عن إيفان. في الواقع، اثنين.

الأول هو جدي. لقد توفي قبل أن ألتقي بإيفان. لم آخذ إيفان لزيارة قبره الذي في كاليفورنيا. قلت له ببساطة إنه شيء لا أرغب في مشاركته معه، ولم أخبره قط باسمه.

الثاني هو رحلة ذهبت فيها إلى الماضي، الوحيدة التي ذهبت إليها شخصيًّا. كنا في بينجفانج في ذلك الوقت، وذهبت إلى 9 يوليو 1941. كنت أعرف طريقي في المكان جيدًا من الوصف والخرائط، وتجنبت الزنازين والمختبرات. ذهبت إلى المبنى الذي كان يضم مركز القيادة.

تجولت حتى عثرت على مكتب مدير دراسات علم الأمراض. وجدت المدير بداخله. كان رجلًا طويلًا ونحيفًا، وقامته مستقيمة للغاية. كان يكتب رسالة، وكان عمره ثلاثين عامًا، وهو عمري نفسه في ذلك الوقت.

نظرت من فوق كتفه على الرسالة التي كان يكتبها. كان خطه جميلًا للغاية.

لقد تأقلمت أخيرًا مع روتين عملي، والأمور تسير على ما يرام. مانشوكو مكان رائع الجمال. حقول الذرة الرفيعة تمتد إلى ما لا نهاية مثل المحيط. الباعة هنا يصنعون التوفو الطازج من فول الصويا، ورائحته لذيذة. ليس بنفس جودة التوفو الياباني، لكن ما زال طعمه ممتازًا.

سوف تحبين هاربين. فالآن بعد رحيل الروس، صارت شوارع هاربين مزيجًا متناغمًا من الأعراق الخمسة: الصينيين، والمنشوريين، والمغول، والكوريين، الذين ينحنون عندما يمر جنودنا المستعمرين اليابانيين الأعزاء، ممتنين للتحرير والثروة التي جلبناها لهذه الأرض الجميلة. لقد استغرق الأمر عقدًا من الزمن لتهدئة هذا المكان والقضاء على عصابات الشيوعيين، الذين صاروا مجرد إزعاج طفيف بين الحين والآخر. معظم الصينيين هنا هادئون وآمنون جدًّا.

لكن كل ما يشغل تفكيري هذه الأيام عندما لا أكون مشغولًا بالعمل هو أنت وناوكو. إننا مفترقان من أجلها. من أجلها ومن أجل جيلها نقدم تضحياتنا. أشعر بالحزن لأنني لن أحضر عيد ميلادها الأول، لكن قلبي يفرح لرؤية ازدهار «مجال الازدهار

المشترك لشرق آسيا الكبرى» في هذه المنطقة النائية ولكن الغنية. هنا، نشعر حقًّا بأن اليابان هي نور آسيا ومخلصتها.

ابتسمي يا عزيزتي، وكوني متفائلة. كل تضحياتنا اليوم ستؤدي إلى اليوم الذي ترى فيه ناوكو وأطفالها آسيا تأخذ مكانها المستحق في العالم، محررة من القتلة واللصوص الأوروبيين الذين يلوثونها ويدنسون جمالها. سنحتفل معًا حين نتمكن أخيرًا من طرد البريطانيين من هونج كونج وسنغافورة.

بحر أحمر من الذرة الرفيعة

أوعية عطرة من فول الصويا المهروس

لا أرى سواك

وسواها، كنزنا

فقط، لو كنتِ هنا الآن.

لم تكن هذه المرة الأولى التي أقرأ فيها هذه الرسالة. فقد رأيتها من قبل عندما كنت صغيرة. كانت من ممتلكات أمي الغالية، وأتذكر أنني طلبت منها أن تشرح لي معنى جميع الحروف الباهتة التي كانت فيها.

قالت أمي: «كان فخورًا جدًّا بمعرفته الأدبية. وكان دائمًا يختتم رسائله بشعر بأسلوب تانكا».

حينها، كان جدي قد بدأ يعاني من الخرف بشكل متقدم، وكان في كثير من الأحيان يخلط بيني وبين أمي، فيناديني باسمها.

كان يعلمني أيضًا كيفية عمل حيوانات الأورجامي. كانت أصابعه ماهرة جدًّا، وهو إرث كونه جراحًا ماهرًا.

راقبت جدي وهو ينتهي من كتابة رسالته ويطويها. تبعته خارج المكتب إلى مختبره. كان يستعد لتجربة، ودفتر ملاحظاته وأدواته مرتبة بعناية على طاولة العمل.

نادى جدي أحد مساعديه الطبيين، وطلب منه إحضار شيء للتجربة. عاد المساعدون بعد نحو عشر دقائق، يحملون فوضى دموية على صينية، بدا كطبق من التوفو الساخن. كان دماغًا بشريًا، ولا يزال دافئًا جدًّا بعد أن أُخرج للتو من الجسم الذي أُخذ منه حتى أنني رأيت الحرارة تتصاعد منه.

قال جدي وهو يومئ برأسه: «جيد جدًا. طازج جدًّا. سيكون هذا مناسبًا».

أكيمي كيرينو:

لقد مرت لحظات تمنيت فيها لو أن إيفان لم يكن صينيًّا، كما مرت لحظات تمنيت فيها لو أنني لم أكن يابانية. لكن هذه لحظات ضعف عابرة. لا أعنيها حقًّا. نحن نولد بين تيارات قوية من التاريخ، ونصيبنا هو أن نسبح أو نغرق، لا أن نشتكي من حظنا.

بعد أن صرت أمريكية، قال لي الناس إن أمريكا تعني ترك الماضي وراءك. لم أفهم ذلك قط. فلا يمكننا ترك ماضينا وراءنا مثلما لا يمكن أن ننسلخ عن جلودنا.

الاندفاع القسري نحو التعمق في الماضي، والتحدث باسم الموتى، لإحياء قصصهم: هذا جزء من كينونة إيفان، وسبب حبي له. وبالمثل، جدي هو جزء من كينونتي، وما فعله، فعله باسم والدتي وباسمنا جميعًا، أنا مسؤولة عن خطاياه، بالطريقة نفسها التي أفتخر فيها بإرث شعب عظيم، شعب ارتكب في زمن جدي شرورًا عظيمة.

في وقت استثنائي، واجه خيارات استثنائية، وقد يقول البعض إن هذا يعني أننا لا نستطيع أن نحكم عليه. لكن كيف يمكننا حقًّا الحكم على أي شخص إلا في أكثر الظروف استثنائية؟

من السهل أن تكون متحضرًا وتظهر بمظهر لائق في الأوقات الهادئة، لكن شخصيتك الحقيقية لا تظهر إلا في الظلام وتحت وطأة ضغط شديد: هل أنت ماسة أم محض كتلة من الفحم الأسود؟

مع ذلك، لم يكن جدي وحشًا. بل كان ببساطة رجلًا ذا شجاعة أخلاقية عادية، وقد ظهرت قدرته على ارتكاب الشر العظيم لتجلب العار عليه وعلى نفسي مدى الحياة. تصنيف شخص ما أنه وحش يعني أنه من عالم آخر، عالم لا علاقة له بنا. هذا التصنيف يُفقدنا القدرة على فهمه كإنسان، ويفصلنا

عنه عاطفيًا ويمنحنا شعورًا زائفًا بالتفوق. وبدلًا من أن نتعلم من المواقف أو نكتسب أي حكمة، يصير الأمر مجرد تبسيط للواقع. هذا التصنيف يجعلنا نختبئ وراء مواقفنا بدلًا من مواجهة الحقيقة، مما يعكس جبنًا وعدم استعداد للتعامل مع تعقيدات الإنسانية. الآن أعلم أن فقط من خلال التعاطف مع رجل مثل جدي، يمكننا أن نفهم عمق المعاناة التي تسبب فيها. لا وجود للوحوش. الوحش هو نحن.

لماذا لم أحكِ لإيفان عن جدي؟ لا أعلم. أظن أنني كنت جبانة. خشيت أن يستشعر شيئًا ملوثًا بداخلي، فسادًا في دمي. لأنني لم أتمكن حينها من إيجاد طريقة للتعاطف مع جدي، خشيت ألا يتمكن إيفان من التعاطف معي. احتفظت بقصة جدي لنفسي، وبذلك أخفيت جزءًا من نفسي عن زوجي. مرت أوقات ظننت فيها أنني سأذهب إلى القبر مع سري، وبالتالي أمحو قصة جدي إلى الأبد.

أندم على ذلك الآن، بعدما مات إيفان. كان يستحق أن يعرف زوجته بالكامل، كما هي، وكان يجب أن أثق به بدلًا من أن أصمت وأخفي قصة جدي، التي هي أيضًا قصتي. توفي إيفان وهو يظن أن اكتشاف المزيد من القصص جعل الناس يشكون في حقيقتها. لكنه كان مخطئًا. الحقيقة ليست هشة ولا تتأثر بالإنكار، الحقيقة لا تموت إلا عندما لا تُروى القصص الحقيقية.

هذه الرغبة في الحكي، في سرد القصة، أشاركها مع أعضاء الوحدة 731 المتقدمين في السن والذين على وشك الموت، ومع أبناء ضحاياهم، ومع كل الأهوال التي لم تُحكَ في التاريخ. صمت ضحايا الماضي يفرض على الحاضر واجبًا لاسترجاع أصواتهم، ونحن نتحرر عندما نأخذ هذا الواجب على عاتقنا عن طيب خاطر.

[يأتي إلينا صوت الدكتورة كيرينو، بينما تتحرك الكاميرا نحو السماء المرصعة بالنجوم].

مر عقد كامل على وفاة إيفان، وما زال حظر السفر عبر الزمن ساريًا. ما زلنا لا نعرف تمامًا ما علينا أن نفعله بماضٍ صار في متناول الجميع بشكل شفاف، ماضٍ لا يمكن أن يُسكت أو يُنسى. في الوقت الحالي، نحن في حالة تردد.

مات إيفان وهو يظن أنه ضحى بذكرى ضحايا الوحدة 731 وطمس الآثار التي خلفتها حقيقتهم في عالمنا إلى الأبد، وأن كل ذلك كان عبثًا، لكنه كان مخطئًا. لقد نسي أنه حتى بعد اختفاء جزيئات بوم-كيرينو، فإن الفوتونات الفعلية التي تشكل الصور لتلك اللحظات من المعاناة التي لا تُحتمل والبطولة الصامتة ما زالت هناك، تسافر ككرة من الضوء إلى فراغ الفضاء.

انظروا إلى النجوم، وستجدون أنكم محاطون بالضوء الذي ولد في اليوم الذي مات فيه آخر ضحية في بينجفانج، في اليوم الذي وصل فيه آخر قطار إلى أوشفيتز، في اليوم الذي خرج فيه آخر شيروكي من جورجيا. ونحن نعلم أن سكان تلك العوالم البعيدة، إذا كانوا يراقبون، فسيرون تلك اللحظات، مع مرور الوقت، وهي تتدفق من هنا إلى هناك بسرعة الضوء. ليس من الممكن التقاط كل تلك الفوتونات، أو مسح كل تلك الصور. إنها سجلنا الدائم، شهادة وجودنا، والقصة التي نرويها للمستقبل. في كل لحظة نسير فيها على هذه الأرض، نكون مراقبين ومُقيمين من قبل عيون الكون.

لطالما تصرف المؤرخون، وجميعنا، كأننا مستغلون للموتى. لكن الماضي ليس ميتًا. إنه معنا. في كل مكان نذهب إليه، نحن محاطون بحقول من جزيئات بوم-كيرينو التي ستتيح لنا رؤية الماضي كما لو كنا ننظر من خلال نافذة. معاناة الموتى معنا، وصرخاتهم في آذاننا وأشباحهم تسير بيننا. لا يمكننا أن نغض الطرف أو نسد آذاننا. يجب أن نكون شهودًا ونتحدث نيابة عن أولئك الذين لا يستطيعون الكلام. لدينا فرصة واحدة فقط لفعل ذلك بشكل صحيح.

***

ملاحظات المؤلف: هذه القصة مخصصة لذكرى آيريس تشانج وجميع ضحايا وحدة 731.

لقد جاءتني فكرة كتابة القصة على شكل فيلم وثائقي بعد قراءتي لـ«أن تحب ما تراه: وثائقي» (Liking What You See: a Documentary) للكاتب تيد تشيانج.

أُطلع على المصادر التالية خلال البحث من أجل كتابة هذه القصة. نُعرب عن امتناننا للمساعدة التي قدموها، رغم أن أي أخطاء في نقل الحقائق والأفكار هي مسؤولية الكاتب بالكامل.

بالنسبة لعبارة «مستغلو الموتى» (exploiters of the dead) وتاريخ هيان واليابان ما قبل الحديثة:

توتمان، كونراد. تاريخ اليابان، الطبعة الثانية. مالدن، ماساتشوستس: بلاكويل للنشر، 2005.

Totman, Conrad. A History of Japan, Second Edition.) (.Malden, MA: Blackwell Publishing, 2005

بالنسبة لتاريخ وحدة 731 والتجارب التي أُجريت من قبل أفراد وحدة 731:

جولد، هال. شهادة وحدة 731. طوكيو: نشر تاتل، 1996.

(Gold, Hal. Unit 731 Testimony, Tokyo: Tuttle Publishing, 1996)

هاريس، شيلدون هـ. مصانع الموت: الحرب البيولوجية اليابانية 1932-1945 والتغطية الأمريكية، نيويورك: روتليدج، 1994.

Harris, Sheldon H. Factories of Death: Japanese Biological) Warfare 1932–45 and the American Cover-Up, New York: (.Routledge, 1994

(تم أيضًا الرجوع إلى العديد من المقالات الصحفية والدوريات والمقابلات والتحليلات. ومن بين مؤلفيها، كان هناك كيتشي تسونيشي، دوج سترك، كريستوفر ريد، ريتشارد لويد باري، كريستوفر هادسون، مارك سيمكين، فريدريك ديكنسون، جون دوير، توارا يوشيفومي، يوكي تانكا، تاكاشي

تسوتشيا، تيان-وي وو، شين جرين، فريدريش فريشكنيخت، نيكولاس كريستوف، جون هونجو، ريتشارد جيمس هافيس، إدوارد كودي، وجوديث ميلر. أشكر هؤلاء المؤلفين وأندم لأن المصادر لم تُذكر هنا بشكل فردي لأسباب تتعلق بالمساحة).

لوصف التشريح الحي وجلسات الجراحة التدريبية مع الضحايا الصينيين الأحياء التي أجراها الأطباء اليابانيون، ومعاملتهم كسجناء بعد الحرب، واستجابات اليابان لما بعد الحرب لذكريات الحرب:

نودا، ماساكي. «الفظائع اليابانية في حرب المحيط الهادئ: شهادة أحد الجراحين العسكريين عن التشريح الحي على الضحايا البشريين في الصين»، شرق آسيا: ربع سنوي دولي، 18:3 (2000) 49-91.

(Japanese Atrocities in the Pacific War: One Army Surgeon's Account of Vivisection on Human Subjects in China,) East Asia: An International Quarterly, 18:3 (2000) 49–91.

لاحظ أنه استنادًا إلى الشهادات والوثائق الأخرى، كان الأطباء اليابانيون في وحدة 731 غالبًا ما يحقنون ضحاياهم أثناء ارتدائهم بدلات واقية لتجنب احتمال إصابة الأطباء من قبل الأسرى المقاومين أثناء النضال.

أجزاء من ذكريات شيرو ياماجاتا بعد وحدة 731 مستوحاة من تجارب كين يواسا (وهو طبيب عسكري ياباني لم يكن عضوًا في وحدة 731)، كما هو موضح في مقال نودا.

نعي إيفان وي مستوحى من نعي صحيفة الإيكونوميست في 25 نوفمبر 2004 لأيريس تشانج.

جلسة الاستماع للجنة الفرعية المعنية بشؤون آسيا والمحيط الهادئ والبيئة العالمية مستوحاة من جلسة الاستماع التي عقدت في 15 فبراير 2007 أمام اللجنة الفرعية نفسها بشأن قرار مجلس النواب 121، الذي يتعلق بالاستعباد الحربي للنساء من قبل اليابان لأغراض جنسية (المعروفات بـ «نساء الراحة»).

قدم أوستين يودر صورًا من بينجفانج الحديثة، ومدينة هاربين، ومتحف جرائم الحرب لوحدة 731.

التصريحات الاستنكارية المنسوبة إلى «رجال الشارع» (men in the street) مستوحاة من تعليقات في منتديات الإنترنت، ومنشورات على وسائل التواصل الاجتماعي، والتواصل المباشر مع المؤلف من الأفراد الذين لديهم مثل هذه الآراء.

شكر وإهداء

إلى أختي سمر لصوتها الدافئ وكلماتها المطمئِنة ومكالماتنا المطولة للتهدئة من روعي، ولصبرها الطويل على يأسي أحيانًا، وغضبي في أحيان أخرى، وعلى قدرتها العظيمة في إذابة كل هذا.

وإلى عمور الأمور الذي لولاه ولولا دفعته الأولى لي وتشجيعي، لما انتهيت من ترجمة هذا الكتاب في الوقت المناسب.

وإلى قمر الزمان، صديق العمر، على وجوده ودعمه دائمًا وكفى.

وإلى عزيزي علاء أمين الذي يحمل نصيبًا من اسمه ويجود به على من يجواره، فيزيده علاءً ورِفعة ويدفعه نحو الأمانة والصدق والثقة. لولاك لما وجدت نفسي وشغفي واندفعت نحوهما بقوة.

وإلى حظي السعيد الذي أتاح لي الفرصة لترجمة هذا الكتاب، ليكون أول كتاب يحمل اسمي كمترجمة، بعد جهد مُضنٍ في عديد من الكتب التي لم تسمح لي بذلك. لقد أحيا هذا الكتاب شغفي بالترجمة، وأثار بداخلي شغفًا جديدًا ومفاجئًا بالثقافة الصينية. لقد أبكاني وأذهل عقلي وترك في قلبي أثرًا لن يزول.

سلمى

حديقة الحيوانات الورقية وقصص أخرى

"قد يبدو ما سأقوله مبالغة، لكن عندما أقرأ قصص كين ليو، أشعر بأنني أمام موهبة فذة لا تتكرر إلا مرة كل جيل. لقد تركت أعماله بصمة عميقة في نفسي".

- جيمي فورد، مؤلف كتاب Hotel on the Corner of Bitter and Sweet

"تُبرز هذه القصص الاستثنائية أفكار ليو عن العائلة والحب والسياسة، وعند جمعها في مجموعة واحدة، تنسج لنا تجربة أدبية مثيرة. أولئك الذين يقدرون الغوص بأفكارهم في الأعمال الخيالية القصيرة سيرغبون بالتأكيد في اقتناء هذا الكتاب".

- Journal

"تستكشف قصص ليو الساحرة ببلاغة المكان الذي يلتقي فيه العاديُّ الاستثنائيَّ".

- Washington Post

"يجمع كتاب ليو قصصًا مذهلة مكتوبة بأساليب مختلفة ومتداخلة. هي مجموعة باهرة من السرديات التي تأسر القارئ بعمق، والشخصيات التي تواجه معضلات أخلاقية قاسية ومؤلمة في إطار إنساني لا يمكن الإغفال عنه".

- The Journal Sentinel



كين ليو

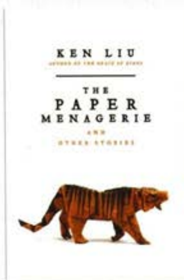
يتـــميز كين ليــو بموهبــة متعددة الأوجـــه، فهـــو كاتــب وروائـــــي ومترجــم حائز عدةَ جوائــز. وهو أحد المؤلفين الأكثر تقديرًا في مجـــال الأدب الأمـــريكي. فــاز بجوائز نيبولا وهوجــو وعالم الفانتازيــا، بالإضافة إلى جائــزة ســايدويز أووردز وجائزة ترجمــة الخيال العلمــي والفانتازيا، كما رُشــح لجائـــزتي ستورجـــيون ولــوكاس. تــرك بصمــة واضحة في عالم الخيــال العلمـــي والفانتازيا، لا ســيما بقصتــه القــصيرة "حديقة الحيوانات الورقيــة" وهي أول عمل أدبي يفــوز بجوائــز نيبــولا وهوجو وعــالم الفانتازيا في العام نفســه. كما ترجــم رواية مشــكلة الأجســام الثلاثــة، الحائــزة جائــزةَ هوجو عام 2015، وهي أول عمــل مترجم يفوز بجائزة هوجو على الإطلاق.

حديقة الحيوانات الورقية

وقصص أخرى

سرعـــان ما صـــار كين ليو صوتًا مميــزًا بين كتّـــاب جيله في عـــالم رواة القصص، متميــزًا بأصالتــه وأفــكاره المــثيرة للتســاؤلات. وتشــهد هــذه المجموعــة القصصية المفجعة بقدر ما هي ساحرة على براعته في السرد.

في القصـــة الرئيســـية "حديقـــة الحيوانـــات الورقيـــة"، يفقـــد طفـــلٌ الاتصال بحديقتـــه الســـحرية التي صنعتها لـــه والدته، لكنـــه يدرك لاحقًا كبالـــغ أن الحب ليس له حـــدود. وفي قصة "نســـخة مـــن الواقع"، تتدمـــر علاقة ابنـــة بوالدها المـــخترع العظيم للواقـــع المعزز بســـبب التكنولوجيـــا التي كانـــت تهدف إلى تقريب المســـافات بينـــهما، لكنهـــا أدت في النهاية إلى انفصالـــهما بلا رجعة. وفي مواجهـــة فنـــاء ثقافتـــه، يبحث الشـــاب في قصـــة "جمالية الـــزوال" عن سلامـــه الـــداخلي في عالم الذكريـــات. بينما يســـعى زوجان في قصـــة "الرجل الـــذي أنهى التاريـــخ" إلى سرد حكايا أولئك الذين سُـــلبت منهم أصواتهم في أثنـــاء استكشـــافهما للفظائـــع الخفية للحـــرب العالميـــة الثانيـــة. وفي قصة "للحـــب طـــرق كـــثيرة، وهـــذه طريقتـــي"، يجـــب على زوجين تفصـــل بينـــهما مســـافات شاســـعة، أن يســـتحضرا لابنتـــهما عـــدة طرق يمكن للحب أن يتجسد بها.



بأســـلوبه المؤثـــر، يعكـــس كين ليـــو صراع الهويـــة بين جـــذوره الصينيـــة وواقعه الأمـــريكي، مســـتحضرًا بعمق مشـــاعر الاغتراب والبحث عن الـــذات والحاجة الملحة إلى الانـــتماء في عـــالم لا يتوقف عـــن التغيير. واســـتطاع أن يبرز الســـحر الكامن في التفاصيـــل العادية بطرق عميقة ومؤثرة.

غـــلاف: محمود هشام

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb



